UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190813

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—880—5-8-74—10,000

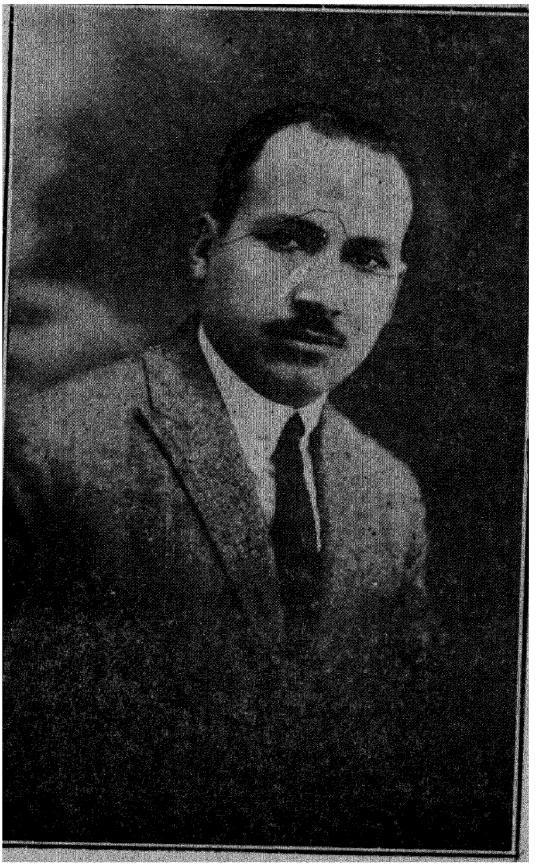
OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. A 892.7421 Accession No. Ar. 8939

Author ابو العلاء المعرّي

Title رسالة الغفران، الجزء الاول

This book should be returned on or before the date last marked below.



کامل کیلانی

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف

ابي العلاء المعري

الجزء الاول

الغفران

كوميديا الهية مسرحها الجنة والنار

نوحاء من أهل الملى محبر ... سألت عن قوم وأرخت ·
هل طار الجنة عمالها ؟ ... وهل ثوى في النار « بوحت »
ابو العلاء

ايجاز وشرح

كامل كيلاني

بالاوقاف

الطبعة الثانية

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة للشارح

المطبعة التجارية الكبرى
جاء بها لحضرة صاحبها

محتويات الكتاب

الجزء الاول

مقدمة الاستاذ الدكتور طه حسين

« « محمد فريد وجدي بك

« شارح الكتاب

رواية الغفران

الفهرست

الجزء الثانى

الرد على رسالة ابن القارح

الجزء الثالث

رسالة ابن القارح

رسالة الملائكة

دراسات فى رسالة الغفران

رسائل الحيوان

فهرس الجزء الثانى

فهرس الجزء الثالث

مقدّمة

بقلم الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين

أعود اليوم الى الكتابة عن أبي العلاء بعد عشر سنين مضت على درسى له وكتابتى عنه ، وأشعر بأن ذلك الدرس وتلك الكتابة محتاجان الى شيء كثير جدا من الإصلاح والتنقيح ومن الاضافة والتفصيل ، ولكنى أعترف أيضا بأن رأيى فى الرجل لم يتغير ، بل بأنى كلما قرأت أبا العلاء ازددت يقينا برأيى فيه وحكمى عليه وتحققت أن كثيراً من نواحيه الأدبية والفلسفية قد فاتتنى أو عميت على حين كنت أقرؤه منذ عشر سنين ، وان رجلا واحداً مهما يكن قويا ماهراً فى البحث متقنا له إن يستطيع أن يتفهم وحده أبا العلاء ويظهر الناس على دخيلة نفسه وعلى وجوه مذاهبه فى الأدب والفلسفة وغيرهما من فروع الحياة المختلفة للعقل والشعور .

ليس ذلك بالشيء اليسير لرجل واحد ، بل لا بد من أن يتعاون عليه رجال مختلفون كلهم قوى فى مادة من مواد العلم وكلهم ماهر فى منهج من مناهج البحث .

يجب أن يفرغ الأدباء المجودون لأدب أبى العلاء ، ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبى العلاء ، ويجب أن يتقسم الأدباء فيما بينهم أدب أبي العلاء ، فيفرغ قوم لشعره العادى ، وآخرون لشعره الفلسفى ،

ويفرغ قوم لنثره العادى وآخرون لنثره الفلسفى. ويجب أن يتقسم الفلاسفة فلسفة أبي العلاء فيفرغ قوم لفلسفته الدينية ، وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية والاجتماعية ، وآخرون لفلسفته الطبيعية وهلم جرًّا ...

ثم يجب أن يفرغ علماء النحو واللغة لعلم أبى العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما ، وعلى هذه القاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس أبى العلاء الى نتائج — ان لم تكن مقنعة مزيلة للشك — فهى مرضية مشجعة على الأمل .

ولست أدرى أيُتاحُ لابى العلاء نفرٌ مَن الأدباء والعلماء والفلاسفة يفرغون لدرس أدبه وعلمه وفلسفته على هذا الوجه الذى أشرت اليه ؟ ولكني أعلم أن هناك شيئا أغتبط به وأظن أن الذين يحبون أبا العلاء سيغتبطون به أيضا ، وهو أن الناس قد بدؤا يعنون بأدب أبى العلاء عناية جديدة قيمة لم يكن لهم بها عهد قبل هذا العصر الذى نحن فيه . بدؤا يقرءونه ويتفهمونه ويتساءلون عن آرائه وأغراضه ووجه الصواب فى فلسفته ، وبدؤا يستبقون الى كل ما يكتب عنه ويقال فيه ، فهم ظمئون حقا الى درس أبي العلاء وفهمه . واذا أحس الجمهور حاجة من الحاجات العقلية فهو واجد اليوم أو غدا أو بعد غد من الباحثين من يرضى هذه الحاجة ويشفيها . وقد بدأ الجمهور الظمأ الى فهم أبى العلاء يجد من ينقع غلته ويرضى حاجته ويعينه على فهم أبى العلاء ، فأخذ كتّابٌ يدرسون الرجل وينشرون آراءه ويتفقهون تفسيره وتحليله ، والخير كل الخير أن بعض الكتاب والباحثين أخذوا يدرسونه على الوجه المنتج النافع فلا

يتناولونه من كل وجه ، ولا يعمدون اليه من كل ناحية ولا يطمعون فى أن يدرسوه كله أو يفسروه كله ، وإنما يتناولون وجها واحداً من وجوهه ونحواً واحداً من أنحائه فيدرسونه الدرس المفصل الجديد ويخرجون نتيجة هذا الدرس للناس سهلة سائغة بل محببة لذيذة .

* * *

أكتب هذا وبين يدى طبعة لرسالة الغفران اذاعها كامل افندى كيلانى منذ حين ، أكتبه وأنا أعلم أن هذه الطبعة قد ذاعت واستبق اليها الناس استباقا لم يكن منتظرا ولا مرجوا ، فأغتبط للطبعة نفسها وعناية كامل افندى بها ، ثم أغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد وهذه العناية ، ثم أغتبط لأن روح أبى العلاء وفلسفته ومناهجه فى الفهم والتفكير ، قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربى ، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين ، وسيعرف الناس بعد حين أبا العلاء ، وسيتعاونون على فهمه ، وستنشأ فى هذا الشرق العربى — حول اسم أبى العلاء وآثاره — الجماعات الأدبية والفلسفية ، على نحو هذه الجماعات التى تنشأ فى أوروبا حول أسماء النابغين وآثارهم .

أغتبط بهذا كله ، وأنتظر آثاره ونتائجه .

* * *

على أنى لم أتعود الاسراف فى المدح ، ولا أريد أن أعوّد الناس منى هذه الخصلة ، وإنما تعودت القسوة فى النقد وتعوّدها الناس منى ، ولست

أخالف هذه العادة فى هذه الكلمة .

فأنا أثنى على هذه الطبعة التي قرأتها ، ولكنى لا أطلق الثناء إطلاقا ولا أرسله إلى غير حد ، وإنما أريد أن اعرّف لصديقى كامل افندى عمله وعنايته ـ دون مبالغة ولا إسراف ـ وأحسبه لا يطمع منى فى مبالغة ولا إسراف ، فهو لم يذع من رسالة الغفران طبعة علمية نقدية على نحو ما يذيع العلماء الأوربيون من آثار القدماء ـ وإن كان قد مهّد لذلك تمهيدا حسنا بما تراه فى الجزء الثانى ـ وإنما قصد إلى شىء آخر يخالفه كل المخالفة

***

أراد أن يخدم أبا العلاء فيذيع آراءه ، وأراد أن يخدم هذا الجيل فيظهره على آراء ابى العلاء . وليس هذا بالشىء الهين . فليس فهم ابى العلاء مقدوراً لمن احسن القراءة والكتابة ، وليس فهم ابى العلاء مقدوراً لمن ألم بأطراف من النحو والأدب والفلسفة . وإنما فهم ابى العلاء مقدور ـ فى عسر وشدة ـ لمن أتقنوا ادب العرب وفلسفتهم وألموا بمناهج البحث الحديث

وهؤلاء ليسوا كثيرين فى الشرق العربي ، ولعل إحصاءهم أيسر شىء . قليلون هم جداً . لا يستحقون أن تعنى بهم عناية تكلفك الوقت والقوة والمال ، فأنت واثق بأن عملك ـ على نفعه وجلال خطره ـ لن ينتهى الى ما تريد من خير ، ولو أنك أردت أن تعنى بهؤلاء فتدرس لهم درسا علميا دقيقا صحيحا لكان من الحق عليك أن تتجنب الطبعات المستقلة التى تكلفك مالا ـ لن يردّ اليك ـ وأن تكتفى بالمحاضرات يشهدها نفر

قليل ، أو بمقالات تنشرها فيما يُسَمونه المَجَلّاتِ والصحف الدورية وأنت نثق بأن قُرّاءَها لن يتجاوزوا عدد أصابع اليد

* * *

لم يعن كامل افندى بهؤلاء . وإنما عنى بغيرهم من المستنيرين فى الشرق العربى . وهم كثيرون تختلف حظوظهم من العلم واتقانه ، ولكنهم يشتركون جميعا فى العجز عن فهم أبي العلاء . إذا لم تُسهّل لهم تسهيلا ويُيَسَّرْ لهم تيسيراً . ولا سيما رسالة الغفران هذه . فلست أعرف فى الاداب العربية كلها (لا أستثنى من ذلك شيئا) أثرا يعد لها ثروة وحصبا وفلسفة ، كما أني لست أعرف فى الآداب العربية كلها أثرا يعدلها صعوبة وعسرا وغموضا ، هى كنز نفيس . ولكن تامت دونه ألوان الصعوبات وضروب المشاقّ التى لا حد لها . وأنا أزعم أن الذين استطيعون أن يبدؤا قراءة هذا الكتاب ثم استطيعون أن يمضوا فيه الى تمامه أو نصفه قليلون جدا .

ذلك أن أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس إيثارا للغريب وتهالكا عليه . ثم كان أبو العلاء إلى هذا — فيما أعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ايصد عامة الناس وجهالهم (سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء) عن قراءته والظهور على ما فيه وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألاّ يكتب له . وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه وللعصور التى ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بينه وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض

والقافية طلاسم وأرصادا شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا اليه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين

* * *

وإلا فكيف تستطيع أن تفسر هذا الاغراب الذى لم يكن يدعو اليه شىء الا خصلة واحدة ـ أبو العلاء أبعد الناس عنها وأقلهم منها حظا ـ وهى خصلة الغرور والإعجاب بالنفس؟ نعم ، الرجل المغرور وحده ، الرجل الذى يريد أن يظهر الناس على أنه أعلمهم باللغة وأرواهم للغريب وأحفظهم للنادرة وأفقههم بضروب العلم ، هذا الرجل وحده ينكلف ما تكلفه أبو العلاء من الاغراب . والاسراف فى الاغراب . ونحن نعلم علما ـ لا شك فيه ـ أن أبا العلاء كان أشد الناس تواضعا وأعظمهم زهدا فى ثنا وأقلهم حظا من غرور

* * *

فهو إذن لم يرد أن يثنى عليه ابن القارح ، ولا أمثال ابن القارح . بما فى هذه الرسالة من علم وأدب ومن غريب ونادرة . وأحسب (استغفر الله) بل أثق بأن أبا العلاء إنما أراد أن يسخر من ابن القارح وأمثال ابن القارح . وأن يلهيهم عن نفسه ورأيه وفلسفته بما كانوا يتهالكون عليه من نحو وصرف وعروض وقافية وغريب ونادرة ودين ، فحشى لهم الرسالة حشوا من هذا كله ، ولكن دون هذا كله ما لم نفقهه

القوم ولم يفطنوا له ، ولو فقهوه وفطنوا له لكان لأبى العلاء شأن غير شأنه ولكان لهم شأن غير شأنهم أيضا

* * *

نعم مر أبو العلاء فى عصره ولم يفهم الناس منه شيئاً ، فهموا قشره وجهلوا لبه ، فهموا منه ما كانوا يفهمون من ابن خالويه وأبي على الفارسى وغيرهما من الرواة والنحويين ، فهموا منه اللغة والأدب والنحو وما يتصل بذلك ، ولم يفهموا شيئاً آخر .

أليس عجيباً أن الذين كانوا يقرءون اللزوميات ويروونها ، إنما كان يعجبهم منها ما فيها من غريب وإغراب ؟ ولولا أبيات فيها صريحة لاتحتاج الى تأويل ، لما التفت أحد إلى أن للرجل آراء فى الفلسفة أو فى الدين .

أليس غريباً أن كتابا كرسالة الغفران ينشر أيام أبى العلاء ، فلا يحدث ثورة فى الرأي ولا اضطرابا فى العقيدة ، بل ولا حركة فى الأدب : وإنما يتلقاه الناس على أنه أثر من هذه الآثار اللفظية ، فيه غريب وسجع ورواية وما يشبه ذلك مما كانوا يحبون ويألفون ؟

* * *

قلت ، وما زلت أقول ، إن أبا العلاء لم يكتب لعصره وإنما سخر من عصره وازدراه ، وان عصره لم يفهمه ولم يشعر به ، وإنما رأى فيه عالما من العلماء واستاذاً من الأساتذة لا أكثر ولا أقل

فأما الذين كتب لهم أن يفهموا أبا العلاء ويقدروه فهم أهل هذا الجيل ، والذين سيأتون من بعدهم

* * *

وكيف يستطيع أهل هذا الجيل أن يفهموا أبا العلاء، اذا لم يعمد القادرون إلى هـذه الطلاسم والارصاد فيزيلوها كلها أو بعضها ؟ فأهل هذا الجيل ـ مع الأسف الشديد ـ لم يدرسوا رؤبة ولا العجاج ولا أمثالهما وهم ضعاف كل الضعف اذا عرضت لهم هذه الألفاظ التى اعتادها أبو العلاء، فكيف إذا عرضت لهم هذه الألفاظ التى تكلفها ؟

لم يكن بد أن تنشر عليهم من رسالة الغفران صـورة سهلة سائغة، وهى التى نشرها كامل افندى، فلم يكره أن ينالها بشىء من الحذف والاقتضاب لا يغير أغراضها ولا يؤثر فى أصلها ولا فى صورتها، وانما يزيل عنها بعض هذه الطلاسم والأرصاد التى أشرت اليها : وهو إن ساء طائفة النقاد الاخصائيين فى البحث اللغوى والأدبي، فلا أشـك فى أنه يسر غيرهم من جمهور المتأدبين والمستنيرين .

ولكن ما رسالة الغفران هذه ؟

لقد حدثتك عنها كثيراً ـ دون أن ألم بها الماماً ـ وكيف أستطيع أن ألم بها ـ وهى فى حاجة إلى كتاب خاص يفرد لها إفراداً ؟

رسالة الغفران هي آية الأدب العربي المنثور، لا من حيث أنها آية فى البلاغة أو الفصاحة اللفظية، ولا من حيث أنها مثل ينبغى أن يحتذيه الكتاب ويتأثره المقلدون، ليس حظها من هذا كله عظيما : بل أنا أكره أن يكتب الناس اليوم كما كتب أبو العلاء فى رسالة الغفران، وهى ـ مع ذلك كله ـ آية الأدب العربى، لا أستثنى منه شيئاً، لا أستثنى منه شعرا

ولا نثرا ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئاً ما .

هى آية الأدب العربى ، كما أن صاحبها آية كتاب العرب ، هى آية التفكير العربي ، هى آية الخيال العربى ، هى آية السخرية العربيـة ، هى آية الحرية العربية ، هى آية العرب فى هذا كله .

لا أغلو فى ذلك ولا أسرف ، بل أعترف بأنى دون ما أريد .

* * *

شبهها قوم بحديث « دانت » وربما وفقوا فى هذا التشبيه ، وزعم قوم أن « دانت » تأثر بها فى حديثه ، ولعلهم قاربوا الصواب فى هـذا الزعم ، ولكن هذا كله لا يعنينى الآن . وانما يعنينى حين أضع كتابا خاصاً لدرس هذه الرسالة درسا علمياً . كل هـذا لا يعنينى الآن ، وانما الذى يعنينى أن أحداً من كتاب العرب وشعرائهم لم يسبق أبا العلاء إلى هـذا الفن من الكتابة والفهم والخيال ولم يلحقه فيه . وإنما انفرد به أبو العلاء انفرادا فى كل هذه الآداب وفى كل هذه الحضارات التي عاشت هذه القرون المتصلة وأزهرت فيها هذا الازهار الغريب

نعم . رسالة الغفران هى آية الأدب العربى من هـذه الجهات كلها قصة غريبة لا تقع فى الأرض وانما تقع فى السماء ، وليس الغرض منها الفكاهة وحدها ولا النقد وحده وليس الغرض منها كفرا ولا ايمانا ، وإنما هذا كله هو الغرض من هذه الرسالة .

* * *

أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكف

وأراد أن يؤمن ، ولست احتاط فى لفظ ولا أتحرج من معنى ، وإنما أريد أن أكون حرا فيما أفهم وفيما أقول ، فالحرية وحدها هى السبيل الى فهم أبى العلاء ، وقد أراد أبو العلاء هذا كله، أراد أن يتفكه فتفكه الى غير حد، وأراد أن ينقد فنقد فى غير رحمة ، وأراد أن يكفر فكفر بغير حساب ، وأراد أن يؤمن فآمن فى غير شك .

أراد هذا كله ووفق إلى هذا كله أحسن توفيق ، ويكفى أن تقرأ من هذه الرسالة شيئاً وتفهمه لتؤمن بصدق ما أقول . كفر أبو العلاء وآمن فى هذه الرسالة ، كفر بما أجمع الناس عليه من سنة ودين ، وآمن بما وقف عليه حياته كلها من عقل ونقد

* * *

هذه الرسالة هى آية السخرية العربية ، وأحسبها آية من آيات السخرية الانسانية كلها ، فليس من السهل ولا من اليسير أن تحلل هذا الفن من السخرية الدقيق المعجز الذى تجده فى هذا الكتاب .

تقرأ الكتاب فلا تشك فى أن صاحبه من أشد الناس إيمانا بالله واقتناعا بالاسلام وتصديقا لما روى علماؤه من الأخبار والآثار ، ولكن اقرأه فى بصيرة وفهم ، وكن حراً حين تقرؤه — كما كان حرا حين كتبه — تجد أشد الناس سخرية بالدين وأعظمهم استهزاء بما آمن الناس به واطمأنوا اليه من الحياة الاخرى . لا يذكر الرجل من حياة الجنة والنار شيئا إلا استدل عليه بآية من القرآن وأثر من الحديث ، ولكن ما رأيك فى أنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك والاغراق فى الضحك عند ما تقرأ

هذا الاستدلال نفسه ، عند ما تقرأ هذه الآية الكريمة التى يوردها أو هذا الحديث الشريف الذى يستدل به ؟

لا تستطيع أن تقرأ هذا دون أن تضحك وتغرق فى الضحك .

* * *

أفتظن أن هذا الكاتب الذى يضحكك حين يتلو عليك آيات الكتاب الكريم أو يروى لك نصوص الحديث الشريف ، قد كان جادا فيما كتب أو مؤمنا فيما كان يقص عليك ؟ كلا لم يكن جادا ولم يكن مؤمنا ، وانما كان مازحا ، وقد كان منكرا وكان مستهزئا وكان ساخرا من صاحبه ابن القارح وأمثاله ، ولكنه كان ماهراً وكان على حظ من الفن لاحد له ولا شبيه ، فاستطاع أن يهزأ وأن يمزح دون أن يأخذه الناس بشىء من هزوئه ومزحه

وهل التفت الناس ؟ وهل التفت ابن القارح نفسه إلى ما فى هذا الكتاب من هزوء ومزح ؛ وما فائدة الارصاد والطلاسم إذا لم تشغل عامة الناس عن سخريته ومزحه ؟

* * *

اريد أن التمس مشبها لأبي العلاء فى هذا العصر الحديث وأن يكون الشبه بينه وبين أبي العلاء صادقا قويا لا يحتمل الشك ولا الجدال ، أريد ذلك فلا أجد فيه مشقة ولا عسراً ، وإنما أجده يسيراً لذيذا يعين على فهم أبي العلاء وتشخيصه من الوجهة الادبية الفنية ، أتدرى من هو هذا الذى اشبه به أبا العلاء ؟ هو الكاتب الفرنسى المعروف « اناتول فرانس » الذى

احتفل الناس منذ حين فى الارض كلها ببلوغه الثمانين من عمره ، هو الذى يُشبّهه أبو العلاء شبها لا يحتمل الشك ، هو الذى يفسر شخصية أبي العلاء الأدبية ، ولكن شخصيته فى رسالة الغفران لا فى اللزوميات

فلأبي العلاء (يجب أن نعترف بذلك) شخصيتان متناقضتان تناقضا منكراً ، احداهما باسمة وديعة رقيقة رفيقة تعطف على الناس وتسحر منهم فى رفق ولين . تسحر منهم لأنها تحبهم . وتسحر بهم لأنها تعطف عليهم . لا تلومهم ولا تؤذيهم ، وهى تبتسم لهم وتصحك منهم . وهى فى الوقت نفسه تسحبهم وتعطف لهم هذه هى شخصية أبي العلاء فى رسالة الغفران

وله شخصية أخرى مظلمة ، هذه عابسة مغضبة تطاير شررا وتضطرم غيظا وحقدا . تسحر من الناس ولكن سحرية مرة قاسية لا تحد لمرارتها ولا لقسوتها (١) . هذه هى شخصية أبي العلاء فى أكبر شعره فى اللزوميات

فأما شخصيته الأولى فتشبه شخصية « اناتول فرانس » وأما شخصيته الثانية فنستطيع أن نقيسها إلى ما شئت من شخصيات المتشائمين فى العصر القديم وفى العصر الحديث أيضا

* * *

فلنقف عند هذه الشخصية الباسمة الوديعة ولنحللها الى أصولها ودقائقها ، فما هى هذه الشخصية ؟ وبم تمتاز ؟ بشيئين اثنين : الشك من جهة ، والرحمة من جهة أخرى . نعم ، الشك فى أديان الناس وعاداتهم

---

(١) لعل أصدق وأوجز ما يمثل تلك الشخصية العابسة المغضبة قوله :
وجوهكم كلف ، وأفواهكم عدى وأكبادكم سود ، وأعينكم زرق!

وقواعدهم الخلقية والاجتماعية والسياسية ، الشك فى كل هـذا وازدرائه واطراحه ، ثم الرحمة التى لاحد لها والرفق بالناس ، والإيمان بأنهم مضطرون بحكم طبائعهم الضعيفة ، وبحكم تضليل المضللين وشعوذة المشعوذين وبحكم الظروف الأخرى التى ليس لهم عليها سلطان ، مضطرون إلى أن يخضعوا لكل هذه الأشياء ويتأثروا بها فى حياتهم العامة والخاصة على اختلاف فروعها هم مضطرون لامتعمدون ، فهم إذن مظلومون لا آثمون ، ومتى كان المظلوم خليقا باللوم ؟ ومتى كان المضطر خليقا بالتعنيف ؟ ولم تلومهم ؟ ولم تعنفهم ؟ وأنت واثق بأنك لن تغيرهم ولن تصلح من أمرهم ، وكل ماتستطيع أن تطمع فيه هو أن تهدى منهم نفرا قليلين لهم حظ من ذكاء وفطنة . وأنت لا تستطيع أن تهدى هؤلاء النفر القليلين بالشدة ولا بالعنف وانما اللين وحده سبيلك إلى هذا .

الابتسام والدعة ورقة الحاشية والافتنان فى الحديث المبتسم الوديع كما كان يفعل سقراط فى حواره

* * *

الشك والرحمة ! هما العنصران اللذان يكوّنان شخصية أبى العلاء فى رسالة الغفران ، وهما اللذان يكونان شخصية « اناتول فرانس »

فإذا أردت أن تتمم هاتين الشخصيتين ، فأضف اليهما عنصرين آخرين ، أحدهما العلم الواسع بفنون اللغة والأدب ودقائقها واتخاذ هذا العلم وسيلة إلى ما تريد وستارا لما تريد ، والثانى الفن الأدبى والتفوق فى تصريف الكلام على وجوهه المختلفة .

* * *

هذه الخلال الأربع هى التى تكوّن شخصية هذين الرجلين . ولقد أودّ أن تقرأ لاناتول فرانس : « ثورة الملائكة » « وجريمة سلفستر بونار » « والالهة عطشى » « وجنة أبيقور » وغيرها من آثاره المختلفة لتصل الى هذه النتيجة ، وهى أن اناتول فرانس رجل شاك رحيم عالم نابغ فى فن الكتابة . ولتشعر بأنه فى شكه ورحمته وفى استهزائه وسخريته يذهب مذهب أبى العلاء نفسه ، فهو دائما عالم من علماء اللغة والآثار ، ماهر فى فن الكتب وتصحيح النسخ الخطيـة القديمة وما يتصل بذلك ، وهو يحدثك بهذه الفنون كما يحدثك أبو العلاء فى النحو والصرف والعروض والقافية والغريب . ولكنه يحدثك بهذه الأشياء ليحدثك بأشياء اخرى هى الاستهزاء بالناس وما تواضعوا عليه ، والسخر من الناس وما آمنوا به والرحمة للناس والعطف عليهم ، وكذلك يفعل أبو العلاء حين يتحدث اليك بما يتحدث به اليك فى رسالة الغفران من نحو وأدب ولغة ودين ، لا يريد من ذلك شيئا . وانما يريد شيئا آخر . هو أن يذكر حمق الناس وغرورهم وانخداعهم وجهلهم ثم يضحك منهم راثيا لهم مشفقا عليهم من هذا كله .

أتريد أن أضرب لك الأمثال ؟ ولكن أتظن أن المقدمات تتسع لضرب الأمثال ؟ ولم أضرب لك المثل وأنا أقدم لك الكتاب كله ، فانظر إليه تقتنع بما أقول . انظر الى الملاحاة بين الأعشى ونابغة بنى جعدة اذ يزعم أحدهما لصاحبه أن دخوله الجنة يُوشِك أن يكون غلطا لولا أن الله

لا يغلط . وانظر الى قصة ابن القارح يوم القيامة وما يكون بينه وبين رضوان وزفر من حراس الجنة ، ثم ما يكون بينه وبين حمزة وعلى وفاطمة ، ثم الى قصته وهو يعبر السراط . وانظر الى أحاديث الشيخ مع أهل النار ومع ابليس وبشار والأخطل بنوع خاص . وانظر الى الحور وأخباره مع الحور ومداعبته للحور . وانظر الى الحيات والحاح الحيات عليه فى أن يمكث عندهن حينا وانظر الى قصص الجن وأحاديثهم . وانظر الى قصص الصيد وشأنه مع هذه الحيوانات التى أدخلت الجنة لأسباب مضحكه ، ثم انظر الى هذه الصورة التى تدور عليها هذه القصة كلها وهى هذه التي تمثل الله — عز وجل — تمثيلا لا يرضاه مؤمن حقا ولكنها لا تخالف الظاهر من نصوص الدين ، فالله لا عمل له فى هذه القصة الا أن يقدم لأهل الجنة ما يشتهون ؛ وما ذا يشتهون ؛ انهم ليشتهون أشياء لا تخلق بهم ولا تخلق بالله — عز وجل — ولكن الظاهر بنصوص الدين لا يخالف الظاهر من قصة أبى العلاء . وفى هذا مقنع للذين لا يتأولون ولا يتحرجون ، ولكن فى هذا مقنعا للذين يفهمون ويفقهون .

* * *

ثم انى لم أحدثك الا عن جزء من أجزاء الرسالة ، لم أحدثك عن الجزء العلمى وان أحدثك عن هذا الجزء العلمى ، كما أني لم أحدثك كما كنت أحب عن القسم الخيالى من هذه الرسالة ، وانما المت الماما وأشرت اشارات موجزة ، والخير كل الخير أن تحدثك الرسالة عن نفسها ، فاقرأها وأنا واثق بأنك سترى رأيى فيها وفى أبى العلاء .....

طه حسين

ابو العلاء المعري

فصله ـ ورعه ـ عبقريته ـ رسالة الغفران

السبب فى اختصارها

بقلم الأستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك

الفكر الانسانى بصيص من النور الالهى الفائض على الوجود ، والمفكرون مصابيحه ينعكس منهم على من دونهم فيهتدون به فى سلوك دياجير هذه الحياة ، فلولاهم لخبط السارون فى متاهاتها ، لايهتدون الى غاية ، ولا ينتهون من وجودهم الى نهاية ، لذلك القى فى روع الناس ، حتى وهم فى أحط درجات التعقل اكبار المفكرين وتعظيمهم ، وتلقف أقوالهم وآرائهم ، ورب أمة رزقت واحداً منهم فنقلها من الظلمات الى النور ، بعد أن عاشت قبله أجيالا تتقلب فى كِسف من دونها كسف ، ولا تعرف الوجود ولا يعرفها الوجود

* * *

أبو العلاء المعرى واحد من أولئك المفكرين ، عرفه صاغة الكلام شاعراً من المبرزين ، وعده نقدة الافهام حكيما من المقدمين ، فوجد هؤلاء وهؤلاء منه مايبلغ أقصي ماتتطلع اليه نفس من تصوير وابداع ، وخيال واختراع ، وسريان فى سرائر الكائنات ، واستجلاء لحقائق الموجودات

إلا أن فضل أبى العلاء لم يظهر فى عصر من العصور أجلى وأكمل مما ظهر فى عصرنا هذا ، عهد الأبحاث والشكوك ، عهد المذاهب

والمقالات [١] حيث اشتجرت العقول ، وتناحرت الآراء وثارت أعاصير الريب ، فاكتسحت أمامها أصولا راسخة من عقائد صحبت الانسان منذ عهده الأقدم ، فكان لظهور فضل أبي العلاء في هذا المضطرب الهائل للمذاهب ، والمزدحم الرائع للفلسفات ـ بعد ما كابدت من حرارة الكفاح ما كابدت ـ أثر عميق في نفوس المعاصرين ارتفع الرجل به الى المكانة التي يجب أن تكون له بين السابقين الأولين

نعم ، لقي ابو العلاء من الدين يصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ما يلقاه كل مفكر خلص من أغلال التقليد ، فاتهمه من لا يفهمه بالالحاد والزندقة ، وقولوه ما لم يقله من الشعر المزري بالأديان ، الحاط من كرامة مؤسسيها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدبين لتبرئته مما نسب اليه ، فكان من أثر ذلك أن تكوّن حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل الورع على كراهية شعره ، حتى أن مصحح المطبعة الأميرية تحرج منذ أربعين سنة من تصحيح لروميات أبي العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك ، فجاءت كثيرة الاخطاء من جراء ذلك ، أين هذا من تزاحم الأدباء والمفكرين في أوربا على ورود مناهل رجالاتهم الأعلام وعنايتهم بجمع كل شاردة وآبدة من أقوالهم وآرائهم ؟

لم يعن الغربيون بنبغائهم من أهل العبقرية هذه العناية باعتبار أنهم لا يخطئون ولا يغلطون ، أو انهم ملهمون ومحدّثون ، بل باعتبار أنهم

(١) المذاهب

مفكرون أحرار ، لا يتقيدون بالمذاهب ، ولم يخضعوا عقولهم لغاصب ، فخلقوا من عالم المعانى في جو خلص من شوائب الحيوانية ، فقطفوا من حقائقه أزاهر أودعوها نظمهم ونثرهم مختلطة بهنات مما يلازم الطبيعة الأرضية

فالمكبون على رشحات أقلامهم انما يتنسمون من خلال اسطرها نسمات تلك الأزاهر فتفغمهم برياها الشذىّ ، وتحيى أنفسهم بروحها العلوى

فلو أراد ناقد معاصر أن يجمع سحافات امثال شيكسپير ودانتى وڤولتير وڤيكتور هوجو لملأ منها أسفارا ، ولكن ليس هذا من العدل فى شىء إذ يكون هذا الناقد قد قصر نظره عن ظاهر الكلام . ولم يتنور الروح المودعة فيه ، حرم نفسه أحوج ما يكون اليه

* * *

بهذه العين يجب أن ينظر للنابغين والعبقريين ، وبهذه النهمة يجب أن يعنى بما دونوه فى الطروس من منثورهم ومنظومهم ، وأبو العلاء واحد من هؤلاء ، بل من أبعدهم غورا ، وأملئهم سحلا وأعذبهم موردا ، وأعجبهم حالا

لسنا بسبيل إيراد تاريخ صاحب رسالة الغفران ، غير أننا نقول . انه كان كفيف البصر ـ ككثيرين قبله وبعده من النوابغ ـ وكان مع عراقته فى الشعر ، وتصرفه فى فنونه ، لم يَفُلْه مكتسبا ، فلم يقبل جائزة عليه قط ، وكان مكتفيا بغلة وقف له تبلغ ثلاثين ديناراً ، كان يعطى خادمه منها نصفها ، ويقنع بنصفها الآخر طول سنته

أعجب من هذا كله وأدل على فضله ونزوعه عن قذر هـذا العالم ومظالمه ، تقزز نفسه عن أكل اللحم ، وتأثمه من قتل الحيوان بعد الأربعين من عمره ، فعاش بعدها نيفا وأربعين سنة لم تمس شفتاه جثة كائن حي ، حتى أنه لما مرض المرضة التي مات فيها نصحه طبيبه بأكل فروج للتقوى به في زعمه . فأبى أبو العلاء أن يستبقي حياته بازهاق روح ، فعمد أهله إلى فروج فذبحوه دون أن يعلم هو ذلك ، ثم قدموه اليه ، فلما تناوله أدركه نفور منه والقاه من يده ، فأخبروه بأنهم انما فعلوا ذلك طلبا لشفائه . فمد يده ثانية وأمسك الفروج وقال كأنه يخاطبه : «مسكين أيها الفروج ، أمنوا شرك فذبحوك ، ولوكانوا خافوا بأسك لهابوك[1]» ثم رمى

---

(١) يروون أنه مرض ، فوصفوا له الدجاج ، فامتنع ، وألحوا عليه حتى أطهر الرضى ، فلما قدم اليه ولمسه بيده جزع وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا لي شلو الاسد ! » ثم أبى أن يطعمه

عطف أبي العلاء على الحيوان

وزهد أبي العلاء وعطفه على الحيوان وعزوفه عن أكل اللحم وصرامته في اتباع هذا القانون مما لا يحتاج الى تنبيه اليه ، فقد اكتظت اشعاره بالرحمة والشفقة حتى أنه رثى لقتل البرغوث — كما ترى ذلك في بعض مواضيع الكتاب القادمة ، ولعل أجمل ماخاطب به الحيوان قوله

فيا طائر الأيكي ، ويا طبي ! لا تخف شذاي — فما بيني وبينكما فرق

وقوله في التوجع والأسف على مايصيب الحيوان الضعيف من الأذى :

وابك على طائر رماه فتى لاه ، فأوهى بمهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت فظل فيها كأنما كتفا

به ولم يتناول منه شيئا

بكر يبغى المعاش ـ مجتهداً، فقص عند الشروق ـ أو نتفا
كأنه فى الحياة ما فرع الغصـ ـن ، فغنى عليه أو هتفا

ومن أجمل ما قاله فى العطف على الحمامة ، قوله :

قل للحمامة : «قد اصبحت شادية فهجت للذاكر المحزون تشويقا
كساك ربك ريشا ، تدفعين به قر الشتاء ، وحلى الجيد تطويقا
فهل تراعين من بار ـ على شرف ـ يهدى اليك ـ عن الرحين تعويقا
أما نرين قسى الدهر ، وترهـا رام مصيب، أعار النبل تفويقا ؟
يغنيك وكرك عن بيت بريتـه غاو من القوم ، اذهابا وتزويقا»

وانظر الى نقمته على الناس لايذائهم الحيوان ، وحصه الغراب الذي ينسبون الى طبعه اللؤم والميل الى الأذى على مقابلتهم بالمثل فى قوله :

جر ياغراب ! وأظلم ، لاأرى أحداً الا مسيئا ، وأى الناس لم يجر ؟
فخذ من الزرع مايكفيك عن عرض وحاول الرزق فى العالى من الشجر
وما ألومك ، بل أوليك معذرة اذا خطفت ذبال القوم فى الحجر
فآل حواء راعوا الأسد مخدرة ولم يغادوا لسلم ربة الوحر
هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا من جنسهم ، وأباحوا كل محتجر

وما أبدع ماختم به هذه الابيات الجميلة ؛ وما أسد حجته فى نصرة مذهبه اذ يقول :

لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت ثم اقتربت ، لما أخلوك من حجر

واذا تساوى العرف والنكر عند الناس ، وكان لابد لهم من الايذاء فأجدر بالشر أن يدفع بالشر ، وبالاساءة أن تقابل بمثلها !

وما أجمل قوله فى قصيدة أخرى :

ولا تأخـذ ودائع ذات ريش فما لك أيها الانسان بضنه

مثل هذه النفس لا تحرم نوراً علوياً ، ولا تمنع عروجاً سماوياً ، فلا

* * *

ولعل أبرع ما قرأناه لابى العلاء فى حوار الحيوان ميميته الرائعة التى قالها فى حوار الديك ، وافتتحها بقوله :

أيا ديك ! عدت من أياديك صيحة ... بعمت بها ميت الكرى وهو نائم

الى أن يقول :

ونعم أذبن المعتر ابن حمامة ... اذا سجعت للداكرين الحمائم

وما أحسن قوله فى هذه القصيدة :

وفيك — اذا ما ضيع الكس عيرة ... يصان بها المستصحبات الكرائم

وجود — بموجود السوال — على التى ... حميت — وان لم تستهل الغمائم

يزان لديك الطعن فى حومة الوغى ... اذا ريبت — للعاجزين — الهزائم

الى أن يقول :

وتؤثر بالقوت الخليلة — شيمة ... كرتيه — ما استعملتها الأرائم

وهكذا يفتن أبو العلاء فى وصفه الى أن يقول — وقد أفعم قلبه بالرحمة والحنان على الديك :

ولو كنت لى — ما أرهفت لك مدية ... ولا رام افطارا بأكلك صائم

ولم يغل ماء ، كى تمرق حلة ... حتتك باسماها العصور القدائم

ولا عمت فى الخمر التى حال طعمها ... كأنك فى غمر من السيل عائم

ولاقيت عمدى الخير بحسب عيلا ... يعافيك قول سيء وشتائم

فان كتب الله الجرائم ساحطا ... على الخلق لم تكتب عليك الجرائم

والقصيدة طويلة لا يتسع المقام لاكثر مما ذكرناه منها ، فليرجع اليها من شاء فى الجزء الثانى من كتاب الروميات «من ص ٢٢٣ الى ص ٢٢٦ »

* * *

ولا يفوتنا — قبل أن نختم هذه الكلمة — أن نوصى القارئ بالاطلاع على

عجب إن عثرنا فى شعر أبي العلاء ونثره على لطائف وجدانية لا تتنزل على سواه من عبيد بطونهم ،او أسرى مشاعرهم ، ولا غرو بعد هذا أن حصل له من الشهرة والاقبال فى العصر الأخير عصر النقد والتحليل أكثر مما كان له وهو بين ظهراني معاصريه ، والمحيطين به لالتقاط الدرر من فيه

* * *

وان أجمل ما كتبه ، واجمعه لارائه فى الدين والعلم والاخلاق وفى أساليب الشعر وفنونه ، ورجاله وعيونه ، آيته الموسومة برسالة الغفران فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدهماء ففى الشعر حوائل من الأوزان والقوافى ولزوم ما لا يلزم تجعل معانيه بعيدة المنال وتنوّر الروح المودعة فيه من أشق المحاولات ، ولكن النثر — لخلوه من هذه الحوائل — تتجلى فيه روح صاحبه بأجلى مظاهرها ، وتتبين أغراضه بأقل كلفة ، وان كان دون الشعر من حيث التأثير فى النفس ، والسطوة بالعواطف فرسالة الغفران من هذه الوجهة طلبة كل محب لاستشراق روح أبي العلاء.

رسائل أبى العلاء التى كتبها ردا على داعى الدعاة فى مصر ، واظهر فيها الاسباب الرئيسية التى دعته الى تحريم أكل اللحم ، وهى فى معجم ياقوت (حـ ١ من ص ١٩٥ — ٢١٤)

ونذكر بهذه المناسبة أن الاستاذ فريد وجدى نبانى لا يأكل لحم الحيوان، فهو يشرك أبا العلاء فى هذه الخلة ، ولعل هذا الاتفاق هو السر فى اعجاب الاستاذ بهذه الحكاية الى هذا الحد

ونحن نشارك الاستاذ فى اعجابه بسبل أبى العلاء وزهده ، ولكن هذا الاعجاب لن يكون — فى لحظة من اللحظات — مغريا لنا بالعزوف عن أكل لحم الحيوان !

لكن يحول دون هذه الفائدة العظمى أنه اكثر من غريب اللغة وأطال فى سرد عبارات غامضة أو ضرب أمثال شاردة أو ذكر ما لا يعنى الا العربي القح فى ذلك العهد . ونحن نعطي قارئنا مثلا من ذلك . قال :

« قد علم الحبر الذى نسب اليه حبربل ، وهو فى كل الخيرات سبيل ، أن فى مسكنى حماطة ما كانت قط أفانية ، ولا الناكزة بها غانية »

وقال :

« وأن فى طمرى لحضباً وكل بأذاتى ، لو نطق لذكر شذاتى . فاهو بساكن فى الشقاب ، ولا بمتشرف على النقاب ، ما ظهر فى شتاء ولا صيف ، ولا مر بجبل ولا خيف الخ الخ »

* * *

فالرسالة فى مثل هذا المعرض يصعب على الاكبرين قراءتها ومزاولتها والاستفادة مما حوته من آراء مسددة ، وأحكام عادلة ، ونظرات ثاقبة ، ولو أحصينا عدد من قرأ هذه الرسالة من جملة المتأدبين لما ألفيناهم يجاوزون العشرة فى المئة ، وهذا حرمان يألم منه طلاب الأدب العالى .

* * *

فبتوفيق من الله ألهم الفاضل الألمعى كامل افندى كيلانى أن يلخص هذه الرسالة على أسلوب تبرز به أعراض أبى العلاء كاملة دون أن يحول بينها وبين القارئ ما احيطت به من المترادفات الغامضة والشؤون المحلية الخاصة ، مما جعل الرسالة عبئاً ثقيلاً على المعاصرين يكد أذهانهم ويكل عزائمهم ويقف بهم عند حد منها لا يتعدونه ، ومن محاسن هذا العمل

المشكور الذى نسجله لأديبنا الشاب بالاعجاب ، أنه جاء من حسن الاتساق . وتناسب الأجزاء ، وتوافر الأغراض ، بحيث يخيل للقارئ أنه يقرأ رسالة أبي العلاء قبل أن تتناولها يد التلخيص ، وأعجب من هذا أنه لم يزد فيها حرفا . ولا من أغراضها غرضاً ، فهى من هذه الوجهة أحسن ما رأينا فى هذا الباب

* * *

أما فوائد هذا العمل فلا نخالها تخفى على أحد ، فمنها سهولة تداول هذه الرسالة . وعموم الانتفاع بها . وتيسر تكرارها .

وهى فوائد لا أستطيع أن أحد مداها من النفع العام ، ولا أن اوفى مسببها الشكر على جليل خدمته . فالله يتولى مثوبته ، ويجزل مكافأته وينفع بعمله هذا طلاب العربية ، وعشاق الفنون الادبية ، إنه أكرم مسؤول ...

محمد فريد وجدى

ترجمة ابن القارح[1] ،

بقلمه

«كنت أدرس على أبي عبد الله بن خالويه ـ رحمه الله ـ وأختلف إلى دار أبي الحسين المغربي . ولما مات ابن خالويه ، سافرت إلى بغداد ، ونزلت على أبي علي الفارسي . وكنت أختلف إلى علماء بغداد ، إلى أبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وأبي عبيدة المرزباني ، وأبي حفص الكتاني . وكتبت حديث رسول الله (ص .) ، وبلغت نفسي أغراضها جهدي . والجهد عاذر» .

* * *

«ثم سافرت منها إلى مصر . ولقيت أبا الحسن المغربي ، فألزمني أن لزمته لزوم الظل ، وكنت منه مكان المثل ، في كثرة الانصاف والحنو فقال لي سراً « أنا أخاف همة ابي القاسم أن تنزو به الى أن نوردنا ورداً لا تصدر عنه » وقال لي يوماً : « ما نرضى بالخمول الذي نحن فيه » فقلت : « وأي

---

(١) هو علي بن منصور الحلبي ، لقبه دوحلة ، وكنيته أبو الحسن ، ويعرف بابن القارح ، وكان مولده بحلب سنة ٣٥١ ، ولم يتزوج ولا أعقب ؛ وهو الذي كتب رسالته المنشورة بالجزء الثالث من هذا الكتاب وبعث بها الى أبي العلاء ، الذي أجابه عليها بهذه الرسالة الرائعة ووسمها برسالة الغفران وقد عللنا هذه التسمية أثناء الكلام عليها فارجع اليها ان شئت (في ص ٣٥)

خمول هنا ؛ تأخذون من مولانا فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم » فقال : « أريد أن تصار إلى ابوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ، ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان » فاعدت ذلك على أبيه ، فقال : « ما اخوفنى أن يخضب ابو القاسم هذه من هذه » وقبض على لحيته وهامته

وعلم أبو القاسم بذلك فصارت ، بيني وبينه وقفة !

* * *

وأنفذ الى القائد ابو عبد الله الحسين بن جوهر ، فشرفنى بشريف خدمته ، فرأيت الحاكم كلما قتل رئيساً ، انفذ رأسه اليه ، وقل هذا عدوى وعدوك ياحسين .. فقلت « من يرى يوما ، يرى به ، والدهر لا يغتربه » وعلمت انه كذا يفعل به

* * *

فاستأذنته فى الحج ، فاذن ، فخرجت فى سنة سبع وتسعين ، وحججت خمسة أعوام

وعدت الى مصر ، وقد قتله ، فجاءنى اولاده سراً ، يرومون الرجوع اليهم ، فقلت لهم هذا خير ما لى ولكم الهرب ، ولأبيكم ببغداد خمسمائة الف دينار ، فاهربوا واهرب .. ففعلوا وفعلت

وبلغني قتلهم بدمشق ، وأنا بطرابلس ، فدخلت الى أنطاكية ، وخرجت منها الى ملطية ، وبها المايسطرية خولة بنت سعد الدولة ، فاقمت عندها الى أن ورد علىّ كتاب أبى القاسم ، فسرت الى ميافارقين ، فكان

يسرحسوا فى ارتغاء ، قال لى يوما من الايام « ما رأيك ؟ » قلت « أعرضت حاجة ؟ » قال : « لا ، أردت أن ألعنك » قلت : « فالعنى غائباً » قال : « لا ، فى وجهك أشفى » قلت : « ولم ؟ » قال : « لمخالفتك اياى فيما تعلم »

***

وقلت له ، ونحن على انس ، بينى وبينه : « لى حرمات ثلاث ، البلدية ، وتربية أبيه لى ، وتربيتى لاخوته » قال : « وهـذه حرم مهتكة ، البلدية نسب بين الجدران ، وتربية ابى لك ، منة لنا عليك ، وتربيتك لاخوتى ، بالخلع والدنانير » ـ أردت أن أقول له : « استرحت من حيث تعب الكرام ،، فخشيت جنون جنونه

***

وقال لى ليلة : ،، أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة ، فى بيت واحد ، وليس يسمح لى ما أرضاه ،، فقلت ،، أنا أفعل من هذه الساعة ،، فأخذت القلم ، وكتبت بحضرته .

لقد اشبهتني شمعة فى صبابتى وفى هول ما ألقى وما أتوقع
نحول وحرق فى فناء ووحدة وتسهيد عين واصفرار ودمع

فقال : ،، كنت عملت هذا قبل هـذا الوقت ؟ .. فقلت ،، تمنعنى سرعة الخاطر ، وتعطيني علم الغيب ؟ ،، وكان ابو القاسم ملولا ، لا يمل أن يمل ، ويحقد حقد من لا تلين كبده ، كأنه من كبره قد ركب الفلك ، فلما رأيته سادرا جاريا فى قلة انصافى ، على غلوائه ، محوت ذكره عن

صفحة فؤادى :

ففى الناس إن رثت حبالك واصل وفى الارض عن ذات القلى متحول

وأنشدت الرجل أبياتا ، أعتذر بها فى قطعى له :

فلو كان منه الخير اذ كان شره عنيداً ، لقلنا ان خيراً مع الشر

ولو كان ، اد لاخير ، لاشر عنده ، صبرنا ، وقانا « لايريش ولايبرى »

ولكنه شر ، ولا خير عنده وليس على شر ، اذا دام ، من صبر

وبغضى له ـ لشهد الله ـ حياً وميتا ، أوجبه أخذه محاريب الكعبة الذهب والفضة ، وضربها نقودا ودراهم ، وسماها الكعبية ، وانهب العرب الرملة ، وضرب بغداد ، وكم دم سفك ، وحريم انتهك ، وحرة ارمل ، وصبى ايتم ...(١)

(١) من رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الثالث

ترجمة ابن القارح

بقلم أحد معاصريه (١)

هو شيخ من أهل الأدب شاهدناه ببغداد راوية للاخبار ، وحافظا لقطعة كبيرة من اللغة والاشعار ، قؤوما بالنحو ، وكان ممن خدم أبا علي الفارسي في داره — وهو صبي — ثم لازمه وقرأ عليه — على زعمه — جميع كتبه وسماعاته ، وكانت معيشته التعليم بالسنام ومصر .

وكان يحكي أنه كان مؤدبا لأبي القاسم المغربي الذي وزر ببغداد — لقاه الله سيء أفعاله — كذا قال ، وله فيه هجو كثير — وكان يذمه ويعدد معايبه

وشعره يجري مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة ، خاليا من الطلاوة ، وكان آخر عهدي به بتكريت في سنة ٤٦١ ، فانا كنا مقيمين بها واجتاز بنا ، وأقام عندنا مدة ، ثم توجه الى الموصل ، وبلغني وفاته من بعد ، وكان يذكر ان مولده بحلب سنة ٣٥١ ولم يتزوج ولا اعقب ، وجميع ما اورده من شعره مما انشدنيه لنفسه فمنه في الشمعة : « وقد ذكرناه في ص (٢٧) ، فلا داعي لاعادته »(٢)

---

(١) اسم هذا المعاصر « ابن عبد الرحيم » وقد ذكر هذه الرواية ياقوت في معجمه

(٢) وذكر له ابن عبد الرحيم نخبة أخرى من شعره ، لا نرى فائدة من ذكرها ويمكن الرجوع اليها في الجزء الخامس من « معجم الادباء لياقوت من ص ٤٢٥ — ص ٤٢٧ »

وسئل يوما أن يجيز قول الشاعر :

لعل الذى تخشاه يوما ـ به تنجو ويأتيك ما ترجوه من حيث لا ترجو

فقال :

فثق بحكيم لا مرد لحكمه فما لك فى المقدور دخل ولا خرج

وحدثنى ، قال :

« كنت أؤدب ولدى الحسين بن جوهر القائد بمصر ، وكانا مختصين بالحاكم وآنسين به ، فعملت قصيدة وسألت المسمى منهما جعفرا ـ وكان من أحسن الناس وجها ، ويقال إن الحاكم كان يميل اليه ـ أن يوصلها ، ففعل وعرضها عليه . فقال : « من هذا ؟ » فقال « مؤدبى »

قال : « يعطى الف دينار »

واتفق أن المعروف بابن مقشر الطبيب كان حاضرا ، فقال : « لا تثقلوا على خزائن أمير المؤمنين ، يكفيه النصف » فأعطيت خمس مئة دينار ، وحدثنى بن جوهر بالحديث .

وكانت القصيدة على وزن منهوكة أبى نواس أقول فيها :

إن الزمان قد نصر بالحاكم الملك الأغر

وهي طويلة [1] ، واتفق أن الطبيب المذكور لحقته بعد هذا بايام

---

(١) ومنها ـ وهى من أدب الصنعة ـ :

فى كفه عضب ذكر قد غدا على القصر
من غرة على الغرر يمضى كما يمضى القدر
فى سرعة الطرف نظر أو السحاب المنهمر
بادر انفاق البدر بدراً ـ اذا لاح ـ بهر

شقفه ـ وهى التى تسمى « التراقى » ويقال لها « قملة النسر » ايضاً فمات منها، وكان نصرانيا ، فقلت :

لما غدا يستخف رضوى تيها وكبرا لجحد ربه
أصماه صرف الردى ، بسهم عاجله قبل وقت نحبه .
بشقفة بين منكبيه رشاؤها فى قليب قلبه » اهـ.

وهذا شعر مملوء بالصنعة ، لاروح فيه ، وهى سمة ظاهرة فى كل كل ما قرأناه من شعر ابن القارح اذا استثنينا القليل منه ، كإجازته قول الشاعر :

لعل الذى تخشاه يوما به تنحو ويأتيك ماترجوه من حيث لاترجو

وليس اعجابنا بذلك كبيراً ،

* * *

وموجز القول أن ابن القارح ذكى ـ لا اكثر ولا أقل ، ولكن ذكاءه سطحى يشركه فيه الكثيرون فهو ليس مفكراً عميقا ولا هو واسع الاطلاع ولكنه مرتاد طيب الصلب ، وربما كان أوجز ما يقال فيه أنه فقيه صالح للوظيفة التى مارسها وهى تأديب اولاد الملوك . وهذه صناعة لاتتطلب من الذكاء اكثر مما نراه فى ابن القارح .

موجز ترجمة أبي العلاء

(١) اسمه احمد وكنيته أبو العلاء واسم أبيه عبدالله بن سليمان المعرى واسم بلده معرة النعمان ، وهى قرية صغيرة فى شمال سوريا بين حلب وحمص

(٢) ولد قبل مغيب شمس يوم الجمعة وهو الثامن والعشرون من ربيع الاول سنة ثلاث وستين وثلمائة هجرية ـ وهى توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة المسيح

(٣) وفى السنة الرابعة من حياته (٣٦٧ هـ) أصيب بالجدرى ، فكاد يودى بحياته ، ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى وغشى اليمنى بالبياض ، ثم بالعمى ، وبهذه الحادثة تمت اول نكبة اعدها له الزمن ، فكان لها في حياته اكبر الأثر

(٤) ذهب الى الدراسة فى حلب بعد أن أتم الدراسة على أبيه ـ وكانت حلب فى زمنه مكتظة بأفاضل العلماء ورجال الأدب ، ممن دعاهم سيف الدولة فى زمنه واغدق عليهم النعم ، فملؤا حلب علماً ، فى زمنه وبعد موته ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء

(٥) ثم سافر الى انطاكية ووعى ما شاء من نفائس الكتب التى وجدها فى مكتبتها الشهيرة ، وكان بها كثير من الروم ، الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها

(٦) ثم سافر الى طرابلس الشام ، ومر باللاذقية فى طريقه ، فنزل بدير فيها ، وأخذ ـ عن راهب فيه ـ كان دارساً لعلوم الفلسفة وغيرها

كثيراً من الآراء ، واشتدت الصلة بين أبي العلاء وبين النصارى واليهود ، حتى تمكن من درس دينهم ومناقشتهم فيه ، ثم عاد الى معرة النعمان

(٧) ومات أبوه وهو فى الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧ فرثاه بنو نبهه المعروفة فى سقط الزند ، وهى تمثل شعره فى صباه

(٨) ثم رحل الى بغداد سنة ٣٩٨ وذاع بها صيته ، واطلع على مكاتبها الشهيرة ، واشترك فى المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة . .

(٩) ثم دعاه الى مغادرة بغداد مرض أمه وفقره — مع انفته من التكسب بشعره وأدبه — فتركها فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، واحتفل بتوديعه أهل بغداد وحزنوا على فراقه أشد الحزن

(١٠) وانه لفى طريقه الى المعرة إذ وافاه نعى أمه ، فتمت نقمته على الدنيا ، وكانت تلك النكبات الفادحة التى لقيها فى حياته ، اكبر باعث له على الاخذ بقانونه الصارم الذى سنه لنفسه ، وهو اعتزال الناس

(١١) وقد حاول تنفيذ هذا القانون ، فلم يوفق الى ذلك . لالتفاف الطلاب حوله ، واقبال الكثيرين من المعجبين به على زيارته . ووفودهم اليه من بلاد نائية ليتلقوا عنه العلم

(١٢) وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطى خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، وكان فقيراً متقشفاً زاهداً لايمدح أحداً طمعاً فى مال أو جاه ، يأكل الشعير ويلبس الصوف الغليظ

(١٣) وهو أول من خط للشعر العربى طريقا جديدة فلسفية خاصه به وملأ شعره بأسمى المبادئ الاجتماعية والأدبية والعالمية ، التى انفرد

بها ـ دون سواه ـ من بين شعراء العربية جميعاً

(١٤) نيف أبو العلاء على الثمانين سنة . ثم اودت به علة لازمته أياما ثلاثة ، وكان موته فى اليوم العاشر من ربيع الاول سنة تسع واربعين واربعمائة

مؤلفات أبى العلاء

أما مؤلفاته فعديدة قيمة . ولكن اكثرها قد فقد لسوء الحظ ولم يبق لنا منها الا سقط الزند ـ ويحتوى شعره فى عهد الشباب ـ وليس فيه الا بضع قصائد بلغت الذروة فى الاجادة . أما الباقى فأكثره متكلف سخيف أفسدته المبالغات والتقليد . وقد اعترف بذلك فى مقدمته . وكتاب اللزوميات . ويعد فى نظرنا أنفس ديوان عربى . ويشمل جمهور الفلسفة العلائية الرائعة رغم ذلك القيد الثقيل الذى أخذ به نفسه . وهو مضاعفة القافية . وديوان الدرعيات وهو خاص بوصف الدروع . ورسائله التى طبعها مرجليوث . ورسالتا الغفران والملائكة . وكتاب الايك والغصون الذى نيفت اجزاءه على المائة . وقد فقد كله . ولا يعلم الا الله وحده مقدار الخسارة العظيمة . بل النكبة الفادحة التى ألمت بالأدب العربى من جراء فقد هذا الكتاب الذى اخرجه ذلك الرأس المفكر العظيم ، ولسنا نرتاب فيما قالوه عن محتويات ذلك السفر الجليل ، فان الذى يجيب صاحبا له برسالة كرسالة الغفران ، ويقول فى مقدمة لزومياته "كان من سوالف الاقضية أنى أنشأت ابنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة الخ" ،

ان رجلا يفعل ذلك ، لانستبعد عليه ، اذا قصد الى التأليف أن يخرج للعالم مثل ذلك الكتاب الجليل الشأن !

رسالة الغفران[1]

ولعل أمتع ما كتبه ابو العلاء هو « رسالة الغفران » التى تعد بحق انفس أثر له ـ بعد كتاب اللزوميات .

وانما أطلق عليها اسم « الغفران » لأن الفكرة الرئيسية التى دفعته الى إنشائها ، ـ وقت إجابته على رسالة ابن القارح ـ هى مناقشة من فازوا بالمغفرة ومن حرموها فى الدار الاخرة ، ومما يسترعى انتباهك فيها ، سؤاله ـ وكثيراً ما كان يوجهه إلى الفريق الناجى : « بم غفر لك ؟ » فيجيبه كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، ويشرح له السبب فى دخوله الفردوس ويصف له كيف يتمتع به ، وكيف ينعم ببدائعه

وسؤاله الذى كان يوجهه إلى الفريق الثانى ـ وهو من حُقت عليه اللعنة وكُتب عليه الشقاء ـ : « لم لم يغفر لك قولك كذا » فيجيبه أكثرهم عن السبب ويشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب ، ويصمت بعضهم لاشتغالهم بما هم فيه من نكال وغصص .

---

(١) كتب هذه الرسالة فى سنة ٤٢٤ هـ كما سيمر بك فى الجزء الثانى ـ وهذا من استنتاجنا الخاص ـ وقد بعث بها الى على بن منصور الحلبى ، الملقب بدوخلة ، والمعروف بابن القارح ، رداً على رسالة كتبها لأبى العلاء ، وألح عليه فى ختامها أن يشرفه بالرد عليها

ورسالة ابن القارح طويلة تحوى أخبار الكثير من العلماء والأدباء وأساطين الفكر العربى ، هذا الى ما اكتظت به من عبارات المدح والاطراء التى صاغها فى شكر أبى العلاء

وهكذا ألم بطائفة من الحوادث والأسباب، ومزج الرواية بالدعابة، والجد بالفكاهة، والأدب والفلسفة بالنقد الصائب والسخرية الدقيقة

* * *

وليس هذا الخيال، أو تلك الفكرة الفنية التى انتظمت الكتاب. فأفردته من بين الآثار الأدبية التي كتب لها الخلود ـ مما يستغرب من مثل أبى العلاء ذى العقل الراجح والبصيرة النفاذة، والخيال الواسع.

نعم وليس تمثل البعث والنشور ونعيم الفردوس وتعذيب الأشقياء فى الجحيم من الافكار الطارئة التى سببتها رسالة ابن القارح أو نبهتها فيه ولكنها فكرة متأصلة فى قرارة نفسه. نبتت ونمت وتوشحت اصولها ونضج ثمرها فى قلبه نحو نصف قرن، فاختلطت بلحمه وسيطت بدمه وهيمنت على مشاعره منذ حداثة نشأته ـ حتى أصبحت ـ من أهم مصادر الفلسفة العلائية.

ولعل أول محاولة رأيناها له ـ فى اكتناه البعث والتردد فى قبول الروايات والاخبار المتناقلة، قوله فى مستهل حياته الأدبية، وهو فى الرابعة عشر من عمره، فى نونيته التى رثى بها أباه، والتي يقول فيها:

فياليت شعرى: هل يخف وقاره اذا صار أحد فى القيامة كالعهن؟
وهل يرد الحوض الروىّ ـ مبادراً مع الناس؟ أم يأبى الزحام، فيستأنى (١)

---

(١) الا ترى اليه كيف لاءم فى هذين البيتين بين روعة الموقف ووقار أبيه، وكيف تردد فى أن هذا اليوم العصيب الذى تتبدل فيه طبائع الناس من الرزانة الى الخفة، ومن العطف على سواهم الى الاهتمام بانفسهم لشدة الهول والفزع؛ فيصد

* * *

وإنك لتلمح الشك يساور نفسه ، التى تتطلع إلى اليقين ، فلا تظفر به ، وتتلمس الحقيقة فلا تصل اليها ، فترجع يائسة حائرة ـ بعد أن وجدت كل معين ناضبا ، وكل ماء سرابا ، وإنك لتحد حيرة من قتل الفكرة بحثا وقلبها على كل وجه من وجوهها وناحية من نواحيها ، فلم يظفر بطائل ، وزاد تفاقم الشك فى نفسه الفتية . فأصبح يتلمس ما يسد به ذلك الفراغ الذى كان يملؤه اليقين فلا يجده . كل ذلك تتمثله واضحا فى قوله من تلك القصيدة :

جهلنا فلم نعلم ـ على الحرص ـ ما الدى ... يراد بنا . والعلم لله ذى المن
إذا غيب المرء . استسر حديثه ... ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
تضل العقول الهبرزيات رشدها ... ولم يسلم الرأى القوى من الافن
. . . . . .
طابت يقينا من جهينة عنهم ... ولم تخبرينى ، يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلا ... فاني لم أعط الصحيح ، فأستغنى

المرء عن أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الارض جميعاً ثم ينجيه ، انظر اليه كيف ارتاب فى ان هذا اليوم المفزع الهائل مبدل من تؤدة أبيه ورزانته التى عرفها فيه

انظر اليه كيف لاءم بين هاتين الفكرتين المتنافرتين وكيف جمع بين تمثيل الهول والرعب ، وتمثيل الرزانة والتؤدة !

وأحب أن ابه الى وصف يوم الموقف فى الفصل الثانى من هذا الكتاب وكيف يتدافع الناس الى ورود الحوض ، ليطفئوا غلة العطش الذى اهلكهم ، وكيف يذودهم الواقفون على الحوض ، ليمنعوهم من الوصول اليه !

وهكذا ظل أمر البعث والنشور والجنة والنار من أكبر شواغل هذا العقل الممحص الكبير، فاكتظت كتاباته وأشعاره بالاشارة إلى ذلك. ولم تكد تمر به فرصة، دون أن يشير اليه إشارة قريبة أو بعيدة، واضحة أو خفية، هازئة أو جادة، ساخرة أو مقررة (١)

---

(١) شعر أبي العلاء فى البعث

نكتفى باختيار المبذة التالية من أشعاره الكثيرة التى تناول فيها هذه الفكرة، وهى — على مافى بعضها من تناقض ظاهرى — لاتكاد تختلف فى جوهرها :

زعموا أننى سأرجع شرخا كيف لى ! كيف لى ! وذاك التماسى
وأزور الجنان أحمر فيها بعد طول الهمود فى الارماس !

***

هى النفس تهوى الرحب فى كل منزل فكيف بها ، ان ضاق فى الارض قبرها
أتتنى أنباء كثير شجونها لها طرق ، أعيا على الناس سبرها
هفا — دونها — قس النصارى ، وموبذ ال مجوس ، وذيان اليهود ، وحبرها
وخطوا أحاديثاً لهم فى صحائف لقد ضاعت الاوراق فيها وحبرها
تخالفت الاشياع فى عقب الردى وتلك بحار ليس يدرك عبرها

***

أما القيامة ، فالتنازع شائع فيها ، وما لخبيئها إصحار
والجهل أغلب — غير علم أننا نفنى ، ويبقى الواحد القهار

***

وأعجب ما نخشاه دعوة هاتف : « أتيتم ، فهموا يا نيام ! الى الحشر »
فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى — يد الدهر — أو متنا مماة بلا نشر

***

لو كان جسمك متروكا بهيئته — بعد التلاف — طمعنا فى تلافيه

ولم يكن يرى حلا لهذه المشكلة المستعصية الحل ، إلا وسيلة واحدة

كالدن : عطل من راح تكون به ـ ولم يحطم ـ فعادت مرة فيه
لكنه صار أجزاء مقسمة ثم استمر هباء فى سوافيه

***

ويذكر أن فى الايام يوما يقوم من التراب مغيبوه
وما يحدث : فان آل عصر قليل فى المعاشر منحبوه

***

ويقال : « ان الله ـ حل حلاله ـ يوما : يطهر أرضه بالدار »

***

من للدفين بان يفرج لحده عنه : فيهبض ـ وهو أشعث أغبر
والدهر يقدم ، والمعاشر تنقصى والعمر تصديق بمين يخبر
رعم الفلاسفة الدنن تبطسوا أن المنية كسرها لا يجبر
قالوا : « وآدم مثل أوبر ، والورى كبباته ، جهل امرؤ ما أوبر »
كل الذى تحكون عن مولاكم كذب أتاكم عن يهود يحبر
رامت به الاحبار نيل معيشة فى الدهر ، والعمل القبيح يتير

***

ان يصحب الروح عقلى ـ بعد مظعنها للموت عنى ، فاحدر أن ترى عجبا
وان مضت فى الهواء الرحب هالكه هلاك حسمى فى تربى ، فواشجبا

* * *

حذ المرآة واستعرض نجوما تمر بمطعم الارى المشور
تدل على الحمام ـ بغير شك ـ ولكن لا تدل على النشور

***

تحطمنا الايام ـ حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

* * *

مستحيلة التحقيق ، بعيدة الحدوث ، ولكنها أمنية ـ على كل حال ـ من

قال المحم والطبيب ، كلاهما . « لا تحشر الاجسام » قلت : « اليكما »
« ان صح قولكما ، فلست بخاسر ، أو صح قولى ، فالخسار عليكما ! »

***

فليت الفتى كالبدر حدد عمره يعود هلالا ـ كلما فى الشهر
ولم تر بطن الارض يلقى لظهرها رجالا ، كما يلقى الى بطنها الظهر

***

حياة كحسر ، بين موتين ، أول وثان ، وفقد الشخص أن يعبر الجسر

***

والفقر موت ، غير أن حليمه يرجى له بتمول انتشار

***

أعلم أنى ـ اذا حييت قذى وأننى ـ بعد ميتتى مدر
كم من رجال جسومهم عفر تنبى بهم ، أو عليهم الحدر

***

رب روح كطائر القفص المسـ ـجون ، ترجو بموتها التسريحا
فرحوكم بباطل ـ شيمة الحمـ ـر ـ فهلا ، لا أوتر التفريحا
كيف لى أن أكون فى دار الأخـ ـرى ، معافى من شقوة مستريحا
عجبا لى : أعصى من الجهل عقلى ويظل السليم عندى جريحا :

***

لا نعلم الموتى تهم بكرة لكن أحياء تروم لحاقا

***

يكر موتانا الى الحشر ـ ان قال لهم بارئهم : « كروا »
يخلف مما آخر أولا كأننا السبل والر

***

الامانى التى لا بأس من تحدث النفس بها . وإن كانت جد واثقة من قلة غنائها . تلك الوسيلة هى استفسار من ماتوا عما لقوه من عذاب أو نعيم فى عالمهم الثانى . ليضع بذلك آخر حد لتضارب الآراء وتناقض الاخبار فى هذه المشكلة المستحيلة الحل . ويلجأ الى الأمانى — وإنما تسعفه الامانى — فود لو يتاح له الظفر بسؤال أحد الهالكين واستفساره عما لقيه — بعد الموت — لتنتهى باجابته شكوكه وحيرته انتهاء حاسما . فقال:

لو جاء من أهل البلى مخبر سألت عن قوم ، وأرخت
« هل فاز بالجنة عمالها وهل لوى فى النار نوبخت ؟ »

لعلك مجرى أغبار دينى اذا قمنا من الأحداث غبرا

* * *

ومتى شاء الذى صورنا أشعر الموت نشوراً فنشر

* * *

أيها الملحد ! ، لا تعص النهى فلقد صح ، قياس ، واستمر
ان تعد فى الجسم يوما روحه فهو كالربع حلا ، ثم عمر

* * *

قد يمكن البعث — ان نادى المليك به — وليس مما لدفع للشر امكان

* * *

اذا ما أعظمى كانت هباء فان الله لا يعييه جمعى

***

خلاصة رأى أبى العلاء التى تخرج بها بعد قراءة أشعاره فى البعث والنشور، هى أن الله اقدر كل شىء ، وأن قدرته التى أنشأت الانسان من العدم انشاء غير عاجزة — بلا شك عن انشائه مرة ثانية وثالثة ورابعة — متى أرادت — ولكن القدرة شىء والارادة شىء آخر ! فقد تقدر على الشىء ولا تريده أو تريده ولا تقدر عليه!

وقال :

أسكن الثرى : لا تبعثوا رسالة الينا : ولستم سامعي كلام الرسل
ولم تسل نفسي عنكم باختيارها ، ولكن طول الدهر يذهل أو ينسى

وقال :

داران ، أما هذه فمسيئة جدا ، ولا خبر لتلك الدار
ماجاء منها وافد متسرع ، فنقول للنبأ الجديد : « بدارا ! »

وقال :

« فهل قام من من قبره ميت يعيب على النفس اخفارها
يقول : « جنينا ذنوبا لنا وجدنا الهيمن غفارها »

الى آخر تلك الأبيات التي لا حاجة بنا الى استقصائها

* * *

ولكنه بعد أن سئم هذه التمنيات التي رددها كثيراً . ـ بلا طائل ـ لجأ الى نوع اخر من الأماني المجدية « وهو الخيال » وما أوسع عالمه ، اذا ضاق بالانسان عالم الحقائق !

وقد انتهز لذلك مناسبتين :

أولاهما : رسالة سائل ـ لم يحفظ لنا التاريخ اسمه ـ بعث بها اليه مستفسرا عن بعض المسائل الصرفية

وثانيتهما : رسالة على ابن منصور الملقب بدوخلة والمشهور بابن القارح وهي الرسالة المنشورة بالجزء الثالث من هذا الكتاب :

فكان جوابه على الاولى رسالة الملائكة ، وعلى الثانية رسالة الغفران. فأما رسالة الملائكة [١] فقد انتهز فيها مناسبة كل لفظة سأله المستفهم عنها ، للخروج منها الى ما يناسبها من لقاء عزرائيل الى محاسبة الملكين الى نفخ الصور الى دخول الجنة

وأما رسالة الغفران ، فقد انتهز فرصة الثناء على رسالة ابن القارح واطراء كلماتها للتوصل الى غايته التى رمى اليها ، فتمثل الملائكة ترفع كلمها الطيب الى السماء ونخذ من قوله ـ تعالى ـ : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » وسيلة الى تمثل الاشجار قد غرست فى الفردوس ، بعدد كلمات تلك الرسالة ، لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الاية التى كأنما كانت تعنيها بهذا الوصف

وساقه ذكر اشجار الجنة الى ذكر أنهارها وما فيها من الحور الى تنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها الخالد وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك الى وصف دخوله ودخول غيره من المغفورله جنان الخلد ، ثم جره ذلك الى زيارة أهل النار وسؤالهم عن السبب الذي جرهم الى هذه العقبى السيئة، وهكذا الى آخر أغراض الرسالة .

وبعد ان فرغ من ذلك القسم الممتع عاد الى الرد على رسالة ابن القارح [٢]

---

(١) رسالة الملائكة منشورة بعد رسالة ابن القارح

(٢) وقد افردنا للقسم الاول من الرسالة الجزء الاول من هذا الكتاب وللقسم الثانى « الجزء الثانى منه »

*
* *

فأما رسالة الملائكة فقد يخيل الينا أنها كتبت قبل رسالة الغفران ، لأنها ـ على جمال أسلوبها وتفرد خيالها ـ مقتضبة اذا قسناها الى رسالة الغفران . أو هى ـ إن شئت ـ انما كانت تمهيدا للفكرة الفنية التى قامت عليها الرواية

أما رسالة الغفران ، فهى ـ فى اعتقادنا أوضح وأدق وابرع صورة شعرية قرأناها عن العالم الثانى وأحوال الناس فيه ، وهى كما قلنا من قبل : « فن من الأدب العالى ، لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس غربى مفكر . . . . ! »

كامل كيلانى

وطلت

الغفران

كوميديا الهية منسوجها الجنة والنار

تمهيد

وصلت الرسالة (١) التى بحرها بالحكم مسحور (٢) ومن قرأها لا شك مأجور (٣) اذ كانت تأمر بتقبل الشرع (٤). وتعيب من ترك أصلا إلى فرع، وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة. وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة، ومثلها من شفع ونفع وقرب عند الله. وفى قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور، ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنحية من اللهب. معاريج (٥) من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة إلى السماء، بدليل الآية: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين باذن ربها»

وفى تلك السطور كلم كثير، كله عند البارئ - تقدس - أثير (٦)

---

(١) يعنى رسالة ابن القارح (٢) مملوء (٣) مثاب (٤) التزامه أو العمل على اتباعه والتمسك به (٥) جمع معراج وهو السلم أو المصعد (بكسر الميم وفتحها) (٦) مأثور - محبوب

الفصل الأول

الفردوس

وقد غرس لمولاى الشيخ الجليل إن شاء الله - بذلك الثناء - شجرة فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط (١) ، والولدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود ، يقولون - والله القادر على كل شىء عزيز « نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلى ابن منصور (٢) . تخيأ له إلى نفخ الصور » وتجرى فى أصول ذلك الشجر أنهار تختاج (٣) من ماء الحيوان (٤) . والكوثر يمدها فى كل أوان ، من شرب منها النغبة (٥) فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت (٦) وسعد من اللبن متخرقات لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر (٧) من الرحيق (٨) المختوم كما قال علقمة (٩) :

---

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تنتزع ، تحرك ، تطير (٤) الحياة
(٥) الجرعة (٦) الضياع (٧) أنهار كبيرة (٨) أطيب وأفضل أنواع الخمر
(٩) علقمة الفحل

توفى سنة ٥٦١ م

شاعر جاهلى عمر طويلا اسمه علقمة ، وكنيته ابن عبدة ، ولقبه الفحل ،

تشفى الصداع ولا يؤذيه صالبها ولا يخالط (١) منها الرأس تدويم (٢)

ويعمد اليها المعترف بكؤوس من العسجد (٣) وأباريق خلقت من الزبرجد . لو رآها أبو زيد (٤) لعلم أنه ما تشبب بخير . وهزئ بقوله :

وموطنه نجد ، وعشيرته تميم — وهو من ساداتها

ولعل أهم ما يستحق الاشارة اليه فى ترجمته ، حكايته المشهورة مع امرئ القيس وخلاصتها : أنهما اجتمعا ذات يوم ، فتداكرا الشعر وادعى كلاهما أنه أفحل من الآخر ، وتحاكما الى أم جندب (زوج امرىء القيس) فحكمت لعلقمة بالتفوق على زوجها ففضب منها امرؤ القيس وقال لها : « ليس الامر كما قلت ، ولكنك هويته ! » ثم طلقها ، فتزوج منها علقمة ، وفى هذه القصة مثل من الحالة الاجتماعية وحرية النساء فى الجاهلية ، أما قصيدتاهما فبائيتان احداهما لامرئ القيس وأولها :

خليلىّ : مرابى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

والثانية لعلقمة وأولها

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

قالوا : وقد انتقدت من امرئ القيس أنه جهد فرسه بسوطه وضربه بساقه ، وامتدحت من علقمة أنه أدرك طريدته — وهو ثان من عنان فرسه ؛ لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ، ولا زجره .

وسيمر بك حديثه « الخيالى » مع ابن القارح فى هذا الجزء ، وفيه طائفة من رائع شعره

(١) لا يخامر (٢) الدوار يعقب السكر (٣) الذهب

(٤) أبو زيد

لعله يعنى أبا زيد الانصاري البصرى المتوفى سنة ٢١٥ هـ ، الثقة فى النحو واللغة — كما يلقبه سيبويه — وهو امام كثير من علماء البصرة ومؤلف كتاب النوادر فى اللغة المطبوع فى بيروت سنة ١٨٩٤ وكتاب « القوس والترس » وكتاب « الابل » وكتاب « خلق الانسان » وكتاب المطر ، وكتاب المياه » وكتاب « بيوتات

وأباريقُ ، مثل أعناقَ طير الـ ـماء ، قد جيبَ[١] فوقهن خنيف[٢]

ولو نظر اليها علقمة[٣] البرق[٤] وفرق[٥] ، وعلم أنه قد طرق[٦] ، ما ابن عبدة[٧] وما فريقه ؟ قد خسر ، وكسر أبريقه . نظرة إلى تلك الأباريق خير من بنت الكرمة العاجلية ومن كل ريقٍ ضمنته هذه الدار الخادعة .

ولو بصر بها عدي بن زيد[٨] لشغل عن المدام والصيد واعترف بأن

العرب » وكتب أخرى ذكرها ابن خلكان فى ترجمته (حـ ١ ص٢٠٨)

ومما رواه ابو عثمان المازنى أن الاصمعى جاء الى حلقة أبى زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال له : « أنت رئيسنا وسيدنا ـ منذ خمسين سنة »

ومما رواه أبو ريد هذا ؛ أن خلف الاحمر (الراوية المشهور) حدثه ذات مرة عن نفسه ، أنه أتى الكوفة ليكتب عنهم الشعر ، فبخلوا عليه به ، فكان يعطيهم المنحول ، ويأخذ الصحيح ، فلما مرض قال لهم : « ويلكم : انى تائب الى الله ، هذا الشعر لى » فلم يقبلوا منه ، فبقى منسوبا الى العرب لهذا السبب

وفى هذا مثل يدعو الى الحذر والانتباه فى تمحيص فى روايات الرواة ؛

قالوا : « وكان أبو زيد يرى رأي القدر . »

(١) شق أو قدّ (٢) ثوب غليظ أبيض من الكتان (٣) مرت ترجمته فى ص (٤٦) (٤) تحير ، دهش (٥) اشتد فزعه (٦) ضعف عقله (٧) كنية علقمة الفحل ؛ وقد مرت ترجمته فى ص (٤٦)

(٨) عدى بن زيد العبادى

شاعر جاهلي نصرانى ، قبيلته تميم ؛ وموطنه الحيرة ؛ دخل الارياف فثقل لسانه ، ومن مختار شعره قوله :

أعاذل مايدريك أن منيتى الى ساعة فى اليوم ، أو فى ضحى الغد

أباريق مدامه أمر هين لا يعدل بنابت من حصيص (١) أو ما حقر من خربصيص (٢) . فاما الاقيشر السعدى (٣) ، فإنه قال ـ ولعله سيندم ـ :

ذرينى ، فانى انما لى ما مضى أمامى من مال ـ اذا حفت عودى
وحمت لميقات الى ميتى وغودرت ـ ان وسدت أو لم أوسد ـ
وللوارث الباقى من المال : فاتركى عتابى ، فانى مصلح ، غير مفسد

وقوله من قصيدة أخرى له :

أيها الشامت المعير بالدهـــر : أأنت المبرأ الموفور

الى أن يقول :

وتبين رب الخورنق اذ أشـ رف يوما ، وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يم لك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه ، فقال : « وما غبـ ـطة حى الى الممات يصير ! »

* * *

ثم بعد القلاع والملك والأمـــة وارتهم هنـاك قبـور
ثم صاروا كانهم ورق جف فألـــوت به الصبا والدبور

(١) بقلة رملية حامضة (٢) هنة فى الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، أو نبات له حب يتخذ منه طعام ، والغرض هنا التحقير

(٣) الاقيشر

كنيته ابو معرض . موطنه الكوفة . كان أحمر الوجه فسمى الاقيشر ، وكان حليماً ماجناً سكيراً ، وهجاء مقذعا . يغضب اذا قيل له « يا أقيشر » . ومن أحسن شعره قوله :

وصهبـاء جرجانيـة لم يطف بهـا حنيف ، ولم تنفر بها ساعـة قـدر
أتانى بهـا يحيى ، وقـد نمت نومـة وقـد غابت الشعرى وقد خفق النسر

أفنى تلادى (١) وما جمعت من نشب (٢) قرع القوازيز (٣) أفواه الابارين (٤)

لا يقنن أنه فنى بالغرو وسر بغير موجب للسرور . وكم على تلك الأنهار من آنية زبرجد وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق . يخال ان لمس احرق ، كما قال الصنوبرى :

يخيله ساطعاً وهجه فتأبى الدنو الى وهجه

وفى تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة (٥) والغانية عن الماء السابحة (٦) فمنها ما هو على صور الكراكى وأخر تشاكل المكاكى . وعلى خلق طواويس وبط . فبعض فى الجادبة وبعض فى الشط . ينبع من أفواهها شراب كأنه من الرقة سراب ، لو جرع منه جرعة الحكمى (٧) لحكم بأنه

فقلت اصطبحها . أو لغيرى فاهدها ثما أنا بعد الشيب ـ ويحك ـ والخمر
اذا المرء وفى الاربعين ، ولم يكن له دون ما يأتى حياء ولا ستر ـ
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى أتى وان جر أرسان الحياة له الدهر

(١) قديمى (٢) مال (٣) جمع قاروزة وهي قدح الشرب (٤) أذهب ثروتى ـ قديمها وحديثها ـ ادمانى معاقرة الخمر (٥) المائية (٦) البرية

(٧) ترجمة الحكمى « أبي نواس »

سنة ١٤٥ — سنة ١٩٩ هـ

الحسن بن هانئ « الحكمى » ويكنى أبا نواس ، مولده بالاهواز ، ونشأته فى البصرة (انتقل اليها قبل أن يتجاوز الثانية من عمره)

أسلمته أمه الى عطار ـ ولكن نفسه كانت تميل الى غير هذه الصناعة ـ لميله الشديد الى الشعر ، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلم والادب ـ حتى مر به الشاعر الماجن الظريف «والبة بن الحباب» ـ وكان أبو نواس معجباً به على السماع ـ فصحبه

الفوز . وشهد له كل وصاف للخمر — من محدث وعتيق — بأن أصناف الاشربة المنسوبة الى الدار الفانية كحمر عانة واذرعات وغزة وبيت راس ، وما جُلب من بُصرى وما اعتصر بصرخد أو أرض شام ، وما تردد ذكره

وأفسده ، وسار معه الى بغداد وسلمه أكثر من ثلاثين سنة ، وصحب العلماء والشعراء حتى نبه اسمه وطار صيته ، وقد اتصل بالرشيد ثم بابنه الامين

ومن مختار شعره قوله فى رثاء الامين :

طوى الموت ما بينى وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمها ... أحاديث نفس — مالها الدهر — ذاكر
لئن عمرت دور بمن لا أحبهم ، ... لقد عمرت ممن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ، ... فلم يبق لى شئ عليه أحاذر

ومن شعره الذى يمثل نفسه اللاهية الماجنة قوله .

وداهرى سما فى فرع مكرمة ... من معشر حلقوا — فى الجود — غايات
غاديته — بعد ما مال النجوم ، وقد ... صاح الدجاج — يبشرى الصبح — مرات
فقلت — والليل يحلوه الصباح — كما ... يحلو التبسم عن غر الثنيات
« يا أحمد المرتجى فى كل نائبة : ... قم سيدى ! نعص حمار السموات »

***

« وها كها قهوة صفراء صافية ... منسوبة لقرى هيت وعانات
صدمته بحمياها لابسطه ... ماللين طوراً ، وبالتشديد تارات
حتى تغنى — وما تم الثلاث له ... حلو الشمائل محمود السجيات :
« يا ليت حظى من مال ومن ولد ... أنى أجالس لهنى بالعشيات »

ومن غزله فى الامين قوله : (١)

---

(١) رووا أنه كان يشرب يوما مع الأمين ، فنشط للسباحة فنس ثيابه ملاح . ولبس كوثر (خادم الأمين) مثل ذلك . ووقعا فى البركة . فنظر ابو نواس الى بدن محمد . فرأى مالم ير مثله فلما كان من غد . جاء الحسين بن المندر مسلما عليه . فلما سأله الحسين عن خبره مع الأمين قال له ابو نواس : « ويلك ! رأيت الفتنة ! » ثم حدثه بخبره وانشد تلك الابيات فقال له . « ويحك اتق الله فى رأسك . فانه ان بلغه ذلك قتلك » فامسك ابو نواس بعد ذلك .

من كميت بابل وصريفين، وما عمل من أجناس المسكرات وما ولد من النخيل، اذا كانت تلك النطفة (١) ملكة لا تصلح أن تكون بزعاياها مشتبكة (٢)

ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الأنوار، ولا هو فى موم (٣) متين، ولكن قال له العزيز القادر «كن» فكان واها لذلك عسلاً لو جعله الشارب المحروم غذاءه طول الابد ما قدر له عارض موم (٤) ولا لبس ثوب المحموم وذلك كله بدليل الآية: «مثل الجنة التى وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن (٥) وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات» فليت شعرى عن النمر بن تولب العكلى (٦) هل يقدر

أصبحت صباً، ولا أقول بمن ... من حوف من لا يخاف من أحد
ان أنا فكرت فى هواى له ... حسبت رأسى قد طار عن جسدى
انى - على ما ذكرت من فرق - ... لا آمل أن أناله بيدى

(١) الماء القليل؛ وهى أيضاً الماء الصافى - قل أو كثر - والمقصود هنا هنا المعنى الاول (٢) متصلة بها أو منسوبة اليها (٣) شمع (٤) مرض شديد الوطأة (٥) آجن، متغير الطعم واللون

(٦) النمر بن تولب العكلى

شاعر جاهلى أدرك الاسلام، قبيلته عكل، وقد وفد على النبى ومدحه بشعره، وهو صاحب البيت المشهور:

أهيم بدعد ما حييت - فان أمت ... أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

وفى رواية أخرى «فيا ليت شعرى من يهيم بها بعدي؟» والبيت ينسب الى سواه أيضاً

وله مجهرة جميلة يرجع اليها من شاء فى جمهرة أشعار العرب «ص ٢١٦»

أن يذوق ذلك الأرى (١) فيعلم أن شهد الفانية اذا قيس اليه وجد شاكه (٢) الشرى (٣)، وهو لما وصف أم حصن (٤) ذكر حوارى (٥) بسمن وعسل مصفى، قال:

ألم تصحبتى وهم هجوع ... خيال طارق من أم حصن

لها ما تشتهى عسلا مصفى ... اذا شاءت وحوارى بسمن

ولو خالط من (٦) من عسل الجنان ما خلقه الله سبحانه فى هذه الدار الخادعة كالصاب والمقر (٧) لعد من اللذائذ المرتقيات

* * *

واذا من الله تبارك اسمه ـ بورود تلك الأنهار، صاد فيها الوارد سمك حلاوة لم ير مثله. لو بصر به احمد بن الحسين (٨) لاحتقر الهدية التى

---

(١) العسل (٢) يشابه (٣) الحمظل (٤) حبيبته (٥) حبزا (٦) المن كل رطل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو ويعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ، والمن كيل أو ميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعا مائة وثمانون مثقالا وعرفا مائتان وثمانون والمقصود مكيال صغير (٧) المر

(٨) احمد بن الحسين «المتنبى»

٣٠٣ سنة ٣٥٤ هـ

اسمه احمد بن الحسين، لقبه المتنبى، كنيته أبو الطيب، ولادته بالكوفة وكان أبوه سقاء

نشأ أبو الطيب محباً للعلم والادب قوى الحافظة، فلما ترعرع حمله أبوه الى الشام يتنقل به من باديتها الى حاضرتها، واستمر فى تلقى العلم فاتقن اللغة وتعمق فى معرفة حواشيها وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيره

نشأ بعيد الهمة، كبير النفس فلم يقنع بالشهرة الادبية بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح! فدعا الى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه، ولما كاد

أهديت اليه فقال فيها

يتم له ذلك، وصل خبره الى والى البلدة فقبض عليه وحبسه ؛ ثم أطلقه الوالى بعد حين .

فيقال انه خرج الى بنى كلب ، وأقام فيهم وادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة — وفى هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الاخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن دهراً طويلا ، حتى كاد يتلف ، فسئل فى أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ؛ وأطلقه . فكان المتنبى كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »

* * *

ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدنائه بالجوائز ومنهم سيف الدولة ابن حمدان فقدم عليه المتنبى سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبى وابن خالويه النحوى المشهور قول فى مجلس سيف الدوله فوثب على المتنبى فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبى . ورحل الى مصر . وتقرب من عدو بنى حمدان كافور الاخشيدى سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاما من سيف الدولة فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال : « يا قوم : من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ، ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم ابو الطيب بغداد ، ثم فارس ، حيث امتدح عضدالدولة ابن بويه الديلمى فأجزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصداً بغداد حيث قتل فى طريقه .

ومن أجمل ما نختاره من شعره قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن اقحم حتى لات مقتحم
لا تركنن وجوه الخيل عابسة والحرب اقوم من ساق على قدم

اقل ما فى اقلها سمك يلعب فى بركة من العسل (١)

بكل منصلت ما زال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم

* * *

وقوله من قصيدة احرى :

عمرست بالآفات حتى تركتها تقول : « أمات الموت أم ذعر الذعر؟ »
وأقدمت اقدام الأتى كأن لى سوى مهجتى ، أو كان لى عمدها وتر
در النفس تأخذ وسعها قبل بينها تفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد رقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا ، كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وفيها يقول :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر ، فالذى فعل الفقر

* * *

وقوله من قصيدة طويلة :

يا ساقيى ! أخمر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ مالى لا تغيرنى هذى المدام ، ولا هذى الاغاريد
ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه أنى بما أنا باك منه محسود

وقد ذكرنا نخبة مختارة من شعره الرائع فى كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسي بمناسبة المقارنة التى عقدناها بينه وبين ابن هانئ الشاعر الاندلسى الذى كان يعاصره ، فليرجع من شاء الى ذلك الفصل من ص (١٢٧ — ١٧٧)

(١) هذا البيت من قصيدة له ارتجلها فى صباه حين اهدى اليه عبيد الله بن خلكان هدية فيها سمك من سكر ولوز من عسل وأولها :

قد شغل الناس كثرة الأمل وأنت بالمكرمات فى شغل

فأما الأنهار الخمرية فتلعب فيها اسماك هى على صور السمك بحرية ونهرية . فاذا مد المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذبا لو وقعت الجرعة منه فى البحر الذى لا يستطيع ماءه الشارب لحلت منه اسافل وغوارب (١)

ومنها :

هدية ما رأيت مهديها الا رأيت العباد فى رجل
أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من العسل

(١) الغارب هو الكاهل أو ما بين السنام الى العنق والمقصود به هنا سطح البحر

ندامى الفردوس

وكأنى به ـ وقد استحق تلك الرتبة ـ وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس كأخى ثمالة (١) ، وأخى دوس (٢) . . . . . .

(١) أحو ثمالة « المبرد »

اسمه محمد بن يزيد ويكنى أبا العباس وأحا ثمالة ويلقب بالمبرد ، صاحب كتاب الكامل الذائع الصيت ؛ وهو الذى يقول فيه الشاعر :

سألنا عن ثمالة كل حى ، فقال القائلون : « ومن ثماله ؟ »

فقلت : « محمد بن يزيد منهم » فقالوا : « الآن زدتهم جهاله »

(٢) أحو دوس « ابن دريد »

٢٢٣ — ٣٢١

اسمه محمد بن الحسن كنيته أبو بكر ، وموطنه البصرة ـ ولد ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها كالرياشى والسجستانى ـ ثم غادرها الى عمان اثناء فتنة الزنج التى حدثت بها « ارجع الى ديوان ابن الرومى (ج ٣ من ص ٤١٩ ـ ٤٢٧) » فأقام بها اثنتى عشرة سنة آخذاً اللغة والشعر عن الاعراب ، ورجع الى البصرة شاخصا الى فارس منتجعا الشاه ابن ميكال وولده ، وألف لهما كتاب الجمهرة ـ فى اللغة ـ فقلداه الديوان ، وقد ابدع فى مدحهما فى مقصورته الخالدة حين قال من كلام رائع :

هما اللذان أثبتا لى أملا قد وقف اليأس به على شفا

تلافيا العيش الذى رنقه صرف الزمان ـ فاستساغ ، وصفا

وأحريا ماء الحيا لى رغداً ، فاهتز غصنى بعد ما كان زوى

هما اللذان سموا بناظرى من بعد اغضائى على لذع القذى

هما اللذان عمرا لى جانبا من الرجاء ، كان قدما قد عفا

الى أن يقول :

ان ابن ميكال ـ الأمير ـ انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللقى
ومذ صفى أبو العباس ، من بعد انقباض الذرع والباع الوزى

ولما عزلا عن عمالة فارس ، وانتقلا الى خراسان ، ذهب ابن دريد الى بغداد سنة ٣٠٨ هـ فاحتفى به أهلها وأجرى عليه الخليفة « المقتدر » خمسين ديناراً في كل شهر حتى اصيب بالفالج ومات سنة ٣٢١ .

ومن الملح التي يروونها عنه بعض من حضر مجالسه ، أنه كان يتصحر ممن يخطئ في قراءته ، فحضر غلام وضيء ، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ ـ وابن دريد صابر عليه ـ فتعجب أهل المجلس ، فقال رجل منهم : « لا تعجبوا ، ان في وجهه غفران ذنوبه » فسمعها ابن دريد ، فلما أراد أن يقرأ قال : « هات يا من ليس في وجهه غفران ذنوبه » قالوا : « فعجبوا من صحة سمعه مع علو سنه »

وقال بعضهم فيه :

من يكن للظباء صاحب صيد فعليه بمجلس ابن دريد
ان فيه لأوجها قيدتني عن طلاب العلا بأوثق قيد

ويروون عنه أنه كان مولعا بآلات الطرب ، وقد بلغ من حبه الخمر أن سائلا سأله شيئا ، فلم يجد ما يعطيه الا دن نبيذ ، فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به ، فقال : « ليس عندي سواه » وقرأ قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قالوا : واهدى اليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : « اخرجنا دنا جاءنا عشرة ! »

وأخباره طويلة وحياته حافلة وشعره رائع ، وهو جدير أن يعنى الادباء بادبه وتفهم شخصيته الجذابة ، عناية خاصة ، ومقصورته الطويلة من آيات الشعر العربي وليس يتسع هذا المقام الضيق الى التوسع في ترجمته أو التمثل بشعره الجميل ، غير أنا

نكتفى من ذلك بأبيات قلائل تعد بمثابة اشارات الى حظه العظيم وشاعريته الباهرة ، فمن ذلك قوله . وهو يعد فى رأينا انتماها الى أحد الأسس الثلاثة التى بنى عليها النقادة الفرنسى تين (Taine) نظريته فى تفهم حياة الأدباء ، وهى « الزمن والبيئة والجنس » قال :

وكل قرن ناحم فى رمس فهو شبيه رمس فيه بدا

ومن أبدع معانيه قوله فى تلك المقصورة أيضا :

لو كانت الاحلام تاحتنى بما القاه يقظان ، لأصمانى اردى
منزلة ، ما حلتها يرضى بها لنفسه ، ذو أدب ولا حجا
شيم سحاب حلب بارقه وموقف بين ارتجاء ومنى
فى كل يوم منزل مستوبل يشتف ماء مهجتى ؛ أو مجتوى
ما حلت أن الدهر يثنيى على صراء ـ لا يرضى بها ضب الكدى
أرمق العيش على برض ، فان رمت ارتشافا رمت صعب المنتشى

* * *

أراجع لى الدهر حولا كاملا الى الذى عود ؟ أم لا يرتجى ؟
يا دهر ! ان لم تك عتبى فاتئد ، فان ارودك والعتبى سوا
رفه على طالما انصبتنى واستبق بعض ماء غصص ملتحى

وهما يقول ويبدع :

لا تحسبن يا دهر أنى ضارع لنكبة تعرقنى عرق المدى
مارست من لوهوت الافلاك من حواب الجو عليه ما شكا
لكنها نفثة مصدور ـ اذا جاش لغام من نواحيها ـ عما
رضيت قسرا ، وعلى القسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا
ان الجديدين ـ اذا ما استوليا على جديد ـ أدنياه للبلى
ما كنت ادرى ـ والزمان مولع بشت ملوم ، وتنكيث قوى ـ
أن القضاء قاذفى فى هوة لا تستبل نفس من فيها هوى الخ الخ

الضبي [١]. فهم ـ كما جاء فى الكتاب العزيز ـ : « ونزعنا ما في صدورهم

ونختم هذه المختارات بقوله من قصيدة طويلة ، فياضة بالشاعرية العالية :

وبالشعر يبدى المرء صفحة عقله ... فيعلن منه كل ما كان يكتم
وسيان من لم يمتط اللب شعره ... فيملك عطفيه وآخر مفحم
حوانب أرجاء البلاد مطلة ... تبيد الليالى ، وهى لا تتخرم
ألم تر ما ادت اليما وسيرت ... على قِدم الايام عاد وحرْهم
هم اقتصبوا الأمثال صعما قيادها ... فذل لهم منها الشريس الغشمشم
وقالوا : الهوى يقظان ، والعقل راقد ... وذو العقل مذكور ، وذو الصمت أسلم
ومما جرى كالوسم فى الدهر قولهم : ... على نفسه يجنى الجهول ويجرم
وكالنار فى يبس الهشيم مقالهم : ... ألا ان اصل العود من حيث يقصم
فقد سيروا ما لا يسير مثله ... فصيح على وجه الزمان وأعجم

وأحب أن يرجع القارىء الى رثائه فى الجزء الثالث من كتاب الامالى لابى على القالى (ص ٢٢٩) ليتبين مكانه فى قلوب معاصريه ، ولقد أصاب أبو العلاء واحسن كل الاحسان حين لقبه بشيخ الادب ، أثناء استشهاده بشعره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وسيمر بك ذلك فى حينه

(١) يونس بن حبيب الضبي

أخذ الأدب عن أبى عمرو بن العلاء وحماد بن سلمة ، وغلب عليه النحو حتى أخذ عنه أبو زيد الانصارى النحوى « مرت ترجمته فى ص (٤٧) » وخلف الأحمر .

وقد عرف عنه شدة التعصب لرؤبة بن العجاج ، حتى انه كان لا يبالى ان يسىء الى بعض ذوى الرفعة والجاه فى سبيل الذود عن أستاذه رؤبة ، ومن ادلة تعصبه له ، أنه سئل يوما : « من اشعر الناس ؟ » فقال « العجاج ورؤبة » فقيل : « لم نعن الرجاز » فقال . « هما أشعر أهل القصيد ، وانما الشعر كلام

من خلف، لخوانا على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين »
فصدر احمد بن يحيى (١) هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن
يزيد (٢) فصارا يتصافيان ويتوافيان . وأبو بشر عمرو بن عثمان
« سيبويه » (٣) قد رحضت سويداء قلبه من الضغن على
علي بن حمزة الكسائي (٥) وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة،

وأجوده أشعره ! »

ومن مؤلفاته كتاب « معاني القرآن » وكتاب « اللغات » وكتاب « الأمثال »

(١) احمد بن يحيى هو المشهور بثعلب النحوي اللغوي ، وكان بينه وبين المبرد مساءاة

(٢) هو أبو العباس المبرد « وقد مرت ترجمته في ص (٥٧) »

(٣) سيبويه

توفي سنة ١٨٣ هـ

اسمه عمرو بن عثمان مولى الحارث بن كعب ، وكنيته ابو بشر ، ولقبه سيبويه وهي كلمة فارسية معناها « رائحة التفاح » ونشأته بالبصرة وقد اصبحت شهرته في النحو مضرب الامثال ، وذاع صيته ونبه شأنه لا سيما بعد كتابه الذي الفه في النحو والذي استبق اليه الناس استباقا ، وبلغ من اجلال شأنه واكبار خطره أن أبا عثمان المازني قال فيه : « من أراد ان يعمل كتابا كبيراً في النحو — بعد كتاب سيبويه — فليستح » وقول أبي العباس المبرد — لكل من أراد دراسة هذا الكتاب : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما بشأنه

واسم سيبويه أشهر من يحتاج الى ترجمة أو تعريف .

(٤) غسلت

(٥) الكسائي (توفي سنة ١٨٩ هـ)

اسمه علي ابن حمزة . ولقبه الكسائي . وأصله فارسي . وهو اشهر نحاة الكو

وأبو عبيدة [١] صافى الطوية لعبدالملك بن قريب [٢] ، والملائكة يدخلون

أخذ عن الخليل بن احمد ، واستقدمه خلفاء بنى العباس والبرامكة الى بغداد لتعليم أبنائهم ، اشتهر بعدائه لسيبويه وكثرة التعريض به ، ومنازعتهما فى مسألة الزنبور والبحلة وتعصب الامين للكسائى مع أن الحق مع سيبويه. لانه معلمه، مشهورة . فلا حاجة لذكرها هنا

(١) أبو عبيدة

توفى سنة ٢٠٩ هـ .

اسمه معمر ، اسم ابيه المثنى التيمى ، كنيته ابو عبيدة

انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم، واشتهر بمناظراته مع الأصمعى فى مجلس الرشيد .

وكان متعصبا على العرب ، وكان يرى رأى الخوارج ، وكان لحانا قذرا ، وقد أولع بالمثالب حتى أنه الف فيها كتابا ، ولم يسلم من طعنه شريف ، وكان شديد الثقة بنفسه ، وقد بلغ من مغالاته فى الاعتداد بها ، ما أثر عنه من قوله: «ما التقى فرسان فى جاهلية أو اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما »

وهـذا كلام يدل على الغرور والخيلاء ، على انه حفظ لنا كثيرا من اخبار العرب التى كانت تضيع : لولا ما تركه من المؤلفات العديدة . وان كان لم يصلنا منها الا النزر اليسير

(٢) عبدالملك بن قريب « الأصمعى »

توفى سنة ٢١٤ هـ

اسمه عبدالملك بن قريب ، ولقبه الاصمعى ، وقبيلته قيس وموطنه البصرة ، وقد قدم الى بغداد فى أيام الرشيد .

كان واسع الرواية حاضر المحفوظ متبحرا فى اللغة ، ولا أدل على ذلك من الكتب التى أفردها خاصة بأسماء الوحوش والابل والخيل والنبات والشجر ، وآخر ذلك .

عليهم من كل باب : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »، وهو معهم كما قال البكرى (١) :

---

(١) « البكرى » أعشى قيس

توفى سنة ٦٢٩ م .

اسمه ميمون بن قيس وكنيته أبو بصير ولقبه الاعشى، وقبيلته بكر بن وائل ومسكنه الحيرة ومن اكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنون به ـ كما كان هو يتغنى بشعره أيضا ـ ومن ثم دعوه « صناجة العرب » وهو لقب كبير الخطر يدل على ما أحرزه من صيت ورفعة شأن.

ولعل اكبر عيوبه أنه كان ـ فيما يقول مؤرخو الآداب ـ أول من سن للشعر طريقا غير محمودة لتكسبه به ـ ومن ثم يقع عليه هذه الخلة الممقوتة اذا صحت عنه.

أما شعره فرائع فياض باسمى العواطف والاحساسات، وهو يمتاز بموسيقية خاصة وروح حميمة وأسلوب مشرق بالحياة والقوة . وقد اشتهر بوصفه للخمر ، وكان يستريها من عمال الحيرة الذين كان يكثر التردد عليهم والاحتلاط بهم ، وربما أثر ذلك فى عقيدته ، فقد قالوا عنه انه كان قدرى المذهب ، واستدلوا على ذلك بقوله .

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا ،

وهذا بيت جامع دقيق يصح ان يكون خلاصة مذهب فلسفى ـ على ايجازه !

* * *

أما حظه وأثر شعره فى نفوس معاصريه الجاهليين ، فقد وصل الى أبعد حد ، فقد كان لا يمدح أحدا الا رفعه ، وفى حكايته المشهورة مع المحلق الذي كانت قافيته التى امتدحه بها سببا فى ترويح بياته الثمانى ـ اكبر دليل على ذلك .

ولم يغفل اعداء النبى عن هذه الميزة الباهرة التى امتاز بها شعر الاعشى، فخشوا ان يسلم فيمدح النبى فيذيع امره ويقبل الناس على دينه، وعرفوا ان الاعشى حين

نازعتهم قضب الريحان مرتفقا (١) وقهوة (٢) مزة (٣) راووقها (٤) خضل
لا يستفيقون منها وهى راهنة (٥) الا « بهات » وان علوا ، وان نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف (٧) مقلص أسفل السربال معتمل (٨)

المال وحرصه عليه ، فعزم أبو سفيان وقومه على اغرائه بالرجوع ورصدوه فى طريقه ، فلما وصل اليهم قالوا له : « أين أردت يا أبا بصير؟ » فقال: أردت صاحبكم هذا لأسلم » : فقالوا : « انه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها رفق ولك موافق » قال « وما هن ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب : « القمار » قال : « لعلى ان أصبت منه عوضا عن القمار ! ثم ماذا » قالوا : « الربا » قال « : ما دنت ولا أدنت ، ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » قال : « أوه . ارجع الي صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها »

فقال له أبو سفيان : « وهل لك فى خير مما هممت به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن فى هدنة ، فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سنتك هذه ـ وتنتظر ما يصير اليه أمرنا ، فان ظهرنا عليه ، كنت قد أحذت خلفا ، وان ظهر علينا ، أتيته » فقال : « ما أكره ذلك » فقال أبو سفيان « يا معشر قريش ! هذا الاعشي ، لئن أتى محمد أو اتبعه ، ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الابل » ففعلوا ، فاخذها ، وانطلق الى بلده ، فلما قرب من اليمامة سقط عن ناقته ، فدقت عنقه ومات ودفن بها

(١) متلطفا ـ مترفقا وقيل المرتفق هو المتكىء على المرفق (٢) خمراً (٣) لذيذة الطعم ـ فيها مزازة (٤) اناؤها وقيل الراووق هو ما يخرج من ثقب الدن

(٥) مبتل ـ ند يترشف نداه ـ دائم الندى (٦) معدة ، دائمة لا تنقطع

(٧) جمع نطفة وهى الماء الصافى قل أو كثر ، ومعناها هنا أنه مشرق الوجه جميل الطلعة لكثرة ماء وجهه (٨) مدرب

ومستجيب[١] لصوت الصنج[٢] يسمعه اذا تُرَجِّع[٣] فيه القينة الفضل[٤]

وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب، ومقاتل الفرسان، والأصمعي ينشدهم ما أحسن قائله، وهم تنفوسهم للعَجَب، فيقذفون تلك الآنية في انهار الرحيق، ويصفقها[٥] الماذيّ[٦] أي تصفيق. وتقترع[٧] تلك الآنية فيسمع لها أصوات تبعث[٨] بمثلها الاموات. فيقول الشيخ: « آه لمصرع الاعشى ميمون: وددت انه ما صدته قريش لما توجه الى النبيّ — صلى الله عليه وسلم[٩] ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس فينشدنا غريب الاوزان مما نظم في دار الاحزان، ويحدثنا حديثه مع هوذة ابن علي[١٠] وعامر بن الطفيل[١١] ويزيد بن مُسيهر وغيرهم ممن مدحه

(١) قيل هو العود شبه صوته بصوت الصنج دعاه فاجابه (٢) نوع معروف من آلات الطرب (٣) تصرفه من شدة الى لين

(٤) هي المتفصلة في ثوب واحد أي المتوشحة به مخالفة بين أطراف ثوبيه على عاتقها — وقيل هي التي عليها ثوب بلا درع أو التي تحت درعها ازار

(٥) صفق الشراب نقله من اناء الى اناء (٦) العسل الابيض (٧) يصك بعضها بعضا (٨) تحيا بعد الموت (٩) ارجع الى (ص ٦٣ و ٦٤)

(١٠) هوذة بن علي

كان ملكا على اليمامة وكان نصرانياً فاسلم ثم ارتد، وذلك أنه قال: « اجعل لي محمد الأمر من بعده أسلمت ونصرته » فقال النبي (صلعم): « لا، ولا كرامة، اللهم اكفنيه » فمات بعد قليل

(١١) عامر بن الطفيل

فارس قيس وابن عم لبيد كان أعور عقيما لا يولد ولد، أتى النبي — صلى الله عليه

أو هجاه ، وخافه فى الزمن أو رجاه

نزهة ابن القارح

إنه ـ أدام الله تمكينه ـ يخطر له حديث شىء كان يسمى «النزهة» فى الدار الفانية . فيركب نجيبا (١) من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، فى سجسج (٢) بعد عن الحر والقر . فيسير فى الجنة على غير منهج ومعه شىء من طعام الخلود . فاذا رأى نجيبه يُمْلِع (٣) بين كثبان العنبر رفع صوته متمثلا بقول البكرى : (٤)

ليت شعرى متى تخب (٥) بنا النا قة بين العذيب فالصيبون (٦)

وسلم ـ فقال له: «أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم» فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اللهم اكفنى عامرا واهد بنى عامر، فانصرف وهو يقول: « لأملأنها خيلا حردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرساً» فطعن فى طريقه فمات ، ومن مختار شعره قوله :

وانى وإن كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى احمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

ومن أجمل شعره قوله :

قضى الله فى بعض المكاره للفتى برشد ، وفى البعض الهوى مايحاذر
ألم تعلمى أنى ـ اذا الالف قادنى الى الجور ـ لاأنقاد ، والالف جائر

(١) جملا كريما (٢) جوّ معتدل لا حر فيه ولا برد (٣) يسير سيراً سريعاً وخفيفاً (٤) هو الاعشى وقد مرت ترجمته فى ص «٦٣» (٥) الخبب نوع من سير الابل (٦) العذيب والصيبون مكانان ببلاد العرب

مخقبا (١) زكرة (٢) وخبز رقاق وحباقا (٣) وقطعة من نون (٤)

حديث الاعشى

فيهتف هاتف « أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ »

فيقول الشيخ : « نعم . حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم . أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل » فيقول الهاتف « أنا ذلك الرجل ، منّ الله علىّ بعد ما صرت من جهنم على شفير ، ويئست من المغفرة » فيلتفت اليه الشيخ هاشا بشا مرتاحا ، فاذا هو برشاب غرانق (٥) وقد صار عشاه حورا وانحناء ظهره قواما ، فيقول « سحبتى الزبانية الى سقر ، فرأيت رجلا فى عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، والناس يهتفون به من كل أوب (٦) « يا محمد يا محمد الشفاعة ! الشفاعة ! نمت بكذا ونمت بكذا » فصرخت فى أيدى الزبانية « يا محمد أغثنى . فان لى بك حرمة » فقال : « يا على : بادره فانظر ما حرمته » فجاء على بن أبى طالب ـ صلوات الله عليه ـ وأنا أعتل (٧) كى ألقى فى الدرك الاسفل من النار ، فزجرهم عنى وقال « ما حرمتك ؟ » فقلت أنا القائل :

---

(١) واضعاً فى حقيبتى (٢) زقا صغيراً للخمر (٣) حزرة البقل (٤) النون السمك ومعنى الابيات أنه يبدي شوقه الشديد الى ركوب ناقته مسرعة به فى رحلتها نحو العذيب والصيبون وقد وضع فى حقيبته رق خمر صغيراً وخبز رقاق وحزمة من القت وقطعة من السمك ، وهذا هو كل زاده الشهى فى تلك الرحلة الجميلة التى يتوق اليها

(٥) جميل (٦) الأوب الطريق ومن كل أوب أى من كل طريق أو من كل جهة (٧) أجر يعنف

ألا أيها ذا السائلي أين يمّمت ... فان لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا ارثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تريحي وتلقي من فواضله ندى
أجدك[1] لم تسمع وصاة محمد ... نبي الاله حين اوصى وأشهدا :
اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وابصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وانك لم ترصد[2] لما كان أرصدا[3]

وقد كنت أومن بالله وبالحساب ، واصدّق بالبعث وأنا في الجاهليه الجهلاء ، فذهب علي إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال « يا رسول الله ، هذا أعشى قيس ، قد روى مدحه فيك ، وشهد انك نبي مرسل » فقال « هلاّ جاء في الدار السابقة ؟ » فقال علي : « قد جاء ولكن صدته قريش وحبّبه للخمر [4] » فشفع لي فادخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمراً ،

---

(١) أجدك — بفتح الجيم وكسرها أي أبجد منك هذا ، وهو منصوب على نزع الخافض (٢) أرصد الرقيب أي نصبه على الطريق (٣) معنى الأبيات : أيها السائلي أين تذهب بي ناقتي ، انها ذاهبة الى يثرب ، الى محمد بن عبد الله ، وقد أقسمت لا أريحها ولا أشفق عليها مهما عانت من الانضاء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبي الكريم ، فاذا انتهت الى بابه رأت من كرمه وفواضله ما ينسيها كل مالقيته من الجهد والنصب ، وأنت ، الم يبلغك بربك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذي حفزني الى لقائه ، لقد حث على التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامي ، وبين مآل المتهاونين في تنفيذ تلك الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما زف من الخير — في الدار الآخرة — الى من أطاعه وعمل بنصائحه في الدار الاولى

(٤) ارجع الى ص (٦٣ و ٦٤)

فقرت عيناي بذلك، وان لى مناديم[١] فى العسل وماء الحيوان[٢]، وكذلك من لم يتب من الخمر فى الدنيا لم يسقها فى الآخرة

حديث زهير ابن ابي سُلمى

ويخطر الشيخ فى رياض الجنة فيرى قصرين مُتيفين[٣] فيقول فى نفسه: «لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما» فاذا قرب منهما رأى على أحدهما مكتوبا «هذا القصر لزهير بن ابي سلمى المزني[٤]» وعلى الآخر

---

(١) جمع مدوحة أى سعة أو غنية (٢) ماء الحياة (٣) عاليين

(٤) زهير بن أبى سلمى

توفى سنة ٦٣١ م أى قبل البعثة بسنة

هو من مزينة ـ احدى قبائل مضر، وقد اشتهرت أسرته بالشعر، واشتهر بمدحه هرم بن سنان كما اشتهر بالتفوّق فى اجادة الحكم مع الصدق وعدم المبالغة والبعد عن المعاطلة فى الكلام، وتحبب حوشى اللفظ، ومن خير شعره قوله من معلقته:

سألنا فاعطيتم، وعدنا فعدتم، ومن أكثر التسآل ـ يوما ـ سيحرم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته ـ أو نقصه ـ فى التكلم
لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
. . . . . .
سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش ثمانين حولا ـ لا أبالك ـ يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى
رأيت المنايا خبط عشواء، من تصب تمته، ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب، ويوطأ بمنسم

. . . . . « هذا القصر لعبيد بن الأبرص

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه ، يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ، ومن يهد قلبه ... الى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وان يرق أسباب السماء يسلم
ومن يعص أطراف الزجاج ، فانه ... يطيع العوالى ، ركبت كل لهدم
ومن لم يدد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... — وان خالها تخفى على الناس — تعلم

وقوله من قصيدة أخرى :

أرونا خطة لا ضيم فيها ... يسوى بيننا فيها السواء
فان ترك السواء ، فليس بيني ... وبينكم — بنى حصن : — بقاء
وإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء

وقوله :

ألا ليت شعرى : هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر ؟ أو يبدو لهم ما بدا ليا ؟
بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم ... وأموالهم ، ولا أرى الدهر فانيا
وأنى متى أهبط من الارض تلعة ... أجد أثراً قبلى جديداً وعافيا
أرانى — اذا أمسيت — أمسيت ذا هوى ... فثم — اذا أصبحت — أصبحت غاديا
الى حفرة أهوى اليها مصمة ... يحث اليها سائق من ورائيا

***

بدا لى ان الله حق فزادنى ... الى الحق تقوى الله ، ما كان باديا
بدالى انى لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئا اذا كان جائيا
وما ان أرى نفسى تقيها منيتى ... وما ان تقى نفسى كرائم ماليا

الأسدى[١] » فيعجب من ذلك ويقول: « هذان ماتا فى الجاهلية ، ولكن

وقوله :

ولا تكثر على ذى الضغن عتبا ولا ذكر التجرم للذنوب
ولا تسأله عما سوى يبدى ولا عن عيبه لك فى المغيب
متى تك فى صديق أو عدو تخبرك الوجوه عن القلوب

وقوله :

وذى نسب ناء بعيد وصلته بمال ، وما يدرى بأنك واصله
وذى نعمة تممتها وشكرتها وحصم يكاد يغلب الحقَّ باطله
دفعت بمعروف من القول صائب اذا ما أصل الناطقين مفاصله
وذى حطل فى القول ، يحسب أنه مصيب ، ثنا يلمم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وقوله :

ان كنت لاترهب ذمى ، لما تعرف من صفحى عن الجاهل
فاحش سكوتى ـ اذ أنا منصت فيك لمسموع خنا القائل
فسامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فلا تهج ـ ان كنت ذا ارنة ـ حرب أخى التجربة العاقل
فان ذا العقل ـ اذا هجته ـ هجت به ذا حمل خابل
تبصر من عاجل شداته عليك غب الضرر الآجل

وهذه القصيدة تنسب لزهير مرة ولمحمد بن حازم الباهلى أخرى

(١) عبيد بن الابرص الاسدى
(توفى سنة ٥٥٥ م)

قبيلته مضر وهو من بنى أسد ، عمر طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء حين

رحمة ربنا وسعت كل شيء ، وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما يم غفر لهما ، فيبتدىء نزهير فيحده شابا كالزهرة الحنيّة ، كأنه ما لبس جلباب هرم ، ولا تأفف من البؤس (١) وكأنه لم يقل فى الميمية :

ورد عليه فى يوم نؤسه « سمى بذلك لان المنذر غصب يوما فقتل نديمين له من بنى أسد ، فلما أصبح ندم ، فبنى على قبريهما صريحين أسماهما الغريين ، وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما هناك ـ أسمى أحدهما يوم النعيم والآخر يوم البؤس ، فكان أول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأول من يطلع عليه فى يوم البؤس يقتله ويطلى بدمه الغريين » وقد اتفق ان جاءه عبيد فى يوم بؤسه فقتله ومن مختار شعره قوله :

لكل ذى غيبة إياب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وأكثر أبيات معلقته غير جار على الوزن العربى المعروف ، واختلال الوزن فيها واضطرابه ظاهران . كقوله :

أفلح بما شئت قد يبلغ بالضعـ ف وقد يخدع الأريب

وقد أشار أبو العلاء الى ذلك فقال :

وقد يخطىء الرأى امرؤ ـ وهو حارم ـ كما احتل فى وزن القريض عبيد

وتعليل هذا الاحتلال والاضطراب فى نظرنا انه كان ـ فيما نظن ـ يوقع القصيدة على نغمة خاصة به ، غير تلك التى كان يوقع عليها سواه من العرب ، ولو اهتدينا الى طريقة انشاده الخاصة ، والاسلوب الذى كان يغنى به هذا الوزن الجديد ، لما أحسسنا فى معلقته بشىء من الشذوذ الذى نحسه فيها اليوم

ومما يتمثل به من شعره بيته الرائع قوله :

لاأعرفنك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادا

(١) الضجر

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم

ولم يقل فى الأخرى .

ألم ترنى عمّرت تسعين حجّة وعشرا تباعا عشتها وثمانيا

فيقول: «جير جير (١)» أنت ابو كعب وجير!» فيقول: «نعم» فيقول: «بم غفر لك وقد كنت فى زمان الفترة والناس همل لا يحسن منهم العمل؟» فيقول: كانت نفسى من الباطل نفورا فصادفت ماكا غفورا وكنت مؤمنا بالله العظيم ورأيت فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء فمن تعلق به من سكان الارض سلم . فعلمت انه أمر من أمر الله . فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت «ان قام قائم يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه» ولو ادركت محمداً لكنت أول المؤمنين وقلت فى الميمية والسفه ضارب بالجران (٢)

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدّخر ليوم حساب أو يقدم فينقم (٣)

فيقول : ألست القائل

وقد أغدو على ثبة (٤) كرام نشاوى (٥) واجدين لما نشاء

يحرون البرود وقد تمشت حميا (٦) الكأس فيهم والغناء (٧)

---

(١) نعم نعم

(٢) الجران مقدم عنق الناقة والصرب بالجران كناية عن الاقامة (٣) اتركوا الرياء فلا فائدة منه ، ولا تخفوا ماتضمرون فان الله عليم بذات الصدور وهو مجاز كل نسان بما يضمره عاجلا أو آجلا (٤) جماعة (٥) سكارى (٦) حميا الكأس سورتها وشدتها أو اسكارها وأخذها بالرأس (٧) معنى البيتين : ويارب مجلس أنس غدوت اليه فنعمت فيه بمنادمة اخوان كرام صفا بهم وقتنا ، واكتمل بجمعهم انسنا ولم

أفأطلقت لك الخمر كغيرك من أصحاب الخلود أم حرمت عليك مثله حرمت على أعشى قيس؟ فيقول زهير « إن أخا قيس أدرك محمداً فوجبت عليه الحجة لأنه بعث بتحريم الخمر وحظر ما قبح . وهلكت أنا والخمر كغيرها من الأشياء لشربها أتباع الأنبياء ، فلا حجة على » فيدعوه الشيخ إلى المنادمة فيحده من ظراف الندماء ، فيسأله عن أخبار القدماء

حديث عبيد

ثم ينصرف إلى عبيد فاذا هو قد أعطى بقاء التأبيد ، (١) فيقول « السلام عليك يا أخا بني أسد » فيقول « وعليك السلام » وأهل الجنة أذكياء « لعلك تريد أن تسألني بم غفر لي ؟ » فيقول « أجل . وإن في ذلك لعجباً » فيقول عبيد « إني دخلت الهاوية وكنت قلت في أيام الحياة :

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت في آفاق البلاد فلم يزل ينشد ويخفف عني العذاب حتى أطلقت من القيود والاصفاد ، ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة هذا البيت . وإن ربنا لغفور رحيم : »

فاذا سمع الشيخ ما قال ذانك الرجلان طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء

ينقصنا شيء من مجلبات السرور وقد تمكنت سورة الخمر من رءوس هؤلاء الندامى فشوا مترنحين يختالون في أبرادهم (١) الخلود

(٦) حديث عدى بن زيد (١)

فيقول لعبيد . ألك علم بعدى بن زيد العبادى ؟ فيقول « هذا منزله قريباً منك . » فيقف عليه فيقول : « كيف كانت سلامتك على الصراط ؟ » فيقول : « إنى كنت على دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وإنما التبعة على من سجد للاصنام » فيقول الشيخ : « لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به سيبويه وهو قولك:

أرواح مودع أم بكور أنت فانظر لأى حال تصير

فانه يزعم أن (أنت) يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر ، وأنا استبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته ؟ فيقول عدى بن زيد « دعنى من هذه الأباطيل ! »

« ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحب قنص ، فهل لك أن تركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها (٢) وخيطان (٣) نعامها وأسراب ظبائها وعانات (٤) حمرها ، فان للقنيص لذة ! » فيقول الشيخ : « إنما أنا صاحب قلم ولم أكن صاحب خيل : وما يؤمنى اذا ركبت طوفا — وأنا كما قال القائل :

---

(١) ارجع الى ترجمته فى ص (٤٨)

(٢) الصيران جمع صيار وهى لغة فى صوار والصوار بالضم (ويكسر) القطيع من بقر الوحش (٣) جماعات النعام (٤) العانة القطيع من حمر الوحش

لم يركبوا الخيل الا بعد ما كبروا فهم ثقال على اكتافها عنف

ـ أن يلحقني ما لحق صاحب المتجردة لما حمل على اليحموم ؟، ويجوز أن يقذفني السابح (١) على صخور زمرد فيكسر لى عضداً او ساقاً، فأصير ضحكة فى أهل الجنان : » فيبتسم عدئ ويقول « ويحك : أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم ولا تنزل بساكنها النقم ؟ » فيركبان سابحين من خيل الجنة. مركب كل واحد منهما لو عدل بمالك الباجلة من أولها الى آخرها لرجح بها وزاد فى القيمة عليها . فاذا نظرا الى صوار (٢) ترتع فى رياض الفردوس . صوب الشيخ الرمح لاختلس (٣) ذيال (٤) ، فاذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر قال « أمسك رحمك الله ، فاني لست من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم تكن في الدار الزائلة ، ولكنى كنت أروض فى بعض القفار فمر بي ركب مؤمنون قد كرى (٥) زادهم فصرعوني واستعانوا بى على السفر ، فعوضنى الله بأن أسكنني في الخلود » فيكف عنه الشيخ . ويعمد لعلج وحشى ما التاف عنده بخشى ، فاذا صار الخرص (٦) منه بقدر انملة قال « أمسك يا عبد الله ، فان الله انعم على ورفع عني البؤس ، وذلك انى صادني صائد بخلب وكان آهابى (٧) له كالسلب (٨) فباعه في بعض الأمصار ، فاتخذ منه غرب (٩) شفى بمائه الكرب وتطهر بنزيعه (١٠)

---

(١) الحصان الذى اذا جرى صار كأنه يسبح (٢) جماعة من بقر الوحش (٣) حمار وحشى (٤) طويل الذيل

(٥) نقص (٦) السنان أو الرمح القصير (٧) جلدى (٨) ما يسلبه الرجل من قرنه (٩) الغرب الدلو العظيمة (١٠) ما ينتزع من الماء

الصالحون ، فشملتني بركة من اولئك، فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب» فيقول الشيخ « فينبغى أن تتميزن . فمن كان منكن دخل الفانية فما يجب أن يختلط بوحوش الجنة » فيقول ذلك الوحشى « لقد نصحتنا نصح الشفيق ، وسوف نمتثل ما أمرتُ »

٤ حديث الهذلى (١)

وينصرف مولاي الشيخ وصاحبه عدى . فاذا هما برجل يحتلب ناقة

---

(١) أبو ذؤيب الهذلى

اسمه حويلد بن خالد ، وهو جاهلى اسلامى حرج مع عبد الله بن الزبير فى غزوة نحو الغرب فمات

ومما يروونه ـ أنه كان يهوى امرأة من قومه ؛ وكان قد وجه رسولا اليها رجلا من قومه يقال له خالد بن رهير لخانه ، فقال :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا ... وهل يجمع السيفان ـ ويحك ـ فى غمد

أخالد ! ما راعيت منى قرابة ... فتحفظنى فى الغيب أو بعض ما تبدى

ومن غريب المصادفات أن أبا ذؤيب هذا كان قد خان فى هذه المرأة ابن عمه « مالك بن عويمر » فانتهز خالد هذه المناسبة ليعيره بها ويتخذ منها تكأة يبرر بها خيانته فقال :

فلا تجزعن من سنة ـ أنت سرتها ـ ... وأول راض سنة من يسيرها

وكنت اماماً للعشيرة ، تنتهى ... اليك ـ اذا ضاقت بامر صدورها

ألم تتنقذها من ابن عويمر ... وأنت صفى نفسها ووزيرها ؟

وفى هذه الابيات تهكم لاذع وسخرية قاتلة ؛ وفيها أيضاً مهارة وافتنان فى إظهار هذا التهكم ، وفيها حجة مفحمة لاتقبل النقض ، وأنى يتنصل وبأى حق

فى إناء من ذهب . فيقولان: «من الرجل ؟» فيقول: « أبو ذؤيب الهذلى ». فيقولان « حييت وسعدت، أتحتلب مع انهار من لبن : » فيقول: لا بأس انما خطر لى ذلك مثلما خطر لكما القنص . واني ذكرت قولى فى الدهر الأول :

وإن حديثا منك لو تعلمينه جنى النحل فى الباذ عوذ (١) مطافل

يجرع من عامله الناس بمثل ماعاملهم به ، أليس من أصدق الصدق قوله : « وأول راض سنة من يسيرها » : نعم ولا نحسب القارئ فى حاجة الى تنبيهه الى ما فى البيتين الآخرين من الجمال والفن :

ومن مختار شعر أبى ذؤيب قوله لخالد بن زهير هذا ، وهو من أحود الشعر :

فما حمل البختى ـ عام غياره ـ عليه الوسوق برها وشعيرها
ما كثر مما كنت حملت خالداً ، وشر امانات الرجال غرورها :

الى أن يقول :

فان حراماً أن أخون أمانة وآمن نفساً ليس عندى ضميرها
أحاذر ـ يوماً ـ أن تبين قروتى ويسلمها اخوانها وبصيرها
وما يحفظ المكتوم من سر أهله اذا عقد الاسرار ضاع كبيرها
من الناس ، الا ذو وفاء يعينه على ذاك منه صدق نفس وخيرها

* * *

رعى خالد سرى ليالى نفسه توالى على قصد السبيل أمورها
فما تراماه الشباب وغيه ـ وفى النفس منه غدرة وفجورها ـ
لوى رأسه غنى ، ومال بوده أغانيج خود كان قدما يزورها
تعلقه منها دلال ومقلة تظل لاصحاب السقام تديرها

(١) جمع عائذ وهى القريبة العهد بالنتاج

مطافيل ابكار حديث نتاجها تشاب بماء مثل ماء المفاصل (١)

فقيض الله بقدرته لى هذه الناقة مطفلا، فقمت احتلب على العادة وأريد أن أشوب ذلك بضرب (٢) نحل ، فاذا امتلأ اناؤه من الرسل (٣) كون البارئ - جلت عظمته - خليه من الجوهر رتع ثولها (٤) فى الزهر، فاجتنى ذلك أبو ذؤيب ومزج حليبه ، فيقول: «ألا تشربان» فيحرعان من ذلك الحليب جرعا لو فرقت على أهل سقر لفازوا بالخلد . فيقول غدى: « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون »

حديث النابغتين

ويمضي فى نزهته تلك بشابين يتحادثان كل واحد منهما على باب قصر من درر ، قد أعفى من البؤس والضر ، فيسلم عليهما ويقول " من انتما - رحمكما الله - وقد فعل ، فيقولان: «نحن النابغتان » نابغة بنى جعدة (٥) ونابغة بنى

---

(١) ماء المفاصل هو الماء بين حليين من رمل ورضراض وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها ومعنى البيتين ان لاحاديثك الحيلة لذة عظيمة أحدها فى نفسى وعذوبة لا عادلها الا عذوبة الشهد امزح باشهى الماء الابل ، (٢) الضرب هو العسل الابيض (٣) اللبن

(٤) الثول جماعة النحل

(٥) النابغة الجعدى

توفى سنة ٥٨ هـ باصبهان

اسمه حسان ، وكنيته أبو ليلى ولقبه النابغة الجعدى ، واسم أبيه قيس عبدالله

ذبيان »

الجعدى ، شاعر مخضرم ، اشتهر بوصف الخيل وانكار الخمر فى الجاهلية وهجر الازلام والاوثان ، وقد عمر فى الاسلام حتى شهد مع على وقائع صفين وظاهره بيده ولسانه

وشخصية الجعدى من الشخصيات الجذابة وشعره جميل يريه الصدق والدقة وعزة النفس. ومن أجمل ما نختاره منه رائيته المشهورة التى مدح بها النبى (ص.) حين وفد عليه وفيها يقول :

ولا خير فى حلم ، اذا لم يكن له ... بوادر . تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل ، اذا لم يكن له ... حليم ـ اذا ما أورد الحلم ـ أصدرا

وهذا أبرع وأشمل من بيت المتنبى الذى احتلس فيه هذا المعنى فقال :

ووضع الندى ـ فى موضع السيف ـ بالعلى ... مصر ، كوضع السيف فى موضع الندى

وما أروع ما قاله الجعدى فى تلك القصيدة :

وان جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة ، نفعها ... قليل ، اذا ما الشىء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ، ثم لا ... تغير شيئاً غير ما كان قدرا

الى أن يقول :

وانا لقوم ، ما تعود خيلنا ... ـ اذا اما التقينا ـ أن تحيد وتنفرا

* * *

وعند ما تولى معاوية الخلافة ، كتب الى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله فدخل النابغة على معاوية ـ وعنده مروان ـ وأنشد أبياتاً ، من أروعها وأدلها على ابائه وشجاعته ، وأدقها فى تصوير نفسه العالية وشاعريته الفياضة قوله :

وان تأخذا اهلى ومالى بظنة ... فانى لحراب الرجال محرب
صبور على ما يكره المرء كله ... سوى الظلم ، انى ـ ان ظلمت ـ سأغضب

فيقول ـ ثبت الله وطأته ـ

« أما نابغة بني جعدة ، فقد استيوجب ما هو فيه بالحنيفية (١) . وأما أنت يا أبا أمامة (٢) فما أدرى ما جهتك ! » فيقول الذبيانى (٣) . « إنى

فارتاع معاوية ، والتفت الى مروان ، فقال . « ما ترى ؟ » قال . « أرى ألا ترد عليه شيئا » قال . ما أهون والله عليك أن يحجر هذا فى عار ، ثم يقطع عرضى على ، ثم تأخذه العرب فترويه ، اردد « عليه كل شىء أخذته » .

وستمر بك تلك المشاحرة «الحياليه» التى وقعت بينه وبين الاعشى فى الجنة، وهى تمثل شجارا عميقا بين شخصيتين من اكبر شخصيات العرب اذ يقول الاعشى للجعدى :

« ... وان بيتا مما بنيت ليعدل بمائة من مائك : وإن أسهبت فى منطقك . فان المسهب كحاطب الليل ، وانى لى الجرثومة من ربيعة الفرس ، وهل جعدة الا رائدة طليم نفور : »

« أتعيرنى مدح الملوك يا جاهل : ولو قدرت على ذلك لهجرت اليه أهلك وولدك ؟ ولكنك خلقت حبابا لاتدلج فى الظلماء الداجية ، ولا تهجر فى الوديقة الصاخدة »

فيجيبه الجعدي مغضبا .

« اسكت ياصل بن ضل، فأقسم أن دحولك الجنة من المنكرات ؛ ولكن الأقضيه جرت كما شاء الله : لحقك أن تكون فى الدرك الاسفل من النار : ولقد صلى بها من هو خير منك : »

« ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك .... الخ الخ »

(١) بالاسلام (٢) يعنى النابغة الذبيانى

(٣) ترجمة النابغة الذبيانى (توفى سنة ٦٠٤ م)

يكنى : أبا امامة ، وأبا عقرب ، وأبا ثمامة ، كان يضرب له قبة بسوق عكاظ

كنت مقرا بالله ، وحججت البيت فى الجاهلية ، ألم تسمع قولى :

فلا لعمرُ الذي قد زرته حججا (١) ومُاهرِيق[٢] على الانصاب[٣] من جَسد[٤]

والمؤمن العائذات[٥] الطير تمسحها[٦] ركبانُ مكةَ بين الغيل[٧] والسند[٨]

يحكم فيها بين الشعراء ، وكان نديم النعمان وقد مدحه بكثير من القصائد الجميلة ثم غضب عليه النعمان لوشاية المنخل الشاعر فهرب النابغة الى بنى غسان ، ونزل بعمرو بن الحارث الاصغر ، ملك الغساسنة فمدحه بقصيدته الشهيرة التى افتتحها بهذه الابيات الثلاثة الرائعة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت: « ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب »

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم رضى عنه النعمان ، فعاد اليه . ومن أجمل شعره قوله :

قامت تراءى بين سجى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقوله :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العود

وستمر بك طائفة أخرى من شعره وأخباره فى موضعها

(١) سنين (٢) اريق أو صب (٣) هى الحجارة التى كانوا يذبحون عليها القرابين حول الكعبة ، ومفردها نصب « وهو ما ينصب للعبادة » (٤) دم

(٥) الحديث النتاج (٦) تتبعها وتمر أيديها عليها بلطف (٧) الشجر الكثير الملتف (٨) ما قابلك من الجبل وعلا من السفح ، والغيل والسند هنا موضعان ؛ وخلاصة معنى البيتين انه يقسم بالله الذى حج الى بيته مراراً ويقسم بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين وبمن أمن طيور تلك الناحية التى يلاطفها ركبان مكة بين الغيل والسند ، ليثبت للنعمان انه صادق فيما يقول :

وقولى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة (١) وهو طائع

بمصطحبات من لصاف (٢) وثبرة (٣) يردن الإلا (٤) سيرهن تدافع (٥)

ولم أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتقوم الحجة على بخلافه، وان الله ـ تقدست أسماؤه ـ يغفر ما عظم وقل

فيقول « يا أبا سوادة ويا أبا أمامه ويا أبا ليلى ! أجعلوها ساعة منادمة، فان من قول شيخنا العبادى

أيها القلب تعلل بددن (٦) ان همى فى سماع واذن

وشراب خسروانى اذا ذاقه الشيخ تغنى وارجحن (٧)

فكيف لنا بأبى بصير (٨) ؟ » فلا تتم الكلمة إلا وابو بصير قد خمسهم (٩) فيسبحون الله ويقدسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم ، ويتلو هذه الآية : « وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » فاذا اكلوا من طيبات الجنة وشربوا من شرابها الذى خزنه الله لعباده المتقين قال الشيخ: « يا أبا امامة انك لحصيف (١٠)

---

(١) دين (٢) لصاف موضع من منازل بنى تميم (٣) الارض السهلة (٤) هزالا

(٥) المعنى انه يقسم للعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الاثر السيئ الذى خلفته وشايات أعدائه ويؤكد له انه بار فى قسمه وانه غير حانث فى يمينه

(٦) الددن أو الدد اللهو أو اللعب (٧) اهتز وتمايل ، والمعنى : اله أيها القلب واس همومك فانك مولع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسروانى الذى يسبى الشيخ ـ حين يشربه ـ وقار شيخوخته فيتمايل من النشوة راقصاً مغنياً

(٨) الاعشى وقد مرت ترجمته فى ص (٦٣) (٩) صار خامسهم

(١٠) سديد أو محكم

الرأى لبيب ، فكيف حسُن بك لبّك أن تقول للنعمان بن المنذر

زعم الهمام بأن فاها بارد عذب إذا ما ذقته قلتُ : اردد

زعم الهمام — ولم أذقه — بأنه يشفي بردلثاتها العطش الصدي

ثم استمر بك القول حتى انكره عليك خاصة وعامة » فيقول النابغة بذكاء وفهم : « لقد ظلمنى من عاب علىّ (١) ، ولو أنصفني لعلم أننى احترزت أشد احتراز ، وذلك أن النعمان كان مستهترا (٢) بتلك المرأة . فأمرنى أن أذكرها فى شعرى . فأدرت ذلك فى خلدى فقلت « إن وصفتها وصفتها مطلقا جاز أن يكون بغيرها معلقا » وخشيت أن اذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافقا للملك ، لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم فرأيت أن أسند الصفة اليه فاقول (زعم الهمام) اذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتى على المشاهدة ، والأبيات التى جاءت بعدُ داخلة فى وصف الهمام ، فمن تأمل المعنى وجده غير مختلّ . وكيف ينشدون : « واذا نظرت رأيت أقمر مشرقا وما بعده ؟ » فيقول الشيخ : « ينشد ، واذا نظرت وإذا لمست ، وإذا طعنت ، وإذا نزعت ، على الخطاب » فيقول النابغة « قد يسوغ هذا ولكن الاجود أن تجعلوه اخباراً عن المتكلم ، لأن قولى زعم

---

(١) الشديد الظمأ ، والمعنى ان الملك النعمان حكى لنا ان رضاب زوجه المتجرد لذيذ المجتنى حلو الطعم ، كلما ارتشفته ازددت هياماً به واندفاعاً الى رشفه ، فاذا تذوقته وقد اجهدك العطش زال ظمؤك وثلج صدرك ، ذلك هو ما يحكيه لك المليك أرويه عنه وان كنت لم أذقه

(٢) متفانياً فى حبها

لهمام يؤدى معنى قولنا : « قال الهمام » فهذا أسلم ، اذ كان الملك انما يحكى عن نفسه ، واذا جعلتموه على الخطاب قبح ، إن نسبتموه الى فهو مندية وإن نسبتموه الى النعمان فهو ازراء وتنقص »

فيقول : « لله درك يا كوكب بني مرة ! ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة ، وكيف لي بأبوى عمرو المازنى والشيبانى وأبى عبيدة وعبدالملك وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون . وأنت شاهد لتعلم أنى غير المتحرص (١) ولا الولاغ (٢) » فلا يقر هذا القول فى حذنة (٣) بى أمامة (٤) الا والرواة اجمعون قد احضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم . ولا كلفة فى ذلك أصابتهم . فيسلمون بلطف ورفق فيقول : « من هذه التحوص الفردوسية ؟ »

فيقولون : « نحن الرواة الذين شئت احضارهم آنفا » فيقول « لا اله لا الله : كيف تروون قول النابغة فى الدالية . واذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا لعنت ، وإذا نزعت ، أبفتح التاء أم بضمها ؟ » فيقولون : بفتحها . فيقول « هذا شيخنا ابو أمامة يختار الضم ويخبر أنه حكاه عن النعمان » فيقولون : هو كما جاء فى الكتاب الكريم . « والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين ؟ »

فيقول الشيخ : « مضى الكلام فى هذا يا أبا أمامة ، فأنشدنا كلمتك التى أولها :

---

(١) الكاذب (٢) الكثير الولوغ من ولغ الكلب فى الاناء وهو هنا بمعنى الرجل الذى لا حياء فيه (٣) أذن (٤) النابغة الذبيانى وقد مر ذكره

أَلِمَا على المطورة (١) المتأبدة (٢) أقامت بها فى المربع (٣) المتحرده (٤)
مضمخة بالمسك مخضوبة الشوى (٥) بدر وياقوت لها متقده
كأن ثغابها ـ وما ذُقتَ طعمها ـ مجاجة (٦) نحل فى كميت (٧) مبرده
ليقرر بها النعمان عينا. فإنها له نعمة فى كل يوم مجدده (٨)

فيقول أبو أمامة. ما أذكر أنى سلكت هذا القريّ قط فيقول مولاى الشيخ: « ان ذلك لعجب؟ فمن الذى تطوّع فنسبها اليك: » فيقول: « إنها لم تنسب الىّ على سبيل التطوع ولكن على معنى الغلط والتوهّم، ولعلها لرجل من بني ثعلبة بن سعد » فيقول نابغة بنى جعدة « صحبنى شابّ فى الجاهلية ونحن نريد الحيرة. فانشدنى هذه القصيدة لنفسه، وذكر أنه ابن ثعلبة. وصادف قدومه شكاة (٩) من النعمان، فلم يصل بها اليه » فيقول نابغة بنى ذبيان: « ما أجدر ذلك أن يكون! »

---

(١) الارض التى أصابها مطر (٢) التى سكنها الوحوش (٣) محل الاقامة فى الربيع (٤) اسم امرأة (٥) الاطراف، ومحصونة الشوى أى ملونة أطرافها بالحناء (٦) ريق (٧) خمر (٨) عرجا على تلك الارض التى جادها الغيث بسقياه، حيث تقيم المتجردة روح النعمان التى ينعم بحسنها الدائم التجدد كل يوم والتى تضمخت بالمسك، وخضبت اطرافها بالحناء، وتقلدت الدر، ومائل طعم ريقها ـ وان كنت لم أذقه ـ شهداً ممزوجاً بخمر بارد

وهذه أبيات تبدو عليها مسحة التكلف والبعد عن الاسلوب الجاهلى لمن ينظر اليها بأدنى تأمل، ونرجح أنها من مختلقات الرواة ـ وما اكثرها ـ وهى عندنا تقليد غير متقن لدالية النابغة التى وصف فيها المتجردة زوج النعمان وقد ورد ذكرها فى ص ـ٨٤ـ من هذا الكتاب (٩) توعكا

مجلس غناء

ويمر رف (١) من إوز الجنة فلا يلبث ان ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لامر . ومن شأن طير الجنة أن يتكلم .

فيقول : « ماشأنكن : » فيقلن : « ألهمنا أن نسقط فى هذه الروضة فنغنى لمن فيها من شرب » فيقول . « على بركة الله القدير . فينتفضن فيصرن جوارى كواعب . يرفان (٢) فى وشى (٣) الجنة . وبأيديهن المزاهر (٤) وانواع مايلتمس به الملاهى . فيعجب — وحق له العجب — وليس ذلك ببديع من قدرة الله — جلت عظمته — . فيقول لاحداهن على سبيل الامتحان : « أعملى قول أبى إمامة وهو هذا القاعد :

أمن آل مية رائح (٥) أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزود

ثقيلا أول . » فتصنعه فتحيء به مطربا . وفى اعضاء السامع متسربا ولو تحت صنم من احجار ثم سمع ذلك الصوت لرقص ، فيقول : « هلم خفيف الثقيل الأول » فتتبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض (٧) لأقر أن ماترنم به مريض . فاذا أحدثه ، قال له : علىك الثقيل الثانى . فتأتى به ، فاذا رأى ذلك قال « سبحان الله ، كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب . فصيرى

---

(١) سرب

(٢) يتخايلن أو يتبحترن (٣) حرير (٤) جمع مزهر وهو نوع من آلات الطرب (٥) عائد وقت المساء (٦) ذاهب وقت الغداة أى الضحى (٧) المغنى الحاذق وهو هنا اسم مغن معروف

الى خفيف الثقيل الثانى « تلك نجيدة محسنة » ثم يقترح عليها الرمل وحفيفه وأخاه الهزج . فلا يتقن لها حذاقه . وعرف منها بالعود لباقه . هلل وكبر وأطال حمد ربه و عتبر . وقال « ويحك : ألم تكونى الساعة إوزة طائرة فمن أين لك هذا العلم ؛ لو نشأت بين معبد وابن سريج . لما هجت السامع بهذا الهيج : : فكيف نفضت عنك تلة الاوز ؛ فتقول « وما الذى رأيت من قدرة بارئك : انك على سيف (١) بحر لايدرك له عبر (٢) . سبحان من يحيى العظام وهى رميم ! »

---

(١) السيف بكسر السين ـ الشاطئ (٢) العبر الساحل الاخر

حديث لبيد[1]

فبينما هم كذلك اذ مر شاب . . . . . .

---

(١) لبيد

توفى سنة ٦٧٥ م . . . . . .

هو من بنى عامر بن صعصعة وأمه عنسية

عمره نحو ١٤٥ سنة عاش أكثرها فى الجاهلية وأسلم وهو فى التسعين من عمره ، وصحب النبى (ص .) فى هجرته الى المدينة ، ومات فى أواخر خلافة معاوية ، بالكوفة .

كان بين قبيلته وبنى عبس أحواله عداوة شديده ، فاجتمع وفداهما عبد النعمان بن المنذر ، وكان على العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنة ، عم لبيد ؛ وكان الربيع مقربا عند النعمان يؤاكله وينادمه ؛ فأوغر صدره على العامريين ، فلما دخل وفدهم على النعمان ، أهملهم ؛ فخرجوا غضابا ، فسألهم لبيد عن أمرهم — وكان يومئذ صغيرا يرعى ابلهم ويسرحها — فاحتقروه لصغره ، فلما ألح عليهم أشركوه معهم ، فوعدهم بالانتقام لهم

ثم هجا الربيع بأبيات مشهوره كرهت فيه النعمان .

***

وقد هجر الشعر فى الاسلام واستعاض عنه بقراءة القرآن ، ومن مختار شعره قوله فى رثاء أخيه لأمه ، وكان اسمه أربد :

بليما ، وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وقد كنت فى أكناف دار مضنة ... فعارقنى جار بأربد نافع

فلا جزعا ان فرق الدهر بيننا ... فكل امرئ يوما الى الله راجع

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد ما هو ساطع

. . . . . فى يده

وما المرء الا مضمرات من التقى ... وما المال والأهلون الا ودائع
وما الناس الا عاملان ، فعامل ... يتبر ما يبنى ، وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهم شقى بالمعيشة قانع
أليس ورائى ـ ان تراحت مبيتى ـ ... لزوم العصا تحنى عليها الاصابع
أخبر اخبار القرود التى مصت ... أدب كأنى كلما قمت راكع
فأصبحت مثل السيف ـ أحلق حفه ... تقادم عهد القين . والنصل قاطع
فلا تبعدن ، ان المنية موعد ... عليما ، فدان للطلوع وطالع
أعاذل ! من يدريك ـ إلا نظنيا ـ ... اذا رحل السفار ، من هو راجع
أتحرع مما أحدث الدهر بالفتى ؟ ... وأى كريم لم تصبه القوارع ؟
لعمرك ، ماتدرى الصوارب بالحصى ... ولا راحرات الطير ، ما الله صانع

وقوله :

الا تسألان المرء ، ماذا يحاول : ... الحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟
حبائله مبثوثة فى سبيله ... ويغنى اذا ما احظأنه الحبائل
اذا المرء أسرى ليلة . حال أنه ... قضى عملا ، والمرء ـ ماعاش ـ عامل
فقولا له ـ إن كان يقسم أمره ـ ... ألما يعطك الدهر ، أمك هابل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت مما تحذر المرء وائل
فان أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الأوائل
فان لم تجد من دون عدنان باقيا ... ودون معد ، فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ماقدر أمرهم: ... بلى كل ذى رأى الى الله واسل
ألا كل شىء ما خلا الله ـ باطل ... وكل نعيم ـ لا محالة ـ زائل
وكل اناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعلم سعيه ... اذا كشفت عند الاله الحصائل

محجن (١) ياقوت فيسلم عليهم فيقولون : « من أنت » فيقول : « أنا لبيد ابن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلب » فيقول : « أكرمت أكرمت، لو قلت لبيد وسكت، لشهرت باسمك، فما بالك فى مغفرة ربك : »

وقوله من معلقته الرائعة

أو لم تكن تدرى « نوار » بأننى ... وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة اذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة ... طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بت سامرها ، وغاية تاجر ... وافيت اذ رفعت وعز مدامها

***

انا ـ اذا التقت المجامع ـ لم يزل ... منا لزاز عظيمة جشامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنة وامامها
لا يطعمون ولا يبور فعالهم ... اذ لا يميل مع الهوى أحلامها
واذا الأمانة قسمت فى معشر ... أوفى بأوفر حظها قسامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه ... فسما اليه كهلها وغلامها
وهم السعاة اذا العشيرة أفظعت ... وهم فوارسها ، وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم ... والمرملات اذا تطاول عامها

وقوله :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا الا من ربيعة أو مضر
اذا حان يوماً أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا شعر

وقوله : «هو المرء الذى ليس جاره ... مصاعاً، ولا حان الصديق ولا غدر»
الى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وسيمر بك طرف من أخباره وأشعاره فى الرسالة .

(١) العصى المنعطفة الرأس كالصولجان

فيقول « انا بحمد الله فى عيش قصّر أن يصفه الواصفون، لا هرم ولا برم »

فيقول الشيخ « تبارك الملك القدوس ، ومن لا تدرك يقينه الحدوس[١] ، كانك لم تقل فى الدار الفانية .

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس «كيف لبيد»

وتفه بقولك

فمتى أهلك فلا أحفله[٢] بجلى[٣] الآن من العيش بجل

من حياة قد مُللنا طولها وجدير طول عيش أن يمل[٤]

فأنشدنا ميميتك المعلقة .. فيقول « هيهات : انى تركت الشعر فى الدار الخادعة . ولن أعود اليه فى الدار الآخرة وقد عوضت ماهو خير وأبر »

فيقول أخبرنى عن قولك :

يراك امرءا مكنه اذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معنى كلّ ؟ فيقول لبيد « كلا . انما أردت نفسى ، وهذا كما تقول للرجل ـ اذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا ـ وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة . وظاهر الكلام واقع على كل انسان ، وعلى كل فرقة تكون بعضا للناس »

فيقول « أخبرنى عن قولك : أو يرتبط . هل مقصدك إذا لم أرضها

---

(١) الطنون (٢) فلا أحفل به

(٣) بجلى من العيش أى حسى ما عشته (٤) خلاصة معنى البيتين هو : « متى وافانى أجلى لم اكترث له، وقد انقصت لياناتى من الدنيا وحسبى هذا الزمن الطويل الذى عشته بهذه الحياة المملة المسئمة »

أو لم يرتبط ، أم غرضك . أترك المنازل أو يرتبط فيكون يرتبط كالمحمول على قولك تراك أمكنة » ؟ فيقول لبيد « الوحه الاول أردت »

غناء الحور

ويخطر له غناء القيان بالفسطاط ومدينة السلام ، ويذكر ترجيعهن بيمية المخبل السعدى ، فتندفع تلك الجوارى التى نقلتهن القدرة من خلق الطير الى خلق الحور ، تلحن قول المخبل السعدى .

ذكر الرباب ـ وذكرها سقم ... وصبا ـ وليس لمن صبا عزم

وإذا ألم خيالها طرفت ... عينى فاء شئونها (١) سجم (٢)

كاللؤلؤ المسجور (٣) تو ... بع فى سلك النظام فخانه النظم (٤)

فلا يمر حرف ولا حركة الا ويوقع مسرة لو عدلت بمسرات أهل العاجلة ـ منذ خلق الله آدم الى أن طوى ذريته ـ لكانت الزائدة على ذلك زيادة اللج المتموج على دمعة الطفل ، والهضب (٥) الشامخ على الهباءة (٦) . ويقول

---

(١) الشئون مجارى الدموع (٢) مسكوب ـ سائل (٣) المنظوم

(٤) تذكر الرباب فأشجاه ذكرها ، وحن اليها فحارت قواه ووهن عزمه ، وألم بخيالها فسحت عيناه بالدموع كما انفرط عقد من اللؤلؤ المنظوم فتساقط متتابعاً

(٥) الهضب ، المرتفع من الارض ، أو الجبل المنبسط ، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة

(٦) الهباءة القطعة من الهباء ، وهو الغبار يشبه الدخان ويرى منبثاً فى ضوء الشمس .

لندمائه ,, الا تسمعون قول السعدى :(٧)

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم :

« إن البراء(١) هو الخلود وان المرء يكرب(٢) يومه العدم »

(١) المخبل السعدى

اسمه ربيعة بن مالك وقبيلته بنو شماس من ولد أنف الناقة ، ومما رواه صاحب كتاب « الشعر والشعراء » عن المخبل هذا أنه هجا الزبرقان بن بدر وذكر أخته خليدة ، ثم مر بها — بعد حين — وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فآوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال :

« لقد صل حلمى فى خليدة ضلة سأعتب نفسى — بعدها — وأتوب
وأشهد — والمستغفر الله — أننى كذبت عليها ، والهجاء كذوب »

وهذا ندم حار يدل على توبة صادقة وضمير شريف يتأثر بالصنيع ويعترف بالجميل ، وقل من الناس من يخلص فى ندمه ويعترف بخطئه

ومن خير ما اختاره له ابن قتيبة صاحب ذلك الكتاب النفيس « الشعر والشعراء » قوله .

فان يك غصنى أصبح اليوم زاويا وغصنك من ماء الشباب رطيب
فانى — حنى ظهرى حوان تركته عريشاً ، فمشيى فى الرجال دبيب
وما للعظام الراجفات من البلى دواء ، وما للركبتين طبيب
إذا قال أصحابى : ربيع ! ألا ترى أرى الشخص كالشخصين وهو قريب(١)
فلا يعجبك المرء ، ان كان ذا غنى ستتركه الايام — وهو حريب
وكائن ترى — فى الناس — من ذى بشاشة ومن شأنه الاقتار — وهو نجيب

(١) وفى الرواية « ان الثواء » وهو خطأ ظاهر !

(٢) من باب نصر ، يشق عليه أو يحزنه ومعناها هنا يكدر أو ينغص عليه يومه

(١) انظر الى افتنان ابن الرومى فى اداء هذا المعنى فى داليته الرائعة التى رثى بها شابه ، فقال وبورك طرفى ، فالشخوص حيـاله قرائن ، من أدنى مدى ، وهى فرد

« ارجع الى ديوان ابن الرومى « ج ٣ من ص ٣٩٠ — ٣٩٤ »

ولئن ابنيتِ لى المشقرَ (١) فى عنقاء (٢) تقصر دونها العُصم (٣)
لتُلقَنَّ عنى المنية ، ان الله ليس كحكمه حكم (٤)

فيقول راثه المسكين قال هذه الابيات وبنو آدم فى دار المحن والبلاء والوالدة تخاف المنية على الولد ، والفقر يرهب ويتقى والمال يطلب ويستبقى ، بل الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب (٥) ، فتبارك الله القدوس ، تقبل هؤلاء المسمعات (٦) من ذوى ربات الاجنحة (٧) إلى ذوى ربات الاكفال المترجحة (٨) ثم الهمهن بالحكمة حفظ اشعار لم تمرر قبل بمسامعهن فتغنى بها متقنة محمولة على الطرائق ملحنة !! ولقد كانت الجارية فى الدار العاجلة اذا تفرست فيها النجابة وأحضرت لها الملحنة لتلقى اليها ما تعرف من ثقيل وخفيف تقيم معها الشهر والشهرين قبل أن تلقن بيتا

---

(١) هو مكان فى بلاد العرب (٢) سامقة شديدة العلو وهى صفة لموصوف محذوف هو كلمة «قنة» (٣) جمع أعصم وهو الوعل (٤) معنى الابيات : تلحانى عاذلتى على كرمى لانها ترى فى الغنى كل معانى الراحة والخلود وترى الانسان اذا صفرت يده من المال اسود عيشه وارتبك أمره ، وهذا لعمرى رأى مأفون دفعها اليه قصر نظرها وجهلها بالغد ، ولو أنها رشدت لعلمت أن كل مافى الدنيا من زخرف وزينة عبث وضلال ، وان الموت سيحتم هذه الحياة الخادعة فلا تصده عنا قنة سامقة نلوذ بها فى كنف جبل شاهق ولا تفلتنا من قضاء الله حيلة ، واذن فما قيمة المال ندخره ونبخل به ؟ ؟ ومن لعاذلتى أن تدرك هذه الحقيقة فتعذرنى وتكف عن لومى !

(٥) شدة التعب والاعياء (٦) المغنيات (٧) الطيور (٨) النساء

من الغزل أو بيتين ، ثم تعطى المائة أو المائتين ، فسبحان القادر ! »

مشاجرة الجعدى والاعشى

ويقول نابغة بنى جعدة وهو جالس يستمع « يا أبا بصير : أهذه الرباب التى ذكرها السعدى هى ربابك التى ذكرتها فى قولك

معاصى العواذل طلقُ اليدين ويعطى الجزيلَ ويُرخى الازارا

فما نطق الديكُ حتى ملأ ت كوبُ الرباب له مستدارا

اذا انكبَّ أزهرُ (١) بين السُّقا ة تراموا به غرَبا أو نضارا (٢)

فيقول ابو بصير (٣) « قد طال عمرك يا أبا ليلى واحسبك أصابك الفنَد (٤) فبقيت على فَنَدِكَ (٥) الى اليوم : . أما علمت أن اللواتي يسمين بالرباب أكثرُ من أن يحصين ؟ أفتظن أن الرباب هذه هى التى ذكرها القائل :

---

(١) الازهر ابريق الخمر قال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر فى الشمال مفدم

أى شربت الخمر بعد ان سكن قيظ الهواجر الشديد ، بالقدح المجلو المنقوش بزجاجة صفراء مخططة قرنتها بابريق مسدود الرأس بالفدام

(٢) الغرب الفضة أو القدح أو الجام الفضى والنضار الذهب ، ومعنى الابيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللائمات ويمشى متبختراً ، وانه نادمه وقت السحر فما اذن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس وكان الندامى لفرط سرورهم بالخمر لا يكاد يوضع ابريق مدامة حتى يترامون به متهافتين على الشراب

(٣) كنية الاعشى (٤) الخرف أفن الرأى (٥) ضلالك

ما بالُ قومِكَ يا رَبابُ خُزُرا (١) كأنهم غِضابُ

غارُوا عليكَ ، وكيف ذا لكَ ودونكَ الخرقُ (٢) اليبابُ (٣)

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله : « وجارتها أم الرباب بمأسل »

* * *

فيقول نابغة بني جعده « أتكلمني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضبيعة . وقد مت كافراً وأقررت على نفسك بالفاحشة ، وأنا لقيت النبي صلى الله عليه وسلم فأنشدته كلمتي التي أقول فيها :

بلغنا السماءَ مجدُنا وسناؤنا (٤) وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا (٥)

فقال لي « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فقلت « الى الجنة بك يارسول الله » فقال . « لا يفضض الله فاك »

أغرَّك ان عدك بعض الجهال رابع الشعراء الاربعة ، وكذب مضللك ، وانى لأطولُ منكَ نفساً وأكبر تضرعاً . ولقد بلغت بعدد البيوت مالم يبلغه أحدٌ من العرب قبلي ، وأنتَ لاهٍ بعفارتِك (٦) تفترى على كرائم

---

(١) الخزر ضيق العين (٢) الارض الواسعة تحرق فيها الرياح (٣) اليباب الخراب حيث لا يقيم أحد ، ومعنى البيتين : « ما الذى أسخط قومك فضاقت أعينهم من الغضب والنظر والشرر ، أيغارون عليك من الأعداء والمغيرين وبينك وبين الناس تلك الصحراء الواسعة التى لا يسكنها انسان وهى وحدها كفيلة بحمايتك منهم (٤) رفعتنا (٥) مكاناً نصعد اليه

(٦) العفارة الخبث والبكر ، وهى أيضاً تلقيح النخل واصلاحه ، والمقصود هنا المعنى الاول أى انك كنت لاهيا بأضاليلك وأعمالك الشيطانية الخبيثة

قومك ، وإن صدقت فخزيا لك ولمقارك (١) ،،

فيغضب أبو بصير فيقول : « أتقول هذا وإنّ بيتاً مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك ؟ وإن اسهبت فى منطقك فان المسهب كحاطب الليل ، وإني لفي الجرثومة (٢) من ربيعة الفرس ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم (٣) نفور ؟ أتعيّرني مدح الملوك يا جاهل ، ولو قدرت على ذلك لهجرت اليه أهلك وولدك ؟ ولكنك خلقت جبانا ، لا تدلج (٤) فى الظلماء الداجية ولا تهجّر (٥) فى الوديقة (٦) الصاخدة (٧) »

فيقول الجعدىّ : ،، اسكت يا ضئل بن ضئل ، فأقسم ان دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الاقضية جرت كما شاء الله ، لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت أنك غلط بك : ألستَ القائلَ :

فدخلت اذ نام الرقيـ ـب فبتّ دون ثيابها
حتى اذا ما استرسلت للنوم بعد لعابها (٨)
قسمتها نصفين كل مسوّد (٩) يرمي بها (١٠)
فثنيت جيد غريرة (١١) ولمست بطن حقابها (١٢)

---

(١) مواطنك
(٢) الصميم (٣) ذكر النعام (٤) لا تسير ليلا (٥) لا تسير فى الهاجرة
(٦) شدة الحر فى الهاجرة (٧) الشديدة القيظ (٨) ملاعبتها (٩) سيد
(١٠) يحرزها أو يظن به الظنون من أجلها (١١) جميلة (١٢) وسطها

كالحقة (١) العصفر صا ك (٢) عبيرها (٣) بلابها (٤)

واذا لها تامورة (٥) مرفوعة لشرابها (٦)

واستقلت (٧) بني جعدة وليوم من أيامهم يرجع بمساعى قومك ،
وزعمتني جبانا وكيدت . لا أشجع منك ومن أبيك ، وأصبر على إدلاج
المظلمة ذات الارزيز (٨) ، وأشد ادلاجا فى الهاجرة أم الصحدان (٩) ، ويثب
بابغة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من ذهب
فيقول الشيخ — أصلح الله به — لا عربدة (١٠) فى الجنان إنما يعرف الذلاذ

---

(١) الحقة وعاء من حشب أو عاج (٢) امترح — احتلط — لصق
(٣) العبير أخلاط من الطيب (٤) الملاب نوع من العطر أو الطيب قيل هو الزعفران
(٥) التامورة الوعاء فيه الخمر أو الاريق أو الدن (٦) معنى الابيات : تحينت غفلة الرقيب فدخلت عليها وما زلت بها حتى استسلمت للموم بعد أن احذت حظها من اللعب ، فطويتها تحتى كما يفعل كل سيد جليل القدر بخليلته التى حامت حوله الظنون من أجلها ، وبعمت بصمها وعناقها ؛ ومتعت نفسى بلمس بطنها وخاصرتها فكأنما لمست حقا من العاج امترج بطيبه زعفرانه ، ثم حضر اريق الخمر ورفع متهيئاً للشراب .

(٧) رأيتهم قلة فاستخففت بهم ، وما أبدع قول السموءل فى مثل هذا المعنى من لاميته المشهورة :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : « ان الكرام قليل ! »
« وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول »
« وما ضرنا أنا قليل — وجارنا عزيز — وجار الاكثرين ذليل ! »

(٨) الصقيع أو البرد الشديد (٩) الصحدان اليوم الشديد الحر
(١٠) العربدة الايذاء وسوء الخلق

ذلك بين السفلة والهجاج (١)، وإنك يا أبا ليلى لمتترع (٢) ولولا أن في الكتاب الكريم « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » لظننتك أصابك نزف في عقلك وتريد أن يصلح بين الندماء فيقول: « يجب أن يحذر من ملك يعبر » فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه الى الجبار الاعظم فلا يجر ذلك الا الى ما تكرهان، واستغنى ربنا أن ترفع الأخبار اليه. ولكن حرى ذلك مجرى الحفظة في الدار العاجلة. أما علمتما أن «آدم» حرم من الجنة بذنب حقير! (٣) فغير آمن من ولد أن يقدر له مثل ذلك: فسألتك بالله يا أبا بصير هل يحسن لك تمني المدام!» فيقول. «كلا والله. أنها عندي كمثل المقر لا نخطر ذكرها بالخلد، فالحمد لله الذي سقاني عنها (٤) السلوانة (٥)

فيقول .. يا أبا ليلى: إن الله جلت قدرته - مَنَّ علينا بهؤلاء الحور العين اللواتي حورهن عن خالق (٦) الأوز، فاختر لنفسك واحدة منهن، فلتذهب معك الى منزلك تلاحنك أرق اللحان وتسمعك ضروب الألحان». فيقول لبيد بن ربيعة .. إن اخذ أبو ليلى قينة وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها في الجنة، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الأوز؟، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان (٧)

---

(١) الحمق (٢) نزوع الى الشر، أو مسرع الى ما لا ينبغي، أو شرير

(٣) ومن أجل هذا الذنب أنحى عليه « المتنبي » بقوله - مخاطباً أبناء آدم:

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

(٤) بدلني منها (٥) العسل (٦) فطرة (٧) انظر الى ما في هذه الجملة الرشيقة من الدعابة الحلوة والفن الدقيق، فهي تمثل سذاجة القوم وطيبة قلوبهم أبدع تمثيل

حسان بن ثابت (١)

ويمر حسّان بن ثابت ، فيقولون : « أهلًا أبا عبدالرحمن! ألا تحدث

---

(١) حسان بن ثابت

توفى سنة ٥٤ هجرية

هو حسان بن ثابت الانصارى وكنيته أبو الوليد ، ولد بالمدينة ، وعاش فى الجاهلية والاسلام ، وتكسب بالشعر ، فقد مدح المناذرة والغساسنة واردمحت عنده صلات آل جفنة (من ملوك غسان) الذين عاش فى مدحهم ، وقد بلغ من حبهم اياه أنهم لم ينكروه بعد اسلامه « بالرغم من نصرانيتهم »

اسلم حسان مع الانصار — حين هاجر الرسول الى المدينة ، فلما اشتد ايذاء قريش للنبى بالهجاء وقال لأصحابه : « ما منع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم : » لباه حسان قائلا . « أنا لها » وضرب بلسانه أربعة أنفه وقال : « والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء : والله لو وضعته على صخر لفلقه أو على شعر لحلقه : » فقال له النبى : « كيف بهجوهم وأنا منهم : » فقال : « أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين : » فقال : « اهجهم ومعك روح القدس » ثم وقف شعره على مناصرته ، وانقطع الى مدحه والمضح عنه .

وقد اشتهر حسان بأنه كان حساناً محلوع القلب ، وسترى فى هذه المناقشة « الخيالية » التى دارت بينه وبين ابن القارح ما يؤيد ذلك :

ومن أروع ما قال ، بيته الفذ الذى يقول فيه

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس — الا ما جنى — لسعيد

وقد حكى أحدهم أنه سمعه — فى جوف الليل — وهو يبوه بأسمائه ويقول : « أنا حسان بن ثابت! أنا ابن الفُرَيعة : أنا الحسام » فلما أصبح سأله عن السبب فى ذلك وعما أعجبه ، فقال له حسان: « عالجت بيتاً من الشعر فلما أحكمته نوهت باسمائى

معنا ساعة ؟ » فاذا جلس إليهم قالوا : « أين هذه المشروبة من سَبِيئَتك(١) التى ذكرتها فى قولك :

« كأنّ سبيئة من بيت رأس (٢) يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها ، أو طعم غض من التفاح هصّره اجتناء
على فيها — إذا ما الليل قلت كواكبه ، ومال بها الغطاء
إذا ما الأشربات ذكرن — يوما — فهن لطيّب الراح الهداء (٣) »

وذكر له ذلك البيت :

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فان للبيت روعة وجمالا لا يقفان عند حد ، وهو الى ذلك يحوى حكمة أصيلة لا يتردد مفكر فى اكبارها واكبار الذهن الذي أخرجها !

ومثل حسان ، حدير أن يمحر بهذا البيت الخالد ! وستمر بك فى هذا الحديث بضع أبيات جميلة من شعره .

(١) حمرك (٢) اسم قرية بالشام مشهورة بجودة الخمر وهى احدى الاماكن التى احرزت شهرة كبيرة فى ذلك ، وهو يصف بهذه الابيات ريق امرأة

(٣) هذه الابيات الاربعة من قصيدة طويلة لحسان قالها فى مدح النبى — قبل فتح مكة — وهجا فيها أبا سفيان — قبل أن يسلم — لانه هجا النبى ، وقد ورد قبل هذه الابيات قوله :

ديار من بنى الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها — نعم وشاء
فدع هذا ، ولكن من لطيف يؤرقنى — إذا ذهب العشاء
لشعثاء التى قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس ألخ

وقد ورد بعدها قوله :

ويحك : ما استحييتُ أن تذكرَ هذا فى مدحتك رسول الله (ص) !؟
فيقول : « إنه كان أسمح خلقا مما تظنون ، ولم أقل الا خيراً . لم أذكر أنى شربتُ خمراً ولا ركبتُ مما حُظر أمراً ، وإنما وصفتُ ريقى امرأة ـ يجوز أن تكون حلالاً لى ، ويمكن أن أقوله على الظن : وقد شفع (ص.) فى أبي بصير بعد ما ضربه فى مواطنَ كثيرةٌ : وما سُمِعَ بأكرمَ منه (ص.) لقد أفكت خلدنى مع مسطح ثم وهب لى أخت مارية ، فولدت لى عبدَالرحمن ـ وهى خالةُ ولده « ابراهيم »

وهو ـ زينَ الله الآداب ببقائه ـ يخطر فى ضميره أشياء يريد أن يذكرها لحسان وغيره . ثم يخافُ أن يكونوا لِما طُلبَ غير محسنين ، فيُضْرِبُ عنها إكراماً للجليس

ويقول قائل من القوم . « كيف جُبْنَكَ يا أباعبدالرحمن ؟ » فيقول : « ألِي يقال هذا ـ وقومى أشجعُ العرب ـ أراد ستةٌ منهم أن يميلوا على ـ

نوليها الملامة إن المسا إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ، ما ينهنهنا اللقاء

وفى هذه القصيدة يقول بعد أبيات :

ألا أبلغ أبا سيفان عنى فأنت مجوَّف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الاماء
هجوتَ محمدا ، فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء .الخ الخ

والقصيدة طويلة مشهورة وهى فى أول ديوانه ، فليرجع اليها من شاء.

أهل الموسم بأسيافهم ، وأجاروا النبي (ص.) على أن يحاربوا معه كل عنود (١) فرمتهم ربيعة ومضر وجميع العرب عن قوس العداوة وأضمروا لهم ضغن الشنآن :

وإن ظهر منى تحرّز في بعض الموطن ، فإنما ذلك على طريقة الحزم ، كما جاء في الكتاب الكريم : « ومن يُوَلِّهِمْ - يومئذ - دُبُرَه - إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة - فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم - وبئس المصير »

* * *

ويفترق أهل ذلك المجلس - بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة !

---

(١) جائر عن القصد

عوران قيس

فبينما هو يطوف فى رياض الجنة لقيه خمسة نفر على خمسق أينق ، فيقول : « مارأيت أحسن من عيونكم فى أهل الجنان ، فمن أنتم خلد الله عليكم النعيم ؟ » فيقولون: « نحن عُوران[1] قيس ، تميم بن مقبل العجلانى ، وعمرو بن احمر الباهلى ، والشماخ معقل بن ضرار ، وراعى الابل عُبيد ابن الحصين النميرى ، وحُميد بن ثور الهلالى »

فيقول للشماخ بن ضرار[2] « لقد كان فى نفسى أشياء من قصيدتك التى على الزاى وكلمتك التى على الحيم فأنشدنيهما لازلت محلدا كريما » فيقول : « لقد شغلنى عنهما النعيم الدائم فما أذكر منهما بيتا واحدا » فيقول المفرط حبه بالأدب « لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت : أما علمت أن كلمتيك

---

(١) جمع أعور

(٢) الشماخ معقل بن صرار

شاعر مخضرم ، رجاز على البديهة ، ميال الى الهجاء ، ذاع صيته فى وصف القوس والخمر ، وقد بلغ من اعجاب الحطيئة (الشاعر المشهور وستمر بك ترجمته) به، أنه قال: « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان كلها » ولعل السر فى اعجاب الحطيئة به هو اشتراكه معه فى النزوع الى الشر !

والشماخ هذا هو صاحب البيتين المشهورين فى مدح عرابة الأنصارى ، وهما قوله :

رأيت عرابة الأوسى يسمو ٠ الى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أنفع لك من ابنتيك ؟ ذكرت بها فى المواطن وشهرت عند راكب السفر والقاطن ! وإن القصيدة من قصائد النابغة لا أنفع له من ابنته « عقرب » ولعل تلك شانته وما زانته ، وأصابها فى الجاهلية سباء (١) وما وفر لاجلها الحباء (٢) . وان شئت أن أنشدك قصيدتيك فان ذلك ليس بمستطاع على » فيقول : « أنشدنى - صفت عليك نعمة الله - » فينشده :

عفا من سليمى بطن قو ، فعالج . فذات الغضى ، فالمشرفات النواشز

فيحده بها غير عليم . ويسأله عن أشياء منها فيصادفه بها غير بصير فيقول : « شغلتنى لدائد الخلود عن تعهد هذه المنكرات . ان المتقين فى ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنما كنت أسوق (٤) هذه الامور وأنا آمل أن أفقر (٥) بها ناقة أو أعطى

(١) أسر (٢) العطاء

(٣) « بطن قو » و « عالج » و « ذات الغضى » اسماء أماكن ببلاد العرب - والمشرفات النواشز الجمال الشديدة الارتفاع ؛ ومعنى البيت : « أن كل تلك الأماكن - التى ذكرها - قد اقفرت من سليمى بعد بينها ! »

وهذا البيت هو مطلع قصيدة له قالها فى وصف القوس ومنها قوله :

وذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ! ولها أن يغرق السهم حاجز
اذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وما أبدع قول ابن الرومى فى مثل معنى البيت الثانى منهما :

تصمى المحب ، وتلفى الدهر ، شاكية كالقوس ؛ تصمى المنايا ، وهى مرنان

(٤) أجمع (٥) أعطى أو أمنح

كيل عيالى سنة ، وأنا الآن فى تفضل الله أغترف فى مرافد العسجد من انهار اللبن ، فتارة ألبان الابل ، وتارة البان البقر ، وان شئت ابن الضأن فانه كثير جم ، وكذلك ابن المغيز . وإن أحببت وردا من رسل الأراوى (١) قرب مهرة منه كأنه دجلة أو الفرات : ولقد أراني فى دار الشقوة أجهد أخلاف شياه جبات (٢) لا يمتلئ منهن القعب (٣) » فيقول الشيخ : « فأين عمرو بن أحمر » فيقول عمرو : « ها أنا ذا » فيقول : « أنشدنى قولك :

بان الشباب وأخلف العمر وتغير الاخوان والدهر

فقد اختلف الناس فى تفسير العمر بالفتح فقيل إنك أردت البقاء ، وقيل انك أردت الواحد من عمور الاسنان وهو اللحم الذي بينها ، فيقول عمرو متمثلا .

خذا وجه هرشى (٤) أوقفاها. فإنه كلا جانبى هرشى لهن طريق

ولم تترك فى أهوال القيامة عبرا للأشاد ، أما سمعت الآية : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

وقد شهدت الموقف ، فالعجب لك اذا بقى معك شىء من روايتك !

* * *

فيقول له الشيخ « انى كنت اخاص الدعاء فى اعقاب الصلوات قبل ان انتقل من تلك الدار ، أن يمتعنى الله بأدبى فى الدنيا والآخرة ، فأجابنى الى

---

(١) لبن الوعول (٢) قليلة اللبن (٣) القدح الغليظ الضخم (٤) هرشى ثنية فى طريق مكة قريبة منها ومعنى البيت «خذا وجه الصواب فان كلا التأويلين صحيح».

ما سألت وهو الحميد المجيد » ثم يُذكر له أشياء من شعره ، فيجده عن الجواب مستعجما أو معا

حكاية تميم بن أبى

فيقول ،، أيكم تميم بن أبى ؟ فيقول رجل منهم ها أنا ذا ، فيقول أخبرنى عن قولك .

يا دارَ سلمى خلاءً لا أكلفها إلّا المرانة حتى تسأم الدينا

ما أردت بالمرانة ؟ فقد قيل أنك أردت اسم امرأة : وقيل هى اسم أمة . وقيل العادة ،، فيقول تميم ،، والله ما دخلتُ من باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر ولا الرَّجَز . وذلك أنى حوسبتُ حسابًا شديداً . وقيل لى كنت فيمن قاتل على بن أبي طالب ، وابرئ الى النَّحاشى الحارثى ، فما افلتُّ من اللهب حتى شفعني (١) سفعاتٍ . وإن حفظك لمبقى عليك كأنك لم تشهد أهوال الحساب . ومنادى الحشر يقول ،، أين فلان ابن فلان ،، والشوس (٢) الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم ، والنسوة ذوات التيجان يصرخن بألسنة من الوقود فتأخذ فى فروعهن واجسادهن ، فيصيح «هل من عذر يقام » والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون (٣) فى سلاسل النار ويقولون ،، نحن أصحاب الكنوز ، نحن أرباب الفانية ، ولقد كانت لنا الى الناس صنائع وأيادٍ ، فلا فادٍ ولا معين (٤) ،، فيتقدم من

---

(١) لطمنى (٢) الشجعان الجريئون على القتال (٣) يتضورون أو يصيحون صياح الضعفاء المستخذين (٤) ارجع الى ص (٣٧)

قبل العرش ٠٠ أو لم نُعَمِّرْكم ما يتذكر فيه مَنْ تَذَكَّرَ ، وجاءكم النذيرُ ، فذوقوا فما للظالمين من نصير لقد جاءتكم الرسل فى زمان ، بعد زمان وبُذِّلَتْ لكم ما وُكِّدَ من الايمان وقيل لكم فى الكتاب « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظْلَمُون » فكنتم فى لذّات السّاخرة(١) واغلين(٢) . وعن أعمال الآخرة متشاغلين . فالآن ظهر النبأ لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد »

(١) الدنيا (٢) ممعنين ومسرفين ، أى منغمسين فى لذائذها

الفصل الثاني
يوم الموقف
حكاية ابن القارح

فيقول (الشيخ) أنا أقص عليك قصتي :

لما نهضت أنتفض من الرميم (١)، وحضرت عرصات (٢) القيامة ذكرت الآية : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، فاصبر صبراً جميلا » فطال علىّ الامدُ واشتد الظما والحر ، وأنا رجل مهياف (٣) فافتكرتُ ، فرأيتُ أمراً لاقوام لمثلي به ، ولقيني الملك الحفيظ بما زيّن (٤) لى من فعل الخير ، فوجدت حسناتي قليلة كالرياض فى العام الأرمل (٥) الا أن التوبة فى آخرها كأنها مصباح أبيل (٦) ، رُفع لسالك سبيل

حديثه مع رضوان

فلما أقمت فى الموقف زهاء شهر أو شهرين ، وخفت من الغرق فى العرق ، زينت لى النفس الكاذبة أن انظم ابياتا فى رضوان خازن الجنان ، عمّلتها فى وزن « قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان » ووسّمتها برضوان ،

---

(١) القبر (٢) ساحات (٣) سريع العطش (٤) كتب (٥) قليل المطر (٦) راهب

ثم ضايقت (١) الناس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى ، فما حفل بي ، ولا أظنه أنه لما أقول . فغبرت نحو عشرة أيام من أيام الفانية ، ثم عملت أبياتا في وزن .

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا (٣)

ووسمتها برضوان ، ثم دنوت منه قمعات كفعلي الأول ، فكأني أحركه ثبيرا (٤) وألتمس من العضرم (٥) عبيرا ، فلم أزل أتتبع الاوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفنيتها ، وأنا لا أجد عنده مغوية ، ولا ظننته يفهم ما أقول ، فلما استقصيت الغرض فما انجحت ، دعوت بأعلى صوتي « يا رضوان : يا أمين الملك الجبار الاعظم على الفراديس ! ألم تسمع ندائي لك واستغاثتي اليك ؟ » فقال « لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك ، فما الذي تطلبه أيها المسكين ؟ » فقول : « أنا رجل لا صبر لي على العطش ، وقد استطلت مدة الحساب ، ومعي صك (٦) بالتوبة ، وهي للذنوب كلها ماحية ، وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك » فقال : « وما الأشعار ؟ » فقلت : « الأشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس ، وكان أهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات ، فجئت بشيء منه اليك لعلك تأذن لي بالدخول في هذا الباب ، فقد استطلت ما الناس فيه ، وأنا ضعيف منبت (٧) ولا ريب

---

(١) ضايقت . زاحمت (٢) مكثت (٣) معنى البيت : غادرك الركب ولو كانت الامور تسير وفق ما تشتهي لما نأى عنك خلصاؤك (٤) اسم جبل (٥) تراب يشبه الجص (٦) إذن أو وثيقة (٧) واهن القوى

أني ممن يرجو المغفرة وتصح له بمشيئة الله تعالى ،، فقال : ،، إنك لغبين الرأى ، أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة ؟ هيهات هيهات (وأنى لهم التناوش (١) من مكان بعيد ! ،،

حديثه مع زُفَر

فتركته وانصرفت بأملى إلى خازن آخر يقال له زُفَر ، فعلمت كلمة ووسمتها باسمه ، فى وزن قول لبيد :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر (٢)

وقربت منه فأنشدتها . فكأنى إنما اخاطب رَكُودا (٣) صماء لا تستنزل أبودا (٤) عصماء : ولم أترك وربا مقيداً ولا مطلقا يجور أن يوسم بزفر إلا وسمته به ، فما نجع . فقلت ،، رحمك الله : كنا فى الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين والتلاته فنحد عنده ما نحب ، وقد نظمت فيك ما لو جمع لكان ديواناً ، وكأنك ما سمعت لى كلمة ! ،، فقال : ،، لا أشعر بالذى قصدت وأحسب هذا الذى تجيئني به قرآن ابليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة . إنما هو للجان وعامّوه ولد آدم ، فما بغيتك ؟ ،، فذكرت له ما اريد ، فقال : ،، والله ما أقدر لك على نفع ، ولا أملك لخلق من شفع فمن أين أنت ؟ ،، فقلت ،، من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ،، فقال

---

(١) التناول أو الاختلاط

(٢) مر ذكر هذا البيت والابيات التى تليه فى ترجمة لبيد صحيفة (٩١)

(٣) الركود الناقة يدوم لبنها ولا ينقطع (٤) الأبود الوحش (٥) يروّج

« صدقت ، ذلك نبيّ العرب . ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض . لأن إبليس اللعين نفثه في أقليم العرب . فتعلّمه نساء ورجال . وقد وجب على نصحك ، فعليك بصاحبك ، لعله يتوصّل الى ما اتغيتَ » فيئستُ مما عنده

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب (١)

فجعلتُ أتخلل العامة . فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ . فقلت « من هذا الرجل » فقيل هذا حمزة بن عبد المطلب صريع وحشي . وهؤلاء الذين حوله من استشهدوا من المسلمين في أحد » فقلتُ لنفسي الكدود : « الشعر عند هذا أنفق (٢) ومنه عند حازن الجنان . لأنه شاعر وإخوته شعراء . وكذلك أبوه وجده . ولعله ليس بينه وبين معد بن عدنان إلا من نظم شيئا من موزون . فعمدتُ أبيتا على منهج أبيات كعب بن مالك التي رثى بها حمزة وأولها

صفية قومي ولا تعجزي ... وبكّي النساء على حمزة

وجئتُ حتى وليتُ (٣) منه ، فناديت « يا سيد الشهداء ، يا عمّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ! يا ابن عبد المطلب ! » فلما أقبل عليّ بوجهه ، أنشدته الأبيات ، فقال « ويحك : أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح ؟ »

---

(١) حمزة بن عبد المطلب هو عم النبي وكان أسن منه بأربع سنوات أو أقل وقد أسلم فاعتز به الإسلام وشهد بدرا واحداً وقتله في الثانية وحشي بن حرب

(٢) أروج ـ أجدى (٣) دنوت ـ قربت

أما سمعت الآية: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ؟ »

فقلت « بلى ، قد سمعتها وسمعت ما بعدها : وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة (١) ، أولئك هم الكفرة الفجرة » فقال « انى لا أقدر على ما تطلب ، ولكن أبعث معك رسولا الى ابن أخى على بن أبي طالب . ليخاطب النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أمرك ، فبعث معى رجلا ، فلما قص قصتى على أمير المؤمنين قال . « أين يمنتك (٢) ؟ »

مقابلة أبي على الفارسى (٣)

وكنت قد رأيت فى المحشر شيخا انما كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسي، وقد امتحن (٤) به قوم يطالبونه ويقولون

---

(١) غبرة (٢) صحيفة حسناتك

(٣) أبو على الفارسى

٢٨٨ — ٣٧٧ هـ

اسمه الحسن وكنيته أبو على الفارسى واسم أبيه أحمد بن عبدالغفار ، اشتهر فى علم النحو ، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وجرت مجالس بينه وبين أبى الطيب المتنبى ، وانتقل الى فارس وصحب عضدالدولة بن بويه وعلت منزلته هناك ومات فى بغداد سنة ٣٧٧ هـ .

وقدمر فى ترجمة ابن القارح أنه كان تلميذا لابى على الفارسى وانه درس عليه النحو ، ارجع الى ص (٢٥ و٢٩) ومن ثم ترى حسن المناسبة الى روعة الخيال وجمال التمثيل (٤) احتك به ، تعرض له ، تلاج

« تأوّلتَ علينا وظلمتنا » فلما رآني أشار الى بيده ، فجئته ، فاذا عنده طبقة منها يزيد بن الحكم الكلابي [١] وهو يقول : « ويحك ، أنشدت عني هذا البيت برفع الماء ، يعني قوله

« فايتَ كفافاً كان شرُّكَ كلُّهُ ، وخيرُكَ عني ما ارتوى الماءُ مُرتوى

ولم أقل إلّا الماءَ ، وكذلك زعمتُ أني فتحتُ الميمَ في قولي

« تبدَّلْ خليلاً بي ، فانّي خليلاً صالحاً لك مُقتَوِي

---

(١) يزيد بن الحكم الكلابي

هو يزيد بن الحكم الثقفي شاعر جاهلي من بني كلاب بن ربيعة بن صعصعة ومن مختار شعره قوله :

دفعناكم بالقول ، حتى بطرتم ، وبالراح ، حتى كان دفعُ الاصابع
فلما رأينا جهلكم غير منته ، وما كان من احلامكم غير راجع
مسسنا من الاباء شيئاً ، وكلنا الى حسب في قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات ، وجدتم بني عمكم كانوا كرام المصاحع [١]

***

بني عمنا لا تشتمونا ، ودافعوا على حسب ـ ما فات قيد الأكارع
وكنا بني عم ـ نرا الجهل بيننا ـ فكل يوفي حقه غير وادع

وستمر بك ـ بعد أسطر قلائل ـ قصيدته الرائعة التي بعدها من غرر الشعر العربي

(٢) ما ارتوى الماء مرتوى ، أي دائماً أبدا ، ومعنى البيت : « ليت خيرك يعادل شرك فيكف هذا عني ذاك وأصبح آمنا منك أبدا »

(٣) مُقتو أي متبدل به ، ومعنى البيت : « اختر لنفسك صديقا آخر يشبهك وتشبهه ، فاني متبدل بك خليلا صالحا » وهو يخاطب ابن عمه ويقرعه على سوء سلوكه معه ويعلن اليه ضيق ذرعه بما تحمله منه من الاساءة المتكررة

---

(١) كرام الامهات

وانما قالت : « مقتوى » بضم الميم :

وتفور طبعه من خطته الجائرة

وهذا البيت والذى يليه من قصيدة رائعة له ـ بعدها من أجمل الشعر العربى وأحوده وأدقه فى شرح النفوس وتحليلها مع براعة الاداء وقوة الشاعرية ـ وهى:

تكاشرنى كُرْهاً كأنك ناصح ... وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك مادىّ (١)، وغيبك علقم ... وشرك مبسوط، وخيرك مطوى
فليت كفافا كان خيرك كله ... وشرك عنى، ما ارتوى الماء مروى
عدوك يخشى صولتى ـ ان لقيته ـ ... وأنت عدوي، ليس ذاك بمسوي
تصافح من لاقيت لى دا عداوة ... صماحا، وغى بين عينيك مبروى
أراك اذا لم أهو أمراً هويته ... ولست لما أهوى من الامر بالهوى
اراك احتويت الخير منى، واحتوى (٢) ... أداك، وكل يحتوى قرب محتوى (٣)
وكم موطن ـ لولاى ـ طحت كما هوى ... بأحرامه من قلة النيق (٤) منهوى
اذا ما انتمى المجد ابن عمك لم تعن ... وقلت « الا ياليت بينا به حوى »
فانك ـ ان قيل ابن عمك عانم ـ ... شحٍ أو عميد أو أحو مغلة لوى
تملأت من غيظ علىّ ؛ فلم يزل ... بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تشوى
وما برحت نفس حسود حسبتها ... تذيبك، حتى قيل: (هل أنت مكتوى؟)
وقال المطاسيون: « انك مُشْعَرٌ ... سلالا » ألا بل أنت من حسد دوى
جمعت، وخشا غيبة ونميمة، ... حصالا ثلاثا لست عنها بمرعوى
أخشا وحنا واختناء (٥) عن الندى ... كأنك أفعى كدية فر مححوى (٦)
فيدحو بك الداحى الى كل سوأة ... فيا شر من يدحو بأطيش مدحوى

---

(١) عسل آبس (٢) أكره (٣) كاره (٤) أرفع موضع فى الجبل، ومعنى البيت «كم موقف زررتك فيه لحميتك من التلف، ولو لم أفعل ـ لهويت كما يهوى الشىء من أعلى قمة فى الجبل»
(٥) الاختناء التقبض (٦) مطوى

واذا جماعةٌ من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله ، كأن الرؤيا

فقلت: « ياقوم إنّ هذه امورٌ هينة . فلا تعنّفوا (١) هذا السيخ ، فانه ما سفك لكم دما ، ولا احتجن (٢) عنكم مالا . فتفرقوا عنه . »

وشغلتُ بخطابهم والنظر فى حويرته (٣) فسقط منى الكتاب الذى فيه التوبه . فرجعت أطلبه فما وجدته .

حديثه مع على بن ابى طالب (٤)

فاظهرت الولهَ والجزع . فقال امير المؤمنين « لا عليك (٥) ألك شاهد بالتوبه ؟ » فقلت « نعم : قاضي حَلَبَ وعدولها (٦) » فقال « بمن يُعرف ذلك الرجل ؟ » فقول . « بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضى حَلَبَ — حرسها الله — فى ايام شِبْلِ الدولة » فأقام هنالك هاتفا يهتف فى الموقف « يا عبدَ المنعم بن عبد الكريم قاضى حلب فى زمان شبل الدولة ! هل معك علم من توبة على بن منصور بن طالب الحلبى ؟ » فلم يجبه احد ، فاخذنى البلع (٧) والرعدة ، ثم هتفت الثانية فلم يجبه مجيب . فطرحت الى الارض ثم نادى الثالثة ، فاجابه قائلٌ يقول . « نعم قد شهدت توبة على ابن منصور . وذلك بآخرة من الوقت . وحضرت متابه عندى جماعة من العدول

بدا منك غش طال ما قد كتمته كما كتمت داء انبها أم مدّوى (١)

(١) لا ترهقوه وترفقوا به (٢) ضم الى نفسه (٣) محاورتهم (٤) ستمر بك ترجمته وطرف من أخباره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . (٥) لا صبر عليك (٦) جمع عدل وهو العادل الذى ترضى شهادته (٧) شدة الجزع

---

(١) المدوى الذى يأخذ الدواية ، وهى حلدة رقيقة تترك اللبن ، يقال دوى اللبن يدوى ، ويمدو . واقبل الصبيان على اللبن يدووه أى يأخذون ما عليه من الحلدة

وانا يومئذ قاضي حلب وأعمالها »

فعند ذلك نهضت وقد أخذت الرمق [١] فذكرت لأمير المؤمنين عليه السلام ما التمس ، فاعرض عني وقال : « ابك لترومٍ ممتنعاً ، ولك أسوة بولد ابيك آدم »

ورود الحوض

ومضيت بالحوض فكدت لا أصل اليه ، ثم بغيت منه نغبات [٢] لا ظماً بعدها . واذا الكفرة يحملون انفسهم على الورد فتذودهم [٣] الربانية بعصيٍ تضطرهم باراً ، فيرجع احدهم وقد احترق وجهه أو يده ، وهو يدعو بويل وثبور [٤]

حديثه مع فاطمة

فطفت على العترة المنتجبين ، فقلت « انى كنت فى الدار الذاهبة اذا كتبت كتابا وفرغت منه قلت فى آخره « وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الاخيار الطيبين » وهذه حرمتى ووسيلة »

فقالوا «وما نصنع بك ؟ » فقلت « انى مولاتنا فاطمة عليها السلام قد دخلت الجنة منذ دهر . وانها تخرج فى كل حين مقداره اربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية . فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء .

---

(١) بقية الحياة (٢) حرعا (٣) تطردهم وتدفعهم (٤) هلاك ، ارجع الى ص (٣٦و٣٧)

ثم تعودُ الى مستقرها في الجنان ، فاذا هي خرجت كالعادة فاسألوها في أمري بأجمعكم فلعلها تسألُ أباها فيَّ » فلما حان خروجها ونادى الهاتف ان غضوا ابصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنتُ محمد ـ صلى الله عليه ـ اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير من ذكور واناث ، ممن لم يشربْ خمرا ولا عرف قطّ منكراً فاقوها في بعض السبيل . فلما رأتهم قالت . « ما بال هذه الرَّفاقة (١) أكم حالٌ تذكرون » فقالوا . « نحن بخير وإنا نلتذ بتحف أهل الجنة . غير أنا محبوسون للكلمة السابقة ، ولا نريد أن نتسرع الى الجنة قبل الميقات اذ كنا آمنين ياعمين ، بدليل قوله « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مُبعدون لا يسمعون حسيسها (٢) وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الاكبر . وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » .

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد وغيرهم من الابرار الصالحين . ومع فاطمة عليها السلام امرأة اخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة . فقيل « مَنْ هذه » فقيل « خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العُزّى » ومعها شباب على أفراس من نور . فقيل « من هؤلاء ؟ » فقيل « عبد الله والقاسم والطيب والطاهر وابراهيم ، بنو محمد صلى الله عليه وسلم »

فقالت تلك الجماعة التي سألت « هذا ولي من اوليائنا قد صحت توبته ولا ريب أنه من أهل الجنة . وقد توسّلَ بنا اليكِ صلى الله عليك ـ في أن

---

(١) الجماعة (٢) صوتها الخفي

يبرح من هول الموقف ويصير الى الجنة فيتعجل الفوز. فقالت لاخيها ابراهيم - صلى الله عليه - « دونك الرجل » فقال لى « تعلق بركابى » - وجعلت تلك الخيل تخلل الناس ، وتنكشف بها الامم والاجيال فلما عبرنا الرحام . طارت فى الهواء ، وأنا متعلق بالركاب

حديثه مع النبى صلى

فوقفت عند محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال « من هذا الاتاوى (١) » فقالت « هذا رجل سأل فيه فلان وفلان » وسمت جماعة من الائمة الطاهرين . فقال « حتى ينظر فى عمله » فسأل فى عملى فوجدم فى الديوان الاعظم وقد ختم بالتوبة . فشفع لى فاذن لى فى الدخول

عبور الصراط

فلما خلصت من تلك الطموس (٢) قيل لى « هذا الصراط فاعبر عليه » فوجدته خاليا لا عريب (٣) عنده . فبلوت نفسى فى العبور ، فوجدتنى لا أستمسك . فقالت الزهراء - صلى الله عليها - لجاريه من جواريها : « يا فلانة أجيزيه » فجعلت تمارسنى وأنا أتساقط عن يمين وشمال فقلت لها . « يا هذه ! ان أردت سلامتى ، فاستعملى معى قول القائل فى الدار العاجلة :

---

(١) الغريب (٢) جمع طمش وهو الناس (٣) لأحد (٤) اجعليه يجوز اى يعبر (٥) تعالجنى

ستٌ إن أعياكِ أمْرِى فاحملينى زقفونه

فقالت : « وما زقفونه ؟ » قلتُ « أن يطرح الانسانُ يديه على كتفى الآخر . ويمسك بيديه . ويحمله وبطنه الى ظهره . أما سمعت قول الجلحول من أهل كفرطاب :

صَلحَتْ حالتى الى الخَلْفِ حتى صرتُ أمشى الى الورى زقفونه[1]

فقالت : « ما سمعت بزقفونه ولا الجلحول ولا كفرطاب الا الساعة ! »

فتحملنى وتجوز كالبرق الخاطف . فلما حُزْتُ . قالت الزهراء - عليها السلام - : « قد وَهَبْنا لك هذه الجارية ، تخدمك في الجنان »

حواره مع رضوان

فلما صرت الى باب الجنة . قال لى رضوان « هل معك من جواز ؟ »

فقلت : « لا » فقال : « لا سبيل الى الدخول الا به »

فبعلت[2] بالامر ، وعلى باب الجنة - من داخل - شجرة صفصاف ، فقلت « اعطنى ورقة من هذه الصفصافة ، حتى ارجع الى الموقف ، فآخذ عليها جوازاً » فقال « لا اخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الاعلى - الله تعالى تقدس وتبارك »

---

(١) كفر طاب قرية من قرى الشام وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفره وبالس اغناها الفرات عن الحفر
كذلك مجرى الرزق ، واد به ندى ، وواد به فيض ، وآخر ذو جفر

وبالس قرية أخرى بالشام

(٢) وصلت حيرتى وخوفى وسأمى الى حد نسيت معه ما أصنع

فلما دجرت[١] بالنازلة قلت « انا لله وانا اليه راجعون: لو أن للأمير أبي المرجّى خازنا مثلك لما وصلت انا ولا غيري الى درهم من خزائنه »

دُخولهُ الجنةَ

والتفتّ ابراهيمَ ـ صلى الله عليه ـ فرآني وقد تخلّفتُ عنه . فرجع الىّ ، فحذبنى جذبة حصلني بها في الجنة . وكان مقامي[٢] في الموقف مدة ستة أشهر من شهور العاجلة ، فلذلك بقى على حِفْظي ما نزفته[٣] الاهوالُ ، ولا نهكه تدقيق الحساب .

---

(١) حرت (٢) اقامتى (٣) ما أذهبته

الفصل الثالث

نعيم الفردوس

حديثه مع حميد بن ثور (١)

« فأيكم حميد بن ثور ؟ » فيقولون . « هذا » فيسلم عليه الشيخ ويقول : « إنه يا حميد : لقد أحسنت فى قولك »

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وحسبك داءً أن تصح وتسلما (٢)

وإن يلبث العصران (٣) يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمما (٤)

فكيف بصرك اليوم ؟ فيقول « انى لأكون فى مغارب الجنة فألمح

---

(١) حميد بن ثور الهلالى .

شاعر اسلامى من عامر بن صعصعة ، ينسبون اليه البيت المشهور الذى جرى مجرى المثل ، وهو قوله :

ينام باحدى مقلتيه ، ويتقى ... بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم

(٢) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

يداوى المريض لكيما يصح ... وهل صحة الجسم الا مرض

(٣) الليل والنهار (٤) ما قصداه أو ما توخياه أو ما تعمداه ، ومعنى البيتين : ضعف بصرى بعد أن كان صحيحا ، وكفى بالصحة مبدرا بالمرض ، فقد آلى الزمن ليسقمن كل صحيح ، وليس يعجز الزمن أن يدرك غايته وشيكا

الصديق من أصدقائى وهو بمشارقها ، وبينى وبينه مسيرة ألوف أعوام للشمس التى عُرِفَتْ سرعةُ صيرها فى العاجلة فتعالى الله القادر على كل بديع (١) » .

فيقول الشيخ لقد احسنت فى الدالية التى فيها تتابع أعوام عليها هزلها وأقبل عام ، يُنعِشُ الناسَ ، واحدُ

فيقول حميد « لقد شغلت عن هذا بما وهب لى ربى الكريم ولا خوفَ على ولا حزنَ ، ولقد كان لرجل يعمل فكره السنة والاشهر فى الرجل قد آتاه الله الشرف والمال ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاء زهيد ، ولكن النظم فضيلة العرب »

حديث مع لبيد

ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم الى منزله ، ويقسم عليهم ليدهبن معهم . فيمشون قليلا . فاذا هم بأبيات ثلاثة اس فى الجنة نظيرها بهاء وحُسنا ، فيقول لبيد . « أتعرف أيها الأديب الحلي هذه الابيات ؟ إنها قولى.

إنَّ تقوى (٢) ربنا خيرُ نفل (٣) وبإذن الله رَيثى وعجل

أحمدُ الله ، فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل

مَنْ هداه سبلَ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضل (٤)

---

(١) ما اخترع على غير مثال سابق

(٢) حشية (٣) غنيمة (٤) معنى الابيات : أرجح غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مصرف الأمور ، فله الحمد ، لا كفو له ، بيده الخير ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو على كل ما يشاء قدير

صيّرها ربي أبياتا فى الجنة أسكنها أخرى الأبد . فيعجب هو وأولئك القوم ، ويقولون . « ان الله قدير على ما أراد : »

مأدبة فى الجنة

ويبدو له أن يصنع مأدبة فى الجبال ، تجتمع فيها من أمكن من شعراء الحضرمة والإسلام ، والدين أتقنوا كلام العرب . وجعلوه محفوظا فى الكتب ، وغيرهم ممن يتأنس بقليل الأدب ، فيخطر له أن تكون كمأدبة الدار العاجلة ، اذ كان البارى لا يعجزه — جاء عظمه — أن يأتيهم بجميع الاغراض من غير كلفة ولا ابطاء ، فنفسنا ارجاء على الكور تجمع لحن الجنة ، وانه لأفضل من ير الهدلى الذى قال فيه

لا در درى (١) ان أطعمت راتدكم (٢) قرف الحتى (٣) وعندى البر مكنوز (٤)

بمقدار تفضل به السموات الارضين (٥)

* * *

فى صدره ارجاء تدور (٦) فيها البهائم ، فيتمثل بين يديه ما شاء من البيوت فيها احجار من جواهر الجنة تدير بعضها بمال تسوم فى عضاه (٧) الفردوس ، وأينق ، وصنوف من البغال والبقر

---

(١) قح (٢) لادر درى أى لا كثر خيرى ولا ركا عملى

(٣) قشر (٤) الردىء من ثمار شجرة الدوم (٥) معنى البيت : لا بارك الله فى مالى اذا أطعمت نارلكم قشر الدوم مع وفرة ما لدى من القمح الزائد عن حاجتى (٦) يضمر (٧) شجر ذوشوك

فاذا اجتمع من الطعن ما يظن انه كاف المأدبة ، تفرق خدمه من الولدان المخلدين ، فجاءوا بالجداء وضروب الطير التي جرت العادة بأكلها ، وبسيقت البقر والغنم والابل المعتبطة ، فارتفع يعار المعز ونؤاج الضأن وصياح الديكة لعيان المدية ، فلا اله الا الله الذي ابتدع خلقه من غير رويّة (١) وصوّره بلا مثال يحتذى

فاذا حصلت النحوض (٢) فوق الاوفاض (٣) قال : « أحضروا من الجنة الطباهجة السلكنين يحلب على ممر الازمان » فتحضر جماعة كثيرة ، فيأمرهم باتخاذ الاطعمة ، وتلك لذة يهبها الله — عز سلطانه — بدليل قوله « وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »

فاذا أتت الاطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون لاحضار المدعوين ، فلا يتركون في الجنة شاعراً اسلامياً ولا مخضرماً ، ولا عالما بشيء من أصناف العلوم ولا متأدباً الا أحضروه ، فيجتمع خلق كثير ، فتوضع الخوان (٤) من الذهب ، والهوائر (٥) من اللجين (٦) ويجلس عليها الاكلون ، وتنقل اليهم الصحاف (٧)

---

(١) نظر أو تفكير (٢) المكتنز من اللحم كلحم الفخذ مثلا

(٣) خشب الجزارين يقطعون عليه اللحم (٤) جمع خوان (بكسر الخاء او أو ضمها) وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل

(٥) جمع فاثورة وهي الخوان او الباطية (٦) الفضة

(٧) جمع صحفة وهي القصعة الكبيرة

مجلس أنس وغناء

فاذا قضوا الأرب من الطعام ، جاءت السقاة بأصناف الاشربة ، والمسمعات بالأصوات المطربة ، ويقول « على ممن فى الجنة من المغنين والمغنيات ، ممن كانوا فى الدار العاجلة فقضيت له التوبة » فتحضر جماعة كثيرة من رجال ونساء ، فيهم الغريض ومعبد وابن سُرَيج ، وابراهيم الموصلى وابنه اسحاق

حديث الجرادتين (٢)

فيقول قائل من الجماعة وقد رأى أسرابا (١) قيان قد حضرن « من العجب أن الجرادتين فى أقاصى الجنة : »

فاذا سمع ذلك قال . « لابد من حضورهما » فيركب بعض الخدم ناقة من نوق الجنة ويذهب اليهما - على بُعْد مكانهما - فتقبلان على نجيبين أسرع من البرق

فاذا حصلتا على المجلس ، حيّاهما وبشّ بهما ، وقال : « كيف حلصتما الى دار الرحمة بعد ما خبطتما فى الضلال ! » فتقولان « قدرت لنا التوبة ، وميتنا على دين الانبياء والمرسلين »

---

(٢) الجرادتان - فيما زعموه - مغنيتان غنتا لوفد عاد الجرهمى بمكة فشغلوا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم لاهون (٢) جمع سرب اى قطيع من النساء

فيقول « أحسن الله البَجَ . أسمعانا شيئا من القصيدة الحائية التي رَوَى عُبيد مرة . ولا أوس أخرى » . وما سمعنا قط لعبيد ولا لأوس (١) فتأبيان أن تغنيا بالمطلوب . فتجيبان نفس ما قالتا

هبَّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاحي (٢) هلاَّ انتظرتِ بهذا اللوم إصباحي

فقالتا لها : تالله ، وقد علمتْ أني لنفسيَ إفسادي وإصلاحي

إن أشرب الخمرَ أو أرزأ لها ثمنا فلا محالةَ يوماً أنني صاحي

ولا محالةَ من قبر بمحنية (٣) أو في مليحٍ (٤) كظهر الترس وضاح

وصوتُ المطربان من سمعَ ، وتستفزان الأفئدةَ بالسرور . ويكثر حمدَ الله — سبحانه — كما أنعم على المؤمنين والتائبين . وخلصهم من دار الشقوة الى محل النعيم

---

(١) يعنى أن الجاريتين تغنيانهم بالمطلوب بالرغم من انهما لم تسمعا بهذه القصيدة ولا بمن تنسب اليهما من قبل (٢) اللائم

(٣) محنيه أو محنوة أو محناة جمعها محان وهى معاطف الاودية

(٤) المليح طريق ضيقة ذاهبة فى الارض الى مسافة قريبة ، قاعها اقل من قامة أو هو أيضا الارض المستوية أو الارض التى لا نبات فيها

حديث جران العود النميري

ويلتفت فاذا هو بجران العود (١) النميري. فيحييه ويرحب به. ويقول لبعض القيان : اسمعيها قول هذا المحسن .

حملن جران العود (٢) حتى وضعنه ... بعلياء (٣) في أرجائها الجن تعرف (٤)

وقان : « متع الله بك أيها العود ... فانك مرجوم (٥) عدا ومسيف (٦) »

(١) جران العود

الجران مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره . والعود البعير المسن ، وجران العود لقب هذا الشاعر ، واشتقه بذلك لقوله مخاطبا امرأته - وقد اغضبته :

حدا حدرا يا حارتى . فانى ... رأيت جران العود قد كاد يصلح

يعنى بذلك أنه كان قد اتخذ سوطا من جران العود يضرب به اساءه فهو يحيمها به ، وكان قد لقى منها مكروها فقال فى ذلك أبياتا جميلة منها :

ألا لا تغرن امرأ نوفلية ... على الرأس بعدى أو ترائب وضح

الى أن قال :

حدا نصف مالى واتركا لى نصفه . وبيتا بذم . فالمعرب صالح

وأوجز ما وصف به هذا الشاعر هو كلمة « محسن » التى وصفه بها أبو العلاء فان أول ميزة لشعره - وهو مجموع فى ديوان صغير مخطوط بدار الكتب - هى الاحسان .

(٢) اسم الشاعر وقد تقدم شرحه (٣) العلياء رأس الجبل أو المكان العالى ، والمعنى انهن وضعنى موضعا لا يوصل اليه (٤) تصوت (٥) مرمى بالحجارة (٦) مقتول بالسيف ومعنى البيت : انهن قلن لى « انتهز فرصة هذه الليلة

وأحرزن منى (١) كل حجزة (٢) مئزر لهن، ووطاح (٣) النوفلى (٤) المزخرف

وتمتع بنا فربما كانت آخر ليالينا من الدنيا ، لأنك قد ترحم غدا بالحجارة أو تقتل بالسيف فى الحرب

(١) بمعنى غنى (٢) الحجزة معقد الازار أو موضع المنكة من السراويل (٣) سقط أو دهب (٤) شىء من صوف تحتمر عليه نساء العرب . وقيل هو شىء يدرنه على رءوسهن تحت الخمار وهو ضرب من الحلى ، والنوفلى أيضا ضرب من الامتشاط وهو ما تدهب به هما ، ويكون المعنى أن شعورهن المسقة المرجرجة تهدلت

وروى هذا البيت قبل سابقه فى السمط الحطية والمطبوعة من رسالة الغفران ، ولكننا آثرنا رواية الابيات كما رويت فى ديوان الشاعر المخطوط بدار الكتب لان المعنى ينتظم على هذه الصورة ، فالغوانى يمحن له معانقتهن ، ويشتد المرح والمغازلة ، حتى تتهدل شعورهن ، فاذا أراد المزيد منعه ، فأحرزن منه حجر مآزرهن بالعنة ، أما تفسير الابيات على الرواية الاخرى فيحتاج الى تكلف

* * *

وهذه [redacted] اللائة من قصيده مطولة لهذا الشاعر بلغت فى الاجادة شأوا بعيدا [redacted] تشهد بعض الادباء بسبع أبيات قلائل لعمر بن أبى ربيعة وجميل وغيرهما ، [redacted] وجود شىء من محاولة العرب للشعر القصصى ، فان فى هذه القصيدة وحدها مثلا واضحا على تلك المحاولة قد لا نذكر له شبيها آخر فى كل ما قرأناه من شعر العرب ، وتبيّن أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتا ، ونحب أن نحيل القارئ الى ديوان ذلك الشاعر المحسن ، ونكتفى هنا بايراد بضع أبيات متفرقة منها ، تعطى فكرة موجزة عن أغراض القصيدة وهى :

ذكرت الصبا فانهلت العين تذرف وراجعك الشوق الذى كنت تعرف

وكان فؤادى قد صحا ، ثم هاجنى حمائم ورق ، بالمدينة هتف

فتصيب القينة وتجيد

* * *

. . . . . .

وقالت لنا والعيس صعر من الوجى وأحجافها بالحندل الصم تقذف

. . . . . .

موعدك الشط الذى بين أهلنا وأهلك ، حتى اسمع الديك يهتف

. . . . . .

فلما علانا الليل أقبلت حفية لموعدها ، اعلو الأكام واطلف

. . . . . .

فاقبلن يمشين الهويني تهاديا قصار الخطا ، مهين راب ومرحف

فلما هبط السهل واحتلن حيلة ومن حيلة الانسان ما يتحوف

حملن حران العود حتى وضعنه بعلياء — فى أرجائها الحى تعرف

. . . . . .

ولما رأين الصبح ، بادرن ضوءه ذنيب قطا البطحاء أقطف

وأدركن أعجازا من الليل بعدما اقام الصلاة المتحنف

وما أن حتى قلن: « يا ليت أننا تراب، وليت الارض بالناس تسف »

فان نبح من هذى ولم يشعروا بنا فقد كان بعض الحى يصرف

فأصبحن صرعى فى الحجال وبيننا رماح العدا والجاسر المتحوف

يبلغهن الحاج كل مكاتب طويل العصا أو مقعد يتزحف

ومكمونة رمداء لا يحذرونها مكاتبة ترمى الكلاب وتحذف

ويقول فى ختامها

فأصبحت غريد الضحى قد ومقلتى بشوق ، ولمات المحبين تشعف

أى أصبحت فرحا طروبا قد شغفن بى واللقاء يهتاج الشغف

وذ[illegible] عجبت جماعة من إحسانها وأصالتها ، قالت : « أتدرون من أين فيقولون « لا والله » فتقول « أبو أم عمرو التي يقول فيها القائل

تصد الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا (١) »

فيزدادون بها عجبا ولها إكراما . ويقولون : « لمن هذا الشعر ، لعمرو بن عدي اللخمي ، أم لعمرو بن كلثوم التغلبي ؟ »

فتقول : « أنا شهدت ندماني جديمة الملك وعقيلا . وصبحتهما الخمر المتعتقة (٢) لما وحدا عمرو بن عدي ، فكنت أصرف الكأس عنه . فقال هذين البيتين ، فلعل عمرو بن كلثوم حسن بهما كلامه واستزادهما في أبياته »

رقص الحور

ويذكر [illegible] التي تنسب الى الخليل بن احمد ، والخليل يومئذ في الجماعة ، وأنه [illegible] لا ان يرقص عليها . فينشئ الله القادر بلطف حكمته شجرة من [illegible] فتونع لوقتها . ثم تنفض عددا لا يحصيه الا الله — سبحانه — وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوار يرقصن للناظرين ، يرقصن

---

(١) تصرف الكأس عنا أم عمرو وتحولها الى جهة اليسار وكان من الطبيعي تدير الكأس الى جهة اليمين ، ولكنها لم تفعل ذلك ، ولست شر هؤلاء الثلاثة يا أم عمرو فتتغاضى عني وتحرميني من صبوحك التي تديرينها على الندامى

(٢) الممزوجة بالماء

على الابيات المنسوبة الى الخليل وأولها :

ان الخليطَ تصدّعْ (١) فطِرْ بدائك أوقعْ
لولا جوارُ حسانٌ مثل الجآذرِ (٢) أربعْ

لقيت للظاعن : «اظعن (٣) إذا بدا لك أودعْ»
فتهيّن أرجاء الجنة

* * *

ويقول « لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن ؟ » فيقول الخليل : « لا أعلم ؟ » فيقول : « إنا كنا فى الدار العاجلة نروى هذه الابيات لك ؟ » فيقول الخليل : « لا أذكر شيئا من ذلك ، ويجوز أن يكون ما قيل حقا » فيقول : « نسيت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب فى عصرك ؟ » فيقول الخليل . « ان عبور الصراط ينفض الخلد (٤) مما استودع ؟ »

* * *

ويعبر طاوس من طوابس الجنة يروق من رآه حسنا ، فيشبهه ابو عبيدة مصوصا (٥) فيتكون كذلك فى صحفة من الذهب ، فاذا قضى منه الوطر تمازجت عظامه بعضها الى بعض ثم تصير طاوسا كما بدا ، فتقول الجماعة : « سبحان من يحيى العظام وهى رميم واذ قال ابراهيم . رب

---

(١) تفرق (٢) جمع حؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه (٣) ارحل أو سر أو سافر . والمعنى قد تفرق الجمع فماذا أنا صانع بعد بأى من أحب ، ولو حلا الركب من هؤلاء الحسان الاربع لنساوى عندى اقامته ورحيله

(٤) القلب أو البال أو النفس

(٥) المصوص طعام من لحم الطير يطبخ ويقع فى الخل

أرنى كيف تحيى الموتى . قال أولم تؤمن ؟ . قال بلى . ولكن ليطمئن قلبى قال . فخذ أربعة من الطير فصُرهن [١] اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا . ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم »

ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون

حديثه مع الحوريتين

ويخلو بحوريتين من الحور العين ، فإذا بهره ما يراه من الجمال ، قال. أعزز علىّ بهلاك الكندى [٢] ؛

---

(١) احصرهن وقطعهن

(٢) الكندى « امرؤ القيس »

توفى سنة ٥٦٠ م .

هو ابن حجر بن عمر الكندى ، بلده نجد وأبوه أحد ملوك بنى اسد

كان امرؤ القيس ماجنا لاهيا فطرده أبوه فظل على لهوه وتسكعه حتى قتل بنو أسد أباه لظلمه ، فصمم على الاخذ بثأر أبيه وحاربهم فقهرهم مرارا ، ولكنه أبى أن يكتفى بما أحرزه من الفوز على أعدائه ولم يقنع بما ادركه من الثأر ، فسئم أصحابه وخذلوه ، فاستنجد بقيصر ملك الروم على اعدائه ، فاحتفى به ، ولكن وشاية دنيئة من أعداء امرئ القيس غيرت عليه قلب القيصر فاهلكه

ويعده جمهور مؤرخى الآداب أفحل شعراء الطبقة الاولى من الجاهليين ويقولون انه أول من وصف النساء وشبههم بالظباء وألمها وانه أول من ابتكر المعانى الجميلة الدقيقة واجاد الاستعارة والتشبيه الى آخر تلك الأوصاف التى لا تدل على تحرى الدقة فى القول .

على أن لشعره روعة حقيقية يشعر بها كل أديب — جدير بهذا الاسم — وفيه

. . . . . إنى لأذكر بكما

أيضا سحر لا تراه الا فى شعر القليل من خول الشعراء كالأعشى والذبيانى وقليل من اضرابهما .

* * *

انظر الى دقته مثلا فى وصف الليل وتحرمه بطوله — اذ يقول فى معلقته الخالدة :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وانظر الى ضيق ذرعه بذلك الليل الذى أمله طوله وأضجره فأصبح يترقب طلوع الصباح بمارع الصبر ليفقده من سآمته التى سببها طوله . ثم التفاتته المملوءة بالفطنة ودقة الملاحظة وانتباهه الى أن ذلك الصباح الذى يترقبه بلهف وشوق ليس خيرا من ليله المضجر . فانظر لتتمثل تلك الصورة حليـة شديدة الوضوح فى البيت التالى — على ايجازه .

ألا أيها الليـل الطويل : ألا انجلى بصبح ، وما الاصـباح منك بأمثل

* * *

وانظر الى ابداعه وافساحه وقدرته العظيمة على تحليل أدق خوالجه فى لاميته الساخرة التى يقول فيها .

— لقد رعمت « بسباسة » اليوم أننى كبرت ، وأن لا يحسن اللهو أمثالى

ويارب يوم قد لهوت وليـلة بآنسة كأنها خط تمثال

تمورتهـا من أذرعات ، وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظر عال

نظرت اليها — والنحوم كأنهـا مصابيح رهبان . تشب لقفال

سموت اليهـا بعد ما نام أهلهـا سمو حباب الماء ، حالا على حال

فقالت : « سباك الله : انك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى »

فقلت : « يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى »

حلفت لها بالله حلفة فاجر : « لناموا ، فما ان من حديث ولا صالى »

قوله :

فأصبحت معشوقا ، وأصبح بعلها ... عليه القتام ـ سيء الظل والنال
ولو ان ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ـ ولم اطلب ـ قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل امثالى
وما المرء ـ مادامت حشاشة نفسه ـ ... تدرك اطراف الخطوب ولا آلى

ومما احمل قوله فى معلقته :

كأنى غداة البين ، يوم ترحلوا ... لدى ـ سمرات الحى ـ ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون «لا تهلك أسى وتجمل»
وان شفائى عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من ام الحويرث قبلها ... وجارتها ام الرباب بمأسل
اذا قامتا تضوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاضت دموع العين منى صبابة ... على النحر حتى بل دمعى محملى
الا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم دخلت الخدر ، خدر عنيزة ... فقالت «لك الويلات : انك مرجلى»
تقول : ـ وقد مال الغبيط بنا معا ـ ... «عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل»
فقلت لها : «سيرى ـ وأرخى زمامه ... ولا تبعدينى عن جناك المعلل»
افاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
كلانا حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق ـ وتحتى شقها لم يحول
وما ذرفت عيناك الا لتضربى ... بسهميك فى اعشار قلب مقتل

* * *

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل
تسلت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادي عن هواك بمنسل

كدأبك (١) من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل (٢)
اذا ذقتا تضوع (٣) المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا (٤) القرنفل (٥)

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نعمة ، لجاسة معكما بمقدار دقيقه من دقائق الدنيا حيز من ملك بني آكل المرار ومنى النظر بالحيرة :

* * *

وليل كموج البحر ارخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى .
فقلت له — لما تمطى بصلبه ، وأردف اعجازا وناء بكلكل . —
« ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل »
وقد اعتدى ، والطير فى وكناتها بمنجرد ، قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ونختم هذه النحبة بقوله .

اذا قلت : « هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان » بدلت آخرا
كذلك حدى (١) ما أصاحب صاحبا من الناس ، الا حاشى ونعيرا

وسيمر بك طرف من اخباره وشعره فى هذا الجزء فكتب هذا القدر اليسير الآن

(١) كعادتك (٢) اسم جبل (٣) انتشرت رائحته (٤) الريا هى الرائحة الطيبة (٥) المعنى « عادتك فى حب هذه ، كعادتك من قبل فى حب أم الحويرث وأم الرباب وقد كانتا ، يعبق منهما المسك انى دهبتا كما انتشر عطر القرنفل الذكى ، حملته ريح الصبا » ويوضح هذين البيتين قوله فى البيت الذي قبلهما من معلقته

وان شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

(١) حطى أو نحى

هو امرؤ القيس . افضل الشعر اضحكه اذا اكل الابل بدت انيابه .

وآل جفنة ملوك الشام !! »

ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها ويقول : « ان امرأ القيس لمسكين مسكين ، تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله » :

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر
يُسَلّ به رِدُ أنيابها ... اذ غرّد الطائر المستحر (١)

فتستغرب احداهن ضحكا . فيقول « مم تضحكين ؟ » فتقول « فرحا بتفضل الله . أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ » فيقول « أنت من حور الجنان اللواتي حلفكن الله جزاء للمتقين . وهل فيكن . كأنهن الياقوت والمرجان » فتقول « أنا كمثلك بانعام الله العظيم : على أبى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونه ، وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رحى ، وتزوجني رجل يبيع السقط ، فطلقني لرائحة كرهها من فى . وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا . وتوفرت على العبادة وأكلت من مغزلى ومن كدي ، فصيرنى ذلك الى ما ترى : »

وتقول الاخرى « أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، على زمان ابى منصور محمد ابن على الخازن ، وكنت أخرج الكتب الى النساخ »

فيقول : « لا إله الا الله : لقد كنت سوداء ، فصرت أنصع من الكافور : » فتقول : أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين :

لو أن من نوره مثقال خردلة ... فى السود كلهم ، لابيضت السود

---

(١) استحر أي صاح فى السحر

حدائق الحور

ويمر ملك من الملائكة فيقول . « يا عبد الله : أخبرنى عن الحور العين ، أليس فى الكتاب الكريم . انا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا ، لاصحاب اليمين »

فيقول الملك « هن على صريين . ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل الاعمال الصالحة »

فيقول ـ وقد عجب مما سمع ـ . « فأين اللواتى لم يكن فى الدار الفانية ، وكيف يتميزن من غيرهن ؟ »

فيقول الملك : « اقف أثرى » فيتبعه فيحيء به إلى حدائق لا يعرف كنهها الا الله . فيقول الملك « حد تمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور »

فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة ، أو ماشاء الله من الثمار فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء . تبرق لحسنها حوريات الجنان . فتقول : « من أنت يا عبد الله ؟ » فيقول : « أنا فلان ابن فلان » فتقول . « إنى أمى بلقائك . قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة » فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير . ويقول : « هذا كما جاء فى الحديث . أعددت لعبادى المؤمنين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (١) ما اطلعتم عليه »

* * *

(١) بله بمعنى دع او كيف

ويخطر فى نفسه وهو ساجد . أن تلك الجارية - على حسنها - ضاوية (١) فيرفع رأسه من السجود . وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان (٢) عالج فيهال (٣) من قدرة الله ويقول . « يا رازق المشرقة سناها . ومبلغ السائلة مناها . ولدى فعل ما أعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهال : أسالك أن تقصر نوص (٤) هذه الحورية »

فيقال له . « أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء » فيقتصر من ذلك على الارادة

---

(١) نحيفة أو قليلة الجسم (٢) جمع كثيب وهو التل من الرمل
(٣) يفزع ويعظم عليه الامر (٤) عُجز

الفصل الرابع
جنة العفاريت

ويبدو له أن يطلع الى أهل النار . فيمضى الى ما هم فيه ، ليعظم شكره على النعم . بدليل قوله ـ تعالى ـ « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين »

* * *

فيركب بعض دواب الجنة ويسير : فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور السعسعانى [٢] . وهى ذات أوحال وخمائل [٣] فيقول لبعض الملائكة « ما هذه يا عبد الله ؟ » فيقول . « هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكروا فى الاحقاف ، وفى سورة الجن ، وهم عدد كثير »

فيقول : « لأعدلن الى هؤلاء فلمن أحلو لديهم من أحبوبه » فيعرج الى

---

(١) مجارون (٢) البهيج (٣) جمع عملول (بضم الغين) وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف ، او الوادى ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف ، او هو كل مجتمع اظلم وتراكم من الشجر

عليهم ، فاذا هو بشيخ جالس على باب مغارة . فيسلم عليه . فيحسن الرد ويقول « ما جاء بك يا إنسيّ ؟ » فيقول « سمعت أنكم جن مؤمنون . جئت نمس عندكم أخبار الجنان (١) ، وما لعله يوجد لديكم من أشعار المردة » فيقول ذلك الشيخ . « لقد أصبت العلم بجدة (٢) الامر . فسل عما بدا لك »

فيقول « ما اسمك أيها الشيخ : » فيقول . « أنا الخيتعور أحد بني الشيصبان . ولسنا من ولد ابليس . ولكنا من الجن الذين كانوا يسكنون الارض قبل وَلَدِ آدم ـ صلى الله عليه »

اشعار الجن

فيقول « أخبرني عن أشعار الجن . فقد جمع المعروف بالمرزباني قطعة صالحة » فيقول ذلك الشيخ : « انما ذلك هَذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشرَ من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض : وانما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون ، فلّ ما يَعُدُّوها القائلون ، وإنّ لنا لآلافَ أوزانٍ ما سمع بها الانس . وانما كانت تخطر بهم أطيفالٌ منا عارفون ، فتنفث اليهم مقدارَ الضوازة (٣) من أراك (٤) نعمان (٥) ولقد نُظمتِ الرجزُ والقصيد قبل أن يُخلَقَ آدم بكور (٦) أو كورين ، وقد

---

(١) الجنان جمع جان ، والجان اسم جمع للجن

(٢) اى العالم بدخلة الامر وباطنه

(٣) الشظية من السواك (٤) الاراك شجر يستاك بقضبانه

(٥) مكان معروف (٦) مائة وخمسون او مائتان اى نحو قرنين

هو ما بجدة امرؤ او بدخلته

بلغنى أنكم معشرَ الانس تلهجون بقصيدة امرئ القيس (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) وتحفظونها الحزاورةَ (١) فى المكاتب وإنْ شئتَ أمليتُك الف كلمة على هذا الوزن على مثل « منزل وحومل » والفا على ذلك القَرِيّ يجىء على « منزلُ وحومل » والفا على « منزلا وحوملا » والفا على « منزلَه وحومَلَه » والفا على « منزلِه وحومله » والفا على « منزلُه وحومله » وكلّ ذلك لشاعرٍ منا هلك وهو كافر . وهو الان يشتعِل فى أطباق الجحيم »

* * *

فيقول : « أيها الشيخ لقد بقى عليك حفظك : »

فيقول : لسنا ملَكٌ يا بنى آدم يغلبُ علينا النسيانُ والرطوبة . لانكم خلقتم من حمأ (٢) مسنون . وخلقنا من مارج (٣) من نار »

فتحمله الرغبة فى الادب أن يقول لذلك الشيخ : « أفتُمِلُّ علىّ شيئا من تلك الاشعار ؟ »

فيقول : « فاذا شئتُ أمليتك ما لا تسقُه (٤) الرِكابُ (٥) ولا تسعه صحفُ دنياك »

فيهم بأن يكتتب منه ، ثم يقول « لقد شقيتُ فى الدار العاجلة بجمع الادب ، ولم أحظ منه بطائل . ولست بموفقٍ إن تركت لذات الجنة واقبلت أنتسخ آداب الجن . ومعى من الادب ما هو كاف . لا سيما وقد

---

(١) جمع حرور وهو الغلام (٢) طين اسود

(٣) شعلة ساطعة ذات لهب شديد او نار بلا دخان

(٤) مالا تحمله (٥) الابل

شاع النسيان فى أهل أدب الجنة . فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظا . ولله الحمد »

ويقول لذلك السيخ . « ما كنيتك لأكرمك بالتكنية . فيقول « أبو هدرش ، أولدت من الاولاد ما شاء الله ، فهم قبائل بعضهم فى النار الموقدة وبعضهم فى الجنان »

فيقول . « يا أبا هدرش : مالى أراك أشيب : وأهل الجنة شباب » فيقول « إن الناس أكرموا بذلك وحرمناه ، لانا أعطينا حوله (١) فى الدار الماضية ، فكان أحدنا إن شاء صار حبة رمضاء (٢) وان شاء صار عصفورا وان شاء صار حمامه ، فمنعنا التصوّر فى الدار الآخرة . وتركنا على خلقنا لا نتغير ، وعوض بنو آدم كونهم فيما حسن من الصور . وكان قائل الناس يقول فى الدار الداهية أعطينا الحيلة واعطى الجن الحولة » ولقد لقيت من بنى آدم شرا ولقوا منى كذلك .

صرع فتاة

دخلت ـ مرة ـ دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم . فتصورت فى صورة عضل (٣) فدعوا إلى الضياون (٤) . فلما أرهقتنى تحولت صلا أرقم ودخلت فى قطيل (٥) هناك . فلما علموا ذلك كشفوه عنى . فلما خفت

---

(١) القدرة على التحول والانقلاب (٢) المنقطة بسواد وبياض

(٣) جرذ (٤) السنانير (الصياون جمع صيون وهو السنور الذكر)

(٥) جزع ، وهو يعنى الخشب والاجذال التى على أرض الغرفة

القتل صرتُ ريحاً هفّافة فلحقت بالروافد [١]، ونفضوا تلك الخشب والاجذال فلم يروا شيئا، فجعلوا يتفكّرون ويقولون : « ليس ها هنا مكان يُمكن أن يستتر فيه ، فبينما هم يتذاكرون ذلك عَمَدْتَ لكمائهم [٢] في

---

(١) حشب الغرفة (٢) الكَعاب . الجارية الناهد ، قال أبو العلاء .

كم هلكت غادة كَعاب وعمرت أمها العجوز
أحررها الوالدان حوفا والقبر حرز لها حرير
يحور أن تعطىء المنايا والخلد فى الدهر لايحور

وأول هذه الابيات قوله .

يموت قوم وراء قوم ويثبت الاول العرير

ولا يسعنا التمثل بها دون الاشارة الى حكاية الدهى التى أوردها بمناسبة رواية أبى الفتح فقد حكى ابو الفتح أنه دخل على أبى العلاء بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة بغير علم منه ـ وكان يتردد اليه ويقرأ عليه ، فسمعه وهو ينشد من قلبه « تلك الابيات السابقة »

ثم تأوه مرات ، وتلا : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره الا لاجل معدود . يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد »

ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الأرض زمانا ثم رفع رأسه ومسح وجهه فقال : « سبحان من هذا كلامه : »

قال ابو الفتح : فصرت ساعة ثم سلمت عليه فرد وقال : متى أتيت ، فقلت: الساعة ، ثم قلت : يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ فقال : « لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق وتلوت شيئا من كلام الخالق، فلحقنى ما ترى»

قال : « فتحققت صحة دينه وقوة يقينه . اهـ . »

ونحن نحب أن نفوّت هذه المناسبة فلا نعلق على هذه الحكاية بشىء من

الكلة[١]، فلما رأتني أصابها الصرع، واجتمع أهلها من كل أوب وجمعوا لها الرقاة، وجاءوا بالأطبة، وبذلوا المنفسات، فما ترك راق رقية إلا عرضها علي - وأنا لا أجيب!

وغبرت الأساة تسقيها الأشفية، وأنا سيدك[٢] بها لا أزول؛ فلما أصابها الحمام[٣] طلبت لي سواها صاحبة، ثم كذلك، حتى رزق الله الانابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين!

قصة الجنى

حمدت من حط أوزاري ومزقها ... عني، فأصبح ذنبي اليوم مغفورا

وكنت آلف من أتراب قرطبة ... خوداً[٤] وبالصين اخرى بيت يغبورا[٥]

عندنا الآن!

(١) الكلة ستر رقيق (٢) ملازم لها لا افارقها (٣) الهلاك، ولا يدخلن فى روع القارىء أن أبا العلاء يدور فى خلده لحظة واحدة حدوث مثل هذه الحكاية وانما هو خياله الممتع وتهكمه اللاذع وسخريته الدقيقة هى التى أملتها عليه، حسب القارىء أن يحفظ لابى العلاء قوله:

فاخش المليك ولا تقعد على رهب ... ان أنت بالجن فى الظلماء خشيتا

فانما تلك أخبار ملفقة ... لخدعة الغافل الحوشى، حوشيتا

ليعرف رأيه ومنزعه!

(٤) الخود المرأة الشابة (٥) يغبور اسم لملك الصين كما يقال كسرى لملك فارس وقيصر لملك الروم

أزور تلك وهـذى غير مكترث ... فى ليلة ، قبل أن أستوضح النورا

ولا أمرّ بوحشيّ ولا بشرٍ ... إلا وغادرته ولهان مذعورا

وأركب الهيق[1] فى الظلماء معتسفا[2] ... أوّلا ، قد[3] ريادٍ[4] بات مغرورا

وأحضر الشرب[5] أعسروهم بديّة[6] ... يرجون عودا ومزمارا وطنبورا[7]

فلا أفارقهم حتى يكون لهم ... فعل يطل به ابليس مسرورا

وأصرف العدل[8] ختلا[9] عن أمانته ... حتى يخون وحتى يشهد الزورا

وكم صرعت عوانا[10] فى لطى لهب ... قامت تمارس للاطفال مسجورا

وذادنى[11] المرء نوح عن سفينته ... صرّا الى ان غدا الطنبوب[12] مكسورا

---

(١) جمع أهيق وهو الظليم أى ذكر النعام (٢) سائرا على غير هداية أو قاصدا الى لاغاية (٣) ثورا وحشيا (٤) جمع ريد وهو الجرف العالى من الجبل.

وهذا البيت يمثل للقارئ صورة ممتعة بلد له أن يتخيلها ، وهى براعة نعرفها فى أبى العلاء الذى لم يفته أن يلائم بين سموق الحمى وطول ذكر النعام فى الشطر الاول من البيت ، وبين صحامته وعظم الثور الوحشى فى الشطر الثانى ، وليس أبدع من أن يتمثل الانسان ذلك الحمى راكبا تلك النعامة الهوجاء ذات السوق الخفيفه أو ممتطيا ذلك الثور الوحشى مع ضخامة جرمه وعنف حريه

(٥) جمع شارب (٦) نوع من آلات الطرب له عنق طويل وستة أوتار من النحاس (٧) العادل الذى ترضى شهادته (٨) محادعا اياه (٩) العوان المرأة النصف (١٠) المسجور اللابن الذى ماؤه أكثر من لبنه ، وفى هذا البيت صورة مفجعة اذ تتمثل منه تلك الأم الرؤوم تصرع فى وقت يكون فيه أطفالها فى أشد حاجتهم اليها : فالجنى لايرى أبلغ فى الاذى من انتهاز تلك الساعة الحرجة ! (١١) طردنى (١٢) عظم ساق ، أى أن نوحا ظل يضربنى لاغادر سفينته حتى كسر عظم ساقى . وفى هذا البيت دقة نحب الا تفوت القارىء فى كلمة المرء نوح ، مع ملاحظة ان

وطِرتُ في زمن الطوفان معتلياً ... في الجوِّ حتى رأيت الماء محسورا (١)
وقد عرضت لموسى في تفرّده ... بالشاء ينتج (٢) عمروساً (٣) وفرقورا (٤)
لم أخله من حديث ما، ووسوسة ... إذ ذلك ربّك في تكليمه الطورا (٥)
أضللتَ رأيَ أبي ساسان (٦) عن رَشَد ... وسرتُ مستخفياً في جيش سابورا (٧)
وسادَ بهرامُ جور (٩) . وهو لي تبع ... أيامَ يبني ـ على علاته ـ جورا (١٠)

المتكلم حتى يتكلم عن الاس . وان كان لم يتقيد بهذا في قوله في لزومياته

مضى المرء موسى واصحت يهود ... تتلو مع الدهر أسفارها

أما الصورة الشعرية الجميلة التي يمثلها للقارىء هذا البيت وهي في نظرنا أوضح من أن نشير اليها

(١) حتى انحسر الماء عن الارض أي انكشف (٢) جمع شاة (٣) ينتج أي يلي نتاجها (٤) العمروس الخروف (٥) الفرفور الحمل ، وهو يشير بذلك الى حكاية رعيه الغنم لشعيب ـ عليه السلام ـ وهي معروفة ، وقد ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالى « قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج » وقد أشار موسى ـ عليه السلام ـ الى ذلك حينما سأله الله عن عصاه وقال : «واهش بها على غنمي» (٦) يشير بذلك الى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب ارني انظر اليك . قال لن تراني . ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه . فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما افاق ، قال: سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين ،، (٧) ساسان جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية (٨) سابور هو ابن أزدشير حفيد ساسان بن بابك . ثاني ملوك الدولة الساسانية الفارسية

(٩) بهرام جورهو ابن يزدجرد ملك الفرس وهو الذي بنى مدينة جور وتاريخه مفعم بالبطولة والاعمال الجريئة

(١٠) جور مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا ، وهي طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ في بساتين وقصور ، واليها ينسب نوع

فتارةً أناصِلٌ ، (١) فى نكارته ، وربما أبصرتنى العين عصفورا
نلوح للانس حُوْلاً أو ذوى عورٍ ولم يكن قطّ لا حولا ولا عورا (٢)

ثم اتعظتُ ، وصارت توبتى مثلا من بعد ماعِشتُ بالعصيان مشهورا
حتى اذا انقضت الدنيا ونودىَ اسـ ـرافيل : «ويحك هلا تنفخ الصورا»
أماننى الله شيئاً ، ثم أيقظنى لمبعثى . فرُزقتُ الخلد مسرورا

لغة الجن

فيقول : «لله درك يا أبا هدرش ، فكيف ألسنتكم ؟ أيكون فيكم عرب لا يفهمون عن الروم . وروم لا يفهمون عن العرب كما نجد فى أجيال الانس ؟ »

فيقول : « هيهات أيها المرحوم . إنا أهل ذكاء وفطن ، ولا بد لاحدنا أن يكون عارفا بجميع الالسن الانسية . ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس » .

من الورد يعرف بالجورى ، وهو شديد الحمرة ويعد أجود أصنافه ، وشهرة هذه المدينة بالورد كشهرة هجر بالتمر ، ودارين بالمسك ، وقطر بل بالخمر

(١) حية دقيقة صفراء لاتنفع منها الرقية

(٢) يقول إننى كنت أبدو مرة فى صورة صل كريه المنظر ، وأخرى فى صورة عصفور يزدهى الناظر حسنه ، وكثيراً ما كنا نظهر للانس — فى صورة الحول والعور ، على حين أننا أصحاء البصر ، ولكنا نختار لانفسنا الصورة التى يحلو لنا ان نبدو فيها

حديث الرجم

« وأنا الذى أنذرتُ الجن بالكتاب المنزل ، أدلجت فى رفقة تريد اليمن ، فمررنا بيثرب ، فسمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا [١] وعُدْتُ الى قومى فذكرتُ لهم ذلك . فتسرّعت منهم طوائف الى الايمان ، وحبسهم على ما فعلوه انهم رجموا عن استراق السمع بكواكب محرقات [٢] »

فيقول : « يا أبا هدرس : أخبرني — وأنت الخبير — هل كان رجم النجوم فى الجاهلية . فان بعض الناس يقول إنه حدث فى الاسلام ؟ »

فيقول . هيهات : أما سمعت قول الاودى :

كشهاب القذف يرميك به ... فارس فى كفه للحرب نار

وقول ابن حجر :

فانصاع [٣] كالدرى [٤] يتبعه ... يثور نخاله طنبا [٦]

ولكن الرجم زاد فى اوان المبعث [١] ، وان التحرّص لكثير فى

(١) ارجع الى سورة الجن

(٢) يشير الى قوله تعالى فى سورة الجن : « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » (٣) انفتل راحماً مسرعاً ومر (٤) كالكوكب الدرى (٥) غبار (٦) الطنب حبل طويل يشد به سرادق البيت والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء وقد خلف وراءه غبارا مستطيلا يشبه الحبل الطويل (٧) صرح

الانس والجن ، وإن الصدق لمُعوز قليل ، وهنيئا فى العاقبـة للصادقين ، وفى قصة الرجم أقول :

مكةَ أقوتْ من بني الدرديس[١] فما لجني بها من حسيس[٢]

وقام فى الصفوة من هاشم[٣] أزهر[٤] لا يغفل حقَ الجليس

يجلد فى الخمر ويشتد فى الـ أمر ولا يطلق شرب الكسيس[٥]

ويَرجم الزانيَ ذا العرس لا يقبل فيه سؤلة[٦] من رئيس

* * *

وكم عروس . بات حُراسها كحرهم[٧] فى عزّها أو جَديس[٨]

أبو العلا مهدا لرأى فى الروميات فقال .

ولست أقول إن أشهب يوماً لبعث محمد حملت رحوما

(١) حى من أحياء الجن (٢) صوت حى

(٣) قام فى الصفوة من هاشم أى قام فى لحمة بنى هاشم أى فى حيزهم

(٤) مشرق الوجه يعنى به النبى (ص)

(٥) الكسيس شديد التمر ومعنى البيت : أنه يحرم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا النوع من النبيذ (٦) شفاعة

(٧) حرهم قبيلة كانت فى جهات مكة نزل بينهم اسماعيل (٨) جديس قبيلة من العرب كانت مبارلها باليمامة وكان معهم بنو عمهم طسم فطغت طسم على جديس حتى كان رئيسها عملين يدخل بالمرأة من جديس قبل ان يدخل بها زوجها فلما تزوجت عفيرة وهى من سادات جديس وافتضها عملين قبل بعلها ، خرجت مولولة شاقة جيبها كاشفة قبلها وهى تقول :

لا أحد اذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

وتقول :

. . . . . .

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم وأنتم رجال كثرة عدد الرمل الخ

فهاجت جديس على طسم لسبب ذلك وانتصرت عليها وانفردت بالعز دونها ؛ وظلت كذلك الى أن اتاحها ملوك اليمن

***

(وقد اشار الى هذه القصة اكثر مؤرخي العرب ، ولا بأس من اختيار القطعة التالية من كتاب مروج الذهب لجمال أسلوبها الروائي وحسن حياكها المتسق وليقرأها القارئ على أنها أسطورة لها اصل تاريخي — اذا شاركنا في الاعتقاد بأن أكثرها من عمل الرواة واختراع المحدثين)

حكاية طسم وجديس

« كان لطسم ملك يقال له « عملوق » وكان ظلوما غشوما لا ينهاه شيء عن هواه — مع اصراره واقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره اياهم ، فلبثوا في ذلك دهرا وهم أهل معالم قد عمطوا النعمة وانتهكوا الحرمة ، وبلادهم « اليمامة » أفضل البلاد واكثرها خيرا في صنوف الشجر والأعناب ، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها « هزيلة » بنت مازن وروح لها قد فارقها يقال له « ما شق » فأراد قبض ولده منها فأبت عليه ، فارتفعا الى الملك « عملوق » ليحكم بينهما ، فقالت : « أيها الملك : هذا الذي حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعاً ، حتى إذا تمت أوصاله واستوفى حصاله أراد أن يأخذه قسرا ويسلبنيه قهرا ويتركني منه صفرا » قال زوجها : « قد أخذت المهر كاملا ولم أنل منه نائلا الا ولدا حاملا فافعل ما كنت فاعلا » فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها ويجعل في غلمانه ، فقالت هزيلة في ذلك :

أتينا أحا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكما في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا متورعا ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت، فلم أقدر على متزحزح وأصبح روحي حائر الرأي نادما

قالوا : « فبلغ الملك قول هزيلة فغضب ، وأمر ألا تزوج امرأة من جديس

. . . . . .

فترف الى روحها حتى تحمل اليه فيفترعها قبل روحها . فلقوا من ذلك دلا طويلا ولم ترل تلك حالهم حتى تزوجت عفيرة « وقيل الشموس بنت عمار الطسمى اخت الاسود بن عمار » فلما كانت ليلة هديها الى روحها . انطلق بها الى « عملوق » الملك . ليطأها — على عادته — ومعه القينات يغنين ويقلن فى غنائهن

ابدأ بعملوق . وقومى فاركبى
وبادرى الصبح بأمر معجب
ثما لبكر بعدكم من مذهب

***

فلما دخلت « عفيرة » على « عملوق » افترعها وحلى سبيلها . فخرجت عفيرة على قومها فى دمائها شاقة جيبها عن درعها وهى تقول :

« لا أحد أذل من حديس أهكذا يفعل بالعروس : »

وقالت أيضاً فى تحريض حديس على طسم وأنت أن تمضى الى روحها — :

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

. . . . . .

فإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفروا من الكحل
ودونكم طيب العروس . فانما حلقتم لأثواب العروس، وللغسل
قبيحا وشيكا للدى ليس دافعا ويختال يمشى بينما مشية الفحل
فلو أننا كنا رجالا ، وكنتم نساء لكنا لا نقر على الذل

***

فموتوا كراما ، واصبروا لعدوكم بحرب تلظى فى القرام من الجرل
ولا تجزعوا للحرب يا قوم ، إنما تقوم بأقوام كرام على رحل
فيهلك فيها كل نكس موكل ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

. . . . . .

وفى ذلك يقول أحوها :

حاءت تمشى طسم فى خميس كالريح فى هشهشة اليبيس
يا طسم : ما لقيت من حديس حقا لك لويل، فهيسى، هيسى

***

فلما سمعت حديس بذلك وغيره من قولها ، اجتمعت عصبا لذلك . فقال لهم الأسود بن عمار — وكان فيهم سيدا مطاعا — : « يا حديس : أطيعونى بما آمركم به وأدعوكم اليه. فعى ذلك عر الدهر ودهاب الدل »

قالوا . « وما ذلك ؟ » قال قد علمتم أن هؤلاء — يعنى طسما — ليسوا بأعز منكم ؛ ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذى يدعمنا اليه بالطاعة . ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل . ولو اجتمعنا معه لكان لنا النصف : » فقالوا : « قد قلنا قولك : ولكن القوم أفرادنا وأكثرنا عددا وعددا . فحاف — إن طمعوا بنا — ألا يقيلونا : » فقال: «والله يا حديس لتطيعنى فيما آمركم به وأدعوكم اليه ، أو لأتكئن على سيفى فأقتل به نفسى : » قالوا : « فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه » قال : « فانى صانع لعملوق وقومه من طسم طعاما وداعيهم اليه ، فاذا جاءوا اليه معتصلين من الحيل والبغال نهضنا اليهم بأسيافنا فانفردت أنا بالملك وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ! » قالوا : « فافعل ما بدالك : »

واجتمع رأيهم عليه ، فقالت « عفيرة » لأخيها « الأسود » لا تفعل هذا فان الغدر فيه ذلة وعار . ولكن كابدوا القوم فى ديارهم تظفروا بهم أو تموتوا كراما : » قال : « لا ، ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواحيهم وأبلغ فى الانتقام منهم » وصنع الأسود طعاما كثيرا وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل — حيث أعدوا الطعام — ثم قال لهم : « اذا أتاكم القوم يرفلون فى حليهم ، فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم

زفت الى زوج لها ، سيد ... ماهو بالنكس (١) ولا بالضبيس (٢)
غرت عليها فتخلت (٣) ... مواشك الصرعة (٤) قبل المسيس (٥)
وأسلك (٦) الغادة محجوبة (٧) ... في الخدر ، أو بين جوار تميس (٨)
لا أنتهي عن غرضي بالرقى (٩) ... إذا انتهى الضيغم دون الفريس (١٠)

وابدؤا بالرؤساء فاكم ـ اذا قتلتموهم ـ لم تنالوا بالسفله ولم يكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها قالوا : « نفعل ما قلت »

ثم دعا الأسود بعملوق الطسمي ومن معه من رؤساء طسم باليمامة . فأسرعوا اجابة دعوته ، فلما توافوا الى المدعاه وثبت حديس فاستثاروا سيوفهم من الرمل وشدوا على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى افنوهم عن آخرهم ، ومضوا الى ديارهم فانتهبوها . »

ولهذه الأسطورة التاريخية الطويلة بداية ونهاية لا يتسع المقام لذكرها ونحب أن يطلع عليها القارئ في الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي من (ص ٢٤١ — ٢٤٧)

* * *

وقد ذكر أبو العلاء قبائل « طسم وحديس وجرهم » في شعره مراراً ، فمن ذلك قوله وهو البداية تاريخية رائعة .

سيسأل ناس « ما قريش ومكه » كما قال ناس « ماحديس وما طسم »

وقوله في موضع آخر اثناء كلامه عن الترك :

لهم حيل في جرهم ما اهتدت لها حديس ، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله في ميميته الفذة التي حاور فيها الديك « ورثت هدى التدمّار من قبل جرهم » (ارجع الى ص ٢١)

(١) الرجل الضعيف الدنيء الذي لاخير فيه (٢) الجبان أو الاحمق
(٣) حملتها تختلج (٤) بالصرعة العاجلة (٥) قبل أن يمسها زوجها
(٦) أدخل فيها (٧) وهي مستورة (٨) تتبختر
(٩) جمع رقية أو عوذة (١٠) اذا انتهى الأسد دون مايفترسه

وأدلج (١) الظلماء فيه فتية ... ملجن (٢) فوق الماحل (٣) العربسيس (٤)
فى طاسم (٥) تعزف (٦) جنانه ... أقفر إلا من عفاريت (٧) ليش
تحملنا فى الخنيج (٨) حيزل ... لها أجنحة ـ ليست كخيل الانيس (٩)
وأينق (١٠) تسبق من أبصاركم ... مخلوقة بين نعام وعيس (١١)

* * *

لا تسكن فى أيامنا عندنا ... بل نكيس الدين فما إن نكيس (١٢)
فالأحد الاعظم والسبت كالاثـ ... ـنين ، والجمعة مثل الخميس (١٣)
لا مجوس نحن ولا هود ، ... ولا نصارى يبتغون الكنيس (١٤)

---

(١) أسير ليلا (٢) من الجن (٣) الارض الجدبة (٤) الارض الجافة الغليظة (٥) المقاره لا أثر فيها (٦) تصوت (٧) شحعان « جمع الس » (٨) وقت الليل (٩) الانس (١٠) نوق (١١) كرام الابل

(١٢) لا نقطن . والمعنى أننا لا نفقه شيئا فى أمور الدين

(١٣) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى مرارا فى لزومياته . من ذلك قوله :

لنا جمعة . والسبت يدعى لأمة ... أطافت بموسى ، والنصارى لها الاحد
فهل لبواقى السبعة الزهر معشر ... يجلونها ـ ممن تنسك أو جحد ؟

وقوله :

فما هذه الايام الا نظائر ... تساوت بها آحادها وسبوتها

(١٤) لسنا مجوسا ولا يهود ولا نصارى يذهبون الى كنيسهم ، وبديع من أبى العلاء هذا الخيال الصافى الذى يتمثل فيه بعد الجن عن الاهتمام بالاعتبارات الانسية

ولا جرم قد شغل اختلاف الاديان وتباين الملل والنحل مكانا رحبا من نفس أبى

نمزق التوراة من هونها

العلاء فأورده فى شعره ونثره بأساليب شتى ولعل أول ما عرفناه له فى ذلك قوله فى سن مبكرة

بالـلا ذقيـة فتنـة ما بين احمـد والمسيح
هـذا بناقـوس يدق وذا بمـأذنه تصيـح

الى أن يقول

كل يعـزو دينه ياليت شعرى ما الصحيح؟

ثم قال ـ فيما بعد ـ :

نحـل عـدت مللا . فكل شريعـة تبدى لمضمر غيرهـا اكمـارها

وقال :

ان الشرائـع ألفت بيدنـا احمـا وعلمتنـا أمانيى العـداوات

وقال :

محـوسيـة وحميـفيـة ونصرانية ويهودية الخ الخ

* * *

وبعد أن قلب هذه الفكرة على كل وجه من وجوهها ، انتقل من تطبيقها على الانس الى تطبيقها على الجن ، ثم الى تطبيقها على الكواكب ، من ذلك قوله :

العـالم العـالى برأى معـاشر كالعالم الهاوى ـ يحس ويعلم
زعمت رجال : « أن سياراته تسق العقول، وأنهـا تتكلم »
فهل الكواكب مثلنا فى دينها لا يتفقهن ، فهائد أو مسلم

وفى هذه القصيدة يقول :

ولعل مكة فى السماء كمكة وبهـا نضاد ويذبل ويلملم

فأنت ترى أن فكره لم يقف عند حد الانس والجن بل تعداهما الى الكواكب أيضا فود لو يهتدى الى مذاهبها ومحلها ، ان كان لها مذاهب أو محل !

وهذا خيال لا نستغربه من شاعر فيلسوف دقيق الحس عميق الفكر يرى فى

ونحطم الصلبان حطم اليبيس (١)
نحارب الله جنودا لإبليـ ـس بأخي الرأي الغبين النحيس
نسلم الحكم إليه ـ إذا قا ـ ـس ـ فنرضى بالضلال المقيس (٢)

* * *

نزين للشارخ (٣) والشيخ أن يفرغ كيسا في الخنا بعد كيس

كل ما يحيط به من حيوان ونبات وجماد حياة شاملة ، ويصل به التعمق في ذلك الى حد أن يقول :

أطس رماني كونه وفساده وليدا يترب الارض يلهو ويعبث

ثم يسطر من الناحية الأخرى من مسطار الحقيقة الذي لا يفتأ يطل منه على الكون ، فيقول :

هذي الشخوص من التراب كوائن فالمرء ـ لولا أن يحس ـ حجار

فأنت تراه يرى في الجماد حياة لا ينقصها الا الاحساس وفي الاحياء جمادا لا يمتاز بغير ذلك الاحساس .

* * *

ولا بأس من الاشارة هنا ـ بمناسبة هذا الاستطراد الى قوله :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

وقوله :

وهل أعظم الا غصون وريقة وهل ماؤها الا جنى دماء

وسنفصل ما أجملناه في هذه النقطة حين نعرض للمقارنة بين أبي العلاء المعري وعمر بن الخيام ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن

(١) اليبيس مايبس من العشب ، والبقول التي تتناثر اذا يبست ، او هو كل نبات يابس ، ومعنى البيت اننا نحقر التوراة فنمزقها ، ونهزأ بالصلبان فنكسرها كما نكسر النبات اليابس (٢) نسلم حكمنا الى ابليس فنرضى بما يراه لنا من الآراء الضالة (٣) للشاب

ونقترى (١) جنّ « سليمان » كى تُطلِقَ منها كل غاوٍ حبيس (٢)
صَيِّرَ فى قارورة رُصِّدَتْ (٣) فلم تُغادِرْ منه غيرَ النَّسيس (٤)

---

(١) نتتبع (٢) محبوس (٣) طليت بالرصاص

(٤) بقية الروح ، والنسيس ـ أيضا ـ عرقاد فى اللحم يسقيان الملح . ومعنى البيتين : أنها نحوب انحاء البلاد باحثين عن احوالها من عصاة الجن العاوين الذين سجنهم نبى الله « سليمان » بسبب عصيانهم ، فى قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلا الى الفرار ، فلم يبق منهم ذلك الجنس الطويل الا الرمق

« أساطير الجن وسليمان النبى »

وقد شاعت أساطير « سليمان » والجن ، وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ فنسبوا اليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة . وعزوا الى خاتمه « المشهور بما عليه من النقش » معجزات لا تحصى ، كما عزوا الى بساطه قدرة خارقة على الطيران ـ بما يحمله ـ فى الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل

وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور أنصحها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبى » كان يهيمن على الجن ويتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع انفاذه الا جنى بعينه يكون مشهورا بقدرته الخارقة ، فيرسل اليه ، فاذا لبى دعوته فذاك ، والا نكل به أو ختم جبهته بالنقش الذى على خاتمه فأحرقه توا ، أو سجنه فى قارورة مرصّصة أو قمقم من النحاس ، وربما سجنه فى عامود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه

وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان ، على اذلال الجن واخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الاساطير بين العامة والخاصة شىء كثير ، وافتن الناس فى رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذه الاساطير مصادر عدة ـ نخص

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حدّاس

بالذكر منها — عدا روايات وأقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسيين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير الف ليلة وليلة » « واسطورة سيف بن ذي يزن »

ففى « الف ليلة وليلة » ترى

حكاية

الصياد والجنى

وموضوعها أن صيادا عائلا طاعنا فى السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم اربع مرات



« صورة الصياد والجنى والقمقم »

فخرج فى صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر الى أن استقرت فى الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك ، فأخذ يعالجها حتى اذا تمكن من اخراجها وجد فيها حماراً ميتا فحزن ، ثم اخرجه ورمى شبكته مرة ثانية ، فلما

تقول : « لا تقنع بتطليقها وأقبل نصيحتا ـ لم يكن بالدسيس »

جذبها وحدها ثقيلة كما وجدها فى المرة الاولى فاحد يعالجها حتى استطاع اخراجها فوجد فيها ريراً كبيراً مملوءاً بالرمل والطين فراد حرقه، ثم أخرج مافيها ولما القاها للمرة الثالثة وجدها وجد بها شقاوة وقوارير. فعجب من سوء بخته و نكد طالعه ، وقبل أن يلقى الشبكة للمرة الرابعة ـ والاخيرة ـ يتوسل الى الله أن ييسر له ثم سمى باسمه والقى شبكته وصبر الى أن استقرت فاذا بها أثقل منها فى المرات السابقة فبذل أشد الجهد فى اخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد . فوجد فيها قمقما من نحاس أصفر مسدود بالرصاص ومطبوع بخاتم سليمان النبى فتبدل حزنه سروراً وقال فى نفسه : « سأبيع هذا القمقم فى سوق النحاس لانه يساوى عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لا بد من فتحه لأعلم مايحتويه »

وأخرج مدية كانت معه فعالج بها الرصاص حتى فكه ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف الى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل حتى رأى الصياد أمامه مارداً هائلا مريعاً من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب بلباله ، ولم يعده الى رشده الا قول الجنى له :

« العفو يا نبى الله سليمان ، التوبة التوبة : آمنت بك ، وأطعتك ولم أعد أخالف لك قولا أو أعصى لك أمراً ، فلا تقتلنى فانى تائب نادم على ما فرط منى من العصيان : »

فعاود الصياد الرمق وقال له . « أين سليمان النبى أيها الجنى : لقد مات منذ عدة قرون ، فما قصتك ، وما سبب حبسك فى هذا القمقم » فلما علم الجنى بموت سليمان النبى التفت الى الصياد قائلا : « سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك : » فقال له الصياد : « أهذا جزاء من أحسن اليك وأخرجك من سجنك ! » فقال له الجنى : « لقد كنت من الجن المارقين وقد عصيت سليمان بن داود ـ واسمى صخر الجنى ـ فارسل الى وزيره آصف بن برخيا

حتى ـ إذا صارت إلى غيره ـ عاد من الوجد بجد تعيس

فأتى بى مكرهاً وقادنى اليه دليلا ، فلما وقفت بين يدى سليمان النبى أمرنى بالدخول تحت طاعته ، فأبيت ، فحبسنى فى هذا القمقم وختم علىّ بالرصاص وطبعه بخاتمه المنقوش عليه « الاسم الاعظم » وأمر الجن فألقونى فى وسط البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى كل من خلصنى أعميته الى الأبد ولما مرت المائة عام ولم يخلصنى أحد قلت : كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثانى فتحت له كنوز الارض ـ فلم يخلصنى أحد ومرت على أربعمائة أخرى قلت كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات ـ فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى « كل من خلصنى قتلته وتركت له اختيار ميتته ، فأى ميتة تختار أن تموتها الآن ؟ »

فارتمى الصياد على اقدامه متوسلا اليه أن يعفو عنه . ولكنه وجد منه الاصرار على قتله

فلجأ الى الحيلة ـ بعد أن يئس من استعطافه ـ فقال للجنى « ولكن لى سؤالا أرجو أن تجيبنى عليه قبل أن تهلكنى ، وأن تصدقنى فى الاجابة عنه » فقال له الجنى « وما هو ؟ » فقال الصياد « قل لى بحق الاسم الاعظم المنقوش على خاتم « نبى الله سليمان » « كيف كنت فى هذا القمقم الضيق ـ وهو لا يسع يدك ولا رجلك : » فلما سمع الجنى هذا القسم اضطرب . ولكنه لم يلبث أن قال له « ألا تصدق أنى كنت فيه : » فأجابه الصياد « كلا ولن أصدق ذلك أبدا الا اذا رأيته بعينى » فانتفض العفريت وصار دخانا فى الجو ، ثم اجتمع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله ـ فأسرع الصياد بسد فم القمقم بالسداده التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصياد توسل اليه أن يفك أسره ـ ودار بينهما حوار طويل ممتع يجده القارىء مفصلا فى الجزء الاول من كتاب الف ليلة وليلة ، انتهى بأن أقسم له الجنى أن ينفعه اذا أطلقه ، وقد بر الصياد بقسمه

* * *

ثغرا كدرّ فى مدام غريس وقد زوجت منها ـ تذكره

***

أما أسطوره « سيف بن دى يزن » فبعدها ـ على عامية افكارها وفساد حيالها واضطرابه فى عدة مواضع منها ـ أغنى المصادر التى عنيت بذكر هذه الخرافة واشباهها من وصف الجان وبيان كهاباتهم واقدارهم وهيمنة السحرة عليهم وأثر الطلاسم فيهم واظهار الفروق التى بين صوائتهم وتحليهم المختلفة الخ الخ

وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الاساطير أرحب مكان فيها فاردخمت بها اردحاما أفردها من بين الاساطير العربيه ، ولسنا نعرف فى كل ما قرأناه من القصص العربيه ـ وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء ـ قصة تعدلها فى هذه الخصلة غناء وحصبا

فليس من بد لمن أراد أن يكون فكرة واسعه عن اساطير السحرة والجان والارصاد والطلاسم أن يقرأ تلك القصة الطويلة الخديره بالعنايه

ومن بين أساطير تلك القصة ما رويه لنا اسطورة « الرهق الاسود » ـ وقد ذكرت فى موضعين منها ـ أولهما تماسه سفر « سيف بن دى يزن الى كنوز « النبى سليمان » وثانيهما تماسه حفر « شلالات النيل »

فمثل لنا ذلك « الرهق الاسود » مردا عنيد تحف الجن كلها سطوته وبأسه ولا تكاد تؤثر فيه الارصاد والطلاسم . وقد بلغ من عتوه أنه عصى « النبى سليمان » واستحف به واستفزه

فى ذات يوم كلف « سليمان » ـ تلبية لرغبة روحه « بلقيس » ـ أعوان الجن بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به فأظهروا له عجزهم عن القيام به ولفتوه الى قدرة « الرهق الاسود » دون غيره من الجان ـ على اتمامه

وكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده ، فبعث اليه برسالة زكها له أحد الجان عند رأسه ـ وهو نائم ـ جوفا من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « اذا لم تحضر الى بعثت اليك انوهم : »

ونسخط الملك على المشفق المفرط فى النصح اذا الملك سيّس

فذهب الى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو ؟ » فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه التى اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتنان فيها ـ ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذى أرغمه عليه ارغاما .

وبينما هو قائم بعمله الشاق ـ مرت به « بلقيس » مصادفة فهام بحبها ، ولما رأى « سليمان النبى » طلب اليه ان يروحه منها ووعده بالرضوخ لاوامره كلها ان فعل ـ فلما علم أنه يعنى روحه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذى على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير آصف ، فاقترح على « سليمان » أن يسجنه فى عامود من الرخام ليشقى بالعذاب طول حياته » فسجنه فى عامود طويل احكم سداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوسا حتى أنقذه « سيف من ذى يزن » الى آخر تلك الاسطورة الطويلة التى آوحر باها أشد ايحار وفصلتها قصة « سيف بن ذى يزن » « فى الجزء الثامن ص ٤٥ و٤٦ وفى الجزء الحادى عشر من ص ٤٤ الى آخر الجزء ومن اول الجزء الثانى عشر الى ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة فى تلك الاساطير أنها تكاد تنتهى جميعاً باظهار ميل أولئك الجن العصاة الى الاساءة الى من يحسنون اليهم باطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر فى نفوسهم

* * *

وقد أشار المتنبى الى ما اشتهر به « سليمان النبى » من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهم ألسنتهم المختلفة ، فى نونيته التى مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان ، فقال .

ملاعب جنة ، لو سار فيها « سليمان » لسار بترجمان (١)

وأبدع النابغة فى الاشارة الى ما اشتهر عن « سليمان » من اذلال الجن واخضاعهم

(١) وهذا البيت هو الثالث من قصيدته التى أولها

مغانى الشعب ـ طيبا فى المغانى ـ بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

لا أتقي البرد لأهواله وأركب البحر أوان القريس (١)
نادمت قابيل ، وشيثا ، وها بيل على العاتقة الخندريس (٢)
ورهط لقمان ، وأبساره عاشرت من بعد الشباب اللبيس (٣)

* * *

بمت آمنت ، ومن يرزق الـ إيمان يظفر بالخطير النفيس
حاهدت في بدر ، وحاميت في أحد ، وفي الخندق رعت الرئيس (٤)
وراء جبريل وميكال (٥) نخـ ـلي الهام في الكبة (٦) خلي اللسيس (٧)

لاوامره ، فقال من معلقته الحميلة أثناء مدحه للمعان

ولا أرى فاعلا في الخير يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من احد
الا « سليمان » اذ قال الاله له . « قم للبرية فاحددها عن الفند
وحيس الجن ـ اني قد ادنت لهم يبنون « تدمر » بالصفاح والعمد
من اطاعك فانفعه بطاعته كما اطاعك ـ وادلله على الرشد
ومن عصاك ، فعاقبه معاقبة تنهى الطلوم ولا تقعد على صمد»

ونختم هذا الفصل بقول الاعشى ـ وهو يمثل منحى آخر من اعتقاد العرب في ذلك ـ .

ولو كان شيء خالدا ومعمرا لكان سليمان البرى من الدهر
براه الهي ، فاصطفاه عباده وملكه ما بين ثريا الى مصر
وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر

(١) البرد الشديد (٢) الخمر (٣) أي الذي أخلق من كثرة اللبس (٤) بدر وأحد والخندق ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبي (ص .) وهو يعني بالرئيس في واقعة الخندق ابا سفيان

(٥) ميكائيل (٦) الكبة الصدمة بين الخيلين في الحرب أو الرحمة (٧) يشير بذلك الى ماورد في القرآن من محاربة الملائكة في جانب المسلمين في تلك الوقائع كقوله

وطار فى اليرموك بى سابح ... والقومُ فى ضربٍ وطعنٍ خليس

حتى تجلّت عنى الحرب كالجـ ... ـرة ، فى وقدتها ذاك الوطيس

والجمل (١) الآنكدُ شاهدتُه ... بئس نتيجُ الناقة العنتريس (٢)

وزرتُ صِفينَ (٣) على شطبة (٤) ... جرداء ، ما سائسُها بالأريس (٥)

مجدّلا (٦) بالسيف أبطالها ... وقاذفاً بالصخرة المرمريس (٧)

ونزلتُ قُدّامَ على غدا ... ة النهر (٨) حتى قُلّ غربُ الحميس (٩)

صادفَ منى واعظٌ توبةً ... فكانتِ اللّقوة (١٠) عند القبيس (١١)

تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » الى أن يقول : « اذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » بلى : ان تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »

وقوله تعالى فى سورة الانفال « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى فى سورة الاحزاب « وجنوداً لم تروها »

(١) يعنى أنه شاهد واقعة الجمل (٢) العنتريس الناقة الغليظة ومعنى البيت . «وقد شاهدت ذلك الجمل المشئوم الذى سميت باسمه الموقعة فلا كان يوم ولدته أمه فيه ، فانه شر ما انتجته تلك الناقة العنتريس التى خلفته (٣) موقعة صفين التى كانت بين على ومعاوية (٤) فرس معتدلة القوام (٥) الأريس الاكار أى الحراث ، يعنى ان قائدها ليس بالغمر الذى لم يمارس اهوال الحروب (٦) راميا بالسيف أبطالها الى الارض (٧) الملساء أو الشديدة

(٨) يعنى واقعة النهر (٩) الجيش وسمى كذلك لانه خمس فرق

(١٠) اللقوة أى الناقة اللقوة وهى كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل

(١١) القبيس أى الفحل القبيس وهو كل فحل سريع الالقاح ، ومعنى البيت:

فيعجب مما سمعه من ذلك الجنى ، ويكره الاطالة عنده فيودعه

حديث الاسد

ويحم [١] فاذا هو بأسد يفترس من صيران [٢] الجنة وحسيلها [٣] فلا تكفيه مائة ولا مائتان . فيقول فى نفسه . « لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء [٤] فيقيم عليها الأيام ، لا يطعم سواها شيئا » فيلهم الأسد ان يتكلم ـ وقد عرف ما فى نفسه ـ فيقول : « يا عبدَ اللهِ ! أليس أحدكم فى الجنة تقدم له الصحفة [٥] فيأكل منها مثلَ عمر السمواتِ والارض . يلتذ بما أصاب ، فلا هو مكتف ، ولا هي الفانية ، وكذلك أنا افترس ما شاء الله ، فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما أجد [٦] ،

« أن الوعظ صادف استعداداً منه وهوى فى نفسه ، فانتصح به وأقلع عما كان فيه من الضلال والغى

(١) يسير (٢) قطعان بقر الوحش (٣) أولاد البقر مفردها حسيلة (٤) الهزيلة (٥) القصعة الكبيرة المتوسطة (٦) انظر الى هذا الاستدراك الجميل وتأمل كيف احتاط أبو العلاء بهذه الاشارة الدقيقة . فهو لم يفته أن ينبه الى سرور الحيوان فى الدار الاخرة والتذاذه بما كان يألم له من الذبح والقتل فى الدار الأولى وبهذه الاشارة لم يتناقض أبو العلاء مع نفسه فى تحريم ذبح الحيوان الذى يرى له مثل ما يرى للانسان من الحق فى الحياة والتمتع بها ، ارجع الى (ص ١٩ـ٢٢)

وربما نشرنا فى آخر الكتاب ما دار بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة فى مصر من الرسائل فى أمر تحريم الحيوان وانتصار أبى العلاء لهذه الفكرة وتأييدها بالحجج والأدلة القوية وردود داعى الدعاة عليه

بلطف ربها العزيز ! ».

« أتدرى من أنا ؟ أنا أسد القاصدة التى كانت فى طريق مصر ، فلما سافر عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة ، وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم سلّط عليه كلبا من كلابك » ألهمتُ أن أتجوّعَ له اياما ، وجئتُ وهو نائم بين الرُّفقة ، فتحلّلتُ (١) بين الحماعة اليه . وأدخلتُ الجنة بما فعلتُ ».

(١) دخلت بينهم او خلال دارهم

حديث الحطيئة (١)

. . . . . فيذهب ، فاذا هو ببيت فى أقصى الجنة ، كأنه

---

(١) الحطيئة

توفى سنة ٥٩ هـ

شاعر جاهلى اسلامى ، اسمه « جرول بن أوس » ، وكنيته « أبو مليكه » ، ولقبه « الحطيئة » لقب بذلك لقصره وقربه من الارض ، وهو ينسب نفسه الى قبيلة بنى عبس التى ولد فيها ، اشتهر بالعناد والبروع الى الشر ، وقد وصفه الأصمعى بأنه « كان سيء الخلق ، دنيء النفس ، فاسد الدين ، سئولا ملحفاً جشعاً كثير الشر قليل الخير بخيلا ذميما قصيراً رث الهيئة متدافع النسب فى القبائل »

وقد هجا أبا بكر ـ فيمن هجاه ـ فقال :

أطعما رسول الله اذ كان حاضرا ... فيالهفتا ، ما مال دين أبى بكر

أيورثها بكراً ـ اذا مات بعده ـ ... وتلك ـ وبيت الله ـ قاصمة الظهر !

دفعه طمعه الشرير الى هجاء أقرب الناس اليه فهجا عمه وخاله ثم أمه وأباه ثم وهجا نفسه ايضاً ، فقال فى هجاء أبيه وعمه وخاله .

لخاك الله ، ثم لخاك حقا ... أبا ، ولخاك من عم وخال

فنعم الشيخ أنت ـ لدى المخارى ـ ... وبئس الشيخ أنت ـ لدى المعالى

جمعت اللؤم ـ لاحياك ربى ـ ... وأسباب السفاهة والضلال

وقال فى هجاء أمه :

تنحى ، واقعدى منى بعيدا ... أراح الله منك العالميا

ألم أظهر لك البغضاء منى ؟ ... ولكن لا احالك تعقليا

أغربالا ـ اذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا

حراك الله شراً من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا

حفش [١] أمة راعية، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سكان الجنة، وعنده شحرة قميئة [٢]، ثمرها ليس بزاك [٣]

فيقول: ,, يا عبد الله! لقد رضيتُ بحقير ،،

فيقول: « واللهِ ما وصلتُ اليه إلا بعد هياط ومياط [٤] وعرقٍ من شقاءٍ، وشفاعةٍ من قريشٍ. وُدِدْتُ أنها لم تكن »

فيقول: « من أنتَ » فيقولُ: « أنا الخطيئة العبْسى » فيقول: « بم وصلت الى الشفاعة؟ » فيقول: « بالصدق » فيقول: « فى أى شىء؟ » فيقول: «في قولى:

حياتك ـ ماعلمت ـ حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا!

وقال فى هجاء نفسه ـ ولعله أصدق ما قال ـ

أبت شفتاى ـ اليوم ـ الا تكلما بسوء، فما أردى لمن أنا قائلة

أرى لى وجها قبح الله خلقه فقبح من وجهه، وقبح حامله

وقوله ـ وهو من أروع الشعر وأحسنه:

يسوسون أحلاما ـ بعيدا أناتها ـ وان غضبوا ـ جاء الحفيظة والجد

أقلوا عليهم ـ لاأبا لأبيكم ـ من اللوم، أوسدوا المكان الذى سدوا

أولئك قوم ـ إن بنوا ـ أحسنوا البنا ـ وان عاهدوا ـ أوفوا، وان عقد واشدوا

وان كانت النعماء فيهم جروا بها، وان أنعموا لا كدروها ولا كدوا

مطاعين فى الهيجا، مكاشيف للدجى، بنى لهم آباؤهم، وبنى الجد

ويعذلنى أبناء سعد عليهم وما قلت الا بالذى علمت سعد

(١) بيت صغير جدا (٢) صغيرة حقيرة (٣) ليس ناميا

(٤) هياط ومياط أى اضطراب ومجىء وذهاب ودفع وزجر، والهياط أشد السوق فى الورد والمياط أشد السوق فى الصدر

أُتْخ شفتاى اليوم إلا تكلما بهُجر [١]، فلا أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً قبح الله خلقه فقبح من وجه، وقبح حامله »

فيقول: « ما بال قولك: كل من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس [٢]
لم يغفر لك به؟ » فيقول. « سبقني الى معناه الصالحون. ونظمته ولم أعمل به، فحرمتُ الاجر عليه » فيقول. « ما شأن الزبرقان بن بدر [٣]؟ »

---

(١) خشن من القول أو قبيح من الكلام

(٢) العرف المعروف، وهذا البيت من قصيدته التى هجا بها الزبرقان بن بدر وستمر بك بعد أسطر قلائل

(٣) الزبرقان بن بدر

أحد أصحاب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب، وقد أحسن الى الحطيئة وأكرم جواره فلم يحل ذلك دون هجاء الحطيئة اياه وممالأة حصمه « بغيض ابن عامر » عليه فمدح بنى أنف الناقة وهجا الزبرقان بن بدر، فشكاه الى عمر ابن الخطاب فحبسه ثم استعطفه بشعره فأطلقه بعد أن حظر عليه الهجاء والخوض فى أعراض الناس - ولما لم يكن له مورد ورق من غير هذا الباب وقع اليه « عمر » ثلاثة آلاف درهم، فكف عن الهجاء حتى مات عمر، ثم عاد الى طبعه الشرير ومما قاله فى هجاء الزبرقان بن بدر.

والله ما معشر لاموا امرأ حنباً فى آل لأى بن شماس، بأكياس
ماكان ذنب بغيض - لا أبا لكم - فى بائس جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم كيما يكون لكم متحى وامراسى
لما بدا لى منكم عيب أنفسكم ولم يكن لجراحى فيكم آسى
أزمعت يأسا متينا من نوالكم ولن يرى طاردا للحر كالياس

فيقول الحطيئة : « هو رئيسٌ فى الدنيا والآخرة ، انتفع بهجائي ، ولم ينتفع غيره بمديحى »

جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين ارماس

ملوا قراه وهرته كلابهم ... وحرحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك انت الطاعم الكاسى

من يفعل الخير لا يعدم حوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

الفصل الخامس
الجحيم
حديث الخنساء

فيحلّفه ويمضي . فاذا هو بامرأة فى أقصى الجنه ، قريبة من المطلع الى النار ، فيقول . « من أنتِ ؟ » فتقول : « أنا الخنساء السُّلَمِيَّةُ (١) ،

---

(١) الخنساء

توفيت سنة ٤٤ هـ

اسمها تماضر واسم ابيها عمر بن الشريد ، ولقبها الغالب عليها هو « الخنساء » والخنساء هى الظبية ـ وهى من بنى سليم من مصر ، وقد اشتهرت بما قالته فى رثاء أخويها « معاوية وصخر »

وفدت فى قومها على النبى فأسلمت وأنشدته شعرها فأعجب به واستزادها وحكايتها مع النابغة الذبيانى حين فضلها على حسان مشهورة لاحاجة الى ذكرها

ومما يحكونه عنها أن دريد بن الصمة خطبها الى أبيها فرحب به وسأله أن يتريث ريثما يسأل الخنساء عن رأيها فى رواحها ، (لان لها فى نفسها ماليس لغيرها) ثم دخل اليها وقال لها : « يا خنساء : أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم ـ دريد ابن الصمة ـ يخطبك ، وهو من تعلمين » (ودريد يسمع قولها) فقالت :

« يا أبت أترانى تاركه بنى عمى مثل عوالي الرماح، وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ، ثم نشأت تقول :

أتخطبنى ـ هبلت على دريد ـ وقد طرّدت سيد آل بدر

أحببتُ أن انظرَ إلى صخر . فاطَّلعتُ ، فرأيتـه كالجبل الشامَخ ، والنار تَضْطَرِمُ في رأسه ، فقال لي « لقد صحّ مزعمكِ فيّ » يعني قولي .

وإنّ صخرا لتأتمّ الهداة به كأنه علم (١) في رأسه نار (٢)

معاذ الله يبكيني حركى يقال : « أبوه من حشم بن بكر »
ولو أنّي في حشم هدياً لقد أمسيت في دلس وقفر

قالوا : خرج اليه أبوها فقال : « يا أنا قرة قد امتعت ـ ولعلها أن تجيب فيما بعد ، فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان . وقال يهجو الخنساء من قصيدة نختارُ منها بقوله :

« وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الارواح أشباهي ونفسي
فلا تلدي بـ ولا يبكيك مثلي اذا ما ليلة طرقت بنحس
وترعم أنّي شيخ كبير . وهل حدثتها انّي ابن أمس
يريد تبرمّث (١) القدمين شثنا يباشر بالعشية كل كرس (٢)
وما قصرت يدي عن عظم أمر أهمّ به ، ولا سهمي بنكس
وما أنا بالمرحى ـ حين يسمو عظيم في الامور ـ ولا بوهس

ومن مختار شعرها قولها .

ان رمدان ـ وما يغني له بكى ـ أبقى لما ذبّ واستؤصل الراس
ان الجديدين ـ في طول اختلافهما ـ لا يفسدان . ولكن يفسد الناس

وقولها في رثاء «صخر» أخيها .

ألا يا صخر ! ـ ان أبكيت عيني فقد أضحكني زمناً طويلا
دفعت بك الخطوب ـ وأنت حي ـ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل ـ رأيت بكاءك الحسن الجميلا

(١) جبل شامخ
(٢) أنظر الى ما يحويه هذا التهكم من الدعابة ودقة التصوير ، فقد أراد

---

(١) غليظ الاصابع (٢) يعالج الدهر والسرحين ومثل ذلك

حديث ابليس

فيطلع فيرى ابليس - لعنه الله - وهو يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقامع [١] الحديد تأخذه من أيدى الربانية : فيقول « الحمد

أو العلا أن يطلعك على رأيه فى نقد هذا البيت فلجأ الى تمثيل هذه الصورة المدهشة ليرى منها رأيه محسما واضحا

وهذا البيت من قصيده جميله للخنساء رثت بها أخاها وقد غنى ابن سريج بعض أبياتها . والقصيده من أجل شعر الخنساء وأولها .

قذى بعينك أم بالعين عوار ... أم دمعت اذ خلت من أهلها الدار

وفيها تقول

تبكى « خناس » فما تنفك ما عمرت ... لها عليه رنين وهى مفتار

تبكى « خناس » على « صخر » وحق لها ... اذ رابها الدهر ان الدهر ضرار

لابد من ميته فى صرفها عبر ... والدهر فى صرفه حول وأطوار

الى ان تقول

لقد نعى ابن سليك « فى أخا ثقه ... كاب ترحم عنه قمل أحمار

عبس شهرة للحم رمته ... حتى أتى دون عود اللحم اسوار

ثم تقول :

فقد كان خالصتى من كل ذى نسب ... فقد أصيب فما للعيش أوطار

وتختمها بقولها .

ليبكه مقتر أفنى حريبته ... دهر وحالفه بؤس واقتار

ورفقة حار حاديهم بمهلكة ... كأن ظلتها فى الضحية القار

لايتبع القوم ان ساروا حليمه ... ولا يحاوره بالكيل مرار

(١) عمد الحديد مفردها مقمعة - وهى عمود من الحديد كالمحجن يضرب به رأس الفيل . او خشبة يضرب بها الانسان ليذل .

لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه . لقد أهلكتَ من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله »

فيقول . « مَن الرجل : »

فيقول . « أنا فلانُ بن فلانٍ ، من أهل حلب ، كانت صناعتى الادب أتقرّب به الى الملوك »

فيقول . « بئس الصناعة ! إنها تِهب غُفَّةً من العيش لا يتسع بها العِيال ، وانها لمزلة القدم . وكم أهلكتَ مثلك ، فهنيئا لك إذ نجوتَ . وإن لى اليك لحاجة » فان قضيتها شكرتك يد المنون[1] »

فيقول : « إني لا أقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت فى أهل النار أعنى قوله تعالى : « ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا ان الله حرمها على الكافرين »

فيقول . « إنى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه . إن الخمر حُرِّمت عليكم فى الدنيا ، واحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فِعل اهل القريات ؟

فيقول : عليك البهلة[2] أما شغلك ما أنت فيه : أما سمعت قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة . وهم فيها خالدون »

فيقول . وان فى الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد فان له عندى يدا[3] ليست لغيره من وَلدِ آدم ، كان يُفضِّلنى دون الشعراء ، وهو القائل :

---

(١) دائماً أبداً (٢) اللعنة (٣) جميلا أو معروفا

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره[1]، وآدم طينة. والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحقُّ، ولم يزل قائله من الممقوتين : »

حديثه مع بشار[2]

. . . فلا يَسْكُتُ من كلامه، إلا ورجل في أصناف العذاب،

---

(١) أصله

(١) بشار بن برد

توفى سنة ١٦٧ هـ. وعمره نحو ثمانين سنة

اسمه بشار، اسم أبيه برد، أصله فارسى، نشأته بالبصرة. كان ضخم الجثة طويل العمق. مجدور الوجه. ولد أكمه، حاط الحدقتين، يعشاهما لحم أحمر

سبغ فى أوائل العصر العباسى الأول. وقال الشعر فى العاشره من عمره. قيل أنه نظم نحو ١٢٠٠٠ قصيدة لم يبق منها الآن الا نتف متفرقة

أحرز شعره بالبصرة رواجاً مدهشاً فى أيامه. فرواه كل غرل وغرلة وتكسبت به كل نائحة ومغنية، وكان بشار هجاء مقدعاً فهابه كل ذى شرف يخشى لسانه.

وكان منحازا للعلويين وقت قيام الدوله العباسية، وحرض على الفتك بالمنصور، فلما انتصر المنصور، انحاز اليه بشار وتملقه، ثم انتقل الى بغداد، ومدح العباسيين، وعاصر المهدى ومدح خالدا البرمكى

وكانت عقيدته الدينية مرعرعة. ويمكن عده من الفلاسفة الحائرين. وكان يدين بالجبر، ومن أبدع ما قاله فى ذلك قوله :

طبعت على ما فى غير مخير هواى، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا

يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحها الربانية

فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقمت الا التعجبا :

وقد فصل ابلدس على آدم (انظر الى ص «١٧٧»)

وهجا يعقوب بن داود ـ وبر المهدى ـ حين أعرض عنه ولم يأبه لمدحه ـ ببيتيه المشهورين :

بنى أمية ' هبوا ، طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

فأمر المهدى بقتله صبرا حتى مات ، ولم يخرج فى دمه احد حوفا من غضب الخليفة، ومن أبدع شعره قوله .

وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شما الحرب خير من قبول المظالم

وقوله فى نفس القصيدة :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك العل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وقوله من قصيدة اخرى :

خليلى : ان العسر سوف يفيق وان يسارا فى غد لخليق

وما كنت الا كالزمان ـ اذا صحا ـ صحوت ، واذ ماق الزمان أموق

لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ولا يشتكى بخلا على رفيق

خليلى : ان المال ليس بنافع اذا لم يبل منه أخ وصديق

وكنت اذا ضاقت على محلة تيممت أخرى ـ ما على مضيق

وما خاب ـ بين الله والناس ـ عامل له فى التقى أو فى المحامد ، سوق

ولا صاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن لطيف دعاباته ـ وقد أخطأ بعض مشايخ الادب المعاصرين فى حسبانها من سخافاته ـ قوله

« خليدة » ربة البيت تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

بكلاليب[١] من نار ، واذا هو ببشار بن برد قد اعطى عينين لينظر بهما بعد الكمه[٢] لينظر الى ما نزل به من النكال .

فيقول له : « يا أبا معاذ[٣] لقد أحسنت فى مقالك وأسأت فى معتقدك ، ولقد كنت فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك ، فأترحم عليك ، ظنا أن التوبة ستلحقك ، مثل قولك .

ارجع الى سكن تعيش به ... ذهب الزمان وأنت منفرد .

ترجو غدا ، وغدا كحاملة[٤] ... فى الحي ، لا يدرون ما تلد[٥]

وقولك :

الخمر يلحى[٦] والعصا للعبد ... وليس للملحف[٧] مثل الرد

فيقول بشار . « يا هذا ، دعنى من أباطيلك ، فانى لمشغول عنك ؟ »

---

(١) جمع كلاب (بتشديد اللام) وهو حديدة معطوفة الرأس ، او عود فى رأسه عقافة يجر به الحمر

(٢) انظر الى هذا التهكم اللاذع الذى تحويه هذه الجملة ، ففى الدار الأولى حيث البصر من اكبر النعم وأزكاها للانسان يحرم بشار منه ، ثم يمنحه فى الدار الآخرة ليرى عذابه ونكاله فيغمض عينيه حتى لا يرى ما هو فيه من الهول

وقد أشار ابو العلا الى حرمان بشار نعمة البصر فقال فى لزومياته :

والحظ يقسم ، عاش بشر ما اشتكى ... بصرا ، وعمر أكمها بشار

(٣) كنية بشار (٤) كحبلى (٥) أى ان غداً مجهول لا تعرف ما يجنه لك

(٦) يلام (٧) المُلِح

حديثه مع امرئ القيس (١)

ويسأل عن امرئ القيس بن حُجْر فيقول « يا أبا هند (٢) أخبرني عن التسميط (٣) المنسوب اليك، أصحيح هو عنك ؟ »

وينشد الذى يرويه بعض الناس

---

(١) مرت ترجمته فى ص (١٣٤) وقد ذكره المعري فى لزومياته اكثر من مرة، فمن ذلك قوله :

أين امرؤ القيس والعدارى ... اد مال من تحته الغبيط
له كميتان — ذات كأس ... تريد، والسابح الربيط
يباكر الصيد بالمداكى ... فيأس الموحش الهبيط
استبسط العرب فى الموامى ... بعدك، واستعرب البسيط

وقوله :

مضى «الواقف الكندى» والسقط غابر ... وصاحت ديار الحى : « ابن لبيد ؟ »
تولى ابن حجر — لا يعود لشأنه — ... وطالت ليال، والمعالم بيد

وانما سماه «بالواقف» لوقفته المشهورة بسقط اللوى — اذ يقول فى اول معلقته الساحرة :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

(٢) كنية امرئ القيس

(٣) التسميط ضرب من الشعر يبطم مسمطا — مقسما على اجزاء عروضية مقفاة على غير روي القافية، وقد نحلوا امرأ القيس تسميطا آخر — ذكرناه فى كتابنا « نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى » فى (ص ٢٥٠) وذكرنا انه بين البعد عن الاسلوب الجاهلى، وأوله :

توهمت من هند معالم اطلال ... عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصائف ... يصيح بمغناها صدى وعوارف
وغيرها هوج الرياح العواصف ... وكل مسف، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

ياقوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
فى القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيقول . . والله ما سمعت هذا قط وانه لقرين لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمنى وأساء الى . أعد كلمتى التى أولها :

ألا عم صباحا (١) أيها الطلل البالى وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى (٢)

وقولى

خليلى مرابى على أم جندب لاقضى حاجات الفؤاد المعذب (٣)

يقال لى مثل ذلك . والرجز أضعف الشعر (٤) ، وهذا الوزن من

---

(١) ليكن صاحك ناعما

(٢) ارجع الى ص « ١٣٥ » (٣) ارجع الى ص « ٤٧ »

(٤) هذا هو رأى أبى العلاء فى الرجز ، وسيمر بك فى هذه الرسالة مايقنعك بتحامله الشديد على الرجاز واقتصاره فى احتقارهم وتنقصهم ، وسنمر على ذلك فى موضعه . ونختار هنا الآن بعض أبيات من لزومياته لنستشف منها رأيه فى الرجز والرجاز ، بصراحة لاتدع مجالا للشك . وهى قوله

قصرت أن تدرك العلياء فى شرف ان القصائد لم يلحق بها الرجز

وقوله

ولم أرق فى درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز؟

وقوله .

عجزت عن الكسب الذى يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنايا بعاجز!
ومن لم ينل فى القول رتبة شاعر تقنع فى نظم برتبة راجز!

أضعف الرجز ! » فيعجب لما سمعه من امرئ القيس له

حديثه مع عنترة (١)

. . . . . وينظر . فاذا عنترة

---

(٢) عنترة العبسى

توفى سنة ٦١٥ م

أبوه عمرو بن شداد العبسى ، وأمه زبيدة الحبشية ، كان « عنترة » يرعى الابل والخيل ولكنه لم يلبث ان اشتهر بمروسيته ، وفى ذات مرة أغار بعض العرب على عبس واستاقوا ابلهم ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترة فقال له أبوه « كر يا عنترة » فقال « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » (أى شد صرع الناقة) فقال « كر وأنت حر » فتفانى فى القتال حتى هزم القوم ونصر قبيلته

سئل يوما « أأنت أشجع العرب وأشدها ؟ » فقال . « لا » قيل « وبماذا شاع لك هذا فى الناس » قال « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزما وأحجم اذا رأيت الاحجام حزما ولا أدخل موضعاً لا أرى لى منه مخرجا وكنت أعتمد الضعيف الجبان فاضربه الضربة الهائلة يطير بها قلب . . . ء و بنى عليه فاقتله » ومن خير أبياته قوله :

تكررت تخوفنى الحتوف ، كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأحببتها ان المنية منهل ... لابد أن اسقى بذاك المنهل
فاقنى حياءك ـ لا أبالك ـ واعلمى ... أنى امرؤ سأموت ـ ان لم أقتل
ان المنية لو تمثل مثلت ... مثلى اذا نزلوا بضنك المنزل

وقوله

واذا شربت فانى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقوله :

متلدد [١] فى السعير ، فيقول « مالك يا أخا عبس؟ كأنك لم تنطق بقولك

ولقد شربتُ من المُدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المُعلَم

بزجاجة صفراء ذات أسرة قُرِنت بأزهرَ فى الشمال مفدَّم [٢]

وإنى اذا ذكرت قولك : « هل غادر الشعراءُ من متردم [٣] » لأقول « إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ . فأما الآن فلو سمعتَ ما قيل بعد مبعث النبى ـ صلى الله عليه ـ اعتبتَ نفسك على ما قلتَ ، وعلمتَ أن الأمرَ كما قال حبيبُ بن أوس [٤] :

ولقد خشيت بان أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين ـ اذا لم القهما ـ دمى

وقوله :

كيف المرار وقد تربع أهلها بعيرتين واهلنا بالعيلم

(١) متحير أو متلدد يتلفت يمينا وشمالا وهو مأخوذ من صفحتى عنقه

(٢) ارجع الى تفسيرهما فى ص « ٩٦ » (٣) المتردم الموضع يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى ، أى لم يترك الشعراء الى معنى جديداً أقوله بعدهم

(٤) حبيب بن أوس « أبو تمام »

١٨٨ — ٢٣١ هـ

ولد بقرية «جاسم» من أعمال دمشق ، ثم انتقل مع أبيه الى دمشق وكان أبوه يحترف الحياكة ، ولما نزعرع أبو تمام ذهب الى مصر فكان يسقى الماء بجامع عمرو ، ثم بيع فى الشعر ثم غادر مصر متكسبا بشعره فأقبل عليه الادباء ووصله ممدوحه .

ولما اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه بشعره أجاره بولاية الموصل فوليها عامين ثم مات .

وسيمر بك طرف من أخباره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت (١) جياضك منه في العصور الدواهب
ولكنه صوب (٢) العقول إذا اجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

فيقول « وما حبيبكم هذا ؟ » فيقول « شاعر ظهر في الإسلام » وينشده شيئا من نظمه . فيقول « أما الأصل فعربي . وأما الفرع فنطق به عجمي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب » فيقول — وهو ضاحك مستبشر — « إنما ينكر عليه المستعار — وقد جاءت العارية في أشعار كثيرة من المتقدمين ، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب ابن أوس (٣) »

ولقد شق علي دخول ملك إلى الحمام . وكأن أذني مصغيه إلى قينات (٤) الفسطاط وهي تغرد بقولك

أمن سمية (٥) دمع العين تذريف لو أن ذا منك — قبل اليوم — معروف (٦)
تحاملتني (٧) إذ أهوى العصا فمشى كأنها رشأ (٨) في البيت مطروف (٩)

---

(١) ما جمعته (٢) مطر

(٣) هذا هو رأي أبي العلاء في شعر أبي تمام . وقد ذكره في لزومياته فقال :

وحدث عواري الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر « حبب »

(٤) مغنيات

(٥) « سمية » هي امرأة أبيه — وكان يحبها — خرجت عليه أباه ذات يوم وادعت أن عبده راودها عن نفسها . فغضب عليه غضبا شديدا ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا . فلما رأت ذلك رق له قلبها فارتمت عليه تحلله وتحميه وتبكي لما أصابه . فقالت شاعريته تلك الابيات

(٦) معنى البيت : « أحقا تدرفين على دموعك وما عودتني ذلك من قبل »

(٧) عذلتني أو تكلمتني (٨) ولد الظبية (٩) باكي العين

العبد عبدكم، والمال مالكم. فهل عدا مما بكم علي اليوم مصروف

حديثه مع علقمة

وينظر فاذا علقمة بن عبدة[١] فيقول «أعزز علي بمكانك: ما أعنى عنك شمطا لؤلئك[٢]، ولو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله سبحانه — لشفعت لك أبياتك فى وصف النساء أعنى قولك[٣].

---

(١) هو علقمة الفحل وقد مرت ترجمته فى ص (٤٦)

(٢) يعنى بائيته وميميته، ومطلع الاولى «طحا بك قلب فى الحسان طروب» ومطلع الثانية «هل ماعلمت وما استودعت مكتوم» وهما مشهورتان

(٣) معنى الابيات واضح. واستحسان أبى العلاء لها الى هذا الحد، يدلك على أنها صادفت هوى فى نفسه، وأنه ممن يذهبون هذا الرأى، وربما مثلت لك هذه الابيات بعض مايعتقده فى النساء؛ فلعل ذكرك هذه المناسبة موجز

«رأى أبى العلاء فى المرأة»

فيقول: «ان من لاحد أن يسخط على أبى العلاء. وهي المرأة. فقد احتقرها. وأنكر عليها أكبر مزاياها، وأمعن فى اساءة الظن بها. وأسرف فى ذلك اسرافا بلغ به أن رأى السعادة فى خلو العالم منها فقال

بدء السعادة ان لم تخلق امرأة فهل تود حمادى انها رجعت

ورأى انها لا تصلح للحياة لعامة مخلقا؛ تمثلها عادرة متهالكة على لذاتها، مهمكة متفانية فى شهواتها. لا تعرف الوفاء. ولا تدرك الحب الصادق معنى، تتجهم للرجل اذا قل ماله، وتخونه لا عنه الاسباب. والنساء عنده — «عوارس فتية اسلام غنج» وهن فى رأيه «باعثات ركائك فى مهالك مفظعات» و«حبال عى بهن يقطع الشرف التليد»

فإن تسألونى بالنساء ، فإننى بصير بأدواء النساء طبيب

***

وهذه العقيدة المتعمتة ، اندفع بشدد عليها الحجاب ، وينهاها عن دخول الحمام ، ويحرم عليها اداء فريضة الحج . ويحظر عليها الصلاة فى المسجد . وينصحها بالعدول عن طلب العلم . فاذ لم يكن لها بد من طلبه . فحسبها منه أن تحفظ بضع أبيات يلقنها اياها شيخ أعمى ، أنهكه الكبر ، فخانته قواه وارتعشت من الضعف يداه ، وعليها أن تكتفى بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة ، أو تطمح الى التعمق فى فهم ماحفظته ، فان ذهنها الضيق لا يتسع لذلك ، ولا حاجة بها اليه ، أما القراءة والكتابة فانها مفسدة لها . ولو شئنا سرد كل ما قاله فى ذلك . لخرجنا عما قصدنا اليه . ولكن حسبنا أن نختار من هذا قوله :

علموهن النسج والغزل والرد ن وحملوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالجمد والاحلا ص تعنى عن يونس وبراءه

(فهو يذهب بهذين البيتين فى التشديد على النساء اكثر مما ذهب اليه عمر ابن الخطاب حين أوصى بتعليم النساء سورتى « يونس وبراءة » لما تحويانه من آيات الزجر والترهيب)

وقوله :

ولا يدنين من رجل صرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتسغمات

وأى غصاصة على الفتاة اذا احطأت فى اللغة أو لحنت مادامت قد ادت المراد :

فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات

وليس لابى العلاء من حسنة تذكرها له المرأة الا سحطه على وأد البنات — ان كان يصح اعتبار هذا الواجب الانسانى حسنة ، فقد قال :

لا تولدوا ، فاذا أبى طبع ، فلا تئدوا ، وأكرم بالتراب مصاهراً

على أن هذا الرأى هو أقل ما ننتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحر

أكل الحيوان على نفسه ، اشفاقا عليه ، بل وصلت الى حد أن انكر على الناس قتل البرغوث ، فقال

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

ولم ير فرقا بين البرغوث الصئيل والملك المتوج العظيم

لافرق بين الأسك الحوذ أطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا

وأخذ يدلل على صحة ذلك فقال

كلاهما يتوقى — والحياة له عزيزة ويروم العيش منتهاجا

على انك ، اذا آنست منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث ، فى هذه الابيات آلمك ما تلمحه من الفتور ، حين يدافع عن وأد البنات فى قوله. «وأكرم بالتراب مصاهراً » فقد ترى فيه نهياً مشوبا بشىء من التردد والحذر . بل ان شئت فقل من الرضى والتماس العذر »

* * *

ولا يدهب الوهم بالقارئ ، فيحسب أن أبا العلاء كان مع كل هذا التحامل يكرهها ؛ أو ينقص منها لتره فى نفسه منها ، فقد كان ، على العكس من ذلك ، شفيقاً رحيما بها ، وانما دفعه الى تنقصها وتمنى خلو العالم منها ؛ حدبه العميم على الانسان ، ولما كانت المرأة فى رأيه هى أداة النسل ومحليته وهو لا يرى فى غير انقراض الرسم حاسما لشقاء العالم ، فلا حرم خصها بأكبر قسط من سخطه ، وتقم عليها وجودها

واى حرم عند ابى العلاء أفظع هولا من النسل الذى تحلبه النساء .

صحبنك ، فاستمدت بهم ولدا أصابك من أذاتك بالسمات

ومن زرق البين ، فغيرناه بدلك عن نوائب مقتمات

فمن ثكل يهاب ، ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات

وان تعط الاناث فأى بؤس تبين فى جوه مقسمات

فليس له فى ودهن نصيب

يردن نعولة ، ويردن حليا ويلقين الخطوب ملومات
ولسن مدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أرواحا كراما فيا للنسوة المتأيمات
يلدن اعاديا ويلدن عارا اذا امسين فى المتهضمات

***

فأبو العلاء يكره الزواج لما يعقبه من الثكل : فاذا عقمت المرأة فلا بأس من الزواج منها :

اذا شئت يوما وصلة بقريبة خير نساء العالمين عقيمها

على أنه ان يقم من المرأة أنها أداة الثكل فقد رم بالعاش والناس و يقم من ثكلها حياته أيضا دود أن يحص الذكر منه أو الأنثى فود لو مات المولود ساعة ولادته ليستريح من عناء الحياة فقال

فاف لعصرهم نهار وحندس وحسى رحل منهم ونساء
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرضع من أمه الحمساء
يقول لها من قبل نطق لسانه « تعيسة ما أن تبكى وتسأى »

ولا عرو فهو القائل

هذ حياة أبى على وما حبيب على أحد

وهو القائل أيضا .

على المولد نحى والد ولو انهم ولاه على مصره حطماء

وقد ساعده على سوء ظنه بها واحتقاره مواهبها ، ما كانت عليه فى عصره من الانحطاط الخلقى والضعف العقلى ، وما اكتسبه من الآداب العربية التى درسها من تنقص المرأة والافساد فى ذكر محاسنها (ارجع الى ديوان ابن الرومى (ج ١ ص ٢١)

***

ولا ممدوحة هنا من التنبيه على أن رأى شوبنهور الفيلسوف الالمانى

يردن ثراء المال حيث وجدنه

لا يختلف كثيراً عن رأى أبى العلاء فى المرأة . ولا يغيب عن القارىء اتفاقهما فى المزاج السوداوى الذى كان علة تشاؤمهما معاً

* * *

ونختم هذا الفصل بلمحة موجزة من شعر أبى العلاء فى المرأة والسبل تمتد مادهما اليه وتكون مرجعاً عند الحاجة والى القارىء بعض أشعاره فى المرأة : . .

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للروح : « ابى الى الحمام أحتاح »

وهمها فى أمور — لو يتابعها كسرى عليها — لشين الملك والتاج

* * *

شر على المرأة من حمامها ارسالك العاصل من رمامها ومشيها تضرب فى اكمامها يفوح ريا الطيب من أمامها رائره المسجد فى المامها تأثم . والحيضة فى ايامها تأحدل — ماعف عن كمامها — أعادها الخالق من امامها ، وريقها الشروب فى صمامها سمام أفعى بان من سمامها ان ولت عصماء من شمامها فلا سقاها الطل من عمامها اذا احتوى الريم على رمامها لزومها البيت مع اهتمامها حتى يجيها الوفد من حمامها

وحملها المغزل فى اتمامها أوفى مما تعقد من رمامها

* * *

اذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا تدخل على الحرم الوليد

فان خالفتنى وأصغت نصحى فأنت — وان رفقت حمى — بليد

ألا ان النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

* * *

أقل الذي تحمى الغوانى تبح يرى العين منها حلبها وحصانها

فان أنت عاشرت الكعاب، فصادها وحاول رضاها واحذرن غضبها

فكم بكرت تسقى الأمر حليلها من الغار ، اذ تسقى الخليل رضابها

* * *

قد أهملت للحياط ارتها فصادفت اوة لعقرها
وهى تسقى الحليب ليلنها ولم يكن من لديد مشربها
واما الخود — فى مسارحها — كرية السم فى تسرحها
فلا تكونى مثل التى لدغت تبدأ فى شرها بأقربها

* * *

والى القارئ لحمة مختارة من شعر أبى العلاء فى النسل يتبين منها مقدار سخطه وبغضته :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

* * *

تواصل حمل النسل ما بين آدم وبينى . ولم يوصل بلا مى باء

* * *

اذا شئت — يوما — وصلة بقريبة غير نساء العالمين عقيمها
فما طرق فى كل شرق ومغرب الى الموت أعيى راكبا مستقيمها
هى الدار يأتيها من الناس قادم يحث على أن يستقل مقيمها (١)

* * *

على نولد يجنى والد ، ولوَ انهم ولاة على أمصارهم خطباء
ورادك بعدا عن بنيك ، ورادهم عليك حقودا ، انهم نجباء
يرون انا القاهم فى مؤرث من العقد — أعيا حله الادباء

* * *

واذا أردتم بالبنين كرامة فالحرم أجمع تركهم فى الاطهر

* * *

كونى الثريا ، أو حصار (٢) أو الـ جوزاء ، أو كالشمس لا تلد

(١) يرى القارىء من هذه الابيات ان علة كره أبى العلاء للزواج هى خوفه من النسل واشفاقه مما يلاقيه الابناء من مكاره العيش وشقائه وما يتجرعون من غصص وآلام لا تنتهى الا بموتهم ، وموتى ضمن الانسان انقطاع النسل فلا بأس له من الزواج ، وادن مخير النساء العقيم

(٢) نجم يطلع قبل سهيل فيظن انه سهيل

. . . . . .

فلتلك أشرف من مؤنثة تحلت . فصاق بسلها المثل

* * *

أتتك بحمل فتاة غدت مسائلة عن دواء الحمل
وقد حسدت من بنات السهول فجاءت باحدى بنات الحمل (١)

* * *

أرى حملا حادثا فى المساء حمل أداة بهن اتصل ..
أنى ولد بسحل العماء فياليت وارده ما وحل
وان أبطرته حطوب الزمان عض بناب شديد العصل
وريع من الغير الطارقات بالرمح صر ، وبالسمف صل
وقال له : « صل » دعى الهدى . وقال له ملحد : « لا تصل »
وشب . وشاب . وأفنى الشباب . وسقيا له من حصاب بصل
ومن بعد ذاك يحيء الحمام فاطر . على أى شيء حصل :
فياراحة النفس عند الممات ان كان هذا الحساب انفصل

* * *

الا تفكرت قبل النسل فى رمس به حللت ، فتدرى أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا وما علمت بأن العيش يشقيه
شكالأذى.فسهرت الليل .وانتكرت به الفتاة الى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عنه النرور . لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها - حين تحمله الى الطبيب يداويه ويسقيه -

* * *

صل الذى حمل . ابا للردى غرضا ان عق وهو على حرم يكافيه

* * *

ما يأخذ الموت من نفس لمنفرد بمسا سواها اذا ما جال واحتشدا

* * *

(١) فجاءت بحية

. . . . . .

نادى حشا الام بالطفل الذى اشتملت عليه : «ويحك لا تظهر ومت كمدا»
فان خرجت الى الدنيا لقيت أذى من الحوادث ، لله القيط والجمدا
وما تخلص يوما من مكارهها وأنت لابد فيها بالغ أمدا
ورب مثلك واقاها على صعر حتى أسن ، فلم يحمد ولا حمدا
لا تأمن الكف من أنامها شللا ولا المواطر كفا عن ، أو رمدا
فان أبيت قبول النصح معتديا ، فاصنع جميلا ، وراع الواحد الصمدا
فسوف تلقى بها الآمال واسعة — اذا اخترت مدى منها — رأيت مدى
وترك اللج تبغى أن تميد على وتقطع الأرض لا تلقى بها نمدا
— وان سعدت — بما تبغى فى تعب — وان شقيت — فمن للجسم لو همدا
ثم المنايا . فاما أن يقال : «مضى حميد فعل» واما «كوكب خمدا»
والمرء يصل حسام . والحياة له سل . وأصون للهدى أن عمدا
فلو تكلم ذاك الطفل ، قال له : « اليك عنى . فما أنشأت معتمدا »
فكيف أحمل عتبا — ان جرى قدر على — أدرك واحد ، ومن سمدا

* * *

وليس أجمع لمختلف آرائه الكثيرة فى المرأة والزواج والنسل من قصيدته التائية المطولة التى بعدها تشريعه الخاص بالمرأة . وقد أتى فيها بخلاصة مذهبه فى النساء ، ونحن نحتزئ منها بالأبيات التالية .

ولا ترجع بأيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظلم حتى شر ظلم وقد واجهنا متظلمات
فوارس فتنة بأعلام غى لقينك بالاساور معلمات
. . . . . .
ولكن الاوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتحمات

وهنا يعلل لك سبب سخطه عليهن ، بسبب تلك الحريمة الشعواء التى يقترفنها وأى حريمة فى رأيه افظع من حريمة النسل واى هول اكبر من ذلك الهول

صحبنك ، فاستفدت بهن ولدا أصابك من اذاتك بالسمات

. . . . . .

ومن ورق السمين ـ فعير ناء بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء تحثن مصممات
وان تعط الاناث فأى نفس تمنى فى وجوه مقسّمات
يردن نعولة . ويردن حلْيا ويلقين الخطوب ملوّمات
ولسن بدافعات ـ يوم حرب ولا فى غارة متعشمات
ودفن ـ والحوادث فاجعات ـ لاحداهن احدى المكرمات(١)

(١) وقد استنتج أحد كبار اساتذة الادب فى مصر من هذا البيت أن أبا العلاء يرى وأد البنات ويحمده ، وليس يحتمل البيت هذا التأويل ، فليس ابو العلاء من عطف الذم وعتوه حتى يبيح ذلك ، بل ليس ابو العلاء حتى حقيقيا للمرأة فيبيح له الخصومة ان يأمر بوأدها ، وانما هو مشفق ناصح ـ رغم ما يبديه هنا من السخط الذى مصدره الحقد والعطف لا الخصومة والحقد ولا نحسبنا فى حاجة الى التدليل على ذلك فقد أبان العلاء نفسه بالعالم كله ساخطا فى كل من فيه من نساء ورجال

قاف لمصر ومن بالروم وقمدس وحاشى رهط منهم ونساء

وقد كرر هذا السخط فى كل مناسبة عندما ذكر الناس ، كلا لن تمنى هم الخير الشامل والرفاهية العميمة ورثى لما يلاقون من صنع واعمالهم ولكنه أوصى بالكف عن ايجاد مخلوقين حتما يعانى تأوهم من الشقاء والالم فاظهر رأيه صريحا فى وجوب الكف عن الزواج وقال اكثر من مرة ان الناس لو رأوا مثل رأيه

لعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولاقتنوا واستراحوا من زرايها

ولكنه موقن ان للعرائر حكمها وأن صيحته متلاشية فى احوار الفضاء ومن ثم تراه يهمس فى اذنك متلطفا يدعوك الى ترويح امتك والكف عن تزويج امك

ولكن أنا العلاء لا ينسى الامر الواقع ولا يستطيع ان يتعامله فهو يظل يحيف من الزواج ويهول لك مصاعبه . فاذا اصررت وأبيت الا عنادا لانت لك قناته قليلا فاباح لك الزواج ـ بشرط أن تتحرر العقيم من النساء فاذا احتل هذا الشرط وأولدت . فما هول الخطب والمصاب ولكن لا بأس من التحمل بعد أن بعد السهم الذى لم يكن لاحد حيلة فى رده ـ ثم يوصيك بتثقيف ابنك وتعليمه بقدر ما يحدرك من تعليم ابنتك وقد يتمنى لو ادرك البنت او الولد حمامهما فيقول

وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه المتسأى

ولكنه لا يرى ارتكاب جريمة الوأد الشنعاء بل يقول لك « لا تولد . فاذا أولدت فلا تئد »

ارجع الى ص (١٨٦) « وفرق كبير بين تمنى الموت الطبيعى للمولود وبين اقتراف جريمة وأده أو قتله

. . . . . .

وقد يفقدن أرواحا كراما فيا للدسوة المتأيمات
يلدن اعاديا ، ويلدن عارا اذا أمسين فى المتهضمات

. . . . . .

توهمن الطعون فكن نارا لما أشعرنه متوهمات

. . . . . .

وليس عكوفهن على المصلى أمانا من سوارر محرمات
ولا تحمد حسانك ان تواقت تأيد للسطور معومات
تحمل معازل السواد اولى بهن من اليراع مقصبات
سهام ان عرض كساب لس رحمن ما يسوء مسمات
ويتركن الرشيد بغير اب بس لهديه متعهات
وان حشن المحم سائلات فلسن عن الصلات بمحجبات

* * *

ليأخذن التلاوة عن محور من اللائى فرن مهمات
يسبحن المليك بكل صبح وبركعن الضحى مأثمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدرين من رحل صرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه ولمته من المتنعمات
وان طاوعن امرك به فانه غيدا يرين عرائسا متتممات
أحدن كريش طاووس اساءة ومسكا بالضحى متلعبات
وأبعدهن من ربات مكر سواحر يفتدين معرمات
يقلن نهيج الغيات ، حتى يجيئوا بالركاب مرممات
ويعطف هاجر الحلان ـ كيما يزول عن السحابا المسئمات
وجمع طوائف العمار سهل عليها بالحوالب مودمات
زعمن بأن فى مغنى فقير كنوزا للملوك مصممات

حديثه مع عمرو بن كلثوم

قلت شعرى ! ما فعل عمرو بن كلثوم .

فلا يدخلن دارك ياحمار فقد الفيتهن مدممات
وان حالس غرتك ارتقانا خنق ان ترحن مشمات

* * *

وساو لديك أتراب النصارى وعيسا من يهود ومسلمات
ومن حاورت من حمف وسرب صوانئ ، فليس مكرمات
فان الناس كلهم سواء وان دكت الحروب مصرمات

* * *

ولا يتأهلن سيح مقل تعصرة من المتسمات
فان الفقر عيب ـ ان ضيعت اليه السن ـ حاء تعطات
ولكن عرس ذلك بت دهر تحنت الوجوه محمان
من الالى ـ اذا لم يحد عاما تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اعترلن لكل عود وافين السنين محرمات
ويعتفر الغنى وحطا براس اذا كانت قوالك مسلمات
وواحدة كمتك . فلا تحاور الى احرى تحيء تغولمات (١)
وان ارعمت واحدة بصر فأحدر ان يروع تعرمات
رحاج ـ ان رفقت به ـ والا رأيت صروبه منقصمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل حطب ويمنعها مصاعب مقرمات
اذا «الغاران(٢)» غرتهما لحال فديك بالتورع والصمات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللممات

(١) هذا وصيك ابو العلاء ـ بعد ان تزوجت ـ أن تكتفي بواحدة. ويحذرك من التطلع لاخرى .
(٢) الغار والفرج

فيقال : « ها هو ذا من تحتك ، إن شئت أن تحاوره فحاوره [١] »

---

(١) عمرو بن كلثوم
(توفى سنة ٦٠٠ م)

اسمه عمرو وكنية ابو الاسود، اسم ابيه كلثوم بن مالك بن عتاب، واسم امه ليلى بنت المهلهل اخى كليب وكانت عزيزة النفس ، كما كان اسهاسيد قومه . واسم قبيلته تغلب . كان ابن كلثوم من أعز العرب نفسا ، وأشدهم أباء ، وحكايته مع عمرو بن هند مشهورة وخلاصتها ان ابن هند قال يوما لندمائه: « هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ، فأجابوه . « نعم : أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه »

فأرسل ابن هند صاحب الحيرة لعمرو بن كلثوم يستزيره وأشراف قومه ، وجلس ابن كلثوم مع ابن هند ، وجلست ليلى مع هند (أم ابن كلثوم مع ام ابن هند) وكان ابن هند قد اوصى امه ان تحيى الخدم اذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى ، ودعا ابن هند بمائدة ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : « ناوليني يا ليلى دلك الطبق » فأجابتها . « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه : ياتغلب ! » فسمعها ابن كلثوم . فثار الدم فى وجهه ، ونظر اليه ابن هند فعرف الشر فى عينيه ، ووثب ابن كلثوم الى سيف معلق لابن هند فى الرواق فضرب به رأسه، ونادى فى بنى تغلب . فانتهبوا مافى الرواق ، وساقوا نجائبه الى الجزيرة . ومن أجمل شعره قوله فى معلقته يصف نساء قبيلته

يقتن جيادنا ، ويقلن : « لستم بعولتنا ـ اذا لم تمنعونا »
اذا لم نحمهن فلا بقينا لخير بعدهن ولا حيينا

وقوله يصف المعركة

متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقى نجد ولهوتها قضاعة أجمعينا

وقوله

فيقول : « كيف أنت أيها المصطبح[١] بصحن الغانية ، والمغتبق[٢] من الدنيا الفانية ؛ لَوَدِدْتُ أنك لم تساند[٣] في قولك

كأن متونهن متون غُدْر[٤] تصَفِّقها[٥] الرياح اذا جرينا[٦]

ألا لا يعلم الأقوام أنا تصعصعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله

فان قناتنا يا عمرو أعيت على الاعداء قبلك أن تلينا .

ومن مختار شعره قوله أيضاً .

معاذ الاله أن تبوح بساؤنا على هالك أو ان تصح من القتل
فراع السيوف بالسيوف أحلتا بأرض براح[١] ذى أراك وذى أثل
فما أنفقت الايام من المال عندنا سوى حدم أدواد محذفة النسل
ثلاثة أثلاث . فأثمان حيلنا وأقواتنا وما نسوق من القتل[٣]

(١) المصطبح هو الذى يشرب الصبوح أى خمر الغداة وهو يشير بذلك الى قوله فى أول معلقته

الا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا

أى اسقينا بقدحك أيتها الساقية ؛ واسقينا خمر الصباح . ولا تدخرى شيئاً مما عندك من تلك الخمر التى أحضرت من قرى الاندرين

(٢) المغتبق هو الذى يشرب الغبوق أى خمر العشى

(٣) أى لم تأت بالسناد فى شعرك (والسناد فى الشعر هو كل عيب فى القافية قبل الروى) (٤) مخفف غدُر ، بضم الدال (٥) تضربها (٦) معنى البيت ان متون تلك الدروع يشبه متون الغدر اذا صفقتها الرياح اثناء جريها

---

(١) أحلتنا أرض واسعة معشبة لا نبات فيها (٣) لم تبق لنا الايام الا بقية من الابل مقطوعة النسل (وانما انقطع نسلها لنسب حلوهم فى تلك الارض المقفرة) (٣) ثلث نشترى به حيولنا وثلث نشترى به أقواتنا وثلث نخسره فى قتالنا

فيقول عمرو « ابك لقرير العين ، لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله ، واترك ما ذهب فانه لا يعود ، وأما ذكرك سِنادِى فان الاخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة . ويكون فيهم الاعرج والأخق [١] فلا يعابون بذلك ، فكيف اذا بلغوا المائة في العدد ؟ »

فيقول « أعزز على بأنك قصرت على شرب حميم وأخذت بعملك الذميم من بعد ما كانت تَسْبأ [٢] لك القهوة [٣] تقابلك بلون الحِصْ [٤] ، وقالوا فى قولك سحينا قولين أحدهما أنه فَعلنا من السحاء والنون نون المتكلمين والآخر أنه من الماء السحين ، لأن « الاندرين » « وقاصرين » كانتا فى ذلك الزمن للروم . ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين فى صيف وشتاء »

---

(١) المخق أقبح العور وأكثره عمصا

(٢) تشري لك لتشربها (٣) الخمر (٤) الحص هو الورس ، نبت له نوار احمر يشبه الزعفران ، وقد أشار بذلك الى قوله فى معلقته يصف الخمر :

مشعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها . سخينا

والمشعشعة الخمر الممروحة بالماء

حديثه مع الحارث اليشكرى (١)

وينظر فاذا الحارث اليشكرى فيقول لقد أحسنت فى قولك

لا تكسعِ (٢) الشَّوْلَ (٣) أغبارها (٤) انك لا تدرى مَنِ الناتج (٥)

(وقد كانوا فى الجاهلية يكسعون (٦) ناقة الميت على قبره ، ويزعمون أنه اذا نهض لحشره وجدها قد نعت له اير كبها . وهيهات . بل حُسِرٌ واعُرَاةً حُفَاةً!)

---

(١) الحارث بن حلزة اليشكرى

توفى سنة ٥٨٠ م

قبيلته بكر وائل اشتهر بنو العراق كان أعرض وقد اشتهر بمعلقته الرائعة ومن اجمل أبياتها قوله .

واتانا من الحوادث والأنـــباء حضب عمى به واساء

أن احوانا الأراقم يعـــلون علينا فى قيلهم احفاء

يخلطون البرىء منا بذى الذنـ ـب ولا تنفع الخلى الخلاء

أجمعوا امرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم صوصاء

من مناد ومن محيب ومن صهـــال حيل ـ حلال داك ـ رعاء

(٢) كسع الناقة بغيرها ترك فى حلفها بقية من اللبن ليغزر

(٣) الشول الناقة التى شال لبنها أى ارتفع فلم يبق فى ضرعها الا صبابة منه .

(٤) أغبار جمع غبر وهى بقيه اللبن فى الضرع (٥) هو الذي ينتج الناقة أى يلى نتاجها ومعنى البيت : « لا يكن همك تغرير الملك لتقوية نسلها . فانك لاتدرى ماتضمره الايام وربما احتص بنتاجها غيرك » ويلى هذا البيت قوله :

واحلب لاصيافك ألبانها فان شر اللبن الوالج

أى شر اللبن هو المكسوع الذى يلج فى ظهور النوق ، فاحلبها لأصيافك ، ولا تكن بخيلا

(٦) يكسعون ناقة الميت اي يضربونها بقوائم سيوفهم من أسفل . وليس لهذا الكلام علاقة بالبيت السابق وانما هى التفاتة من أبى العلاء لاتخلو من نفع

حديثه مع طرفة [١]

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد ، فيقول . « يا ابن أخى يا طرفة [٢] — خفف الله عنك — أتذكر قولك

كريم يروى نفسه فى حياته ستعلم — إن مُتنا غدا — أينا الصَّدِىُ [٣]

وليس فى ذكرها بأس (١) سنمر بك ترجمته بعد أسطر قلائل (٢) انظر الى ما تحويه هذه الجملة من الحدب والرفق والاخلاص الشديد لطرفه بن العبد الذى مات صغيرا (٣) يصف نفسه بأنه كريم يروى نفسه بالخمر ويفخر بأنه سيموت ريان ، وأن عاداته فى سرها سيتضاءلون عند موتهم

طرفة بن العبد

(توفى سنه ٥٥٠ م)

كنيته ابو عمرو . قبيلته بكر بن وائل ، وهو من بنى قيس كان لاهيا سكيراً فى صباه . هجا ملك الحيرة فأسخطه . وامر عامله بالبحرين ان يقتله ، وسمى ابن العشرين لوفاته صغيرا . فقد مات فى السادسه والعشرين من عمره . ومن أروع شعره قوله

ارى الموت اعداد النوس . ولا ارى بعيدا غدا . ما اقرب اليوم من غد

وقوله :

لعمرك ان الموت — ما اخطأ الفتى — لكالطول المرخى . وثنياه باليد
متى ما يتأ يوماً يقده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتا . ولم تضرب له وقت موعد

وقوله :

واعلم علما — ليس بالظن — انه اذا دل مولى المرء فهو دليل
وان لسان المرء — ما لم تكن له حصاة — على عوراته لدليل
وان امرأ لم يعف يوماً — وكاهة — لمن لم يرد سوءا به لجهول

وقولك .

أرى قبر نحام[١] بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد[٢]
متى تأتنى أصبحك كأسا روية وان كنت عنها غانيا، فاغن وازدد[٣]

فكيف صبوحك الآن وغبوقك[٤] ؟ انى لاحسبهما حميما »

« ولقد كثرت في امرك أقاويل الناس ، فمنهم من يزعم أنك فى ملك النعمان اعتقلت ، وقال قوم . بل الذى فعل بك ما فعل عمرو بن هند[٥] »

وقوله سيد .

ولا أغير على الاشعار أسرقها غيرت عنها ، ونور الناس من سرقا
وان أحسن بيت انت قائله بيت يقال ـ اذا انشدته ـ صدقا

وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم مرتكب بين حيين واتل . بكر تساقيها المنايا بعلب
والصدق يألفه الكريم المرتجى والكذب يألفه الدنيء الأخيب
والاثم داء ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيه معطب
أدوا الحقوق تعرفكم اعراضكم ان الكريم ، اذا يحرب ، يغضب

(١) بخيل حريص على جمع المال وادخاره

(٢) معنى البيت : لا أرى أى فرق بين قبر البخيل الذى عنى بنفسه بجمع المال وادخاره ، وقبر المفسد المتلاف لماله ، ثم قيمة المال إذن ، ولماذا أبقى عليه ولا امتع نفسى به؟ (٣) اذا وافيتنى صحتك كأساً نروى بها من الخمر ، فاذا لم تشأ ، فلا سقيتها ابداً

(٤) الصبوح شراب الصباح والغبوق شراب المساء

(٥) يشير بذلك الى الروايتين الشائعتين عن سبب قتله ، والرواية الثانية رجح واشهر ، ومؤداها ان طرفه كان قد هجى عمرو بن هند ، فأحفظه ذلك عليه ، واسرها له فى نفسه ، ثم ارسله مع المتلمس الى عامله بالبحرين ، بعد ان

ولو لم يكن لك أثرٌ فى الدار العاجله إلاّ قصيدتك التى على الدال [1]

تلطف بهما ، واعطى كلا منهما كتاباً ، أوهمهما ان فيه امراً بصلتهما ، وانما فيه أمر بقتلهما ، وارتاب المتلمس فى نية ابن هند ، فذهب الى غلام يقرأ له كتابه . فلما وجد فيه الامر بقتله فر ، ونصح طرفة فلم ينتصح ، بل ذهب لطيته حيث لقى حتفه

(١) يعنى معلقته الرائعة التى وفى فيها كل التوفيق الى تمثيل صوره واصحة دقيقة من نفسه المتوثبة الى غايات الشباب النبيل . الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن ، الفياضة بالشاعرية العالية . التى تلمحها فى أغلب ابياتها — ان لم نقل فى كلها . وهل ترى أبدع من تلك الصورة الجميلة التى يمثل فيها نفسه . حين يقول :

ألا أيهذا الزاجرى ، أحضر الوغى ... وان أشهد الذات . هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى ابادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك ، لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كميت ، متى ماتعل بالماء تزبد
وكرى — اذا نادى المضاف — محنباً ... كسيد الغضا . نبهته — المتورد
وتقصيرى يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة ، تحت الخباء المعمد

فانظر اليه كيف يدفع حجة من يعذله فى اقتحامه الهيجاء وتمتعه بلذاته . باستحالة الخلود ، ومن ثم بوجوب اقتناص الفرص ، والتمتع بمسرات الحياة ، قبل أن تغتاله يد الموت ، وانظر الى رغباته الثلاث التى لا يرى للحياة معنى بدونها ، وهى سبقه العاذلات بشربة من الخمر الكميت ، واندفاعه فى ساحة الحرب بفرسه التى تشبه الذئب فى سرعة العدو ، لاعاثة اللائذ به ، وتقصيره يوم الغيم . بالتمتع بامرأة جميلة بغازلها ، فى سرادق مرفوع

وانظر الى قوله بعد تلك الابيات :

لكنت قد أبقيت أثرا حسنا

كريم يروى نفسه فى حياته ستعلم ـ ان متناغدا ـ أيما الصدى
ارى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد
ترى جثوبين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
ارى الموت يعتام الكرام، ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
ارى العمر كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الايام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ـ ما احطأ الفتى ـ لكالطول المرخى . وثنياه باليد
متى ما يشأ يوما يفده لحتفه ومن يك فى حبل المنية يقتد
فمالى أرانى وابن عمى مالكا متى ادن منه ينأ عنى ويبعد
يلوم، وما ادرى علام يلومنى كمالا منى فى الحى قرط بن معبد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
انا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد
اذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى مبيعاً اذا ملت ثقاته يدى
فان مت فابعينى بما انا اهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلنى كامرئ ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى عداوة ذى الأضغان والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى عليهم، واقدامى، وصدقى ومحتدى
لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ولا ليلى على بسرمد
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا، مما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا، ولم تضرب له وقت موعد

وما أبدع واروع قوله فى هذه المعلقة .

اذا القوم قالوا: «من فتى؟» خلت اننى عنيت، فلم اكسل، ولم اتبلد
فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد

فيقول طرفة . « وَدِدْتُ أنى لم أنطق مِصراعا ، ودخلتُ الجنة مع الهَمَجِ والطَّغام ؛ وكيف لى بهدوء وسكون ، وأما القاسطون (١) فكانوا لجهنم حطبا »

حديثه مع أوس بن حَجَر (٢)

ويلتفتُ عنقه يتأمل . فاذا هو باوس بن حجر ، فيقول . « يا أوسُ !

وان يلتق الحى الجميع تلاقنى الى دروة البيت الشريف المصمد
وما زال تشرابى الخمور ، ولذتى وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى ان تحامتنى العشيرة كلها واوردت افراد البعير المعبد
رايت بنى غبراء لا ينكرونى ولا اهل هذاك الطراف الممدد

(١) الحائرون أو الحائدون عن الحق

(٢) أوس بن حجر

أوس بن حجر بن عتاب ، قالوا « كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأحملاه » اشتهر بالحض على مكارم الأخلاق ، كما اشتهر بوصف الخمر والسلاح لا سيما القوس . ومن مختار شعره قوله :

تركت الحبيبات لم أشارك ولم أذق ولكن اعف الله مالى ومطعمى
فقومى وأعدائى يطون ابى متى يحدثوا أمثالها أتكلم

وقوله :

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا
اذا الحسب الرفيع تواكلته بناة السوء ، أوشك ان يضيعا

وقوله — من مرثية جليلة عالية الاسلوب .

ايتها النفس ! اجملى حزعا ان الذى تحذرين قد وقعا
ان الذى جمع السماحة والنجـ ـدة والحزم والقوى جُمَعا

أن أصحابك لا يجيبون السائل . فهل عندك من جواب ! فإنى أريد أن أسألك عن هذا البيت

«وفارقت[1] وهي لم تجرب، وباع لها من الصافص[2] بالنمى[3] سفسير[4]»

فانه فى قصيدتك التى اولها :

«هل عاجل من مناع الحى منطور»

ويروى فى قصيدة النابغة التى اولها.

« ودّع امامة والتوديع تعذير »

وكلا كما معدود فى الفحول ، فعلى أى شىء يحمل ذلك : » فيقول

أودى ، وهل تنفع الاشامة من شىء لمن قد يحاول المرعا
الألمعي الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
المحلف المتلف المرزأ لم يتـ ـتع بضعف ، ولم يمت طمعا

الى ان يقول :

ليمسكك الشرب والمدامة والمتـ ـيان ـ طرا ـ وطامع طمعا
ودات هدم عار نوا شرها (١) تصمت (٢) بالماء توأما (٣) حدعا (٤)

وقوله :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى يدمك ـ ان ولى ـ ويرصيك مقبلا
ولكنه النائى ـ اذا كنت آمنا وصاحبك الأدنى ـ اذا الامر أعضلا

(١) خالطت الجربى فلم تجرب لقوتها (٢) جمع قصفصة وهى نبات تعلفه الدواب (٣) الفلوس (٤) سائس حاذق ؛ ومعنى البيت «أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم يصبها جرب ، لانها من الافراس القوية التى يشترى لها علفها بالمال سائس حاذق يعنى بأمرها

---

(١) ولتبكك مقيرة دات كساء حلق عارية الساعدين (٢) تسكت (٣) صعيرا (٤) صبيا سيء الغذاء ، والمعنى أنها تسكت بالماء صعيرها الجائع

أوس . « قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الحنه فاسأله عما بدا لك ، فلعله يخبرك فانه أجدر أن يعي هذه الأشياء ، فأما انا ، فقد ذهلت . نار توقد ، وبنان يعقد . اذا علب على الظما رفع الى شيء كالنهر . فاذا اغترفت منه لا شرب . وجدته سعيرا مضطرما " ولقد دخل الجنة من هو شر مني ، ولكن المغفرة ارزاق ، كأنها النسء في الدار العاجلة ! »

فيقول « انما أردت أن آخذ عليك هذه الألفاظ فأتحف بها أهل الجنة . فأقول قال لي أوس وأخبرني أبو سريح »

حديثه مع ابي كبير الهذلي

ويرى رجلا في النار لا يميزه من غيره فيقول « من أنت أيها الشقي ؟ » فيقول « أنا ابو كبير الهذلي عامر بن الحليس » فيقول « انك لمن اعلام هذيل ولكني لم أوتر قولك

أزهير هل عن شيبة من معدل[1] أم لا سبيل الى الشباب الاول[2]

---

(١) مصرف (٢) هذا البيت من قصيدة له عدتها ثمان وأربعون بيتا . قالها في تأبط شرا . ابن زوجه أميمة ، وكان السبب في ذلك أنه رأى منه مايكره . فشكاه الى امه ، فطلبت اليه أن يحتال لقتله ، فخرج به الى قوم لهم بزة عنده ، حتى اذا تبوروا رهم شكا اليه الجوع . فذهب فوجد عليها لصين معهما ابل ، فقتلهما وعاد بالابل فهاله امره ، ثم انطلقا ، فلما اقبل الليل . اناخا الابل ، وتناوبا حرسها ، فلما نام تأبط شرا ، وظن ابو كبير ان قد غلبه النوم ، بدا له حصاة ، فهب من نومه . وقال : « ما هذا » فقال : « سمعت حسا في الابل ؟ » فطاف ، فلم يرشيئا . ثم نام فنبذ له حصاة ، فاستوى وقد تناوم ابو كبير ، وقال : « والله لئن انبهني شيء

وقلت فى الاخرى

أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لعاجز متكلف

وقلت فى الثالثة

أزهير هل عن شيبة من معكم [١]

فهذا يدل على ضعف عطفك [٢] بالفريض . فهلا ابتدأت كل قصيدة بهن و لاصمعى لم يَرْوَ لك لا هذه القصائد الثلاث » فيقول ابو كبير الهذلى « انما كلام أهل سقر ويل وعويل فاذهب لحيتك »

حديثه مع الاخطل

واذا هو برجل ينضور [٣] فيقول « من هذا » فيقال « الاخطل

لاقتلنك » فاستأمن أبو كبير يكلؤه مخافة أن يسبه سبة فيقتله ، وفى ذلك يقول هذه القصيدة الطويلة ، التى رجع اليها من شىء فى الجزء الاول من كتاب أسرار الحماسة ص (١١٤)

ومما نختاره منها قوله :

ولقد سريت على الظلام بمعشم حلد من الفتيان غير مثقل

الى أن يقول :

واذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوى الاحدل

واذا قذفت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها وزوّ الأحيل

(١) محبس (٢) صيق باعك (٣) يتلوى من وجع الضرب أو من الم الجوع

التغلبي (١) » فيقول له ما زالت صفنك للحمر . حتى غادرتك أكلا للجمر

فكم طربت السادات على قولك:

أناخوا ، جروا شاصيات (٢) كأنها رحال من السودان لم يتسربلوا

فقلت اصبحوني (٣) لا أبا لابيكم وما وضعوا الاثقال الا ليفعلوا

فصبوا عقارا (٤) في الاناء كأنها إذا لمحوها جدوة (٥) تتأكل (٦)

---

(١) الأحطل

اسمه غياث بن غيث بن الصلت ، كنيته أبو مالك ، موطنه الحيرة . قبيلته تغلب ، دينه النصرانية

كان سكيراً مدمناً وهجاء عنيف اللفظ في هجائه ، تقرب إلى معاوية بعد أن هجى الانصار — حين أمره معاوية بذلك — فلما أفضت الخلافة الى عبدالملك زاد تقربه منه ، وبلغ من افتتانه بشعره أن سماه « شاعر بني أمية » وكان كثير الطرب الى سماعه

قال له عبد الملك مرة : « ألا تسلم فنعرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف ! » فقال : « وكيف الخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وان أولها لمر ، وأن آخر لسكر ؟ » فقال : « أما اذ قلت ذلك ، فان فيما بين هاتين المنزلتين لمنزلة ، ماملكك فيها الا كلعقه من ماء الفرات بالاصبع ! »

فضحك ، وتركه على نصرانيته ،وسهل عليه الدخول والخروج ، حتى كان يدخل عليه بغير اذن

ومما يروونه عن حماد انه قال حين سئل عن شعر الأخطل « وما تسألوني عن رجل حبب شعره الى النصرانية » وهي جملة مملوءة بالملق والرياء !

(٢) زقاقا مملوءة شائلة القوائم أو قربا ملئت فارتفعت قوائمها

(٣) اسقوني خمر الصباح (٤) العقار الخمر ، سميت كذلك لمعاقرتها ، أي لملازمتها الدن (٥) جمرة ملتهبة (٦) تحترق وتتوهج

وجاءوا ببيسانية - هى بعد ما يعل (١) بها الساق - الذ وأسهل
تمر بها الأيدى سنيحا (٢) وبارحا (٣) وتوضع بالكفهم حتى (٤) ويحمل
فتوقف احيانا فيفصل بيننا غناء مغن أو شواء مرعبل (٥)
فلدت لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مراح (٦) وأخيل (٧)
فما ألبثتنا (٨) نشوة (٩) لحقت بنا توابعها مما نعل ونهل
تدب دبيبا في العظام كأنه دبيب تمل في نقا (١٠) يتهيل (١١)

فقال التغلبى « انى جررت الدارع ولقيت الدارع . وهجرت الآبدة ورجوت أن تدعى النفس العابدة ولكن أبت الاقضية » فيقول « اخطأت فى أمرين - جاء الاسلام فعجزت ان تدخل فيه ولزمت اخلاق سفيه . وعاشرت يزيد بن معاوية وأطعت نفسك الغاوية ، وآثرت مافنى على باق فكيف لك بالالتياق (١٢) ؟ »

فيزفر (١٣) الأخطل زفرة تعجب لها الربانية ، ويقول ، آه على أيام يزيد أسوف (١٤) عنده عنبرا ، وأمزح معه مزح خليل ، وكأنى بالقيان الصادحة (١٥) بين يديه تغنيه :

---

(١) يسقى بها ثانية (٢) من الجانب الايمن (٣) من الجانب الايسر (٤) أى أنهم حين يضعونها يهللون فرحين بها (٥) مقطع ، لتصل اليه النار فتنضجه (٦) اشتداد الفرح حتى يجاوز الانسان حده فيتبختر ويختال (٧) كبر (٨) لم تمهلنا (٩) سكرة (١٠) كثيب أو قطعة من الرمل تنقاد مُحْدودبة (١١) ينهال
(١٢) الهرب او الفرار ومعناها هنا النجاة (١٣) يخرج نفسه بعد مده اياه (١٤) أشم (١٥) اللائى يرفعن أصواتهن بالغناء

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذى جمعا
خلفة حتى اذا ظهرت سكنت من جلق بيعا
فى قباب حول دسكرة (١) حولها الزيتون قد ينعا
وقفت للبدر ترقبه فاذا بالبدر قد طلعا

ولقد ذاكرته فى بعض الايام وأنا سكران ملتخ (٢) فقلت

ألا اسلمى ـ سلمت ـ أما خالد وحياك ربك بالعمز (٣)
أكلت الدجاج وأفنيتها فهل فى الخنابيص (٤) من مغمز (٥)

ما زاد فى عن ابتسام واهتز للصلة

فيقول الشيخ .. من ثم أتيت . أما علمت ان ذلك الرجل عائد ، فعلا . اطلعت من مذهبه . أكان موحدا أم ملحدا : .

فيقول الاخطل كانت تعجبه هذه الابيات .

أخالد : هاتى خبرينى وأعلنى (٦) حديثك . انى لا أسر (٧) التناجيا (٨)
بحديث ابى سفيان ، لما سما بها الى أحد (٩) . حتى أقام البواكيا

---

(١) قرية عظيمة أو بناء كالقصر حوله بيوت (٢) مختلط ومتلبس كلامى من شدة السكر (٣) نوع من البيت قيل هو الياسمين

(٤) جمع حموص وهو ولد الحرير

(٥) مطعن ، ومعنى البيت انك افنيت الدجاج أكلا ، فما عليك لو عطفت على الخنابير فأكلتها . أترى فيها مطعنا ؟

(٦) جاهرى به (٧) لا اكتم (٨) السر

(٩) يعنى جبل أحد . وهو يشير بذلك الى انتصار المشركين على النبى (ص) فى واقعة أحد سنة (٦٢٥ م) وكان قائد المشركين فيها ابو سفيان ، وكان النصر

وكيف بغى أمرا (١) على ففاته وأورثه الجد (٢) السعيد معاويا
وقومى فعلينى (٣) على ذاك (٤) قهوة تحلبها العيسى كرما (٦) شآميا (٧)
اذا ما نظرنا فى امور قديمة وجدنا حلالا شربها المتواليا

محققاً للمسلمين فى بدئها ، فلما حالموا أمر النبى (ص) وانفلوا من مواضعهم ، كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عددا كبيرا ، فيهم حمزه عم النبى (ص.) واستطاع العدو أن يخلص الى النبى (ص .) فيرميه بالحجارة . ووقع لشقه ، فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته . ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وسقط فى احدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون . فأخذه «على» بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله . وأحاط به جماعة من الانصار والمهاجرين ، استماتوا فى الدفاع عنه ، وفى هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة بنت كعب ، شجاعة مدهشة واقداما يستفز الاعجاب والروعة ؛ فقد كانت تسقى الماء فى أول النهار . فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى النبى (ص .) وتفانت فى الذود عنه ، ضاربة بسيفها مره ، ورامية عن قوسها اخرى ، حتى أثخنتها الجروح

وفى نهاية المعركة صعد ابو سفيان ربوة . ونادي المسلمين بأعلى صوته «انعمت فعال . ان الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل ! »

(١) يشير بذلك الى أمر الخلافة التى سعى اليها معاوية وعلى ، فقتل الثانى دونها وأحرزها الاول (٢) الحظ

(٣) اسقينى (٤) نخب ذلك وتمرير

(٥) حمزة (٦) عمدا (٧) تعالى فحدثينى وأعلى أحاديثك الجميلة فليس من رأيى كتمانها ، حدثينى عن هزيمة المسلمين فى احد ، وانتصار أبى سفيان عليهم . وولولة باكياتهم على قتلاهم ، وحدثينى عن فشل «على» فى الحصول على الخلافة ، وانتصار معاوية عليه ، واحرازها دونه ثم اسقينى نخب هذه الذكريات المحمومة خمرة لذيذة ، اعتصرها العيسى من عنب شآمى .

فلا خلفَ بين الناس ، إنّ محمدًا تبوأ رمسًا فى المدينة ثاويا [١]

فيقول : « عليك البهلة : قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار . عن المدح والنسيب [٢] ، وما شُدِهتَ [٣] عن كفرك ولا إساءتك ! »

وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية : « ما رأيتُ أعجز منكم اخوانَ مَالِك : ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ؟ فلو أن فيكم صاحب نحيزة [٤] قوية ، لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر : » فيقولون : « ليس لنا على أهل الجنة سبيل »

فاذا سمع ما يقوله إبليس ، أخذ فى شتمه ولعنه ، واظهار الشماتة به ، فيقول ـ عليه اللعنة ـ : « ألم تُنهوا عن الشمات يا بني آدم ؟ ولكنكم ـ بحمد الله ـ مازجرتم عن شيء إلا وركبتموه [٥] » فيقول : « أنت الذى بدأت آدم بالشماتة ، والبادئ أظلم »

ثم يعود إلى كلام الأخطل فيقول « أأنت القائل هذه الأبيات :

ولستُ بصائم رمضان طوعا ولستُ بآكل لحم الاضاحى
ولست بقائم كالعَير [٦] أدعو قُبيلَ الصبح : « حى على الفلاح »
ولكني سأشربها شمولا [٧] وأسجد عند مُنبلج [٨] الصباح »

---

(١) اذا تأملنا أقوال القدماء ، لم نجد أحدا منهم يحرم الخمر ، فاذا كان محمد قد تفرد بتحريمها وحده ؛ فها هو محمد قد مات ، فزال بموته الخلف فى شأنها بين الناس

(٢) التشبيب (٣) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه

(٤) طبيعة (٥) وفى هذا المعنى يقول ابو العلاء فى لزومياته :

ألظوا بالقبيح وتابعوه ولو أمروا به لتجنبوه

(٦) الحمار (٧) خمرا باردة (٨) عند اشراق الصباح

فيقول : « أجل ، وإنى لنادم سادم [١] وهل أغنت الندامة ؟ »

ويمل من خطاب أهل النار ، فينصرف الى قصره المشيد فاذا صار على ميل أو ميلين ، ذكر انه ما سأل عن مهلهل التغلبي ولا عن الشنفرى وتأبط شراً ، فيرجع على أدراجه ، فيقف بذلك الموقف ينادى : ,, أين عدى ابن ربيعة ؟ ،، فيقال : ,, زد فى البيان ،، فيقول : ,, الذى يستشهد النحويون بقوله .

ضربتْ صدرَها الىَّ وقالت «ياعديا لقد وَقَتْكَ [٢] الأواقى [٣]»

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله .

ولقد خبطنَ [٤] بيوتَ يشكُرَ خبطة أخوالنا ، وهم بنو الأعمام

وقوله :

ما أُرَجّي بالعيش بعد نَدامى كلُّهم قد سُقُوا بكأس حلاق [٥]

---

(١) سادم فى معنى نادم وهى هنا للتأكيد

(٢) حفظتك وصانتك عن الاذي

(٣) جمع واقية وهى الشيء يتقى به ومعنى البيت انها دقت صدرها داعية أن لا يصيبنى مكروه ، وستمر بك القصيدة بعد بضعة اسطر

(٤) ضربنهم ضربا شديدا (٥) الحلاق المنية ومعنى البيت « أى حير فى الحياة بعد أن افنى الردى كل ندامای » وهذا البيت من قصيدة المهلهل المشهورة التى يقول فيها :

طفلة مّا ، ابنة المجلل بيضا ء ، لعوب ، لذيذة فى العناق
فاذهبى ما اليك غير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوثاق
ضربت نحرها الى ، وقالت : «ياعديا لقد وقتك الاواقى !»
ما أرجى بالعيش بعد نداما ى ، أراهم سقوا بكأس حلاق !

فيقال : «انك لتعرف صاحبك بأمر لامعرفة عندنا منه ، ما النحويون ؟ وما الاستشهاد ؟ وما هذا الهديان ؟ نحن خزنة النار ، فبيّن غرضك نجب اليه»

حديث مع مهلهل [1]

قيقول . «اريد المعروف بمهلهل التغلبي ، أخي كليب وائل الذي كان

---

(١) مهلهل (عدى بن ربيعة)

اسمه « عدى » اسم ابيه «ربيعة التغلبي» موطنه نجد وهو أخو كليب وخال امرئ القيس .

يعزو اليه المؤرخون أنه أول من طول القصائد وانه احد من غنى من العرب فى شعره وكان لاهيا حتى لقبه اخوه كليب « زير النساء » فلما قتل كليب كان المهلهل يعاقر الخمر فاصاح . واستحث قومه على أخذ الثار ، وحز شعره وقصر ثوبه ، وهجر النساء والقمار والشراب ، وتفرغ للحرب . ودامت تلك الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وكانت سجالا بينهما . ثم اصطلحوا بعد ذلك

ومن مختار شعره . رائيته المقدمة — وهى أشهر من أن نأتى بها . ومن احسن ما فيها قوله .

كأنى — اذ نعى الناعى كليبا — بضارب بين حسى الشرار
سألت الحى «اين دفنتموه» فقالوا لى «بأقصى الحى دار»
فسرت وقد عشى بصرى عليه كما دارت بشارتها العقار

وقوله من قصيده أخرى

يابكر . أشروا الى كليبا يابكر : أين أين الفرار ؟
يابكر : فاطعموا او فجلوا صرح الشر وبان السّرار

وقوله من قصيدة بائية :

ليلتنا بذى حسم : أبيرى اذا انتقصيت فلا تحورى
فان يك بالذنائب طال ليلى فقد ابكى من الليل القصير
وانقدنى بياض الصبح منها لقد انقدت من شر كبير

يضرب به المثل ،، فيقال : ،، هاهو ذا يسمع جوارك ، فقل ما تشاء ،، فيقول . « ياعدى بن ربيعة : أعزز على بولوجك[1] هذا الموطن ! لو لم آسف عليك إلا لاجل قصيدتك التي أولها .

أليلتنا بذى حسم[2] اُبيتي اللوم ذا أنت اقتضيت[3] فلا تحوري[4]

لكانت جديرة أن تطيل الأسف عليك . وقد كنت اذا أنشدت أبياتك فى ابنتك المزوجة فى « جنب[5] » تغرورق من الحزن

الى ان يقول ويبدع :

كواكب ليلة ضلت وعمت وبدا الصبح راعمة فعوري

وقوله بعد ان علت فى الحرب واحد اسير ثم عاد الى اهله جعل النساء يسخرونه ، تسأل المرأه عن زوجها واحها واحها ويسأل الغلام عن ابيه واخيه، فقال .

ليس مثلى يحير الناس عنى انهم قتلوا . ويبسى القتالا
لم ارم عرصة الكتيبة حتى اترك الخيل بالعراء نعالا
عرفته رماح بكر ، ثمانيا حدن الا لباته والقذالا
غلبونا — ولا محالة يوما يتلف الدهر ذاك حالا فحالا

(١) بدحولك (٢) اسم مكان (٣) انهيت

(٤) لاترجعى (٥) يشير بذلك الى ذهاب مهلهل الى اليمن بعد ان دامت الحرب المشهوره اربعين عاما واصطلح الحيان جميعا وابى مهلهل ان يقيم بينهم حتى لايرى قاتل كليب ، فسار الى اليمن ونزل فى «حمير» من بنى مدحج . فخطب اليهم احدهم ابنته فأبى ان يفعل فأحضروه على تزويجها وساقوا اليه صداقها خلودا من أدم فقال فى ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت احتُ بنى الاكرمين من حشم
انكحها فقدها الاراقم فى حمـ ـير ، وكان الحباء من أدم

عيناى ، فأخبرني لم سميت مهلهلا ، فقد قيل انك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعرَ » ، أى « رققه » فيقول : « إن الكذب لكثير ، وإنما كان لى أخ يقال له امرؤ القيس فأغار علينا زهير بن جناب الكلبى ، فتبعه أخى فى زرافة [١] من قومه فقال فى ذلك :

لما تُوقِّل [٢] فى الكراع [٣] هميمهم [٤] هلهلت [٥] أثأر مالكا أو صنبلا

فسمى مهلهلا ؛ فلما هلك شُبِّهتُ به ، فقيل لى مهلهل ، فيقول : « الآن شفيتَ صدرى بحقيقة اليقين »

حديثه مع الشنفرى [٦]

. . . . . ويسأل عن الشنفرى الأزدى فيُلفيه قليلَ

لو بأبا بين حاء يحطمها صرح ما أنف حاطب ندم
ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا يغنون من عيلة ولا عدم
اصحت لا منعما أصبت ، ولا أبت كريما حرا من الندم

(١) جماعة (٢) صعّد فى اى توغل او رقى فيه

(٣) الكراع أنف يتقدم الحرة ممتد ، أى حرء حارح ممتد يتقدم الحرة وهى كل أرض ذات حجارة سحره سود كأنها احرقت بالنار (٤) يعنى بالهمين زهير ابن جناب (٥) قاربت ويقال توقفت

(٦) الشنفرى

(توفى سنة ٥٤٠ م)

اسمه ثابت بن أوس الأزدى موطنه اليمن ، وهو شاعر الأزد ومن أشهر عدائى العرب — ومعنى الشنفرى « العظيم الشفتين » ومن أروع شعره قوله — لما أسره « بنو سلامان » وأراد واقتله ، وقالوا له : « أين قبرك ؟ » فقال :

التشكى [1] والتألم لما هو فيه ، فيقول : « إنى لا أراك قلقا مثل قلق أصحابك : » فيقول: « أجل إنى قلت بيتا فى الدار الخادعة فانا أتأدب به ، وذلك قولى :

غوى فغوت، ثم ارعوى [2] بعد وارعوت وللقبر — ان لم ينفع الشكو — أجمل [3]

لاتقبرونى ، ان قبرى محرم عليكم ، ولكن أبشرى أم عامر
اذا احتملت رأسى والرأس اكثرى وغودر عند الملتقى — ثم — سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرنى سجيس الليالى مبسلا بالجرائر

(١) قليل التشكى أى قليل التوجع والتأوه ، وبذلك وصفه قرينه تأبط شراً فى قصيدة جميلة منها .

قليل التشكى للهم يصيبه كثير الهوى شتى الهوى والمسالك

أى قليل التوجع لما يحزنه ، كثير السفر والتحول من مكان الى آخر وستمر بك القصيدة فى ترجمة « تأبط شراً » فى الصحيفة التالية

(٢) كف ورجع عن الجهل

(٣) هذا البيت من لامية «الشنفرى» المشهورة التى نختار منها قوله :

أديم مطال الجوع حتى اميته وأصرف عنه الذكر صفحا فأذهل
واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به الا لدى ومأكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم الا ريثما أتحول

حديثه مع تأبط شرا [1]

واذا هو قرين مع تأبط شرا ، كما كان فى الدار الغرارة ، فيقول لتأبط

---

(١) تأبط شرا

توفى سنه ٥٩٠ م

كان من اسرع عدائى العرب وأصبرهم وأكيدهم ، وكان يغير الى الظماء فيعدو وراء اسمها فلا تفوته : قالوا « اشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل تأبط شرا والشنفرى وسليك بن سلكة وعمير بن براق واسير بن جابر »

قالوا : « وكان تأبط شرا عدى دى رجلين ودى ساقين ودى عينين ، وكان اذا جاع لم تقم له قائمة ، وكان يغير الى الظماء فيمتق — على بطره — أسمها ثم تحرى حلقه ، فلا يموته حتى يأخذه فيذبحه اسيفه ثم يشويه فيأكله . » وقد وصف « تأبط شرا » الغيلان فى شعره كما سيمر بك بعد قليل فى الصحيفة التالية ومن اجمل ما نختاره من شعره قوله يصف صديقه « الشنفرى » من قصيدة له

قليل التشكى لهمه [1] يصابه ... كثير الهوى ، شتى الموى ٢ والمسالك
يطل نوماة ٣ . ويمسى بعيرها ... ححيشا ٤ ، ويعروري ٥ ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح ، من حيث يدمجى ٦ ... تمحرق ٧ من شده ٨ المتدارك ٩
اذا حاص ١٠ عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئ ١١ من قلب شيحان ١٢ فاتك
ويجعل عينيه ربيئه ١٣ قلبه ... الى سلة من حد أحلق ١٤ صائك ١٥
اذا هره فى عظم قرن تهللت ... نواحد افواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ، ويهتدى ... بحيث اهتدت ام النجوم ١٦ الشوابك ١٧

---

(١) المحول (٢) السفر أو التحول من مكان الى آخر (٣) مبارده واسعة (٤) يعدو (٥) يركب (٦) يميل ويعتمد فى كل وجه (٧) حيث تهب الريح (٨) اسراعه (٩) المتلاحق بعضه بعض (١٠) حاص والمعنى هنا « اذا اشتكت اهداب حموه أو اذا أحد الكرى تعاهدها » (١١) حافظ (١٢) حذر ، أوشهم جبور على الحرم والمعنى أن قلبه اليقظ يحرسه حين ينام (١٣) رائدا واصل الربيئة الرجل يشرف العدو على جبل أو مكان عال لئلا يدهم قومه (١٤) أملس مصمت (١٥) لاصق ، والمعنى هنا أن سيفه مضرج بالدم (١٦) المحرة . وانما سميت كذلك لاجتماع النجوم فيها المشتبك بعضها ببعض . (١٧) والمعنى انه يهتدى بالنجوم فى الليل

شرا : « أحقٌّ ما رُوِىَ عنك من نكاح الغيلان [1]؟ » فيقول : « لقد كنا

ومما يروونه عنه انه لفى ذات يوم رحلا من « ثقيف » يقال له « ابو وهب » كان حسانا أهوج وعليه حلة جيدة ، فقال « ابو وهب » لتأبط شرا : « ما بعلب الرجال يا ثابت ، وانت كما ارى دميم ضئيل ؟ » قال « ياسيدى ، انما اقول ساعة ما التقى الرجل « انا تأبط شرا » فيخلع قلبه حتى ابال منه ما اردت »

فقال له الثقفى : « أقط ؟ » قال « قط : »

قال : « فهل لك ان تدعى اسمك ؟ » قال . « نعم » . فم تمتاعه ؟ » قال نهدة الحلة وبكسيتى » قال له « افعل » ففعل ، وقال له تأبط شرا . « لك اسمى ولى كسبك » واخذ حلته واعطاه طمريه ثم انصرف ، وقال فى ذلك يخاطب زوجة الثقفى

الا هل اتى الحسناء ان حليلها تأبط شرا وا كتنيت « ابا وهب »
فهبه اسمى اسمى وسميت باسمه فاين له صبرى على معظم الخطب
وأين له بأس كبأسى وسورتى واين له فى كل فادحه قلبى

(١) داع عن « تأبط شراً » لقاء الغيلان ونكاحهم والحرب معهم . وقد رووا عنه أشعارا مختلفة فى ذلك وأخبارا هى أقرب الى الاساطير والخيال منها الى الحقيقة ، من شعره فى الغيلان قوله من قصيده :

وانى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : « كلانا نضو أين أخو سفر ، فخلى لى مكانى »
فشدت شدة نحوى ، فأهوى لها كفى فعقرت بعدى
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران
فقالت : « عد » : ففلت لها . « رويدا مكانك : إنى ثنت الحبل »
فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصبحا ، ماذا أتانى
اذا عينان فى رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مُخْدَج ، وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان

فى الجاهلية نتقوّل ونتخرص [١] فما جاءك مما ينكره المعقول فانه من الاكاذيب ، والزمن كله على سجية واحدة [٢] ، فالذى شاهده مَعَد بن عدنان كالذى شاهده آخر ولد آدم »

فيقول الشيخ . « نُقلت الينا أبيات تنسب اليك :

أنا الذى نَكَحَ الغيلانُ فى بلد ... ما طلّ [٣] فيها بما كى ولا جادا »

فى حيث لا يعلمُ الغادي عمايتَه ... ولا الظليمُ به يبغى تهبّادا [٤]

وقد لهَوْتُ بمصقول عوارضُها ... بكر تنازعني كأسا وعنقادا [٥]

ثم انقضى عصرُها عنّي وأعقبه ... عصرَ المشيب ، فقُلْ فى صالح بادا »

فاستدللتُ على أنها لك ! لمّا قلت . « تهبادا »

فقلتُ هذا مثل قوله فى القافيّة . دور وانظر

« طيفُ ابنةِ الحُرّ إذ كنا نواصلُها ... ثم اجتنبْتُ بها بعد التّفرّاق [٦] »

فلا يجيبه تأبط شرا بطائل

---

(١) نكذب (٢) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

ألا انما الأيام أسماء واحد ... وهذى الليالى كلها أحوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... حلاف الذى مرت به السنوات

(٣) لم يصبها الطل ـ وهو الرذاذ « المطر الضعيف »

(٤) لا يظفر فيها فرح النعام بالهميد « الحنظل » ليأكله (٥) عنقودا

(٦) التفرق

الفصل السادس
عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فاذا رأى قلة الفوائد لديهم ، تركهم فى الشقاء السرمد ، وعمد نحله فى الجنان ، فيلقى آدم ـ عليه السلام ـ فى الطريق ، فيقول : « يا أبانا ـ صلى الله عليك ، قد روى لنا عنك شعر منه قولك .

نحن بنو الارض وسكانها منها خلقنا ، واليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس يمحوه ليالى السعود »

فيقول . « إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكنى لم أسمع به حتى الساعة » فيقول : « فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت ؟ فقد علمت أن النسيان متسرع اليك ، وحسبك شهيداً على ذلك ، الآية المتلوة فى قرآن محمد ـ صلى الله عليه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسى [1] ولم نجد له عزما » وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانا لنسيانك ، واحتج [2] على ذلك بقولهم فى التصغير « أُنَيسان » وفى الجمع

---

(١) وفى ذلك يقول ابو العلاء :

احتج فى الغى بالنسيان والدهم وقد غووا ـ بادكار ـ لا أقول : نسوا

(٢) اى بالحجة

أناسيّ «وقد روى أن الانسان من النسيان عن ابن عباس»، وقال الطائى لا تنسَيَنّ تلك العهود . وانما سميت إنسانا لأنك ناسى . ويقول آدم — صلى الله عليه وسلم — أيتم الا عقوقا وأذيه ، انى كنت أتكلم العربية ، وأنا فى الجنة ، فلما هبطت الارض نقل لسانى الى السريانية فلم أنطق بغيرها الى أن هلكت . فلما ردنى الله — سبحانه وتعالى — الى الجنة عادت على العربيه . فأىّ حين نطمت هذا السعر فى العاجلة أم الآجلة . والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة ، ألا ترى قوله «منها خلقنا واليها نعود» فكيف اقول هذا المقل ولسانى سريانى وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حكم على العباد ، وأما بعد رجوعى اليها فلا معنى لقولى « واليها نعود » لانه كذبٌ لامحالة ، ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون : . . . .

فيقول ، ان بعض اهل السير يزعم ان هذا السعر وجده يعرب فى متقدم الصحف السريانية ، فنقله الى لسانه ، وهذا لا يمتنع أن يكون . وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل قابيل هابيل . تغيرت البلاد ومن عليها ، فوجه الارض مغبرّ قبيح وأودى رُبعُ أهليها فبانوا . وغودر فى الثرى الوجهُ المليح

فيقول آدم — صلى الله عليه وسلم : «أعزز علىّ بكم معشر بنيّ : انكم فى الضلالة متهوّكون (١) : . آليت (٢) مانطقت هذا النظيم ولا

---

(١) متهورون أو متحيرون أى أنكم واقعون فى الضلالة بغير مبالاة ولا روية أو خابطون فيها على غير هدى (٢) أقسمت

بطن فى عصرى . وإنما نطعمه بعض الفارغين . فلا حول ولا قوة الا بالله !
كدتم على خالقكم وربكم ، ثم على أدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ،
وكدتم بعضكم على بعض ! ..

حديثه مع ذات الصفا

ثم يضرب سائراً فى الفردوس وإذا هو بروضة مؤنقة ، وإذا هو بحيث يلعبن ، فيقول « لا إله الا الله » وما تصنع حية فى الجنة .. فينطقها الله — جات عظمته — بعد ما ألهمها المعرفة بها جس الخلد فتقول : « أما سمعت فى عمرك بذات الصفا . الوفية لصاحب الوفى ، كانت تنزل بواد خصاب . وكانت تصغى اليه الخيل فى ورد الظاهرة[1] والغب[2] فلما مرّ بوُدّها ماله ، ذكر عندها ثاره . ووقف على صخرة وهم أن ينتقم منها . وكان أحد ممن قتلته — فضربها ، فلما وُقيت ضربة فاسية — والحقد يمسك نفاسه — ندم على ما صنع أشد الندم ، وقال لحيه مخادعا : «هل لك أن تكون خِدْنِى» ودعاها بالسفه الى حِلْف . فقالت « لا أفعل . إنى أجدك ساحرا مسحورا[3] تأبى لى صكة[4] فوق الرأس ، ويمنعك من أربك قبر محفور

وقد وصف ذلك نابغة بنى ذبيان ، فقال :

والى لألقى من ذوى الضغن منهم وما أصبحتْ تشكو من البَثّ ساهرة

---

(١) الظاهرة الابل الواردة كل يوم نصف النهار

(٢) مفسداً مخادعا

(٣) ضربة شديدة

كما لقيتْ ذاتُ الصفا من حليفها ... وكانت تَمدّه المالَ غبّاً وظاهرهْ
فلما رأى أن عمر الله ماله[1] ... فأصبح مسرورا ، وسُدّ مفاقره[2]
أكبّ[3] على فأس يحدّ غُرابها[4] ... مُذكّرةً من المعاول باتره
وقام على جحر لها فوق صحرة ... ليقتلها أو تخطئ الكفّ بادرة
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لا تغمّض ناظره
فقال : تعالى ، نجعل الله بيننا ... على ما لِنا ، أو تنجزى لِى آخره »
فقالت . « معاذ الله أفعل ، انى ... رأيتك مسحوراً ، يمينك فاجره
أبى لىَ قبر لا يزال مقابلى ... وضربةُ فأس فوق رأسى فاقره[5] »

* * *

وتقول حية أخرى « إنى كنت أسكن دار الحسن البصرى فيتلو القرآن ليلا فتلقيت الكتاب من أوله إلى آخره

ويهكر[6] مع الأبرار المتقين لما سمع من تلك الحية ، فتقول . « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر ! فانى اذا شئت انتفضت من إهابى[7] فصرت مثل أحسن غوانى الجنة ، لو ترشفت رضابي[8] لعلمت أنى افضل من الدرياقة[9] التى ذكرها ابن مقبل فى قوله :

---

(١) نماه وكثره (٢) سد مفاقره اى اغتنى وسد وجوه فقره

(٣) اقبل ولزمه (٤) حدها (٥) الفاقره الداهية التى تكسر الفقار وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجز اى خرزات الظهر ، ومعناها هنا شديدة محطمة

(٦) يشتد عجبه (٧) جلدى

(٨) ريقى المرشوف (٩) الدرياقة القطمة من الدرياق لغة فى الترياق وهو شفاء السم

سقتني بصهباء درياقة متى ماتلّين[١] عظامى تلن[٢]

فيذعر منها ويذهب مُهَرْولاً في الجنـة . ويقول فى نفسه « كيف يركن إلى حية ! » فتناديه « هلم إن شئت اللدة ، لو أقمت عندنا الى أن تخيّر ودنا وانصافنا ، لندمت إن كنت فى الدار العاجلة قتلت حية أو عثمانا[٣] » ، فيقول . « لقد ضيق الله على مراشف الحور الحسان إن رضيت بترشف هذه الحية »

عودة الى حوريته

فاذا ضرب فى غيطان الجنـة لقيته الجارية التى خرجت منها تلك المرة . فتقول « إني لأنتطرك منذ حين ، فما الذى شحنك[٤] عن المزار ؟ ما طالت الأقامة معك ، فأملّ بالمحاورة مسمعك ! » فيقول . « كانت فى نفسى مآرب من مخاطبة أهل النار ، فلما قضيت من ذلك وطراً عدت اليك ، فاتبعيني بين كثب العنبر وأنقاء[٥] المسك ، فيتحالى بها أهاضيب الفردوس ، ورياض الجنان ، فتقول . « أيها العبد المرحوم أظنك تحتذى بى فعال الكندى[٦] في قوله :

فقمتُ بها أمشي ، تجرُ وراءنا على أثرينا ذيلَ مرْط[٧] مرحّل[٨]

---

(١) تجعل عطامى لينة (٢) يقال ليته فلان لى (٣) العثمان فرح الثعبان (٤) حبسك أو منعك (٥) جمع نقا ، وهى القطعة من الرمل تنقاد محدودبة (٦) امرئ القيس (٧) المرط كساء من خز أو صوف ، وقد تسمى الملاءة مرطاً (٨) منقش بنقوش تشبه رحال الابل ، ومعنى البيت « انها حين صحبتنى

فلما أجزنا[١] ساحة الحي[٢] وانتحى بنا بطن[٣] خبت[٤] ذي حقاف[٥] عقنقل[٦]
هصرت[٧] بفودَي رأسها[٨] فتمايلت علي هضيم الكشح[٩] ريا المخلخل[١٠]

فيقول « العجب لقدرة الله : لقد أصبتِ ما خطر في السويداء[١١] فمن أين لكِ علم بالكندي ، وإنما نشأتِ في ثُمرة تبعدك من جن وأنيس ؟ » فتقول . « ان الله على كل شيء قدير »

* * *

ويعرض له حديث امرئ القيس في دارة جلجل[١٢] ، فينشيء الله — جلت عظمته — حوراً يتماقلن[١٣] في نهر من أنهار الجنة ، وفيهن مَنْ

أخذت تحر مرطها على آثار اقدامنا لتعفيها به اثناء سيرنا (١) قطعنا (٢) فناء الحي أو رحبته (٣) البطن مكان مطمئن حوله أمكنة مرتفعة (٤) الخبت الأرض المطمئنة (٥) جمع حقف وهو رمل مشرف معوج (٦) العقنقل المعقد المتلبد من الرمل ومعنى البيت : لما جاوزنا فناء الحي وصرنا الى ارض مطمئنة تحيط بها مرتفعات وتلال من الرمل الخ (٧) حدرت (٨) جانبي راسها (٩) ضامر الكشح وهو منقطع الأضلاع (١٠) المخلخل موضع الخلخال من الساق ، وريا المخلخل معناها هنا كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما ، ومعنى البيت : «أنه جذب اليه ذؤابتيها فمالت اليه » ثم أخذ في وصفها فقال « انها ضامر الكشح ممتلئة ساقاها لحما »

(١١) حبة القلب أي أصبت ما في نفسي (١٢) يشير الى حادثته مع حبيبته (ابنة عمه عنيزة) والنساء ، في دارة جلجل وقد ذكر تلك القصة في معلقته فقال

الارب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل الخ

وقد امتلأت بها كتب الأدب ، فلا حاجة الى ذكرها هنا ، ارجع الى (ص ١٣٦)

وأشار أبو العلاء الى هذه الحادثة في لزومياته ، في قوله :

اين امرؤ القيس والعذارى اذ مال من تحته الغبيط ؟

ارجع الى (ص ١٨٠) (١٣) يتغاطين

تفضلهن ، كصاحبة امرئ القيس ، فيترامين بالثرمد ـ وانما هو كأجل طيب الجنة ـ ويعقر لهن الراحلة [١] فيأكل ويأكلن من بضيعها [٢] ما ليس تقع الصفة عليه ، من امتاع ولذاذة

جنة الرجاز

ويمر بأبيات ليس لها سموق [٣] أبيات الجنة فيسأل عنها فيقال : « هذه جنة الرجز » فيقول : « تبارك العزيز الوهاب : لقد صدق الحديث المروى : « ان الله يحب معالىَ الأمور ويكره سفاسفها » وان الرجز لمن سفساف القريض [٤] قصرتم أيها النفرُ فقصرَ بكم » ويعرض له رؤبة فيقول « يا أبا الجحاف : ما كان أكلفك [٥] بقواف ليست بالمعجمة ! تصنع رجزا على العين ورجزا على الطاء وعلى الظاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ، ولم تكن صاحبَ مثلٍ مذكور ، ولا لفظ يستحسن ! » فيغضب رؤبة [٦]

---

(١) الراحلة النجيب الصالح لان يرحل من الابل والقوي على الاسفار وهو يشير بذلك الى قول امرئ القيس « ويوم عقرت للعذارى مطيتى »

(٢) لحمها

(٣) ارتفاع أو طول (٤) ارجع الى (ص ١٨١) لتزداد اقتناعاً بتحامله على الرجاز (٥) اى ما كان اشد حبك وولعك

(٦) رؤبة بن العجاج
توفى سنة ١٤٥ هـ

اسمه عبدالله البصرى التميمى . كنيته ابو محمد ولقبه رؤبة ؛ (وتطلق هذه الكلمة على قطعة الخشب يشعب بها الاناء) واسم ابيه العجاج ، اشتهر كما اشتهر أبوه من قبله بالرجز ، ولكل منهما ديوان ليس فيه شعر سوى الأراجيز .

ويقول « ألى تقول هذا » وعنى أخذ الخليل وكذلك ابو عمرو بن العلاء ، وقد غبرتَ [١] فى الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع اليك ، مما نقله أولئك عنى وعن أشباهى ؟ » فاذا رأى مافى رؤبة من الانتخاء [٢] قال: « لو شُيِّكَ رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة ، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق ، وانّ غيرك أولى بالاعطية والصلات » فيقول رؤبة « أليس رئيسكم كان يستشهد بقولى ويجعلنى له كالامام ؟ »

فيقول « لا نخر لك أن استشهد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أَمَةٍ وَكْعاءَ [٣] ، وكم رَوَى النحاة عن طفل ماله فى الأدب ثُقُل » فيقول رؤبة « أجئت لخصامنا فى هذا المنزل ؟ فامض لطيتك [٤] فقد أخذت بكلامنا ماشاء الله ! » فيقول « أقسمت مايصلح كلامكم للثناء ، تصكون مسامع الممتدح بالجَنْدَل . ومتى خرجتم عن صفة جمل تزيون له من طول العمل ، الى صفة فرس أو كلب ، فانكم غير الراشدين » ـ فيقول رؤبة : « ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال « يتنازعون فيها كأساً لا لغو [٥] فيها ولا تأثيم [٦] » وإن كلامك لمن اللغو »

---

(١) مكثت او طللت (٢) التكبر والتعاظم

(٣) حمقاء ، وقيل الوكعاء هى التى تسقط وجعا

(٤) اى امض لبيتك التى انتويتها ، او اذهب الى الناحية التى كنت تقصدها او امض الى سبيلك (٥) اللغو ما لا يعتد به من الكلام ، أو القول الباطل الذى يصدر لا عن روية وفكر

(٦) فعل ما لا يحل

فاذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة ، سمع العجاج[١] ، فجاء يسأل المحاجزة[٢]

نعيم الخلد

ويذكر الشيخ ما كان يلحق أخا الندام ، من فتور فى الجسد من المدام ، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن ينزف[٣] له لُبّ

فاذا هو يخال فى العظام الناعمة دبيب نمل ، أسرى في المقمرة على رمل ، فيترنم بقول إياس بن الأرت :

أعاذلَ لو شربتِ الخمر حتى ... يظل لكل أنملة دبيب
إذن لعذرتنى وعلمت أنى ... لما أتلفت من مالى مُصيب

ويتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر بالحور العين أن يحملن ذلك المِفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ، وإنما هو زُبرجد أو عسجد فيكوّن البارئ فيه حِلقاً من الدهب تُطيف[٤] به من كل الاشراء[٥] حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الحوارى المشتبهة بالجمان[٦] واحدة من تلك الحلق ، فيُحمل على تلك الحال الى محله المشيّد بدار الخلود فكلما مر بشجرة نضختْه[٧] أغصانها بماء الورد قد خاط بماء الكافور

---

(١) العجاج

اسمه عبد الله بن رؤبة من بنى مالك . كنيته أبو الشعثاء . اسم أبيه رؤبة الرجاز المشهور (ارجع الى ص ٢٢٧) وكلاهما أحرز درجة رفيعة وشهرة واسعة انفرد بها فى الرجز وقد الف كل منهما ديوانا ليس فيه الا أراجيز (٢) المسألة (٣) من غير ان يذهب له عقل (٤) تحيط به (٥) الاحاء ، مفردها شرى (٦) اللؤلؤ (٧) رشّته

وبمسك ماجنى من دماء الفور[١] بل هو بتقدير الله الكريم وتناديه الثمرات من كل أوب، وهو مستلق على الظهر "هل لك يا أبا الحسن هل لك ؟"، فاذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب[٢] له من الشجرة بمشيئة الله وحملته القدرة الى فيه، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

تمت رواية الغفراله

وانتهى الجزء الأول

---

(١) الظباء (جمع فائر) ومن دمائها يخرج المسك، قال المتنبي :

فان تفق الأنام ـ وأنت منهم ـ فان المسك بعض دم الغزال

(٢) انقطع

ديوان ابن الرومي

اختيار وتصنيف

كامل كيلاني

بالأوفست

سفر من الأسفار النادرة التي كتب لها الخلود وعالم بهيج حافل بروائع الفلسفة والفن تطالعك كل صفحة منه بفئة من أروع مخلفات الفكر الانساني وترى فيها صحيفة مشرقة بالحياة من أزهى صحف البلاغة العربية وأمثلة رائعه من أعلى نماذجها ، أخرجها رأس عبقرى مبدع خلاق، اشتهر من بين جبابرة الفكر الانسانى باستقصاء المعانى الباهرة والغوص على أخفى خفاياها مع الدقة التامة فى أدائها

وهو يقع فى أجزاء ثلاثة بمجموعة في سفر واحد مجلد بالقماش يشمل نحو خمسمائة مقطوعة شعرية رتبها مصنف الكتاب بطريقة فنية دقيقة ، ووضع لكل منها عنوانا يدل على ما تحتوبه ، وجعل للكتاب فهرسين أحدهما لعناوين القصائد والثانى لقوافيها مرتبة على الحروف الهجائية

وهو يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على لقاهرة وثمنه عشرون قرشا عدا أجرة البريد

فهرس الجزء الاول

صحيفه

الاهداء

١ مقدمة الاستاذ طه حسين

١٦ مقدمة الاستاذ فريد وجدى

٢٥ ترجمة ابن القارح « بقلمه »

٢٩ « « « « بقلم أحد معاصريه »

٣٢ موجز ترجمة أبى العلاء « بقلم الشارح »

٣٤ مؤلفاته

٣٥ رسالة الغفران

الغفران

كوميديا الرهبة مسرحها الجنة والنار

٤٥ تمهيد

٤٦ **الفصل الاول الفردوس**

٥٧ ندامى الفردوس

٦٦ رحلة ابن القارح

٦٧ حديث الأعشى

٦٩ حديث زهير بن أبى سلمى

٧٤ « عبيد

٧٥ « عدى بن زيد العبادى

٧٧ « أبى ذؤيب الهذلى

٧٩ « النابغتين

٨٧ مجلس غناء

٨٩ حديث لبيد

٩٣ غناء الحور

٩٦ مشاجرة الجعدى والاعشى

١٠١ حسان بن ثابت

١٠٥ عوراء قيس

١٠٨ حكاية تميم بن أبى

الفصل الثانى يوم الموقف

محاكمة ابن القارح

١١٠ حديثه مع رضوان

١١٢ « « رقيب

١١٣ « « حمزة بن عبد المطلب

١١٤ مقابلة أبى على الفارسى

١١٧ حديثه مع على بن أبى طالب

١١٨ وروده الحوض

١١٨ حديثه مع فاطمة

١٢٠ حديثه مع النبى

١٢٠ عبور الصراط

١٢١ حواره مع رضوان

١٢٢ دخوله الجنة

الفصل الثالث

نعيم الفردوس

١٢٣ حديثه مع حميد بن ثور

صحيفة

١٢٤ حديثه مع ليد
١٢٥ مأدبة فى الحمة
١٢٧ مجلس أنس وغناء
١٢٧ حديث الحرادتين
١٢٩ حديث حراد العود النميرى
١٣٢ رقص الحور
١٣٤ حديثه مع الحوريتين
١٣٩ حدائق الحور
١٣٩ حورية ابن القارح

الفصل الرابع

جنة العفاريت

١٤٣ أشعار الجن
١٤٤ صرع فتاة
١٤٦ قصة الجنى
١٤٩ لعبة الجن
١٥٠ حديث الرجم
١٦٧ حديث الأسد
١٦٩ حديث الحطيئة

الفصل الخامس

الجحيم

١٧٣ حديث الخنساء

صحيفة

١٧٥ حديث ابليس
١٧٧ حديثه مع اشار
١٨٠ حديثه مع امرئ القيس
١٨٢ » » عنترة
١٨٥ » » علقمة الفحل
١٩٥ » » عمرو بن كلثوم
١٩٩ » » الحارث الشكرى
٢٠٠ » » طرفة
٢٠٤ » » أوس بن حجر
٢٠٦ » » أبى كبير الهذلى
٢٠٧ » » الأحطل
٢١٤ » » مهلهل
٢١٦ » » الشنفرى
٢١٨ » » تأبط شرا

الفصل السادس

عودة الى الفردوس

٢٢١ حديثه مع آدم
٢٢٣ » » ذات الصفا
٢٢٥ عودة الى حوريته
٢٢٧ جنة الزجاج
٢٢٩ نعيم الخلد

فهرس الشرح

صحيفة

١٩ عطف أبى العلاء على الحيوان
٢٥ ترجمة ابن القارح
٣٥ متى كتبت رسالة الغفران
٣٦ هول القيامة
٣٨ شعر أبى العلاء فى البعث
٤١ خلاصة رأيه فى البعث
٤٦ موجز ترجمة علقمه الفحل
٤٧ » » أبى زبيد
٤٨ » » عدى بن زيد العبادى
٤٩ » » لاقيشر
٥٠ » » الحكمى «أبى نواس»
٥٢ » » المرقش الأكبر
٥٣ » » أحمد بن الحسين المتنبى
٥٧ » » أحيحة بن الجلاح «المبرد»
٥٧ » » أحيحة بن دوس (ابن دريد)
٦٠ » » أوس بن حجر التميمى
٦١ » » سيبويه
٦١ » » الكسائي
٦٢ » » أبى عبيدة
٦٢ » » عبد الملك بن قريب «الأصمعى»
٦٣ » » الكرى «أعشى قيس»
٦٥ » » هودة بن على
٦٥ » » عامر بن الطفيل

صحيفة

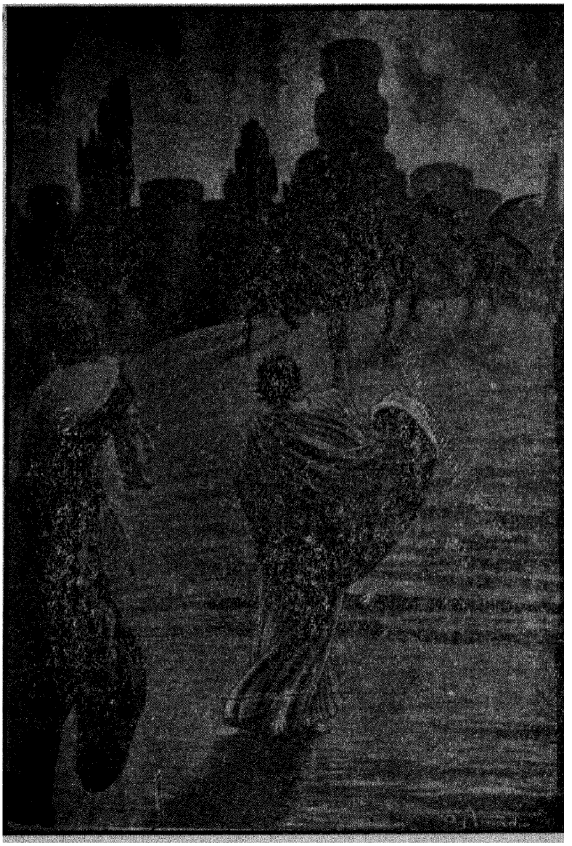
٦٩ موجز ترجمة زهير بن أبى سلمى
٧١ » » عبيد بن الأبرص
٧٧ » » أبى ذؤيب الهذلى
٧٩ » » النابغة الجعدى
٨١ » » النابغة الذبيانى
٨٩ » » لبيد ونخبة من شعره
٩٤ » » المخبل السعدى
١٠١ » » حسان بن ثابت
١٠٥ » » الشماخ معقل بن ضرار
١١٣ » » حمزة بن عبد المطلب
١١٤ » » أبى على الفارسى
١١٥ » » يزيد بن الحكم الكلابى
١١٦ قصيدته
١٢١ كعب بن زهير
١٢٣ موجز ترجمة حميد بن ثور الهلالى
١٢٧ » » الحرادتين
١٢٩ » » حران العود النميرى
١٣٤ » » الكندى «امرئ القيس» ونخبة من شعره
١٤٥ حكاية الذهبى عن المعرى
١٤٦ رأى أبى العلاء فى الجن
١٥١ جرهم وجديس وطسم

صحيفة

١٥٢ حكاية ضبم وحديس
١٥٦ تفاصيل ايام الاسبوع
١٥٧ دين الجن
١٥٩ أساطير الجن وسليمان « المن »
١٦٠ اسطورة سيف بن ذى يزن
١٦٣ اسطورة الزهق الأسود
١٦٤ لمحة من قول الشعراء فى الجن
١٦٩ موجز ترجمة الحطيئة
١٧١ « « الزبرقان بن بدر
١٧٣ « « الخنساء
١٧٧ موجز ترجمة اشار بن برد ولمحة من شعره
١٧٩ كمه بشار
١٨٠ اشارة لمعرى الى امرئ القيس فى شعره
١٨٠ تسميط منحول لامرئ القيس
١٨١ رأى أبى العلاء فى الزمخشرى
١٨٢ موجز ترجمة عنترة العبسى
١٨٣ « « حبيب بن أوس أبى تمام
١٨٤ رأى أبى العلاء فى شعر أبى تمام
١٨٥ « « « « المرأة
١٨٩ لمحة من شعر أبى العلاء فى المرأة

صحيفة

١٩٠ لمحة من شعر أبى العلاء فى الغزل
١٩٢ قصيدته الخامعة لآرائه فى المرأة والزواج والغزل
١٩٣ رأى أبى العلاء فى وأد البنات
١٩٦ موجز ترجمة عمرو بن كلثوم
١٩٩ « « « الحارث بن حلزة اليشكرى
٢٠٠ « « « طرفة بن العبد
٢٠٣ لمحة من شعره
٢٠٤ موجز ترجمة أوس بن حجر
٢٠٦ ابو كبير الهذلى وتأبط شرا
٢٠٨ موجز ترجمة الأحطل
٢١٠ واقعة أحد
٢١٣ قافية المهلهل
٢١٤ موجز ترجمة المهلهل
٢١٥ دهابه الى « حمير »
٢١٦ موجز ترجمة الشنفرى
٢١٨ « « « تأبط شرا
٢١٩ شعره فى الغيلان
٢٢٧ موجز ترجمة رؤبة بن العجاج
٢٢٩ « « العجاج



مدينة الشيطان

فى الكوميديا الالهيه للشاعر دانتى

« انظر ج ٣ ص (٥٨ — ٥٩) »

(اقترب الشاعر ومرشده « فرجيل » من مدينة الشيطان فاذا أبراج وقباب متوهجة باحمرار اللهب المندلع واذا الأبواب تحرسها طغمة من الشياطين . وعلى الاسوار بنات الشر الثلاثة ملوثة بالدم تمزق أفاعى شعرها وتصرخ مهددة بالويل والثبور)

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف

ابى العلاء المعرى

الجزء الثانى

الرد على رسالة ابن القارح

ما كان فى هذه الدنيا سوى رمم
الا وعندى من اخبارهم طرف
أبو العلاء

ايجاز وشرح

كامل كيلانى

بالاوقاف

الطبعة الثانية

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة للشارح

(المطبعة التجارية الكبرى لشارع عابدين بحارة فايد رقم ٣ تليفون نمرة ٩٠-٦١)

القسم الثانى

الرد على رسالة ابن القارح (١)

(وقد أطلت فى هذا الفصل . ونعود الآن إلى الاجابة على الرسالة) :

وفاء ابن القارح

فهمت قوله « جعلني الله فداءه » لايذهب به الى النفاق (٢) — وبعد ابن آدم من الوفاق — وهذه غريزة خص بها الشيخ دون غيره . وتعايش العالم بخداع ، وأضحوا من الكذب فى ابداع (٣)

شيرين وكسرى

لو قالت شيرين الملكة لكسرى « جعلني الله فداءك » لخبثته فى ذلك ولفقته ، وإن راقته ووافقته . على أنه اخذها من حال دنية فجعلها فى النعمى السنية ، وعتبه فى ذلك الأحباء وجرت لهم فى ذلك قصص وأنباء . وقيل

---

(١) هى رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) يعنى أن بن القارح قال هذا الكلام مخلصا فيه غير منافق

(٣) أى فى افتنان ، وقد امتلأ شعر ابى العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله فى ذلك قوله فى لزومياته :

مين يردد ، لم يرضوا بباطله حتى أبانوا الى تصديقه طرقا .

له ـ فيما ذكر ـ . « كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ » فضرب لهم المثل بالقدح ، جعل فى الاناء الشَعرَ والدم ، وقال للحاضر : « تجيب نفسك لشرب مافيه ؟ » فقال : « انها لاتطيب وهى بالانجاس قطيبُ[1] » .

فأراق ذلك الشيءَ وغسله وهذب وعاءه ، وجعل فيه من بعدُ مداما . وعرضها على الندامى ، فكلهم بَهش[2] أن يشرب ، فقال : « هذا مثلُ شيرين »

غريزة النفاق

كم من شِبلٍ نافق أسداً ، وأضمر له غِلا وحسداً ، وضيغمٍ نقم على فَرهود ، ووَدّ لَوْ دفنه أو رُود

(والفرهود ولد الأسد ، وهو ـ آنس الله الاقليم بقربه ـ أجلُّ من أن يُشرح له مثلُ ذلك . وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع[3] . ليس الى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة . فيظل معها فى مثل القيد)

وكم خالبت الذئاب السَّلَقَ[4] . وفى الضمائرِ تكنُّ الفِلَق ![5]

يقول القائل : « بأبى أنت . حاد عملك وأتقنتَ » ولو قَدَرَ لَبَتَّ الوَدَجَ[6] . وانما جامل أو سدَج[7] !

---

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وحف اليه (٣) ناشئ

(٤) الاناث من الذئاب (جمع سلقة) (٥) الدواهى (٦) عرق الأحدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة (٧) كذب وتقول الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول ابى العلاء فى لزومياته

اداجولس الاقوام بالحق أصبحوا عداة ، فكل الأصفياء على خب

وقوله :

ولعل بعض العتارف[١] يلفظ الى البائضة حبّة البُر ، ويأنس بها ، وفى فؤاده من الضغن أعاجيب

*
* *

وكيف يقول الخليل المخلص ، إن حنينه حنين والهٍ من النوق ، وهى الذاهلة إن حُمّل عليها بعض الوسوق ، وانما تسجعُ ثلاثا أو أربعا . ثم يكون سُلوّها متبعاً فأما الحمامة الهاتفة ، فقد رزقها البارئ صِيتاً شائعاً ، فظل وصفها بالأسف ذائعاً ، تنهض الى التقاط حب ، وتعودُ الى جوزٍ لها[٢] داتّ أب[٣] فان هى صادفته أكيلَ باز ، فما هي الا مثل الحيوان ، تملُّ حالها فى أقصرِ أوانٍ[٤] وقد زعم زاعم لا يصدق ، أن الحمائم فى هذا العصر يبكين مُقعَداً هلك فى عهد نوح ، وان دوامها على ذلك لدليل الوفاء[٥] ،

يلقاك بالماء النمير الفتى وفى صمير المفس مار تَـقِـد :

(١) الخبثاء (جمع عتروف أو عتريف وهو الخبيث الفاجر الجرئ)

(٢) فرخها (٣) كلأ (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى لروميات من ذلك قوله عن الظبى :

عجبت للظبى ، بانت عنه صاحبة لاقت حسود مايا لا تناخيها
فارتاع يوما ، ويوما ، ثم ثالثة ومال بعد الى احرى يواحيها
ما شد صرف رمان عقدة لاذى الا ومر ليـاليـه يراحيهـا

(٥) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى فى كتابه سقط الزند فى قوله :

أبنات الهديل أسعدن أو عـد ن قليـل العـزاء بالاسعـاد
ايه لله دركن فأنـتن اللواتى تحسن حفظ الوداد
ما لسيتن هالـكا فى الأوان الـ ـخالى أودى من قبل هلك إياد

وما العِوَضُ عن خليل الصفاء ؟ لا عوض ولا نائب إلا فيه ، وكيف يُعتَبُ الزمن على تَجافيه ، وانما حُشِي بشر وغدر . وما أقل صدقَ الأُلّاف :

وليس خليلي بالملول ، ولا الذي ـ إذا غبتُ عنه ـ باغنى بخليل

المعرى يتبرأ من العلم

وأما ما ذكره من حالى ، فطال ما أُعطِي الوثنُ سعودا [1] وأحلِفُ كيمين امرىء القيس .

« فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى »

إنى لمكذوب عليه ، كما كذبت العرب على الغَول ، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضب ، وكما تكلمتْ على لسان الضبع وهي خَرْساء . يظن أني من أهل العلم [2] وما أنا له بالصاحب ، وتلك لعمرى بلية ، والعلوم

---

(١) الوثن الصنم ، ومما نختاره من لزومياته فى هذا المعنى قوله :

وبالجد زار اللات أهل ضلالة وعظمت العزى ، واكرم باجر

وهى أسماء أصنام ثلاثة أولها لثقيف وكان بالطائف وثانيها لقريش وكنانة وثالثهما لقضاعة ومن والاهم

(٢) تبرأ ابو العلاء فى مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنة العلم ، ومن أحسن ما نختاره له فى هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهل ، وادعى فهمى قوم ، فأمرى وأمرهم عجب

والحق ، أنى وأنهم هدر لست نجيباً ، ولا هم نجب

وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورَع فليحذر الناس اقرارى واشهادى

« ورَع أى جبان »

تفتقر الى مراس [١] ، ويقال إنى من أهل الدين . ولو ظهر ما وراء السدين ما اقتنع لى الواصف بسب .

وكيف يُدَّعَى للعلج الوحشى ، ان تغريده في السحر أشعارُ موزونة وهل يُصَوَّر لعاقل أن الغراب الناعب صدح بتشبيب ، فبُعْدًا مَنْ زعم أن الحجر متكلم ، وأنه عند الضرب متألم

ولو أنى لا أشعر بما يقال فىّ ، لأرحت من إنكارى وتلافىّ وكنت كالون سواء عليه ان وُقِّر [٢] وإن أُوقِر [٣] . وكالأرض السبحة ما تحفل ان قيل « هي مريعة » أو قيل « ئئست الريعة [٤] »

---

(١) ممارسة (٢) من الوقار (٣) صدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبى العلاء في هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلا ـ اذا دا س ـ ولا الماء يتعب الجريان

وقوله :

أما الجماد ، فانى بت أغطه إذ ليس يعلم اما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنار التى احدت فيه ، ولا الأصهب الدارى اذا سحقا

وقوله :

عز الذي أعفى الجماد فما ترى حجراً يغص بمأكل أو يشرق
متعريا فى صيفه وشتائه ما ريع قط لملبس يتخرق
لا حس يؤلمه ، فيظهر مجزعا ان راح يضرب ملطس أو مطرق

الى ان يقول :

والصخر يلبث لا يقارف مرة ذنبا ، ولا هو من حياء مطرق

ولعل هذه الميزة التى ذكرها للجماد فى هذا البيت الاخير ، هى التى جعلته يقول :

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وكيف أغتبط اذا تخرص على ، وعزيت المعرفة الىّ ، ولست آمنا فى العاقبة فضيحة ، ومثلى إن جدلت بذلك ـ مثل من اتهم بمال ، فسره قولُ الجهلة إنه لحلفُ اليسار ، فطلب منه بعض السلاطين أن يحمل اليه جملة وافرة . فصادف أكذوبة زافرة [١] وضربه كى يقر . وقتل فى العقوبة !

وقد شهد الله أني أجذل بمن عانى ، لأنه صدق فيما رانى . واهتم لثناء مكذوب [٢] فغفر الله لمن ظن حسناً بالمسىء . ولو لا كراهيتى حضوراً بين الناس ، وإيثارى أن اموت ميتة علهب [٣] فى كناس [٤] . لاجتمع معي اولئك

---

(١) كبيرة (٢) مما تختاره لابى العلاء فى هذا المعنى قوله فى لزومياته :

وأرهد فى مدح الفتى عند صدقه فكيف قولى كاذبات المدائح

وقوله :

اذا كان التقارض من محال فأحسن من مدائحنا التهاجى

(٣) العلهب الطى (٤) الكناس بيت الطبى فى الشجر يستتر فيه

العزلة

وايثار أبى العلاء العزلة معروف بل هو من ألزم صفاته ، وحسبك دليلا على ذلك ، ما لقب به نفسه من أنه «رهن المحبسين» والاقاصة فى الاستشهاد بما قاله فى الترغيب فى العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنبذة قليلة من شعره فى بيان فضلها عنده ، كقوله .

بعدى عن الناس خير من لقائهم وقربهم للحجى والدين ادواء

كالبيت أفرد ، لا إيطاء يدخله ولا سناد ، ولا فى اللفظ إقواء

وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التى يحتمها عليه الاختلاط بالناس :

لقاء الناس ألجأنى برغمى الى حسن التجمل والنفاق

ونحب أن لا يفوت القارىء جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :

الجائلون ، لصح أنهم عن الرشد حائلون

منى ما يأتنى أحلى بأرضى فحي على الحنازة للغريب

وقوله معللا ميله الى العزلة وأخذه بها .

ولى مذهب ـ فى هجرى الناس ـ نافع اذا القوم حاصوا فى احتيار المذاهب
أراها على الساعات فرسان غارة وهن بنا يجرين حرى السلاهب
ومما يزيد العيش إخلاق ملبس تأسف نفس لم تطق رد ذاهب

وقوله :

احتنب الناس ، وعش واحداً لا تظلم الناس ولا تظلم

وقوله :

تميت أنى بين روض ومنهل مع الوحش، لا مصراً أحل ولا كفرا

وقوله :

يقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى ـ وان هو أكدى ـ قلة الجلساء

وقوله :

بوحدانية العلام دنا فدعى أقطع الايام وحدى

وقوله ـ يؤثر العزلة حتى بعد الموت ـ .

إذا حان يومى فلا وسد تتوضع من الأرض لم يحفر به أحد قبرا
هم الناس ـ ان حاراهم الله بالذى توحوه ـ لم يرحم جهولا، ولا حبرا
برى عنناً فى قرب حى وميت من الناس من حلى سرائرهم خبرا
فيا ليتنى لا اشهد الحشر فيهم اذا نفضوا شعثاً رءوسهم غبرا
اذا تم فيما تؤاس العين مصحفى فردنى ـ هداك الله ـ من سبعة شطرا

وقوله :

وددت وفاتى فى مهمه به لامع ليس بالمعلم
أموت به واحدا مفردا وأدفن فى الارض لم تظلم (١)

---

(١) تحفر

وأما وروده « حلب » حرسها الله ـ فلو كانت تعقل ، لفرحت به فرح الشمطاء شحطَ سليلُها الواحدُ ـ وما هو لحقها جاحد ـ وقدم بعد أعوام فنقعت به فرط أُوام ، فالحمد لله الذى أعاد البارق الى الغمام الوسمىّ .

الانتحار

وإني لأعجب من تمالئ جماعة على أمر ليس بالحسن ولا الطاعة ، قد كِدت أَلحق برهط العدم ، من غير الاسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار ، ولم أُصلح نخلتى بإبار ، وقيل لبعض الحكماء : « ان فلانا تلطّف حتى قتل نفسه ، وكره أن يمارس بدائع الشرور ، وأحبّ النقلة الى منازل السرور » فقال الحكيم قولا معناه « أخطأ ذلك الشاب المقتبل ، هلاّ صبر على صروف الزمان ، فإنه لايشعر علامَ يقدم »

ولولا حكمة الله ـ جلت قدرته ـ وأنه حجز الرجل عن الموت ، بالخوف من العلز (١) والفوت (٢) لرغب كل من احتدم غضبه ، وكلّ عن ضريبة مِقضَبه ، أن تترعَ (٣) له من الموت كؤوس (٤)

وأبعد عن قائل : « لا سلمت » وآخر قال : « ألا يا اسلم »
أحاذر ان تجعلوا مصجعى الى كافر ـ خان ـ او مسلم
اذا قال : « ضايقتنى فى المحل » قلت : « أساؤا ولم اعلم »

(١) الرعدة أو الاصطراب والقلق والخفة والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ
(٤) أبدع ابو العلاء فى صوغ هذا المعنى فى قوله :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا اليه أذى يؤمها تاركا للعيش أمواجا

أبو القطران الاسدى

وأما أبو القطران الأسدى ـ وأى البشر من الخطوب مفْـدىٌ ـ فصاحب غزل وتبطّل ، وتوفّر على الخرّد وتعطّل[١] . وهو ذلك المتهيّم إلى وحشية ، وإنما ود الغانية خلاب وخداع . وللكمد فى هواه ابتداع ، ولو هلكت تلك المرأة والمرّار[٢] يعيش ـ لعدّ أنه بتلفها نعيش ، لا سيما بعد السن العالية ، وقوة النفس الآلية[٣]

ولعل « أبا القطران » لو متّع بهذه المذكورة ما يكون قدره مائة حقبة[٤] ، على غير الجزع والرّقبة ، لجاز أن يَعْرض من الوصال ـ إذا علم أن حبله فى اتصال ، ولو نزل بها شىء تتغيّر به عن العهد ، لتمنّى أن تَقذف إلى غير المهد[٥] ، لان ابن آدم بخيل ملول ، ولو أصابها العورُ بعد أن سكن عينُها الحَوَرُ لظن أن ذلك نبأ لا يغفر ولا يكفّر :

ومن أين لذلك الشخص الأسدى ما وهبه الله للشيخ من وفاء ، وانما عاشر « ابو القطران » أعبدا في الإبل وآميا ، ولعله لو صادف غانية تزيد على « وحشية » بشق الأبلمة[٦] لسلاها غيرَ المؤلمة[٧] ، وانما ديدن

---

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل « شر الفتيان المتبطل المتعطل » (٢) هو أبو القطران الاسدى

(٣) المستطيعة أو القادرة (٤) عام (٥) الى غير الراحة ، أى لتمنى أن تصيق بها الحال (٦) الأبلمة بقلة ، وشق الأبلمة أى نصفها

(٧) من غير أن تؤلمه

ذلك الرجل ونظرائه صفة ناقة أو ربع . وما شجره المغترس بالنبع (١) اذا جنى الكمأة بجخ ، وخال أنه قد نجح : ولو حضر أخونة حضره « الشيخ » لعاد كما قال القائل .

« فلو كنت عذرى العلاقة ، لم تبت بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل »

وهو - قدّر الله له ما أحبّ - قد جالس ملوك مصر التى قال فيها فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ » وقد أقام بالعراق زمنا طويلا ، وبالعراق مملكة فارس ، وثم أهل الشرف والظرف ، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم . واختبر فى المعاشرة سجاياهم ، وعاطوه الأكؤس الملأى التصاوير . على عاد (٢) المرازبة والأساورة كما قال الحكمى (٣)

تدورُ علينا الكأسُ فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارسُ
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها مهى تدرّيها بالقسى الفوارسُ (٤)

---

(١) النبع شجر تعمل منه القسى ، وفى ذلك يقول أبو العلاء فى سقط الزند .

وقال « الوليد » : « النبع ليس بمثمر وأحطأ - سرب الوحش من ثمر النبع

يعنى بالوليد البحترى ، ويرد على قوله .

وعيرتنى خلال العدم آونة والنبع عريان مما فى عوده ثمر :

(٢) عادات

(٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى الجزء الاول (ص ٥٠)

(٤) هذان البيتان من قصيدة أبى نواس السينية الرائعة المشهورة وهى :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا . بها أثر منهم - جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأصفاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى ، فجددت عهدهم وانى - على أمثال تلك - لحابس

التقبيل

وما أشك أنه — أمتع الله الآداب ببقائه — لو رزق محاورة أبي الأسود — على عرحه وبخله — لكانت مقته له أبلغ من مقة مهدى ليلاه ، ولو كان أبو عبيدة أزفر الفم ، لما أمنت — مع كلفه[1] بالاحبار — أن يقبله شق البلسة[2] وفى الحديث عن عائشة — رحمة الله عليها — « كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقبلنى شق النينه » وروى بعضهم « شق التمرة » وذلك أن يأخذ الشفة العليا بيده والسفلى بيده الأخرى . ويقبل ما بين الشفتين

فضل الموت

وأما من فقده من الاصدقاء لما دخل حلب — حرسها الله — فتلك عادة الزمن . يبدل من الابيات المسكونه قبورا ، وان رمس الهالك لبيت الحق ، على أنه يغنى الناوى به بعد عدم ويكفيه المؤونه[3] قال الضبى :

ولم أدر منهم غير ما شهدت به ... لشرقى « ساباط » الديار المسالس
أشب بها يوما ، ويومين بعده ... ويوما — له يوم الترحل خامس
يدور علينا الكأس فى عسجديه ... حمتها — بأنواع التصاوير — فارس
فرارها كسرى ، وفى حمماتها ... مهى تدريها بالقسى الفوارس
فللحمر ماررت عليه حيوتها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) شدة حمه (٢) التينة

(٣) رأى أبى العلاء فى الموت

هذه هى أكبر ميزة للموت ، عند أبى العلاء . وهى التى حمته فيه ، وربما

ولقد علمت بأن قبرى حفرة ما بعدها خوف على ولا ندم

كان أول ما يسترعى انتباهتك فى شعره ، تشاؤمه ، ونظرته الى العالم بمطار شديد السواد ، وثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة ، التى دفعته اليها المقادير برغمه فلاقى فيها من صنوف الاذى والعذاب ، ما كان يكفى بعضه ، لتبغيضه فيها ، وتقمته عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها الا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، تبدأ ، لا بولادة الطفل ، كما زعم ابن الرومي فى قوله (١)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها ، وانها لاوسع مما كان فيه وأرغد
بل مما كان حميا فى بطن أمه

وما برح الانسان فى المؤس ـ مذ حرت به الروح ـ لامذ زال عن رأسه الغرس (٢)

ثم لا تنتهى تلك الآلام الا بموته ـ وفى هذه الخاتمة شك كبير عند أبى العلاء كما سنبينه ، فلا غرو اذا حض الدنيا ، بأوفر قسط من الدم ، وافتن فى تقبيحها حتى لقبها بأم دفر ـ أى أم نتن ـ فى أكثر محاطباته اياها ـ وقد جعله مراحه السوداوى يرى الحياة مأساة مفجعة فيها كل موضع صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور . وفى ذلك يقول أشعاراً كثيرة ، نختار منها بقوله :

أعن باكيا لج فى حزنه وسل صاحك القوم . لم انتهج ؟

وقوله :

يسمى « سرورا » جاهل منحرص بفيه الثرى ـ هل فى الزمان سرور

* * *

وقد أكثر ابو العلاء من التفكير فى مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره

(١) ارجع الى ص « ٣٩٣ » جـ « ٣ » من ديوان ابن الرومى

(٢) العرس الجلدة الرقيقة التى تخرج على رأس الولد أو الفصيل ساعة يولد ، فان تركت قتلته وهى جلدة رقيقة تخرج معه اذا خرج من بطن امه

فأزور بيت الحق زورة ماكث ... فعلام أحفل ما تقوّض وانهدم

صفحة من لزومياته ، حتى لأصح من أوليات المسائل التى يدور عليها محور فلسفته ولا نعرف له شبيها فى هذه الخلة ، سوى أبى العتاهية الذى بعده مقصراً — رغم اكثاره — عن شأو أبى العلاء تقصيرا بيدا ، والفرق بين الرجلين فى نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذى تخذ الوعظ ديدنا له .

* * *

ويمكن الالمام بآراء أبى العلاء فى الموت — رغم تناقضها — مع الاشارة الى سبب ذلك فيما يلى :

(١) فتارة كان يصل جزعه من الموت الى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتسمع من نفسه صيحة مفزعة يكاد يجلجل لها قلبه فيقول

يهال التراب على من ثوى ... فآه من النبأ الهائل

ثم يصرح من أعماق نفسه ، وقد تولاه الذهول :

أنبأنا اللبث بلقيا الردى ... فالغوث من صحة ذاك النبأ

أو يقول :

فويها وواها لسيل المنون ... كم جر غيرا بأحمالها

أو تدهمه فكرة طارئه ، تنتابه فجأة ، فيهب مذعوراً خائفاً فيقول .

يكر الحول بعد الحول عنى ... وتلك مصارع الاقوام حولى

كأنى بالألى حفروا لحارى ... وقد أخذوا المعاول وانتحوا لى

وفى البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب :

(٢) وحينا يذكر الموت فيتمناه ولكنه يخشى الا تكون فيه الراحة والطمأنينة اللتين اخطأهما فى الحياة فيتردد فى تمنيه ويقول .

إن كان نقلى عن الدنيا يكون إلى ... خير ، وأرحب ، فانقلنى على عجل

وان علمت مآلى بعد آخرتى ... شراً وأضيق ، فالبسأ رب فى الاجل

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول

وما زالت العرب تسمي القبر بيتاً . وان كان المتنقل اليه ميتاً :

فان حرحت الى نؤس فواحربى وان نقلت الى نعمى فطوبى لى

ورثما حتى ان يسلمه حسه الذى يعتز به ، ويتصاءل بالقياس اليه كل اعتبار آخر ، حتى انه حرم على نفسه الحرص ان تذهب به سورتها — كما سنبينه فى حينه — فيقول

ولو كان بقى الحس فى ثم ميت لآليت أن الموت فى الهم أعدب

***

وفى هذه الحالة ترى حسده الى الموت مقرونا بشىء من الجزع والرهبة منه : على انها نوبات خاطفة . نعرض له . فنصدقه فيما سنشهد له به من كلامه

فأما يقينه الذى لايساوره تردد . ويتعبى به فى أكثر أحاينه ، فهو النزوع الى تفضيل الموت . لانه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها . واليك نخبة محتارة من كلامه يرددك قسماعا بتمنيه الموت . مما ذكره فى رسالته هذا عن الرمس ، من انه « يعنى التناوى به بعد عدمه وتكتيبه المؤونه »

ما أعدل الموت من آت وأسرده فهيجينى . فانى غير مهتاح

العيش أفقر منا ، كل ذات عى والموت أغنى — نحو — كل محتاج

اذا حياة عليها للأذى فتحت بابا من الشر . لاقاه بارتاح

يعنى الفتى بالمنايا عن مآربه وتسمح الروح فى سهل فيستمر

كيأس المميه أولى بى . وأروح لى من أن أكابد أبراء وأحواحا

لكون حلك فى رمس أعز له من أن يكون مليكا سائد الباح

الملك يحتاج الافا تناصره والمسك ليس الى حلق بمحتاج

أصبح فى لحدى على وحدتى لست الى الدنيا بمحتاج

كشفى رأسى وافتقارى بها خير من التمليك والتاج

انى يرحل الناس ولم أرتحل معى قضاء لم يفوض الى

قال الراجز :

متى ألق من بعد المنية اسرتى احبرهم انى خلصت من الاسر
ومن العجب للفتى أن يحيء المـــوت يسعى اليه سعياً سريحاً
لم يمارس من السقام طويلا ومضى لم يكابد التبريحا
رقدة الموت صحة يستريح الجـــسم فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحيـاة فما أعـــجب الا من راغب فى ازدياد

يدعو بطول العمر أفواهها لمن يشاهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له وكل ما يكره فى مده

دعانى بالحيـاه . احو وداد رويدك انما تدعو عليا
وما كان البقاء لى لخيارا لو ان الأمر مردود الينا
آليت لايمسك جسمى فى أدى حتى يعود الى قديم العصر
على الملى سعيد المرء بعده فالمسك يزداد من طيب اذا سحقا
صال وقوق وراء حسر وانما يطـر العصور
عشنا ـ وحسر الموت قدامنا ـ فسمر الآن لكى نعبره
أشت نزعمى ، وما ضـارى براض دا ألفتـه الوكون
لعل الموت خـير للبرايا وان خافوا الردى وتهيبوه
يعود الى الأرض أجسامنا ويلحق بالعنصر الطـاهر
ويقضى بما فرضه ربك نزر اليسير على الظـاهر
لعل موتا يريح الجسم من نصب ان العناء بهذا العيش مقترن
متى غدوت بطن الارض مضطجعاً فثم افقد اوصالى وأعراضي

اليوم يُبني لدويد بيتُه يارَبَّ بيتٍ حسبٍ بنيتُه

فمالى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك
هنيئاً لطفل أزمع السير عنهم فودع من قبل التعارف ظاعنا
ومسكن الروح فى الجثمان أسقمه وبنيها عنه من سقم يعافيه
وما يحس اذا ما عاد متصلا بالترب تسفيه فى الهابى سوافيه
وحسبنا الارض قفراً لايحل بها صد تعاديه ، أو حلم تصافيه

الهابى تراب القبر

روح اذا اتصلت بجسم لم يزل ـ هو وهى ـ فى مرض العناء المكمد
ان كنت من ريح فيا ريح اسكنى أو كنت من نار ، فيا نار اخمدى
بطن البسيطة أعفى من ظواهرها فوسعا لى ، اهرب من سعاليها
أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس ـ فيما أعلم ـ الكفن
والموت يبسى كمى الحرب صارمه ودرعه وفتاة الحى محولها
كم من مصائب فى الايام فادحة ـ لولا الحمام ـ لعدت كلها هدرا

عصي وتترك البلاد عريضة والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا
وكيف أقضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمائى

وانظر الى قوله فى صباه من مرثية أبيه

وخوف الردى آوى الى الكهف اهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن

ثم الى قوله فيها :

هنيئاً لك البيت الجديد موسدا يميلك فيه بالسعادة واليمن
تحاور سكن فى ديار بعيدة من الحى ، سقيا للديار وللسكن

ومعصم ذى بُرَةٍ[١] لويتُه لو كان الدهر بلىً أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته

مادح أبى العلاء

وأما الفصل الذى ذَكرَ فيه الخليل ، فقد سقط [٢] منه اسم الذى غلا فى [٣] وقرن بالنحوم الصلافى [٤] ، ومن كان ، فغفر الله جرائمه ، وحفظ له فى الأبد كرائمه ـ فقد أخطأ على نفسه ـ فيما زعم ـ وعلىّ ، ونسَبَ ما لا أستوجبُ إلىّ ، وكم اعتذر وأتنصل من ذنب ليس يتحصل !

وإنى لأكره ـ بشهادة الله ـ تلك الدعوى المبطلة ، كراهة المسيح من جعله رب العزة . ثم ترك للفتن من مرَكَّة[٥] ، بدليل قوله تعالى : « وإذ قال الله . « يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون

وانظر الى قوله وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه فى الموت :

« يامرحبا بالموت من متمطر ان كان ثم تعارف وتلاق »

ونحن هذا المختار تلك المشاجرة الجميلة التى حدثت بينه وبين الدنيا ، وأحسن تمثيلها فى الميمين الماليين :

أف لدنياى . فانى بها لم أحل من اثم ومن حوب
قلت لها « امضى غير مصحوبة » فقالت « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة الخلخال

(٢) ذكر ابن القارح فى رسالته المشورة بالجزء الثالث ان شيخا مدح أبا العلاء ولكنه سها عن ذكر اسمه فى رسالته

(٣) غلا فى مدحى (٤) المتمدح بما ليس عنده

(٥) حركة سبب

الله : »قال « سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب [١] ،،

رسالة أبي الفرج الزهرجى [٢]

وأما ابو الفرج الزهرجى ، فمعرفته بالشيخ تُقْسِم أنه للأدب حليف وللطبع الخير أليف . وَددْت أن الرساله وصلت إلىّ ، ولكن ما عدل

---

(١) أشار ابو العلاء الى ذلك فى موضعين من لزومياته ، أولهما قوله :

وقد شهد النصارى أن عيسى توحمه اليهود ليصلبوه
وما أبهوا . وقد جعلوه ربا لئلا يعصوه ويجحدوه

والثانى قوله :

نحماً للمسيح بين أناس والى الله والد نسبوه
أشاعته ، الى اليهود النصارى واقروا بأنهم صلبوه
سبق الحازم اللبيب على الطفل — اذا ما لداته صربوه
واذا كان ما يقولون فى عيسى صحيحا ، فأين كان أبوه ؟
كيف خلى ولبده للأعادى ، أم يظنون أنهم غلبوه ؟

(٢) أبو الفرج الزهرجى هو كاتب نصر الدوله . وقد كتب رسالة الى ابى العلاء وسأل ابن الفارح ايصالها اليه فوضعها فى رحل له ، سرقه جاره المسافر معه ، فكتب ابن الفارح رسالته المنسورة بالجزء الثالث يعتذر الى ابى العلاء من ضياع الرسالة ، ويشكو اليه أموره وما لقى فى سفره ، وتطرق من ذلك الى مناسبات أخرى ، فرد عليه المعرى رسالة الغفران — جزى الله السارق عنا خيرا !

دلك العديل [١] : هلا اقتنع بنفقة أو ثوب وترك الصحف عن نَوْب [٢]
فأرب من يديه ، ولا اهتدى فى الليلة نفرقديه [٣]

لو أنه احد لصوص العرب الذين رويت عنهم الأمثال السائرة ، وتحدثت بهم المنحدة والغائرة ، لما اغتفرت ما صنع بما نظم ، لأنه أفرط وأعظم [٤] وقد وُفِّق « ابو الفرج » وولده ، لما درس عليه الكتب وحفظ عنه

امثال العرب

وأما حلب ـ حماها الله ـ فانها الأم البرة ، تعقد بها المسرة ، وما أحسبها ـ إن شاء الله ـ تظاهر بديع العقوق ، ولا تغفل المفترض من الحقوق ، و« وحشية [٥] » يحتمل أن يكون الشيخ جعلها نائبة عمن فقده من الاخوان الذين عدم نظيرهم فى الاوان ، وكذلك تجرى أمثال العرب ، يكنون فيها بالاسم عن جميع الاسماء ، مثال ذلك أن يقول القائل

فلا تسلل يد فتكت بعمرو فانك ان تدل وان تضاما

يجوز أن يرى الرجل رجلا قد فتك بمن اسمه « حسان » أو غير ذلك فيتمثل بهذا البيت ، فيكون « عمرو » فيه واقعا على جميع من يتمثل له به

---

(١) هو الذي جاور ابن القارح فى المحمل وسرق منه الرحل الذى كانت فيه الرسالة

(٢) يعنى : هلا ترك الصحف بديلا مما سرقه من المتاع

(٣) يدعو على اللص بأن تسقط آراؤه من يديه وأن يضل فلا يهتدى بعود المرقدين « وهما النجمان المعروفان » (٤) أتى عظيمة

(٥) هى التى تمثل بها ابن القارح فى الأبيات التى ذكرها فى رسالته وأولها :

اذا تركت « وحشية » النجد ، لم يكن لعينيك ـ مما تبكيان ـ ظنين

وكذلك قول الراجز : « أوردها سعد وسعد مشتمل [١] »

صار ذلك مثلا لكل من عمل عملا لم يحكمه ، فيجوز أن يقال لمن اسمه « خالد » او « بكر » اوما شاء الله من الاسماء ،ويضعون فى هذا الباب المؤنث موضع المذكر ، والمذكر موضع المؤنث ، فيقولون للرجل ، « الصيف ضيعت اللبن » واذا ارادوا ان يخبروا بأن المرأة كانت تفعل الخير ثم هلكت فانقطع ما كانت تفعله ، جاز ان يقولوا : « ذهب الخير مع عمرو بن حُممَة » وهذا كثير .

شكاة الأدباء

وأما شكواه الى ، فانى واياه لكما قيل فى المثل « الثكلى تعين الثكلى .. وعلى ذلك حمل الاصمعى قول أبى دؤاد .

ويُصيخُ أحيانا كما اسـ تمع المضل دعاء ناشد [٢]

كلانا بحمد الله مضل ، فعلى من نحمل ؟ وعلى من ندل ؟

أما المطية فآلية وأما المزادة فخالية

يشكو الى جملى طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

ولا أرتاب فى أنه يحفظ قول الفزارى [٣] :

---

(١) عجز البيت هو : « ما هكذا تورد ياسعد الابل ! »

(٢) الناشد الطالب ، وهو هنا الضال الذى ينشد السبيل

(٣) مالك بن اسماء الفزارى

كان آباؤه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان باخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك

أعيين هلا - إذ كلفت بها - كنت استعنت بفارغ العقل
أقبلت تبغى الغوث من رجل والمستغاث اليه فى شغل ؟

ولم يزل أهل الادب يشكون الغير فى كل جيل ، وهو يعرف الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك أوصى لأهل الادب بجزء من ماله ، وقال " إنهم أهل صناعة محفوة " . واحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين وانما ينجح بعضهم ، ثم لايلبث أن تزل قدمه ، واذا كان الادب على عهد بنى أمية يقصد أهله بالجفوة ، فكيف يسلمون من باس ، عند مملكة بني العباس! واذا أصابتهم المحن فى أيام الرشيد . فكيف يطمع لهم بالحظ ؟ ومن بغى التكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه فى شن [1] غير ثقة على الوديعة

* * *

وأما الذين ذكرهم من المصحفين ، فغير البررة ولا المنصفين ، وما زال التتفل [2] يعرض لأذاة الأسد ، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد .

ما يضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر

هذين البيتين . ومن مختار شعره قوله من قصيدة مشهورة .

وحديث ألذه ، هو مما يشتهى السامعون ، يورن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحيانا ، وأحلى الحديث ما كان لحنا
. . . . . .
حبذا يوما « بتل بؤد » اذ نسقى شرابنا ونغنى
أينما دارت الزجاجة دارت يحسب الجاهلون أنا حمنا
ومررنا بنسوة عاطرات وسماع وقرقف ، فنزلنا

(١) الشن القربة الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

* * *

أو كلما طن الذباب أروعه ان الذباب إذن على كريم

وان حساد البارع لكما قال الفرزدق :

فان تهج آل الزبرقان ، فانما هجوت الطوال الشم من آل يذبل

وقد نبح الكلب النجوم ، ودونها فراسخ تقصى ناظر المتأمل

أبو الطيب المتنبي [1]

فأما ما ذكره من قول أبي الطيب . « أذم الى هذا الزمان أهيله » فقد كان الرجل مولعا بالتصغير ، لا يقنع منه بخلسة المغير [2]، كقوله :

من لى بفهم أهيل عصر يدعى أن يحسب الهندى فيهم باقل

وقوله : « مقالى للأحيمق : يا حليم »

وقوله : « نام الخويدم عن ليلنا »

وقوله : « أفى كل يوم تحت ضبني شويعر »

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه . إنما هى عادة صارت كالطبع ، تغتفر مع المحاسن ، وهذا البيت الذى أوله : « أذم الى هذا الزمان أهيله » إنما قاله فى على بن محمد بن سيار بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة ، والشعراء مطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهدت عليهم

---

(١) ارجع الى (حـ ١ ص ٥٣) (٢) ارجع الى الفصل الممتع الذى كتبه الأستاذ العقاد عماسبة هذه الجملة بعنوان « ولع المننى بالتصغير » فى كتابه الرائع « مطالعات فى الكتب والحياة » من (ص ١٢٤ — ١٣٠)

بالتخرص وقول الأباطيل « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

رواية القطربلي وابن أبي الازهر

وأما ما ذكره من حكاية القطربلى وابن أبى الازهر ، فقد يجوز مثله وما وضح أن ذلك الرجل حبس بالعراق ، فأما بالشام ، فحبسه مشهور ، وحدثت أنه كان ـ اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ـ قال: «هو من النبوة» أى المرتفع من الارض ، وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق ، وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألها . فمن ذلك قوله :

« ولا قابلا الا لخالقه حكما » وقوله

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوم فيه الذى زعموا

* * *

واذا رجع الى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق [١] ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدينا ، وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض[٢] ، ولعله قد ذهب

---

(١) وفى ذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أمسى النفاق دروعاً يستجن بها من الاذى ، ويقوى سردها الحلف

(٢) شنع أبو العلاء فى كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التى تتخذ الدين دائماً وسيلة لنيل أغراض الدنيا ونجتزئ من ذلك بقوله :

اذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلهم يتوخى التبر والورقا

جماعة هم فى الظاهر متعبدون ، وفيما بطن ملحدون

دعبل بن على [١]

وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وانما غرضه التكسب . ولا أرتاب فى أن «دعبلا» كان على رأى الحكمى [٢] وطبقته . والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشية

أبو نواس

وقد اختلف فى أبى نواس . ادعى له التأله ، وانه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله . والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه .

مذاهب حملوها من معائشهم ، من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

وقوله :

وانما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد ، لاحب التلاوات

وقوله :

كذب لايزال يطعم خبرا نص عن آدم وعن قابيل
يعتريه حذلان مهتبل الغـــرة يبدى حزنا على هابيل

وقوله :

وليس حبر ببدع فى صحابته ان رام نفعاً بأقوال تقولها
وانما رام نسوانا تزوجها — بما افتراه — واموالا تمولها

(١) هو «دعبل» الشاعر المشهور بالهجاء وهو الذى يقول فيه أبو العلاء فى لزومياته:

لو نطق الدهر هجا أهله كأنه « الرومى» أو «دعبل»

(٢) أبى نواس وقد مرت ترجمته فى (ج ١ ص «٥٠»)

سذاجة العرب

وذلك أن العرب جاءها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهى ترغب الى القصيد ، وتقصر همها عن الفصيد . فاتبعه منها متبعون ، والله أعلم بما يوعون . فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسق ملكه . مازج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق ، فقالت منهم طائفة كثيرة .

رسالة آدم

ولم يزل الالحاد فى بني آدم على ممر الدهور ، حتى أن أصحاب السير يزعمون أن آدم - صلى الله عليه وسلم - بعث الى أولاده ، فاندرهم بالآخرة وحوفهم من العذاب . فكذبوه وردوا عليه قوله ، ثم على ذلك المنهاج الى اليوم

زندقة قريش

وبعض العلماء يقول «ان سادات قريش كانوا زنادقة » وما أجدرهم بذلك - وقال شاعرهم يرثى قتلى بدر - وتروى لشداد بن الاسود الليثى - :

ألمت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوى طوىّ بدر من الاحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لاتكرى على الكأس - بعد أخى هشام

وبعد أخى أبيه ـ وكان قرما [١] من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عني بأنى تارك شهر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا «ابن كبشة [٢]» أن سنحيا ، وكيف حياة أصداء [٣] وهام
أتترك أن ترد الموت عني وتحيينى اذا بليت عظامى

ولا يدعى مثل هذه الدعاوى الا من يستبسل وراءها للحمام ، ولا يأسف له عند إلمام .

عودة الى أبى الطيب المتنبى

وحدثت أن أبا الطيب ، لما حصل فى بني عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له ـ وقد تبينوا دعواه ـ : «هاهنا ناقة صعبة ، فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل » وانه مضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة [٤] وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم

---

(١) سيداً عظيما (٢) يعنى به النبى (ص .)
و« أبو كبشة » هو اسم جاهلى كان يعبد الشعرى اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الاصنام ، فاستعادت الجاهلية هذا اللقب للنبى (ص .) لمخالفته اياهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته اياهم الى الاسلام .
(٣) موتى ، أو اجساد ميتة
(٤) التى تلين بعد استصعاب

وحدثت أيضاً أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام ، فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه ، وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح : « لا تحلها فى يومك » وعد له أياماً وليالى ، وان ذلك الكاتب قبل منه ، فبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : « هو كمحيى الأموات »

وحدث رجل كان ابو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ـ أو فى غيرها من السواحل ـ : أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « انك ستجد ذلك الكلب قد مات » فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئا من المطاعم مسموماً ، وألقاه له ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل

اختلاف الخواطر

وأما القطربلي وابن أبي الأزهر فمن الزول [1] اجتماعهما علي تأليف كتاب ، وقل ما يعرف مثل ذلك .

ونحو منه قصة « الخالديين » اللذين كانا في الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند سيف الدولة ، وانصرفا على حد مغاضبة ، ولهما ديوان

(١) العجب

ينسب اليهما، لاينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا فى أشياء قليلة ، وهذا متعذر فى ولد آدم ، إذ كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة ، فأما أن يعمل الرجل شيئا من كتاب ثم يتمه الآخر ، فهو أسوغ فى المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان

* * *

والدين رووا ديوان أبي الطيب . يحكمون أنه ولد سنة ثلاثمائة وثلاث . وكان طلوعه الى الشام سنة احدى وعشرين ، فأقام فيه برهة ثم عاد الى العراق ، ولم تطل مدته هناك . والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه فى صباه انما هي فى أهل الشام . الا قوله

« كُفّى ، أرانى ـ ويك ـ لومك أنوما [1] »

الدهر [2]

وأما شكيته أهل الزمان اليه ، فانه سلك فى ذلك منهاج المتقدمين

---

(١) تتمة البيت هى قوله : « هم أقام على فؤاد على فؤاد فأنحما »
ومن أجمل مافى هذه القصيدة قوله :

وحموق قلب ـ لو رأيت لهيبه ... يا حبتى : لظننت فيه جهنما
واذا سحابة صد حب أبرقت ... تركت حلاوة كل حب علقما
يا وجه داهية الذى لولاك ما ... أكل الضنى جسمى ورض الاعظما
ان كان أغناها السلو ، فانني ... أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٢) الدهر

أشعار أبى العلاء فى الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلنجتزئ

وقد كثر المقال فى ذم الدهر حتى جاء الحديث : « لا تسبوا الدهر ، فان الله

بالقليل منها عن الكثير ، لاظهار مناحي رأيه المتعددة فى الدهر ، وانما نسردها بلا تعليق رغبة فى الايجاز ، وهى قوله :

ان رابنا الدهر بأفعاله ... وكلما بالدهر مرتاب

وقوله :

اذا قيل «غال الدهر شيئاً» فانما ... يراد «اله الدهر» والدهر حادم

وقوله :

ولا عقل للدهر — فيما ارى — ... فكيف يعاتب ان اذنبا

وقوله :

فلو تكلم دهر كان شاكيهم ... كما تراهم على الاحسان يتكونه

وقوله :

صحبنا دهرنا دهراً ، وقدما ... رأى الفصلاء ألا يصحبوه

وغيط بعوه منه، وغيظ منهم ... فعذب شاكيه وعذبوه

ومن عاداته فى كل حيل ... غداه ان يقل مهدبوه

أساء بجهله أدبا عليهم ... فهل من حيلة فيؤدبوه

وما يخشى الوعيد فيوعدوه ... ولا يرعى العتاب فيعتبوه

وقوله :

ان حرف الدهر فهو شيخ ... يحق بالهتر والزمانه

أصحى سليما بغير داء ... لم تبد فى شخصه ضمانه

أعجم قد بين الرزايا ... أو جعل الشر ترجمانه

وقوله :

ويا دهر لحاك الله ... ما هنأت ورحاك

وقوله :

حلف الدهر جاهدا ... وهو بر — اذا حلف

ليبتن كل عقد ... اذا نظمه ائتلف

هو الدهر » وقد عرف معنى هذا الكلام ، وأن باطنه ليس كظاهره اذ كان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يذهب أحد منهم الى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود ، وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وما يهلكنا الا الدهر »

* * *

وقول بعض الناس « الزمان حركة الفلك » لفظ لا حقيقة له ، وفى كتاب «سيبويه» مايدل على أن الزمان عنده مضى الليل والنهار ، وقد حددته حدا ـ ما أجدره أن يكون قد سبق اليه ـ الا انى لم اسمعه ـ وهو أن يقال « الزمان شئ اقل جزء منه استمل على جميع المدركات » وهو فى ذلك ضد المكان ، لأن اقل جزء منه لا يمكن ان يستمل على شئ كما تشتمل عليه الظروف ، فاما الكون فلا بد من تسبثه بما قل وكثر [1] »

---

(١) الزمان

هذا التعريف ـ هو فى اعتقادنا أدق تعريف فلسفى صحيح عرفناه للزمن ، وقد ذكره ابو العلاء فى لزومياته فقال : « وأيسر كون تحته كل عالم »

واسترسل فى فكرته فى الشطر الثانى من هذا البيت فبين سرعة الزمان ،فقال « ولا تدرك الاكوان حد صلادم » ثم قسم الازمان فى البيتين التاليين من هذه القصيدة الى ماض اندثر فاستحالت عودته ، ومستقبل آت سيندثر بعد حين ، فقال :

اذا هى مرت لم تعد ، ووراءها نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها ـ بعدما غاب ـ غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأى فى «سقط الزند» فقال :

أما الذى مضى ـ على قربه ـ يعجز اهل الارض عن رده

والذين قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » وغير ذلك من المقال ، مثل البيت المنسوب إلى الأخطل ـ (وذكره حبيب بن أوس لشمعلة التغلبي) وهو

فإن أمير المؤمنين وفعله كالدهر ـ لا عار بما فعل الدهر

وقول الآخر .

الدهر لاءم بين ألفتنا وكذاك فرق بيننا الدهر

وقول ابى صخر :

وذكر الشطر الثانى منه فى بيته الآخر وهو قوله .

أرى الوقت يفنى أنفسا نفائه ويمحو ، فما يبقى الحديث ولا الرسم

وهذا الرأى ، لا يناقض قوله فى الدليل على قدم الزمن

أرى رمما تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذى الكمال

* * *

وبين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف الا بعد مرور الزمن الذى يكشف الغطاء عن اسراره فقال :

الساعة آتية الحوادث ، ما حوت لم يبد الا بعد كشف غطائها

وقد ذكر هذا المعنى « بوب » الشاعر الانجليزى ، بصيغة اخرى ، وترجمه الاستاذ العقاد ، وهو :

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر ـ حينا بعد حين

* * *

وكثيرا ما شبه ابو العلاء الزمان بالطائر فمن ذلك قوله :

وما الوقت الا طائرا يقطع المدى فبادره ـ اذ كل الهي فى بداره

وقوله :

يبغى التشبث بالأوقات جائزها هيهات! ما الوقت الا طائر طاره

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

لم يدع ان أحدا منهم كان يقرب للافلاك القرابين ، ولا يزعم أنها تعقل ، وانما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان

شاتم الدهر

وكان في عبد القيس شاعر يقال له « شاتم الدهر » وهو القائل :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله وأبدى لنا وجها أزَب مجدَّعا

وجبهة قرد ـ كالشراك ـ ضئيلة وأنفا ، ولوى بالعثانين أخدعا

ذكرت الكرام الذاهبين أولى الندى وقلت لعمرو والحسام : «ألا دعا»

الزندقة والزنادقة

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين ، فأجره الله عليه ، كما أجره على الظمأ في طريق مكة ، واصطلاء الشمس بعرفة ، ومبيته بالمزدلفة

ولاريب أنه ابتهل الى الله ـ سبحانه ـ في الايام المعدودات والمعلومات ، ان يثبت هضاب الاسلام .

ولكن الزندقة داء قديم . وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل اذا ظهرت زندقته ، ثم تاب فزعا من القتل ، لم تقبل توبته ، وليس كذلك غيرهم من الكفار ، لان المرتد اذا رجع ، قبل منه الرجوع ، ولا ملة الا ولها قوم ملحدون !

وقد كان ملوك الفرس تقتل على الزندقة ، والزنادقة هم الذين يسمون «الدهرية» ولا يقولون بنبوة ولا كتاب

بشار بن برد [١]

و«بشار» انما أخذ ذلك عن غيره ، وقد روى أنه وجد في كتبه رقعة مكتوب فيها : ,, انى أردت ان أهجو « فلان بن فلان الهاشمي » فصفحت عنه لقرابته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . ،،

وزعموا أنه كان لبشار « سيبويه » وأنه حضر يوما حلقة يونس ابن حبيب ، فقال ,, هل هنا من يرفع خبراً ،، فقالوا . « لا » فأنشدهم:

« بنى أمية هبوا من رقادكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ليس الخليفة بالموجود ، فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود »

وكان فى الحلقة سيبويه [٢] فيدعى بعض الناس انه وشى به . وسيبويه ـ فيما أحسب ـ كان أجل موضعا من ان يدخل فى هذه الدنيئات ، بل يعمد لأمور سنيات

* * *

وحكى عنه أنه عاب عليه قوله :

« على « الغزلا » مني السلام ، فطالما لهوت بها فى ظل محضرة زهر »

فقال « سيبويه » : ,, لم تستعمل العرب « الغزلا ! » ،، ـ

فقال بشار : ,, هذا منل قولهم « البتكى » و « الجمزا » ونحو ذلك ،، وجاء « بشار » فى شعره بالنينان [٣] ، فيقال إنه أنكره عليه . وهذه

---

(١) ارجع الى (حـ ١ ص «١٧٧») (٢) ارجع الى ترجمته فى (حـ (١) ص «٦١») (٣) جمع نون من السمك ، وهو «الحوت»

أخبار لا تثبت ، وفيما روى فى كتاب « سيبويه » أن « النون » تجمع على « نينان[1] » فهذا نقض للخبر .

* * *

وذكر من نقل أخبار « بشار » أنه توعد « سيبويه » بالهجاء ، وأنه تلاقاه واستنشد بشعره . ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم ، وأصحاب (بشار) يروون له هذا البيت

« وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب »

وفى كتاب (سيبويه) نصف هذا البيت الآخر ، وهو فى باب الادغام لم يسم قائله ، وزعم غيره أنه لأبى الأسود الدؤلى :

* * *

ويقال إن « يعقوب بن داود » وزير المهدى ، تحامل على بشار حتى قتل ، واختلف فى سنه ، فقيل كان ابن ثمانين سنة وقيل أكثر . والله العالم بحقيقة الامر ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار . وانما ذكرت ما ذكرت فيما تقدم[2] لأنى عقدته بمشيئة الله . وان الله لحليم وهاب

* * *

وذكر صاحب كتاب « الورقة » جماعة من الشعراء فى طبقة أبى نواس ومن قبله ، ووصفهم بلزندقة . وسرائر الناس مغيبة ، وإنما يعلم بها علام الغيوب . وكانت تلك الحال تكتم فى ذلك الزمان خوفا من السيف ، فالآن

---

(١) وتجمع ايضاً على « أنوان »

(٢) ارجع الى (حـ ١ ص « ١٧٧ ـ ١٧٩ »)

ظهر نجيث [١] القوم وانقاضت التريكة [٢] عن أخبث رأل [٣]

نادرة من نوادر الزنادقة

وكان فى ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصديق زنديق ، فدعا المتشيعة فى بعض الأيام ، فجاء الزنديق ، فقرع حلقة الباب ، وقال : « أصبحت جَمّ بلابل [٤] الصدر منقسم الأشجان والفكر »

فقال صاحب البيت (ويحك ! مِمّ ذا ؟) فتركه الزنديق ومضى .

فلقيه صاحب المأدبة فقال له « ياهذا ! أردت أن توقعنى فيما أكره » خوفا من أن يَظن أصدقاؤه أنه زنديق ، فقال : « أدعهم ثانية ، وأعلمنى بمكانهم » فلما حصلوا عنده ، جاء الزنديق فقال :

« أصبحت جم بلابل [٤] الصدر متقسم الأشجان والفكر »

فقالوا : « ويحك مِمّ ذا ؟ » فقال « مما جناه على « أبى الحسن » [٥] « عمرُ » وصاحبه « أبو بكر ! » ،،ففرح الشيعة بذلك ، ولقيه صاحب المنزل فقال « جزيت خيرا »

نادرة أخرى

وكان يجلس في مجلس البصرة جماعة من أهل العلم ، وكان فيهم رجل زنديق ، له سيفان قد سمى أحدهما « الخير » والآخر « الفلح [٦] »

---

(١) أى بدا سرهم الذى كانوا يخفونه

(٢) بيضة النعام خرج منها الفرخ (٣) ولد النعام (٤) وساوس

(٥) يعنى على بن أبى طالب (٦) الفوز بما يغتبط به

فاذا سلم عليه رجل من المسلمين ، قال : « صبحك الخير، ومساك الفلاح »، ثم يلتفت لأصحابه الذين قدعرفوا مكان السيفين، فيقول :

« سيفان كالبرق إذا البرق لمح »

عودة الى ابى نواس [1]

أما قول الحكمي [2] «وتيه مغن وظرف زنديق»، فقد عيب عليه هذا المعنى ، وقيل أنه أراد رجلا من بني الحارث كان معروفا بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس ، فقد شهر بالزندقة ـ ولم يقتل حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك ـ ويروى لأبيه عبد القدوس

كم أهلكت مكة من زائر خرّبها الله وأبياتها
لارزق الرحمن أحياءها وأشوت الرحمة أمواتها

ولقد كان لصالح ابن ، حبس على الزندقة حبساً طويلا ، وهو الذى يروى له .

خرجنا من الدنيا ـ ونحن من اهلها ـ فمانحن بالأموات فيها ولا الأحيا
اذا ما اتانا زائر متفقد فرحنا، وقلنا: «جاء هذا من الدنيا»

واما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل ، فانما ذلك على سبيل الختل،

---

(١) (ارجع الى ج ١ ص «٥٠») (٢) هو أبو نواس

فصلى الله على سيدنا محمد ، فقد روى عنه أنه قال . « بعثت بالسيف، والخير مع السيف ، والخير فى السيف ، والخير بالسيف » وفي حديث آخر :

«لا تزال أمتى بخير ما حملت السيف» — والسيف حمل صالحا [١] على التصديق ورده عن رأى الزنديق [٢]

الصناديقى

وأما المنسوب الى الصناديق ، فانما يحسب من الزناديق ، وأحسبه الذى كان يعرف بالمنصور ظهر سنة سبعين ومائتين ، وأقام برهة باليمن، وفى زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول :

حدى الدف ياهذه والعبى ... ونى فضائل هذا النبى
تولى نبي بنى هاشم ... وقام نبى بنى يعرب
فما تبتغى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى «يثرب»

---

(١) هو صالح بن عبدالقدوس الذى مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته بطرق شتى ، من ذلك قوله :

اذا ما ألحدت أمم بجهل ... فقابلها بتوحيد السيوف

وقوله :

تمادوا فى الضلال ولم يتوبوا ... ولو سمعوا صليل السيوف تابوا

وقوله :

أبدى « العتاهى » اسكا ... وتاب من ذكر عتبه
والحوف ألرم « سفيا ... ن » أن يغرق كتبه

وأمعن فى التهكم والسخرية فى قوله :

تلوا باطلا ، وجلوا صارما ... وقالوا : «صدقنا؟» فقلنا: «نعم!».

اذا القوم صلوا ، فلا تنهضى وان صوموا ، فكلي واشربى

* * *

ولا تحرمى نفسك المؤمنين من أقربين ومن أجنبي (١)

---

(١) المزدكية

هذا الرأى هو رأى جماعة «المزدكية» وهم اتباع «المذهب المزدكى» المنسوب الى «مزدك» وهو رجل ادعى النبوة على عهد حسرو قباذ، والد أنوشروان ، ورعم أن الله بعثه ليأمر «بشيوع النساء والاموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، لانهم كلهم اخوة اولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات من بينهم ، لانها انما تحدث بسبب النساء والمال ، فانقاد قباذ الى مذهبه وأباح له أن يخلو بالملكة روحه ، فترامى اليه أنو شروان على قدمى قباذ ، باكياً متوسلا اليه ، ليعدل عن ذلك وما زال به حتى رجع عن فكرته . فلما ولى الملك بدأ بقتله ، انتقاماً منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته اليه ، وقال له : « لن أنسى نتن قدميك ـ حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته

(وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى نبذة مفيدة فى بيان هذا المذهب فليرجع اليها من شاء)

والمنصور الصنادقى هذا هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا اليه وسيمر ذكره فى رسالة ابن القارح ، وترى كيف كان يجمع فى دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلا ، ويأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ولا ولد من ولد »

* * *

أما رأى أبى العلاء فى المزدكية ، فيدلك على سخطه الشديد عليها قوله :

أقروا بالاله وأثبتوه وقالوا . « لا نبى ولا كتاب »
« ووطء بناتنا حل مباح » رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا فى الضلال ـ ولم يتوبوا ـ ولو سمعوا صليل السيف تابوا

فكيف حللت لذاك الغريـــــب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربّه ورواه فى عامه المحدب؟
وما الخمر إلا كماء السحـــــاب طلق. فقدست من مذهب!

فعلى معتقد هذه المقـاله بهلة المبتهاين : وهذه الطبقة ـ لعنها الله ـ تستعبد الطغام بأصناف مختلفة :

دعوى الربوبية

وقد كان باليمن رجل يحتجب فى حصن له ، ويكون الواسطة بينه وبين الناس خادما له أسود ، قد أسماه «جبريل» فقتله الخادم فى بعض الايام وانصرف ، فقال بعض المجان:

تبارك الله فى علاه فر من الفسق جبرئيل
وضل من تزعمون ربا وهو على عرشه قنيل

ويقال إنه حمله على ذلك ما كان يكلفه من الفسق

واذا طمع بعض هؤلاء ، فانه لا يقنع بالامامة ، ولا النبوة . ولكنه يرتفع صعدا فى الكذب

* * *

ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه الامور العظائم . بل كانت عقولهم تجنح إلى رأى الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ـ اذ كان

وقوله :

شر النساء مشاعات ـ يكنّ لنا كالأرض ـ يحملن أبناء مشاعينا

اكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينطرون الى ذلك بعين الغبي

ربيعة بن أمية بن خلف الجحمي

وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجحمى جرى له مع ابي بكر الصديق ـ رحمه الله ـ خطب ، فالحق بالروم ، ويروى أنه قال

لحقت بأرض الروم ـ غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة ... فما حرم الله من السلاف[1] من الخمر
اذا أمرت[2] « تيم بن مرة » فيكم ... فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى ... فإنى قد خليته لأبى بكر

* * *

واقتن الناس فى الضلالة حتى استحازوا دعوى الربوبية ، فكان ذلك تنطسا فى الكفر ، وجمعاً المعصية ، وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه

سمير بن أدكن

ولما أجلى عمر بن الخطاب ـ رحمة الله عليه ـ أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلا من يهود بنى خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك .

---

(١) ما تحلب وسال قبل العصر وهو أفضل الخمر
(٢) صارت أميرة

يصول أبو حفص علينا بدرة[1] رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان « موسى » صادفا ما ظهرتم علينا ، ولكن دوله لم تذهب
ونحن سبقناكم الى المين ، فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

* * *

وما زال اليمن ـ منذ كان ـ معدنا المتكسبين بالتدين . والمحتالين على السحت . وحدثنى من سافر الى تلك الناحية . أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال ، يصل بها الى خسيس الآمال

القرامطة

وحكى لى أن للقرامطه بالأحساء بيتا يزعمون أن إمامهم يخرج منه ، ويقيمون على باب ذلك البيت فرسا بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : « هـذا الفرس لركاب المهدى ، يركبه متى ظهر[2] » ، وانما

---

(١) سوط يضرب به

(٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

يرقب الناس أن يقوم أمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعته حلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء
انما هـذه المذاهب أسبا ب لجدب الدنيا الى الرؤساء
كالذى قام يجمع « الزنج » بالبصـ ـرة « والقرمطى » بالاحساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلا على الجلساء

غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصل الى المملكة وتضليل

ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم ، لما حضرته المنية ، جمع أصحابه ، وجعل يقول لهم ـ لما أحس بالموت ـ : « اني قد عزمت على النقلة ، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدا ، ولا بد لى أن أبعث غير هؤلاء ، فعليه اللعنة ، لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التى يجب أن يؤمن فيها الكافر ، ويؤوب الى آخرته المسافر :

الوليد بن يزيد

وأما الوليد بن يزيد ، فكان عقله عقل وليد ، وقد بلغ سن الكهل ، وقد رويت له أشعار ، يلحق به منها العار ، كقوله .

أدنيا منى خليلى «عبدلا» ، دون الازار
فلقد أيقنت أنى غير مبعوث لنار
واتركا من يطلب الجنـ ـة بسعى في خسار
سأروض الناس ، حتى يركبوا دين الحمار

فالعجب لزمان صيّر مثله إماما ، ولعل عيره ـ ممن ملك ـ يعتقد مثله أو قريباً ، ولكن يُساير ويخاف تبريما ، ومما يروى له :

أنا الامام الوليد مفتخراً أجر بردى ، وأسمع الغزلا
ما العيش الا سماع محسنة وقهوة تترك الفتى ثملا
أسحب ذيلى الى منازلها ولا أبالى من لام أو عدلا
لا أرتجى الحور فى الخلود ، وهل يأمل حور الجنان من عقلا؟

اذا حبتك الوصال غانيـة فجازها بذلها، كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به ـ دخل القصر وأغلق بابه وقال :

دعوا لى هندا والرباب وفرتنى ومسمعة، حسبى بذلك مالا

حدوا ملككم، لاثنت الله ملككم فليس يساوى بعد ذلك عقالا

وحلوا سبيلى قبل عيروماجرى ولاتحسدونى أن أموت هزالا

فأب عن تلك المنزلة أى الب ، ورؤى رأسه فى فم كلب ، كان حق الخلافة أن تفضى الى من هـو بنسك معروف ، لا تصرفه عن الرشد صروف ، ولـكن البلية خاقت مع الشمس. فهل يخاص من سكن فى رمس؟

أبو عيسى بن الرشيد

وأما « أبو عيسى بن الرشيد » فان صح ماروى عنه فقد باين بذلك اسلافه ، وما يحفل ربه بالعبيد ، صائمين للحيفة ولا مفطرين [1] وربما كان الجاهل ـ أو المتجاهل ـ ينطق بالـكلمة ، وخالقه بغيرها أعلم

وأنما أقول ذلك، راجيا ان أبا عيسى ونظراءه ، لم يتبعوا في الغي امراءه ، وأنهم على سوى ما علن يبيتون .

وكان « أبو عيسى » المذكور يستحسن شعره فى البيتين والثلاثة ، وأنشد له الصولى فى نوادره .

---

(١) ذكر ابو العلاء هذا المعنى فى لزومياته أكثر من مرة ومن ذلك قوله :

تورعوا يا بنى حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغكم خطر

لم تجدوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم لحسن التوبة ـ المطر

لساني كتوم لأسراره ودمعي نموم بسرى مذيع
ولولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

فإن كان فرمن صيام شهر . فلعله يقع فى تعذيب الدهر :

الجنّابى (١)

وأما الجنابى . فلو عوقب بلد بمن يسكنه . لجاز أن تؤحد به «جنابة» ولا يقبل لها نيابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى « أن لا تزر وازرة وزر أخرى »

فعليه اللعنة

---

(١) الجنّابى

٢٨٦ — ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، بلده «جنّابة» من أعمال فارس متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر . وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج «القرامطة» على الخلفاء والملوك وحروبهم معهم فلا حاجة الى الافاضة فى ذلك . وحسبنا أن نلم بتاريخه موجزين .

ظهر فى سنة ٢٨٦ هـ بالبحرين وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة . ثم ارتفع شأنه وقويت شوكته . فقتل من حوله من أهالى تلك القرى . ولما قرب من نواحى البصرة ، حهر اليه المعتضد بالله جيشا فهزمه الجنابى ، وقتل الاسرى وأحرقهم ، واستبقى قائده ثم أطلقه بعد أيام وقال له : " امض الى صاحبك . وعرفه ما رأيت "، ودخل بغداد فى رمضان تلك السنة ، وحضر بين يدى المعتضد، فخلع عليه ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩ هـ وحرت وقائع بين الفريقين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ فى الحمام وستجد فى رسالة ابن القارح اشارة نافعة اليه

العلوى البصرى

وأما العلوى البصرى ، فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر ، أنه : من « عبد القيس » ثم من « أعمار » وكان اسمه أحمد ، فلما خرج تسمى عليا ،،

والكذب كثير جم كأنه فى النظر طود أشم . والصدق لديه كالحصاة . توطأ باقدام عصاة . وتلك الأبيات المنسوبة اليه مشهورة . وهى :

أيا حرفة الرمنى : — أما لك الردى — أمالى خلاص منك — والسمل حامع؟
أئن قنعت نفسى بتعليم صبية — يدَ الدهر — إنى بالمذلة قانع
وهل يَرْضيَن حُرٌ بتعليم صبية وقد ظن أن الرزق فى الارض واسع

وما أمنع أن يكون حمله حب الحطام على أن غرق فى بحر طام :

* * *

وقد رويت له أبيات تدل على تأله — وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه ، لأن من خبر هذا العالم حكم عليه بفجور ومين . والأبيات :

قتلت الناس اشفاقا على نفسى كى تبقى
وحزت المال بالسيف لكى أنعم لا أشقى
فمن أبصر مثواى فلا يظلم إذن خلقا
فواويلى اذا ما مت — عند الله ما ألقى —
أخلدا فى جوار الله ؟ أم فى ناره ألقى؟

* * *

وأنشدنى بعضهم أبياتا قافيّة طويلة الوزن ، وقافيتها مثل هذه القافية ، قد نسبت الى عضد الدولة ، وقيل إنه أفاق فى بعض الايام فكتبها على جدار المنزل الذى كان فيه ، وقد نحل فيها أبيات البصرى وأشهد أنها متكلفة ، صنعها رقيع من القوم ، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط

* * *

وأما الحكايه عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا رخمة ، فقالوا رحمة فلا أصدق بما يجرى مجراها ، والكذب غالب ظاهر ، والصدق خفى متضائل (١)

وكذلك ادعاء من يدعى أن عليا ـ عليه السلام ـ قال . « تهلك البصرة بالزنج » فصحفها أهل الحديث بالريح ، لا أومن بشىء من ذلك ، ولم يكن على ـ عليه السلام ـ ممن يكشف له علم الغيب ، وفى الكتاب العزيز « لا يعلم من فى السموات والارض الغيبَ الا الله » وفى الحديث المأثور « لا يعلم ما فى غد الا الله »

ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حاب ـ حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة (٢) اسمه فلان بن فلان ، وصفته كذا فان

---

(١) يقول ابو العلاء فى هذا المعنى :

والحق يهمس بينهم ويقام للسوآت منبر

ويقول :

اذا قلت المحال رفعت صوتى وان قلت اليقين أطلت همسى

٢) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت فى تلك السنة ، ارجع الى (حاشية ص ٣٥)

ادعى ذلك مدع ، فإنما هو متخرص كاذب

النجوم

وأما النحوم فانما لها تلويح لا تصريح ، وحكى أن الفضل بن سهل كان يتمثل كثيراً بقول الراجز .

« لئن نجوت ونجت ركائبى من غالب ومن لفيف غالب
إنى لنجاء من الكرائب »

وان غالباً كان فى من قتله ، فهذا يتفق منله ، وأحدر بهده الحكاية أن تكون مصنوعة ، فاما ما تمثله بالشعر فغير مستنكر

وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا ، فيمكن أن يقترن معنى بلفظ ، على أن فى الايام عجائب ، وفوق كل ذى علم عليم

الألمعى

وقدحكى أن « إياس بن معاوية » القاضى كان يظن الاشياء فتكون كما ظن . ولهده العلة قالوا « رجل نقاب[1] وألمعى » قال أوس [2] :

الالمعي الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا [3]

---

(١) النقاب الذى يحدث بالغائب (٢) هو أوس بن حجر ، التميمى أحد شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته فى حـ ا ص «٢٠٤»

(٣) ومما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم

« عليم بأخبار الخطوب بظنه كأن له فى اليوم عينا على غد »

وقول الآخر :

الحلاج (١)

وكم افترى للحلاج — والكذب كثير — وجميع ما ينسب ، اليه بما لم

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقول الثالث :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحترى فى سليمان بن وهب .

كان آراءه — والحزم يتبعها — ترى كل حى وهو إعلان

ما عاب عن عينه ، فالقلب يكلؤه ، وان نام عينه . فالقلب يقظان

(١) الحلاج

اسمه الحسين بن منصور كنيته أبو مغيث . وجده محوسى وبلده « البيضاء » احدى بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسط والعراق ، واشتهر بصحبته لأبى القاسم الجنيد . ومن فى طبقته كما اشتهر بكفره — وان بالغ فى تعظيمه بعض الناس — ومن شعره قوله :

لا كنت ان كنت أدرى « كيف كنت » ولا

لا كنت ان كنت أدرى « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه فى اليم مكتوفا ، وقال له «اياك اياك أن تبتل بالماء »

وكان يكثر من قوله : « ما فى الجبه الا الله » وسمى «الجبائى» لذلك . وكان يقول « معبودكم تحت قدمى هذا » وقد تصدى الامام الغزالى للدفاع عنه فى فصل طويل عقده فى كتاب (مشكاة الانوار) اعتذر فيه عن الالفاظ الشديدة التى صدرت منه ، وعزاها الى افراطه فى محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى . ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنا بدنا

فاذا أبصرتنى أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا

وسيمر بك طرف من أخباره فى رسالة ابن القارح .

تجر العادة بمثله ، فانه المين لا أصدق به ، ومما يفتعل عليه أنه قال للذين قتلوه : «أتظنون أنكم اياى تقتلون ، انما تقتلون بغلة المادرانى» وان البغلة وجدت فى اصطبلها مقتولة

وفى الصوفية ـ الى اليوم ـ من يرفع شأنه ، ويلغى أن ببغداد قوما ينتظرون خروجه . وانهم يقفون بحيث صلب على «دجلة» يتوقعون ظهوره [١] ، وليس ذلك ببدع من جهل الناس ، ولو عبد عابد ظبى كناس [٢]

إجلال القرد

قرد زبيدة وقرد يزيد

فقد نزل حظ على قرد ، فطفر باكرام الوِرد [٣] . وقالت العامة :

---

(١) كان السبب فى صلبه . كلام جرى منه فى مجلس «حامد بن العباس» وزير المقتدر بحضرة القاضى أبى عمر . فأفتى بحل دمه وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء ، فقال لهم الحلاج : « طهرى حمى ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على ، وأنا اعتقادى الاسلام ، ومذهبى السنة ، وتفصيل الأئمة الاربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولى كتب فى السنة ، فالله الله فى دمى » ولم يزل يردد هذا القول ـ وهم يكتبون ـ حتى أتموا ما احتاجوا اليه ، ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج الى السجن ، ثم جلد أمام العامة ، وقطعت أطرافه ، وحرت رأسه ، واحرقت جثته ، ثم القيت فى « دجلة » واتفق أن زادت فى السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه ان سبب ذلك هو سحط الحلاج .

(١) الكناس بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه ، لأنه يكنس الرمل حتى يصل (٢) الجيش

« اسجد للقرد فى زمانه ! »

وأنا أتحوّب[1] من ذكر القرد الذى يقال إن القوّاد ـ فى زمن « زبيدة » ـ كانوا يدخلون للسلام عليه، وان « يزيد بن مَزِيد الشَّيْبانى » دخل فى جملة المسلمين فقتله

وقد روى أن « يزيد بن معاوية » كان له قرد يحمله على أتان وحشية، ويرسلها مع الخيل في الحَلْبة[2] »

رجعة الى الحلاج

وأما الأبيات التى على الياء :

« يا سر سر يدق حتى يجل عن وصف كل حى
وظاهراً باطنا تبدى من كل شىء لكل شى
يا جملة الكل لست غيرى فما اعتدارى اذن الى »

فلا بأس بنظمها فى القوة، ولكن قوله « الى » عاهة فى الأبيات وكذلك قوله « الكل » فان ادخاله الألف واللام مكروه، وكذلك قوله « الكل » إدخاله الالف واللام مكروه. وكان « أبو على » يجيزه، ويدعى إجازته على « سيبويه »

فأما الكلام القديم فيفتقد فيه (الكل) و (البعض) وقد أنشدوا بيتا لسحيم :

---

(١) أحتنب الحوب أى الاثم أوأنحرح منه، وهى ايضاً بمعنى أتوجع باكيا في حزع وصياح (٢) الخيل تجمع للسباق

« رأيت الغنى والفقير كليهما إلى الموت يأتى الموت للكل معمدا! »

مذهب الحلول (١)

وينشد لفتى كان فى زمن الحلاج :

إن يكن مذهب الحلول صحيحا فالهى في حرمة الزجاج
عرضت فى غلالة بطراز بين دار العطار والثلاج
زعموا الى أمرا وما صح لكن هو من إفك شيخنا الحلاج

---

(١) الحلولية أو مذهب الحلول هى الادعاء بحلول الله ـ سبحانه ـ فى الاشخاص، ولمعتنقى هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم ان روح الله حلت فى الانبياء ، واحداً بعد الآخر . حتى حلت فى أبى هاشم عبدالله بن محمد ابن الحنيفية . وادعى غيرهم انها حلت فى أبى مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله فى الاشخاص الحسنة ، فكان «الحلمانية» اذا رأوا صورة حسنة، سجدوا لها . واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على حوار حلول الله فى الاجساد ، بقوله تعالى للملائكة فى آدم . « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ورعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لانه خلقه فى أحسن تقويم بدليل قوله تعالى . « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

ورعم الحلاج أن من هذب نفسه فى الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه منها خط ، حل فيه روح الله ، الذى حل فى عيسى ابن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً الا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى

ولنجتزئ بهذا القدر، فان فيما أورده أبو العلاء فى هذا الفصل، وابن القارح فى رسالته ما فيه الكفاية

وهذه المذاهب قديمة ، تنتقل فى عصر بعد عصر ، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادعى أنه رب العزة

*
* *

وحكى عن رجل منهم أنه كان يقول فى تسبيحه : « سبحانك سبحاني غفرانك غفراني » وهذا هو الجنون الغالب ، انما من يقول هـذا القول معدود فى الأنعام ، وقال بعضهم

أنا أبت ـ بلاشك ـ فسبحانك سبحانى
واسخاطك اسخاطى وغفرانك غفرانى
ولم أجلد يا رب اذا قيل هو الزانى ؟

وبنو آدم بلا عقول ، وهذا أمر يلقنه صغير عن كبير ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، ويروى لبعض أهل هذه النحلة :

رأيت ربي يمشى بلا لكة فى سوق يحيى ، فكدت أنفطر
فقلت . « هل فى اتصالنا طمع » فقال « هيهات ، يمنع الحذر »
ولو قضى الله الفة بهوى لم يك الا السجود والنظر

التناسخ (١)

وتؤدى هذه النحلة الى التناسخ ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر فى جماعة من السيعة ، نسأل التوفيق والكفاية : وينشد

---

(١) التناسخ

هو مذهب القائلين بانتقال الارواح بعد مفارقة أجسادها ، الى أجساد أخر . ويرى بعضهم ان ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الاجساد من نوع الاجساد التى فارقتها الروح . وبهذا الرعم يدين الكثيرون . منهم القرامطة . واحمد بن حائط ، وتلميذه احمد بن هانوس . وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب . ومما ذكره الاخير فى بعض كتبه قوله : « لولا أنه لا سبيل الى تخليص الارواح عن الاجساد المتصوره بالصورة البهيمية . الى الاجسام المتصورة بصور الانسان . الا بالقتل والذبح ، لما حل ذبح شيء من الحيوان البتة »

ويزعمون ان التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ، فالفاسق السيئ العمل ، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه الى أجساد البهائم الحسنة المرتظمة فى الاقدار ، والمسخرة الممتهنة بالذبح

* * *

ويزعم بعضهم ان الله ـ سبحانه ـ أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين ، فى دار سوى هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمه ، فابتدأهم بتكليف شكره ، فاطاعه بعضهم فى جميع ما أمرهم به . وعصاه بعضهم فى جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم فى البعض دون الآخر . فمن اطاعه فى الكل ، أقره دار النعيم التى ابتدأهم فيها ، ومن عصاه فى الكل أخرجه من تلك الدار الى دار العذاب ، وهى النار ، ومن أطاعه فى البعض ، وعصاه فى البعض الآخر ، أخرجه الى دار الدنيا ، فألبسه هذه الاجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء ، والشدة والرخاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس ، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته اكثر ، كانت صورته أحسن

وآلامه أكثر ، ثم لا يزال يكون فى الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته

***

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : " يا أيها الانسان : ما غرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أي صورة ما شاء ركبك " ، وبالآية الاخرى " جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه " .

واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تتناهى والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبداً ، وليس انتقالها الى نوعها بأولى من انتقالها الى غير نوعها

***

وأنكرت طائفة أخرى . انتقال الارواح الى غير انواع اجسادها التى فارقتها بعد أن أقرت انتقالها الى انواع اجسادها ، فقالت : " بما انه لا تناهى للعالم ، فوجب ان تتردد النفس فى الأجساد أبداً ، ولكن لا يجوز ان تنتقل الى غير النوع الذي اوجب لها طبعها الاشراف عليه . وتعلقها به "

(وفى كتابى الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى . فصلان نافعان لمن شاء الرجوع اليهما . وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء ودحضها)

***

شاع فى الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب فى أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منها . ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، الذى كان سببا فى توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثر تبادل الآراء بينهم ، ووفد بعض الهنود الى مدينة السلام ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق .

« رأى أبى العلاء فى التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبى العلاء فى التناسخ . أمكنك ان تلمحه فيما نقرؤه له فى هذا الفصل . من السخرية والتهكم

ولا ريب أن ابا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقه ، فلم يوافق عليه، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح فى أعلى أشعاره

فقد ذكر التناسخ فى صباه . على سبيل اللهو والتندر ، وان لم يمنعه أن يظهر ارتيابه فيه . فى بيت من قصيدة له . فى « سقط الزند » كسبها الى ابراهيم بن اسحق مدحا فيه ، وحوالها على قصيدة نعت بها اليه ، والبيت

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان ابوك « اسحق الذبيحا »

ثم انكره اكثر من مره انكارا صريحا فى لزومياته ، فقال.

يقولون . « ان الجسم يثقل روحه الى قبره . حتى يهدمه الثقل »

فلا تثقلن ما يحملونك . صلة ، اذا لم تؤيد ما أتوك به العقل

وتهكم بجماعة القائلين بهذا المذهب . وامعن فى السخرية منهم فقال :

يا آكل التفاح ! لا تسعدن ولا يتم يوم ردى آكلك

قال البصيرى — وما قلته — فاسمع . وشحعيا احى ما كلك

« قد كنت فى دهرك تفاحه وكان بعد حتفك ما آكلك

وحرف هاج لحت فيما مضى وظلما استكمله شاكلك

والبيت الاخير سخرية من مذهب القائلين — ومنهم ابن سعيد المحلى . وهو أحد من ادعى انه المهدى المنتظر — «ان الاعضاء على صور حروف الهجاء ، وان الالف منها مثال القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ وممن يدينون به ، فى موضع آخر ، فقال .

فما بال هذا العصر . ما فيه آية من المسخ ، ان كانت «يهود» رأت مسخا

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فاجازوا الفسخ فى ذاك والرسخا

فقد قسموا التناسخ الى اربعة اقسام . نسخ ومسخ وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الاول انه انتقال الروح من جسم انسانى الى آخر ، أو إلى جسم انسانى أرفع منه : وعن الثانى انه انتقال الروح الى البهائم ، وعن الثالث الى انه انتقالها الى الحشرات ، وعن الرابع انه انتقالها الى النبات أو الجماد

* * *

وانما تحفظ ابو العلاء فى ارتيابه فى التناسح احياناً ، واحتاط فى بعض اشعاره ووقف على الحياد فى البعض الاخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها ، وقد جهل أبو العلاء كنه الروح ومآلها ، فرحم عنها بالظنون والفروض ، وانجزم بمآل الجسم وعرف غايته وتطوراته ، فقال :

أما الجسوم ، فللتراب مآلها وعييت بالارواح ، انى تذهب

واذ أيقن أن مآل الجسم الى التراب فقد افنى فى صيرورته ومآله حين وجه خياله الى هذه الناحية ، فابدع فى ذلك ما شاء له الخيال الصافى والعقل الراجح الحصيف فقال :

واذا رجعت اليه صارت اعظمي ترباً تهافت فى طوال الاعصر

وقال : خفف الوطء ، ما اظن اديم ال أرض الا من هذه الاجساد

وقال : ولرب اجساد جديرات البرى بالصون صارت فى طلاء جدار

وقال : لعل مفاصل البناء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقال : وان جعلت ـ بحمدالله ـ فى خزف يقضى الطهور ، فانى شاكر راضى

جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض

وقال : فلا يمس نحاراً من الفخر ـ عائدٌ الى عنصر الفخار للنفع يضرب

لعل اناء منه يصنع مرة فيأكل فيهِ ـ من اراد ـ ويشرب

وينقل من أرض لاخرى . ومادرى . فواها له بعد البلى ـ يتغرب

فازجرى هذه السنانير [١] عنها واتركيها - وما تضم الغراره [٢]

وقال آخر منهم :

تبارك الله كاشف المحن فقد أرانا عجائب الزمن

حمار شيبان، شيخ بلدتنا ، صُيِّره جارنا أبو السكن

بدل من مشية بحلته مشيته في الحزام والرسن [٣]

الى آخر تلك الأشعار التى لا يتسع المقام لذكرها ، وقد اتحه فكر « عمر الخيام » الى هذه الناحية فابدع فيها وأحس فى رباعياته ، وتمثل اكوابا تألفت من حسوم آدمية ، تتحادث وتتناقش كما تمثل كوبا فى يد الخزاف يقص عليه تاريخ حياته، ووردة عاطرة كانت غادة فاتنة ماتت فاستحال حمالها الى عطر شذى » وقد امتلات « رباعياته » بهذه الفكرة ممثلة فى صور شتى ، وحسب القارئ ان نحيله اليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام فى كتابه ،

***

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جرم المتيقن الواثق فى كل مرة ، بل تردد فيه احيانا فكاد يقبله ، فاذا رأيته يقول :

تقادم شخص مضى فاحدث منه البدل

وما صح الا امرؤ تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول فى مكان آخر :

وتقدم الارض نفوس أتت مخلوقة من أنفس ثاوية

أو يقول : والجسم كالثوب - على روحه ينزع - اذ يخلق أو يتسخ

(١) القطط (٢) الجولق ، ومعنى البيت : « فابعدى عنها القطط حتى لا تؤذيها ، ودعيها تأكل من الغرارة ماتشاء (٣) يقول: «ان روح جارنا تقمصت فى حمار شيخ بلدتنا فاصبح ذلك الجار يمشى فى الحزام والرسن - بعد ان كان يختال فى حلته! »

ويصورلهم الرأي الفاسد أباجير[1] ومشبهات ، فيسلكون في الترهات

مذهب التناسخ في الهند

وحكى عن بعض ملوك الهند ، وكان شابا حسنا ، أنه جدر ، فنظر إلى وجهه فى المرآة وقد تغير ، فاحرق نفسه ، وقال . « اريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه »

* * *

وحدثني قوم من الفقهاء ، ما هم في الحكاية بكاذبين ، ولا فى أسباب النحل حاذبين . أنهم كانوا فى بلاد محمود ، وكان معه جماعة من الهند ، قد وثق بصفائهم ، يفيض عليهم الاعطية لوفائهم ، ويكونون أقرب الجند اليه اذا حل أو ارتحل ، وإن رجلا منهم سافر فى جيش جهزه ، فجاء خبره أنه قد هلك ، فجمعت امرأته لها حطبا كثيرا ، وأوقدت نارا عظيمة ، واقتحمتها ، والناس ينظرون . وكان ذلك الخبر باطلا ، فلما قدم الزوج ، اوقد له نارا عظيمة ليحرق نفسه ، حتى يلحق بصاحبته ، فاجتمع خلق كثير للنظر اليه . وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون اليه فيوصونه بأشياء الى أمواتهم[2] هذا الى أبيه ، وهذا الى أخيه ، وجاءه انسان منهم بوردة

(١) أعاجيب (جمع « عجر ») قال الشاعر :

فقلت لها : « عجرا » فقالت عجيبة : « أتعجب من هذا ـ ولى روح اجر »

(٢) اشار أبو العلاء الى ذلك فى لزومياته فقال

تقول الهند : « آدم كان قبلنا ، فسرى اليه محموم »

أولئك يحرقون الميت نسكا ويشعره لبانا ملهوم

وقد كنى بهذه المناسبة ، قوله فى تحبيذ ما يفعله الهند من احراق موتاهم .

وقال ,, أعط هذه فلانا ،، يعنى ميتاً له ، وقذف نفسه في النار

وحدث من شاهد احراقهم نفوسهم ، أنهم اذا لدغتهم النار . أرادوا الخروج ، فيدفعهم من حضر اليها بالعصي والخشب ، فلا إله إلا الله ، لقد جئتم شيئا إدا

فاعجب لتحريق اهل الهند ميتهم وذاك أروح من طول التباريح
ان حرقوه فما يحشون من صبع تسرى اليه ولا حمى وتطريح
والنار اطيب من كافور ميتنا غداً . واذهب للكراء والريح

والحمى بمش الميت . وقوله :

حرق الهند من يموت فارا روه فى روحة ولا تفكير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتا وسؤال لمنكر ونكير

وقوله :

اذا حرق الهندى بالنار نفسه فلم يبق محض للتراب ولا عظم
فهل هو حاش من نكير ومنكر وضغطة قبر ـ لا يقوم لها نظم

بل لقد وصل انكاره واعجابه بذلك الى حد ان فضله على الجهاد ، فقال :

يحرق نفسه الهندى حوفا ويقصر ـ دون ما فعل ـ الجهاد
وما فعلته عباد النصارى ولا شرعية صبئوا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمدا وذلك منه دين واجتهاد

وهنا نحس أبو العلاء الى الموت حنينا ـ كما هى عادته الغالبة عليه ، فيقول .

وموت المرء يوم طال حدا عليه وكل عيشته سهاد

وهو اسلوب آخر من فكرته التى اودعها فى داليته الخالدة فى قوله

صحة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

(ارجع الى ص ١٣ — ١٩)

ابن هانىء الأندلسى

وفى الناس من يتطاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به الى الدنيا الفانية [1] ، وهى أغدر من الوَرْهاء الزانية ، وكان لهم فى المغرب رجل

---

(١) ردد ابو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى كثير من أشعاره ، وأحمى على تلك الطائفة التى اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع ، وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك فى ص « ٢٥ » من هذا الجزء وفى (ص « ٢٦ » منه) واليك نحفة من أبدع ما نختاره له فى ذلك :

نخيبة الله تعمدتما	وأنت عين الظالم اللاهى
تأمرنا بالزهد فى هذه الد	نيا وما همك الا هى
تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى	ولكن لكم فيها التكاثر والكبر
وليس حبر ببدع فى صحابته	ان سام نفعاً بأحمار تقولها
وانما رام اسوانا بروحها	ـ تما افتراه ـ واموالا تمولها
لا يخدعنك داع قام فى ملأ	بخطبة ران معناها وطولها
ثما العطات وإن راعت سوى حيل	من ذى مقال على ناس تحولها
رويدك قد غررت ـ وأنت حر ـ	بصاحب حيلة يعطى المساء
يحرم فيكم الصهباء صحا	ويشربها ـ على عمد ـ مساء
يقول : « لقد غدوت بلا كساء »	وفى لذاتها رهن الكساء
طلب الخسائس وارتقى فى منبر	يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة	أمسى يمثل فى النفوس دهولها
وكم من فقيه حابط فى ضلالة	وحجته فيها الكتاب المنزل
وقارئكم يرحو بتطريبه الغنى	فاقض ـ كما غنى ليكسب ـ رلزل

«ورلزل» هذا موسيقى يضرب به المثل فى اتقان العود

يعرف بابن هانئ وكان من شعرائهم المجيدين ، فكان يغلو في مدح «المعز» غلوا عظيما ، حتى قال فيه ـ وقد نزل بموضع يقال له رقادة ـ :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى وكل شيء سواه ريح

عودة الى الحلاج

وأدل رتب الحلاج أن يكون شعوذيا لا ناقب الفهم ، على أن الصوفية تعظمه منهم طائفة . ما هي لأمره شايفة

ابن ابى عون

واما ابن أبي عون ، فانه أحد فى لون بعد لون ، وقد تجد الرجل حاذقا فى الصناعة ، بايغا فى النظر والحجه ، فاذا رجع الى الديانة الهى كأنه غير مقتاد ، وانما يتبع ما يعتاد . والتأله موجود فى الغرائز . ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر . فيلابس معه ، والدين يسكنون فى الصوامع ، والمتعبدون فى الجوامع . يأخذون ما هم عليه . كنقل الخبر عن المخبر لا يميزون المصدق من المكذب ، فلو أن بعضهم ألفى أسرة من المجوس لخرج مجوسيا [1] ، واذا جعل المعقول هاديا ، نفع بريه صداديا . ولكن أين

---

(١) من أبدع ما تختاره لابى العلاء ، فى هذا المعنى قوله فى لزومياته

ويشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجا ، ولكن يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسى ، له ولاة بأفعال التحبس دربوه .

من يصبر على أحكام العقل [1] ؟ هيهات : عدم ذلك فى من تطلع عليه

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه ابو العلاء فى النعي على التقليد، والحث على تمجيد العقل ، والاعتزاز به ، والدعوة الى تحكيمه فى كل شيء ، لملأنا صحفاً عديدة ، لا يسمح لنا بها هذا الكتاب الصغير ، فلنجتزئ من ذلك بالقليل عن الكثير . واليك ما نختاره له

اللب قطب ، والامور له رحى فيه تدور كلها وتدار

العقل يوصح للنسـ ـك مسهجا واحد حدوه
وليس يظلم قلب وفيه للب حدوه

كذب الناس لا امام سوى العقـ ـل مشيرا فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعته حلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء

صدقت يا عقل . فليبعد اخو سفه صاع الاحاديث افكا أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك صلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

تكذب العقل فى تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

ويبغر عقلى مغضبا ان تركته سدى . واتبعت الشافعى ومالكا

والعقل يعجب والشرائع كلها حبر يقلد لم يقسه قائس

. . . . . .

واذا الرئاسة لم تعن بسياسة عقلية ، حظيء الصواب السائس

قالوا ، فانوا ، فلما أن حدوتهم الى القياس ، اتانوا العجز واعترفوا

واذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه
لا يدينون بالعقول ، ولكن بأباطيل رحرف كذبوه

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه

الشمس ، ومن ضمنه فى الرمم رمس. إلاأن يشذ رجل في الأمم ، يُخص

وغـير بعضهم أقوال بعض وأبطلت البعض ما أوحوه
فاحذر ولا تدع الامور مضاعة وابطر بقلب مفكـر متبصر
تفكر فقد حـار هذا الدليل وما يكشف النهج غير التفكـر
الفكر حبل متى يمسك على طرف منه ، يبط بالثريا ذلك الطرف
فكروا فى الامور يكشف لـكم بعـ ـض الذى تجهلون بالتفكير
فكرى انت ربمـا هدى الا نسان للمشكـلات بالتفكير

اذا كان التقى بلها وعيا وأعيار المدلة أتقياء
وما تريك مرائى العين صادقـة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر
وحـدث أباك مفتريا حـديثا فانت على مقص الشيخ تفرى
عاشوا كما عاش اباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون من غى لمن سجـدوا
فى كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك . « ربى واحد أحد »
جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولـكن فيهـا ضعف اسناد
فشاور العقل ، واترك غيره هدرا فالعقل خـير مشير صمه الـادى
اذا رجع الحصيف الى حجـاه نهاون بالمـداهب واردراها
فحـد منهـا بمـا أداه لـه ولا يفمسك جهل فى مراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد بهـا عراها
هل صح قول من الحاكى فنقله أم كل ذاك أباطيل وأسمار ؟
أما العقول فقالت انه كذب والعقل غرس ـ له بالصدق اثمـار

من فضل بعَمَم

ربما اقينا من نظر في كتب الحكماء وتبع بعض آثار القدماء ، مألفيناه يستحسن قبيح الأمور ، ان قدر على فظيع ارتكبه ، وان عرف واجبا نكبه ، كأن العالم سعوا له فى إفقاد ، فهو يعتقد شر اعتقاد ، وان أودع وديعة خان ، وإن سئل عن شهادة مان ، وان وصف لعليل صفة ، ثما يحفل أقتله أم صاعف عليه الأثقال ، بل غرضه فيما يكتسب ، وهو الى الحكمة منتسب . ورب زارٍ بالجهالة على أهل ملة ، وعلته الباطنة أدهى عله

وإن البشر لكما جاء فى الكتاب العزيز « كل حزب بما لديهم فرحون [1] » ويحضر المجالس اناس طاغون كأنهم للرشد باغون ، واولئك ـ علم الله ـ أصحاب البدع والمكر

كم متطاهر باعتزال ، يزعم أن ربه على الدرة يخلد فى النار [2] ، بله الدرهم وبله الدينار . وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم ، وينهمك على العهار والفسق ، قد صير الجدل مصيدة ، ينظم به من الغى قصيدة [3] .

* * *

وحدثت عن إمام لهم ، يوقر ويتبع . أنه كان اذا جلس فى الشرب ،

---

(١) وفى هذا المعنى يقول ابو العلاء : « وعند كل فريق أنهم ثقفوا » (٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته فقال :

« حسوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجبى الخلد فى النار

وقال :

لقد أفلحوا ان كان لم يجر عندهم من الورد إلا تركهم للمآزر :

(٣) ارجع الى ص «٦٢» من هذا الجزء

ودارت عليهم المسكرة ، وحاءه القـدح ، شربه ، فاستوفاه ، وأشهد من حضره على التوبة .

عبد الله بن ميمون القداح

والشيعة يزعمون أن عبدالله بن ميمون القداح . وهو من «باهلة» كان من علية أصحاب «جعفر بن محمد» وروى عنـه شيئاً كثيراً ، ثم ارتد بعد ذلك ، فحدثني بعض شيوخهم أنهم يروون عنه . ويقولون « حدثنا عبد الله ابن ميمون القداح ، قبل أن يرتد » ويروون له :

هات اسقني الخمرة يا سنبر ... فليس عنـدى أبني أشر
أما ترى الشيعة فى فتنة ... يغرها من دينها « جعفر »
قد كنت مغروراً به برهة ... ثم بدا لى خبر لستر

ومما ينسب اليه :

منيت الى جعفر حقبة ... فألفيتـه خادعا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه ... وكل إلى حبله يجذب
ولو كان أمركم صادقا ... لما ظل مقتولكم يسحب
ولا عض منكم قتيل ، ولا ... سما « عمر » فوقكم يخطب

والحلولية قريبة من مذهب التناسخ ، وحدثت عن رجل من رؤساء المنحمين [1] من أهل « حران » ، أقام فى بلدنا زمانا ، فخرج مرة مع قوم

---

(١) رأى أبى العلاء فى المنحمين

لأبى العلاء فى المنحمين والعرافين أسوء رأى فهو يحتقرهم وينتقصهم فى كل مناسبة تعن له ، وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأيد والسلطان ما يمكنه من

يتنزهون ، فر والثور يكرب ، فقال لأصحابه: «لاشك فى أن هذا الثور

استئصال شأفتهم ، فقال

لو كان لى امر يطاوع لم يعش ... طهر الطريق ـ يد الحياة ـ معجم
يغدو برحرفة يحاول مكسبا ... فيدير اسطرلابه ويرحم
وقفت به الورهاء ـ وهى كأنها ... عند الوقوف ـ على عريس تهجم
سألته عن روج لها متغير ، ... فاهتاج يكتب بالرقاد (١) ويعجم
ويقول: «ما اسمك واسم أمك يا فتى ... بالظن عما فى الغيوب مترجم»
يولى بأن الحى تطرق بيته ... وله يدين فصيحها والاعجم

الى آخر تلك القصيدة الجميلة التى احيل القارئ اليها فى « الجزء الثانى من اللزوميات ص ٢٣٣ » وأحب ان لا يفوته

وله فى المنجمين والعرافين أشعار كثيرة . نختار منها النجمة التالية :

سألت منجمها عن الطفل الذى ... فى المهد « كم هو عائش من دهره ؟ »
فأجابها . « مائة » ليأخذ درهما ... وأبى الحمام وليدها فى شهره

كأن منجم الاقوام أعمى ... لديه الصحف يقرؤها بلمس

قطع الطريق بمهمه وبطيره ... فى المصر فعل منجم ومعزم

شكا الادى . فسهرت الليل . وانتكرت ... به الفتاة الى سمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاصية ... عنه النذور لعل الله يبقيه
وأتت أرشد منها حين تحمله ... الى الطبيب يداويه ويسقيه

ارجع الى (جـ ١) ص «١٩١»

لقد بكرت فى حفها وارارها ... لتسأل بالامر الصرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ... ولا هو من اهل الحجا فيرجما
يقول : «غدا أو بعده وقع دية ... يكون غياثا أن تجود ونسجما »

---

(١) الرعفران

رجل كان يعرف بخلف ، بحران » وجعل يصيح به : « يا خلف » فيتفق أن يخور ذلك الثور ، فيقول لاصحابه : « ألا ترون صحة ما خبرتكم به ؟ »

*
* *

وحكى لى عن رجل آخر ممن يقول بالتناسخ أنه قال : رأيت فى النوم أبى وهو يقول « أنى إن روحي قد نقلت الى جمل أعور فى قطار فلان، وإنى قد اشتهيت بطيخة » فأخذت بطيخة . وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملا أعور . فدنوت منه بالبطيخة . فأخذها أخذ مريد

ويوهم جهال المحلة أنه ... يطل لأسرار العيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره ... لجاء تبين أو أرم وحمحما
كأن سحابا عممهم بصلالة ... فليس إلى يوم القيامة منجما
اذا قال أهل اللب « حان انسفاره » ... يداركه غيم سواه فأنجما
فان كنت قد وفقت، فالح بوحدة ... وحل البرايا من قصيح واعجما
ولا تك - فيما يكره القوم - ساعيا ... ولا مسرحافي بصر غيرك ملجما

وانظر الى قوله فى السخط على المنجمات فى قصيدة « المرأة » التى ذكرناها فى الجزء الاول فى ص « ٢٩٥ » .

وأبعدهن عن رقات مكر ... سواحر يفسدين معرمات
يقلن نهيج الغيبات ، حتى ... تحيئوا بالركاب مرتمات
وتعطف هاجر الخلان، كيما ... يزول عن السحايا المسئمات
وجمع طوائف الغمار، سهل ... عليها بالحوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى وقير ... كموزا للملوك مصنمات
فلا يدخلن دارك باختيار ... وقد الفيتهن مندمات
وان خالسن عمرتك ارتقابا ... فحق أن يزحن مشتمات .

مُشْتَه ، أفلا يرى مولاى الشيخ إلى ما رمى به هذا البشر من سوء التمييز :

ابن الراوندى [1]

وأما ابن الراوندى، فلم يكن الى المصلحة بمهدى ، وأما تاجه فلا يصلح

---

(١) ابن الراوندى

اسمه احمد بن يحيى بن اسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين، وهو ينسب الى «راوند» احدى قرى اصبهان ، مات فى سن الاربعين فى سنة ٢٤٥ هـ . ، وكان أبوه يهوديا فاسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة عليها »

وكان من متكلمى المعتزلة، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم؛ قالوا : « ولم يكن فى زمانه أحذق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلازم أهل الالحاد ، فاذا عوتب فى ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحدا زنديقاً

وأوجز ما نعته به ، أنه رجل لايستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسلماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، رداً على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام نقصه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ، وكان من متكلمى المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذى سماه « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ولكن أكثرها كان الحاديا شديد الجرأة ، وقد نيفت كتبه على المائة (ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها فى رسالته) وكان له ذوق خاص فى تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذى دلل فيه على فساد الرسالة والرسل ، وازدرى فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خاصية الزمرد ، أن الحية اذا نظرت اليه ذابت وسالت عيناها ، كما يحدث لاخصامه حين يقرأون كتابه ،

أن يكون نعلا ، وهل تاجه [١] إلا كما قالت الكاهنة : « أف وتف » ما تاجه بتاج ملك ، ولكن دُعِيَ بالمهلك ، ولا اتخذ من الذهب ، وسوف يصور من اللهب

وأما « الدامغ [٢] » فما إخاله دمغ إلا من ألفه ، تأس من نسب إلى « راوند » إنما هتك قميصه ، وأبان للناظر خميصه

القرآن الكريم

وأحمع ملحد ومهتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ـ صلى الله

ومما رعمه فيه قوله : ,, انا نجد فى كلام « اكثم بن صيفى » شيئاً أحس من « انا أعطيناك الكوثر » وان الانبياء كانوا يستعمدون الناس بالطلاسم الخ ،،

وقد ذكر فى كتبه ، الاحرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة ، على الانبياء والدين ، فقد طعن على النبى (ص .) فى كتابه (التفريد) وطعن على القرآن ، وعاب ، نظمه فى كتابه (الدامغ) ومما وردفيه قوله : ,, ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس عنده من الدواء الا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته الى كتاب ورسول ... وقال فى وصف الجنة « فيها انهار من لبن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيه الا الجائع ، وذكر العسل ، ولا يطلب صرفا ، والزنجبيل ، وليس من لذيذ الا شربة ، والسندس يفترش ولا يلبس ، وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل انه فى الجنة يلبس هذا الغليظ ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الاكراد والنبط ! ،،

وسيمر بك طرف من أخباره فى فصل آخر من هذا الكتاب ، وفى رسالة ابن القارح ، فلنكتف بهذا القدر ، على ايجازه الآن

(١) يعنى كتاب « التاج » الذى ألفه ابن الراوندى يحتج فيه لقدم العالم

(٢) هو اسم الكتاب الذى ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن

عليه وسلم ـ كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوّه بالإرْجاز ، ما حذى على مثال ولا أشبه غريب الامتال ، ما هو بالقصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس ، لوفهمه الهضب لتصدع وإن الآية منه ـ أو بعض الآية ـ لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى حدوب! فتبارك الله أحسن الخالقين :

* * *

وأما « القضيب [١] » فمن عمله أحسر صفقة من « قضيب [٢] » ، وخير له من إنشائه . لو ركب « قضيبا [٣] » ـ عند عشائه [٤] ـ فقدفت به على قتاد [٥] ونزعت المفاصل كنزع الأوتاد

إن الطرماح يهجونى لأشتمه هيهات : هيهات : عيلت ـ دونه ـ القصب

* * *

وأما « الفريد [٦] » فأفرده من كل حاجل . وألبسه ـ فى الأبد ـ بُرْدَ الدليل ، ومن انفرد بعزه لوفارته ، فن « فريد » ذلك الواحد ينفرد لحقارته . كأنه الأجرب ـ واذا جدلت الغانية بفريد النظام . فهو من

---

(١) هو اسم الكتاب الذى ألفه فى اثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم . حتى خلق لنفسه علما . (٢) هو تمار البحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى « قوصرة تمر » وكان فيها بدرة ، فلحقه صاحبها واستردها واستخرج البدرة منها . فاتجر فصيب لهفة عليها . (٣) ناقة لم ترض (٤) عند سدول الظلام ـ أى ليلا (٥) شجر صلب له شوك كالابر (٦) هو اسم الكتاب الذى ألفه فى الطعن على النبى (ص)

قلادة مآثم عظام . وأما « المرجان » فاذا قيل إنه صغار اللؤلؤ فمعاذ الله أن يكون « مرجانه [١] » صغار حصى ، بل أخس من أن يذكر

ابن الرومى [٢]

وأما « ابن الرومى » فهو أحد من يقال « إن أدبه كان أكثر من

---

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذى ألفه فى اختلاف أهل الاسلام

(٢) ترجمة ابن الرومى ـ ٢٢١ ـ ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العباس بن جريج (أوجور جيس) مولى عبيد الله بن عيسى ابن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، ويعرف بابن الرومى (نسبة الى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الاربعاء لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ فى الموضع المعروف « بالعقبة ودرب الخليه » فى دار بارياء قصر عيسى بن جعفر ـ ووفاته يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ٢٨٣ فدفنوه فى مقبرة الشماسية ـ وكانت ولادته وموته فى بغداد .

ثم يكون « ابن الرومى » قد اطلقه تسع خلافات ، وهى ٩٠ خلافة « المعتصم [١] » و « الواثق [٢] » و « المتوكل [٣] » و « المنتصر [٤] » و « المستعين [٥] » و « المعتز [٦] » و « المهتدى [٧] » و « المعتمد [٨] » و « المعتضد [٩] » ، وكان شعره غير مرتب ـ رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولى » ورتبه على الحروف ، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد فى جميع النسخ نحو ألف بيت

« سبب موته »

وصل « ابن الرومى » فى الهجو والتصرف بمعانيه وأساليبه ، والاخاش فى ذلك الى حد خافه معه معاصروه ، فلم يكد يسلم أحد من الذعر منه حتى الوزير

---

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »
(٤) « ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ » (٥) « ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »
(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

عقله » وكان يتعاطى علم الفلسفة

الشرس المستبد « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الامام « المعتصد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد والجرأة على سفك الدماء :

اشتهر ابن الرومى بالجرأة على هجاء الأمراء ـ بلا هوادة ولا رفق ـ واشتهر الوزير « القاسم » بالميل الى الانتقام وعدم التردد فى قتل من يناوئه أو يناصبه العداء ، وكان يحشى فلتات لسان ابن الرومى ويعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما ، فلما هجاه « ابن الرومى » استشاط غضبا ، وفكر فى قتله انتقاما منه فدس اليه « ابن فراس » ـ وهو واحد ممن أحش « ابن الرومى » فى هجائهم ـ فأطعمه « حشكمانه » مسمومة ـ وهو فى مجلس « القاسم » . فلما أكلها « ابن الرومى » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « الى أين تذهب ؟ » فأجابه : « الى الموضع الذى بعثتنى اليه » فقال له : « سلم على والدى » فقال : « ما طريقي على النار » وخرج من مجلسه وأنى منزله ، وأقام أياما ـ ومات

« دقة ابن الرومى واسترساله فى المعانى »

« يعوص على المعانى الدقيقة ويستخرجها من مكامنها ويبرزها فى أحسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التى تعترض الكاتب او الشاعر هى فى أن يكتب أو يتكلم فى موضوع ما ، ولكنها فى أن يقول كل ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع ! »

وأبدع الشاعر العربى فى صوغ هذا المعنى فقال :

وفصلنى فى القول والشعر أننى أقول على علم ، وأعلم ما أعنى

***

هذا فى اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب المجيد او الشاعر الفحل المطبوع ـ وبقية الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث

« مطابقة مع أبى بكر السراج »

واستعار من « أبى بكر السراج » كتابا ، فتقاضاه به « أبو بكر »

عنه حين شرع فى تعرف شاعر أو كاتب قديم أو حديث ، وهذا الفارق هو أول مرة تبدهك من شعر ابن الرومى الحافل بالميزات الكثيرة

***

الدقة التامة فى أداء المعنى الذى قام بنفسه ، واستقصاؤه وتحديد ما يعنيه بالضبط والغوص على أحمى حمياه والتمشي معه الى أبعد مداه وسبر أقصى أغواره واظهار كل ناحية من ماحيه المختلفة فى كلام واضح جلى ، والتوفيق فى الاهتداء الى كل ذلك والوصول اليه بلا كلفة ولا تعمّل ، فهو فطن ـ دقيق فى فطنته ـ الى كل ماتتطلبه صوره الشعرية من الالوان والاصباغ يحكم طلاها وأصواءها ويلائم بين ألوانها واصباغها ، حتى اذا انتهى منها وحدت ما قام بذهنه من المعانى ماثلا أمامك فى صورة ناطقة مكتملة الحياة ، مشرقة بها فى كل جزء من أجزائها

***

ذلك هو اول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومى ، وهو من الصفات التى لازمته فصارت له كالطبع ، واسهم بها تفكيره فأصبح نثره (على بدرة على وصلها منه) مشتركا مع شعره فى هذه الميزة الباهرة كما ترى ذلك فى القطعة التالية :

« ترفع عن ظلمى ـ ان كنت بريئا ، وتفضل بالعفو ـ ان كنت مسيئا ، فو الله انى لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، والتمس الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد تذللا ، وانا اعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها ، واسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق ، والسلام »

فانظر مليا ، هل ترى فرقا بين شعره ونثره فى طريقة الأداء ونوع التفكير ؟

فقال له « ابن الرومى » : « لو كان « المشترى » حدثا ، لكان محولا »

مذهبه

والبغداديون يدّعون أنه « متشيع » ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية (١)

وهل تتردد لحظة واحدة فى الحكم على هذا الكلام بانه شعر لا يفقصه الا الوزن والقافية ؟

هذه فى نظرنا هى أكبر ميزات ابن الرومى واحدرها بالذكر ، فلنكتف بها فى هذه الالمامة الآن ، تاركين الكلام على بقية النقط الاخرى مثل تأثر «المتنبى» بشعره ، وفساد عصره وأثر ذلك فى نفسه . ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير «المعرى» والعنت الذى لقيه من معاصريه وأثر ذلك فى شعره واقذاعه فى الهجاء ورأيه فى الحبر والاحتبار ، وعثور حده وشراهته ونهمه فى الاكل ، واطالته القصائد مع المحافظة على الاحادة والأمن من السقط والتكرير — فى اكثر الأحيان — وشيوع الخاطر فى قصيده الخ الخ — الى رسالة خاصة نعدها عن ابن الرومى ونرجو ان نوفق فى اظهارها قريبا

(١) هى قصيدته الخالدة التى رثى بها « أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين ابن زيد بن على » وأبدع فيها ماشاء له ابداعه وافتنانه وعبقريته الفذة ، التى يراها القارئ ممثلة فى كل بيت من أبياتها ، والقصيدة هى :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس طال صريركم ... بآل رسول الله ، فاخشوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبى محمد ... قتيل زكى — بالدماء مضرج
تبيعون فيه الدين شر أئمة ... فلله دين الله ، قد كاد يمرج !
لقد ألحجوكم فى حبائل فتنة ، ... ولملحجوكم فى الحبائل ألحج

***

. . . . . .

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟ لبلوا كم — عما قليل — مفرّج
أما فيهم راع لحق نبيه ؟ ولا حائف من ربه يتحرّج
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم كأن كتاب الله فيهم محمّج
ألا حاب من أنساه منكم نصيبه متاع من الدنيا قليل وبرح

***

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا — لا عليه ولا له — تسحسح اسراب الدموع وتسجح
وكيف يسكى فائزاً عند ربه له فى جنان الخلد عيش محروح (١)
وقد نال فى الدنيا سناء وصيتة وقام مقاما لم يقمه مرلّج
فان لايكن حيا لدينا ، فانه لدى الله حى ، فى الجنان مروح
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتملح
فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه فغار به ؛ والله أعلى وأفلح
مضى ، ومضى الفرّاط من أهل بيته يؤم بهم ورد المنية منهج
فأصبحت ، لاهم أبسؤونى بذكره (٢) كما قال قبلى فى المسوء مؤرّخ (٣)
ولا هو نسانى أسانى عليهم بلى . هاجه ، والتحول الشحو أهيج
أبيت — اذا نام الخلى — كأنما تبطن أحشائى سيال وعوسج

***

أيحيى العلى ! لهفى لذكراك لهفه يباشر مكواها الفؤاد فيمصج
أحين تراءتك العيون حلاءها وأقداءها ، أصحت مراثيك تمسح !
بنفسى — وان فات الفداء بك الردى — محاسنك اللائى تمح فتنهج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سجسج

(١) واسع (٢) انسوى بذكره (٣) مفر

. . . . . .

ولا برح الفاع الذى أنت جاره يرف عليه الاقحوان المفلح
ويا أسـى ألا ترد تحيـة سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا انمـا باح الحمائم بعدما ثويت، وكانت ـ قبل ذلك ـ تهزج !

***

أذم اليك العين أن دموعها تداعى بنار، الحزن ـ حين توهج
وأحمدها ـ لو كفكفت من غروبها عليك . وخلت لاعج الحزن يلعج
وليس البكا أن تسمح العين، إنما أحر البكا أينُ البكاء الموله
أتمعنى عينى عليك بدمعة وأنت لأذيال الروامس مدرج !
فانى ـ الى أن يدفن القلب داءه ـ ليقتلنى الداء الدفين، لأحوح
عفاء على دار طعنت لغيرها فليس بها للصالحين معرح

***

ألا أيها المستشرون بيومه أظلت عليكم عمة لاتفرح
أكلكم أمسى ـ اطمأن مهاده بأن رسول الله فى القبر مرعج !
فلا تشمتوا وليحسأ المرء منكم بوجه ـ كأن اللون منه اليرندح
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم ـ غداة التقى الجمعان ـ والحمل تمعج
لأعطى يد العانى، أو ارتد هاربا كما ارتد بالقاع الطليم المهيّج
ولكنه ما زال يغشى بحره شبا الحرب حتى قال ذو الجهل: «أهوج»
وحاش له من تلكم، غير أنه أبى حطة الامر الدى هو أسمح
وأين به عن ذاك ؟ لا أين ـ انه اليه بعرقيه الزكيين محرَج
كأنى به ـ كالليث يحمى عرينه وأشباله ـ لايزدهيه المهجهج
كذأب «على» فى المواطن قبله أبى حسن، والغمص من حيث يحرج
كأنى أراه ـ والرماح تنوشه شوارع كالاشطان تدلى وتخلج
كأنى أراه ـ اذ هوى عن جواده وعفر بالترب الحبين المشحج

. . . . . .

خف به جسما الى الارض ـ اذ هوى ـ وحث بها روحا ـ الى الله تعرج

أأرديتم « يحيى » ولم يطو أيطل طرادا ، ولم يدبر من الخيل مسرح

تأتت لكم فيه منى السوء هيئة ؛ وذاك لكم بالغى أغرى وألهج

تهدّون فى طغيانكم وضلالكم ويستدرج المغرور منكم فيدرج

أجنوا بنى العباس : من شأنكم وأوكوا على ما فى العياب، وأشرحوا

وحلوا ولاة السوء منكم وغيرهم فأحرى بهم أن يغرقوا حيث لجّجوا

نظار لكم أن يرجع الحق راجع الى أهله يوما ، فتشحوا كما شُحوا

على حين لا عذرى لمعتذريكم ولا لكم من حجة الله مخرج

فلا تلقحوا الآن الصغائن بينكم وبينهم ، ان اللواقح تنتج

غررتم ، لئن صدقتم أن حالة تدوم لكم ، والدهر لو بان أحرج

لعل لهم فى مطوى الغيب ثائرا سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج

بمجسر تصيق الارض من رواته له رحل(١) ينفى الوحوش وهرمح(٢)

اذا شيم بالابصار أبرق بيضه بوارق لا تستطيعهن المحمج

توامصه شمس الضحى ، وكأنما يرى البحر فى أعراصه يتموج

له وقدة بين السماء وبينه ، تلم بها الطير العوافى فتهرج

اذا كرّ فى أعراصه الطرف أعرضت حَراح تحار العين فيها فتحرج

يؤيده ركنان ثبتان ، رحلة وحيل ـ كارسال الجراد ـ وأوثج

عليها رجال كالليوث اسالة تدانوا ، فما للنقع فيهم حصاصة

بأمثالها ينفى الأبىّ فيمنح تنفسه عن حيلهم ـ حين ترهج

فلو حصبتهم بالفضاء سحابة لظل عليهم حصبها يتدحرج

كأن الزجاج الملهذميات فيهم فتيل بأطراف الرديني مسرح

ود الذى لاقوه أن سلاحه هنالك خلخال عليه ودُملج

(١) حلبة (٢) اصوات مختلفه

. . . . . .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ، ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن ـ خوف السبي ـ بعد اقامة طعائن ، لم يضرب عليهن هودج
وقد كان فى « يحيى » مذمّر حطة وناتجها ، لو كان للأمر مَنتج
هبالكم يشفى تمنّع جهلكم اذا طلت الاعناق بالسيف تودج
محضتكم نصحى ، وانى بعدها لأعنق فيما ساءكم وأهملج

***

مه ! لاتعادوا غرة الغنى بكم كما يتعادى شعلة النار عَرفج
أفى الحق أن يمسوا حماصاً . وأنتم يكاد احوكم بطنة يتمعج
تمشون محالين فى حجراتكم نمال الخطى ـ أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم من الريف ريان العظام حدلجّ
تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم ويشرع فيه أرتنيل وأبلج
فقد ألجمتهم حبفة القتل عنكم وبالقوم حاح فى الحيارم حوّج

***

بنفسى الألى كظهم حسراتكم وقد علموا ـ قبل الممات ـ وحشرجوا
ولم تقنعوا ـ حتى استثارت قبورهم كلاليكم منها بهم ودَبيرَح
وغيرتموهم بالسواد ، ولم يزل من العرب الاحماض أحمر أدعج
ولكنكم زرق ، يرين وجوهكم فى الروم : ألوان من الروم تعلّج

***

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة لما شكلكم ـ تالله ـ الا المعهلج
بآية أن لا يبرح المرء منكم يُكبّتُ على حر الجبين فيهفج
يبيت ـ اذا الصهباء روت منه ـ يساوره عِلج من الروم أعلج

وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء، ومن أولع بالطيرة، وإنما

فيطعنه فى « سبة السوء » طعنة يقوم لها من تحته وهو أفحج (١)
لذاك بنى العباس ؛ نصبر مثلكم ، ويصبر للموت الكمى المدجج
فهل عاهة الا كهدى ، وانكم لأكدب مسؤول عن الحق يلهج
فلا تجلسوا وسط المجالس حسرا ولا تركبوا إلا ركائب تحدج

***

أبى الله الا أن يطيبوا وتخبثوا وأن يسعقوا بالصالحات ويفلحوا
وان كنتم منهم وكان أبوكم أباهم ، فان الصفو بالرنق يمزج

***

لعمرى لقد أغرى القلوب « ابن طاهر » بغضائكم ما دامت الريح تسأج
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة سعى مثلها مسكره الرحل أعرج
فلن تعدموا ـ ماحت الليل ـ فتنة تحس كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت ـ لو ترحرون بريحها ـ بوائحها من كل أوب تموّج

***

بنى مصعب ! ما لبنى وأهله عدو سواكم ـ أفصحوا أو فلجلجوا
دماء بنى عباسكم وعليهم لكم كدماء الترك والروم تهرج
يلى سفكها العوران والعرج منكم ، وغوغاؤكم ـ جهلا بذلك ـ تهيج
وما بكم أن تنصروا أولياءكم ولكن هنات فى القلوب تجمجم
ولو أمكنكم فى الفريقين فرصة ، لقد بينت أشياء تلوى وتعوج
إذن لاستقدتم منهما وترفارس ، وان وليا كم فالوشائج أوشج
أبى أن تحبوهم ـ يد الدهر ـ ذكركم ليالى لا يبقى منكم متوح

***

وإنى على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

---

(١) الا ترى الى ابن الرومى لا يحجم عن الاخماش حتى فى مقام الرثاء !!!

هي شرٌّ متعجَّل ، وللأنفُس أَجَل مؤجَّل[1] ، وكل ذلك حذر من

وفى الحرم أن يستدرج الناس أمركم وحبلهم مسحكم العقد مدمج

***

نظارِ فإن الله طالب وتره بنى مصعب ! لن يسبق الله مدلج
لعل قلوبا قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء ، فتثلج

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم . بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه - مع تشاؤمه الذى لا يقف عند حد - ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير

وانما نعنى بالتشاؤم ذلك المذهب الذى يسميه الافرنج (Pessimisme) ونريد أن نسميه بالعربية سخطا . ونسمى أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتشائمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه الا شراً مستطيراً ، لا يستطيعون دفعه ، ولا أمل لهم فى ازالته أو تحسينه ، ولا ينظرون اليه ، الا بمنظار شديد السواد . وعلى العكس من ذلك مذهب الرضى ويسميه الافرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون الى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ، فيرون كل ما فيه يدعو الى الغبطة ، ويرونه سائراً فى طريق التقدم والكمال ، وفى هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع ماكس نورداو ، جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفا ، ورماهم بنقص فى عقولهم ، فى مقالته التى كتبها عن السخط والرضى (Pessimisme & Optimisme) فى كتابه الفلسفى الذى سماه (الغرائب Paradoxes) وهى مقالة ، غاية فى الامتاع واللذة ، نحب ان لا تفوت القارئ ، وقد لخصتها مجلة البيان فى سنتها الرابعة فى عدديها الثانى والثالث ، تلخيصا لا يخلو من الفائدة والنفع ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة فى الكتب الافرنجية ، وفى كتاب (الفصول) للأستاذ العقاد فصل ممتع - على ايجازه - فى (ص ٥ و ٦) عن التشاؤم ، وفيه رد مقنع ، على من يعيبون على الساخطين سخطهم وتقمتهم على الحياة

الموت الذى هو رِبق فى أعناق الحيوان ـ حُكْم لقاؤه فى كل أوان !

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقيضها الفأل ـ أو التيمن (Bon Augure) ، فمذهب آخر يختلف فى نظرنا عن مذهب السخط والرضى كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان ساخطا أو راضيا ولكنه لا يتطير ولا يتفاءل ، وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه فى الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

***

وانما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية . وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات ، لاستنتاج شىء وهمى لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له ـ عند العقلاء ـ وانما يدعو اليها ، فى نظرنا ، عدم اطمئنان القلب . وحمقة العقل ، وربما لو رجع الانسان الى نفسه يسائلها فى اى ساعاتها تميل الى التعلل باشباه هذه الخرافات . لرأى ان ذلك كثيرا ما يحدث فى أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مدهل . تملك على الانسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أتفه الأسباب وأقلها غناء ، لينقذ نفسه من الهلاك ، فأما فى ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم الا ان كان من ذلك النوع الذى أصبح له الطير ديدناً وطبعاً ، وهذا غير السخط الذى أساسه سوء الظن وشدة الحذر . والنقمة على الحياة ، والنظر اليها من حاجبها الأسود !

***

انظر الى تطير الامين ـ مثلا ـ حين حاصره «طاهر» ولم يكن سمعنا بتطيره من قبل ـ قال « ابراهيم بن المهدى » وكان حينئذ مع الامين :

« خرج الامين ذات ليلة يريد ان يتفرج من الضيق الذى هو فيه ، فصار الى قصر له بناحية «الخلد» ثم ارسل الى خصرت عنده ، فقال : «ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء على شاطئ «دجله» فهل لك فى الشرب ؟» فقلت : «شأنك» فشرب رطلا وسقانى آخر ، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لى : «ما تقول فيمن يضرب عليك » فقلت : «ما أحوجنى اليه »

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها «ضعف» فتطيرت من اسمها ونحن فى تلك الحال

فقال لها : « غنى » فغنت لشعر الحعدى :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر حرما منك صرح بالدم

فاشتد ذلك عليه وتطير منه ، وقال «غنى غير ذلك » فغنت :

أبكى فراقكم عينى فأرقها ان الفرق للأحباب بكاء

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا ـ وريب الدهر عدّاء

فقال لها . «لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا » فقالت « ما تغنيت الا ما علمت أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار، وما دارت نجوم السماء فى الفلك

الا ليقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك

وملك ذى العرش دائم ابدا ليس بفان ولا بمشترك

***

فقال لها «فوالى غضب الله عليك ولعنك» وكان له قدح من بلور حسن الصنعة، وكان موضوعا بين يديه ـ فضرب الجارية به فكسرته . فقال : « ويحك يا إبراهيم أما ترى ماجاءت هذه الجارية به ، ثم ما كان من كسر القدح ، والله ما اظن أمرى الا قد قرب» فقلت : « يديم الله ملكك ويعز سلطانك ويكبت عدوك » فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتا . « قضى الامر الذى فيه تستفتيان »

فقال يا ابراهيم أما سمعت ما سمعت ، قلت ما سمعت شيئا ، وكنت قد سمعت ، قال تسمع حسا ، فدنوت من الشط فلم أر شيئا ـ ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت بمثله ، ففام من مجلسه معتما الى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى الا ليلة او ليلتان حتى قتل »

فانظر الى هذه الحكاية المحررة وتأمل قليلا ، ألست ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر فى كل هذه الاستنتاجات وتمثل كل ماحدث فى تلك الليلة المروعة قد حدث فى ليلة أمس وطرب بل فى ليلة عادية ـ ان شئت ـ أكانا يهتمان به كل هذا الاهتمام ؟

. . . . . .

وهذا الروع الذى أحسه ابراهيم المهدى ـ حين سمع اسم الجارية « صعف » هل كان يحس مثله ـ اذا تبدل الموقف وكان انتصارا وفوزا ـ أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الامين ؟ فكيف لم يتطير باسمها من قبل هذه المرة ؟

وهل تحسها غنت الا ما حسبت أن مولاها يحبه ـ وكم عشقه ـ هى أو غيرها ـ مثل هذه الابيات فطرب وانتحى . ومن يدرى فربما كان الأمين يميل الى هذا النوع من الشعر المشجى . وكان هذا الميل مغريا للجارية على غناء تلك الابيات : وتمثل الامين عاقد مسيئاً بالقتل ـ على حرم فرض منه خامره شىء من الندم ـ وإنه لكذلك ـ إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه .

كليب لعمرى كان اكثر ناصرا وأيسر حرما منك ضرج بالدم

ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده . وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل ان يقتل ذلك المسىء وهو يفكر فى ذلك . أكان تطير منه ـ اذ ذاك ـ وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه . ألا يكون فيه اغراء بقتل ذلك المسىء

* *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية فى موقف غير هذا ، فى موقف غرام مثلا ، فى ساعة يفكر فيها الامين فى معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلا ، فكيف يكون أثرهما فى نفسه ، وكيف يتمثل قولها: « إن التفرق للاحباب بكاء؟» ولكن تغير الموقف فتغير المعنى

واعكس الآية ، فتمثل الأمين ـ فى مكان المأمون ـ وانه قد أوشك أن ينتصر على أخيه وأنه قد سمع الابيات الاخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه فى نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما دارت نحوم السماء فى الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف وتمثل آثار تلك الابيات فى نفسيهما تجدها مختلفة يصل احتلافها الى مسافة ما بين الصد والصد احيانا

ثم ماذا فى هذه الجملة التى غمت الامين « قضى الامر الذى فيه تستفتيان » ألم يكن

. . . . . .

فيها متأول حسن ـ لو شاء: ألم يسمعها عقب دعاءله بدوام ملكه وإعزاز سلطانه وكبت عدوه ، فإذا قضى هذا الأمر فقد تم له ما أراد

ولكن احوان هذه الخليقة ـ كما يقول ابو العلاء ـ لا يحملون الاشياء الواردة على الحقيقة !

ومن أجمل ما رووه عن التطير والمتأول قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « ثلاثة لا يسلم منهن أحد ـ الطيرة والظن والحسد ـ »، قيل له : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟

قال : « اذا تطيرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقق . واذا حسدت فلا تبغ »

***

اذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطا ولم يكن متطيراً .

أما «ابن الرومى» فربما لم يكن شديد السخط على الحياة . ولكنه كان ـ على الرغم من ذلك ـ اماما من أئمة المتطيرين ، وسيمر بك فى هذا الفصل وفى رسالة ابن القارح ما يريدك اقتناعا بتطيره ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فاذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المصاع . فاذا رأى ذلك الاحدب الذى تعود مضايقته ، جالساً . جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومى » كيف ينتقم منه ويثأر لنفسه منه، بيتيه اللذين وسمه بهما آخر الابد ، وهما قوله .

«قصر أحادبه ، وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

ولابن الرومى ـ فى تطيره ـ أخبار شتى ، منها أن أبا الحسن الاخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فاذا رد عليه ابن الرومى مستفسراً ، أجابه «مرة ابن حنظلة » فيتطير من ذلك ولا يجسر على الخروج بقية يومه وقد هجاه فى ديوانه مراراً هجاء مؤلما مقذعا .

. . . . . .

ولما كان هذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئاً من الاسهاب فى تفصيل هذه النزعات وتحليلها والمقارنة بينها ، فاننا نكتفى بهذا القدر على ايجازه — ونشير الى رأى أبى العلاء فى مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتهكمه اللاذع بأصحابه وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى فى هذا الفصل من حججه الباهرة وبراهينه القوية التى دلل بها على فساد ذلك المذهب ، ثم نتبعها بمختارة نبين لك نزعة ابن الرومى الى التطير ، واليك نخبة من كلام أبى العلاء فى ذلك :

نخبة من شعر أبى العلاء فى الطيرة

تروم قياسا للحوادث صلة ... وتلك أصول ليس يجمعها الحصر

تعرض للطير السوانح راحراً ... أمالك من عقل — يكفك — راجر

أغربانك السحم استقلت مع الضحى ... سوانح ؟ أم مرت حمائمك الورق ؟

لا تفرحن بفال — ان سمعت به — ... ولا تطير ، اذا ما ناعب نعبا

فالخطب أقطع من سراء تأملها ... والأمر أيسر من أن تصمر الرعبا

آليت لا يدرى بما هو كائن ... متفائل بالامر أو متطير

كالدار صبحها سوى سكانها ... فثووا بها ، وتحمل المتدير

رحر الغراب تطيراً ، وتقيصه ... ديك لاهل الدار أبيض أفرق

شاهدت قبرة حفت تطيراً ... ما كل ميت — لا أبا لك — يقبر

لا يتطير بناعب أحد ... وكل ما شاهد الفتى طيره

وما طير اليمين بمبهجاتى ... فأحشى الهم من طير الشمال

وقد سمى المرء « الهزبر » تفاؤلا ... وليس بباق فى الليالى هزبرها

وما أسر لتعشير الغراب أسى ... ولا أبكى خليطا حل نشارا

ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ... ولا طمت سهيلا كان عشارا

. . . . . .

أى لا أصمر حرباً اذا سمعت العراب يصيح عشرة أصوات متتابعة ولا أبكى جمعاً ذهب الى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلا كان عشارا باليمن

وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس ؛ لا ، بل فى الرحال غماء
وذو نحب ـ ان كان ما قيل صادقا ـ ... فما فيه الا معشر نجباء

وانظر الى سحريته الدقيقة فى قوله :

رآنى فى الكرى رحل ، كأنى ... ـ من الدهب ـ اتحدت غشاء رأسى
« قلنسوة ـ حبست بها ـ نصارا ... كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت ـ معبرا : ـ « دهب ذهابى ... وتلك بناهة لى ـ فى اندراسى »
. . . . . .
أقمت ـ وكان بعض الحزم يوما ـ ... لزكب السفر أن تلقى المراسى

نخبة مختارة
من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال

والى القارئ نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والفأل

لا تهاون بطيرة أيها النطـــار ، وأعلم بأنها عنوان
قف ـ اذا طيرة تلقتك وانظر ... واستمع ـ ثم ـ ما يقول الزمان :
فلما غاب من أمورك عنوا ... ن مبين وللزمان لسان (١)
. . . . . .
لا تصـدق عن النبيين ، إلا ... بحديث ـ يلوح فيـه البيان

(١) ومن قول ابن الرومى « الفأل لسان الزمان . والطيرة عنوان الحدثان » قال ابن رشيق « وكان ابن الرومى كثير الطيرة ربما اقام المدة الطويلة لا يتصرف ـ تطيرا بسوء ما يراه ويسمعه ـ حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده واعلم بحاله فى الطيرة فبعث اليه حادما اسمه اقبال ليتفاءل به فلما احد اهبته للركوب قال للخادم : « انصرف الى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك « لا بقا » وابن الرومى القائل « الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان وله فيه احتجاجات وشعر كثير »

. . . . . .

قد أتى عن نبيا حمه الفأ ل ، مصيئاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتصاحك بالطير رة ، بالنصح مثمن محان
أترى من يرى البشير نشيرا يمترى فى المدير ياوسنان(١)

***

خبر الله أن مشأمة كا نت لقوم ، وحبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال والفرقانُ

وقد تفاءلت له ـ راحرا كميته ، لا راحرا ثعلبا
انى تأملت له كميه ـ اذا بدا مقلوبها ـ أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وداك فأل لم يعد معطبا
بل داك فأل صامن سبعة مثل الصقور استشرفت أرنبا
يأتون من صلب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
فى مدة تعمرها نعمة يحملها الله له ترتبا
حتى نراه جالساً بينهم أجل من رصوى ومن كمكما
كالبدر وافى الارض فى نوره بين نجوم سبعة ، فاحتبى
يعدى على الدهر ـ اذا ما اعتدى ويؤمن الناس ـ اذا استرهبا

تفاءلت والفأل لى معجب فقلت ـ وما أنا بالعابث ـ :
« أبو حسن وأبو مثله كميا أبى حسن ثالث ! »

---

(١) كان ابن الرومى يحتج للطيرة ويقول : « ان النبى (ص) كان يحب الفال ويكره الطيرة أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده » ويقول ان النبى (ص) مر برجل ـ وهو يرحل ناقة ويقول : « يا ملعونة » فقال « لا يصحبنا ملعون » وان عليا ـ رضى الله عنه ـ كان لا يغزو غزاة ـ والقمر فى العقرب ! »

. . . . . .

أحذر أهل الارض شؤم ابن طالب ... فما زال مشحوذا على من يصاحب
وقد جربت منه على « آل مخلد » ... تحارب . ليست مثلهن تحارب
أريرق مشئوم ، أحيمر قاشر ... لأصحابه ، نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ — الا وفعله ... لفعل شبيه السوء — شبه مقارب
أعوذ بمن الله من أن يضمنى ... وإياه فى الارض البسيطة حائب
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه ... وان قيل: « كليم » وان قيل: « كاتب »

***

وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف — والسيف قاضب
ويدعى أبوه « طالبا » وكفاكم ... به طيرة — أن المنية طالب
ألا فاهربوا من « طالب » و« ابن طالب » ... فمن طالب مثليهما ، طار هارب !

قل لغراب البين — تبا له — ... اذا تعاطى القول فى مذهب (١)
أو رفع الصوت — لشدوله ... مثل سقيط الدمق الاشهب
« اسكت ، لحاك الله — من قائل ... أحنف عن قصد الهوى أنكب
لا تطقن الدهر فى محفل ... واغصض على الكثكث والأثلب
أنت غراب — حين أحواله ... مالزم الصمت — ولم يَنْعب
فاترك نعيبا — شؤمه راجع ... عليك — يحدوك الى معطب
يابين ، أنت البين فى عترة ... بين غراب البين والاحطب (٢)
يبتقل الناس وأحوالهم ... وأنت فى الدنيا من الرتب (٣)
اذا حللا عن منزل أهله ... فأنت فى أوتاده الرسب
أنت أثافيه وآباؤه ... يشعب أهلوه — ولم تشعب

والقصيدة طويلة يمكن الرجوع اليها فى ديوان ابن الرومى « فى ص٤٤٧ ج٣ »

---

(١) من ابدع ما قرأناه فى انصاف الغراب وتبرئته من تهمة البعريق ، قول بعض الشعراء :

والناس يلحون « غرا — ب البين » لما جهلوا
وهل « غراب البين » الا ناقة . او جمل
وما على طهر « غرا — ب البين » تطوى الرحل ! »

(٢) الصرد (٣) جمع راتب وهو الثابت

وكذلك قالت العامة : « الإرجاف أول الكون[١] : »

ويقال : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمثل بهذا البيت ـ ولم يتممه ـ:

تفاءل بما تهوى يكن . فلقاما يقال لشيء : «كان» إلا تحققا[٢]

ومهما ذهب اليه اللبيب ، فالخير في هذه الدنيا قليل جداً[٣] والشر يزيد عليه بأجزاء ليست بالمحصاة ، وقال علقمة

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته ، لا بد مشئوم

* * *

وكان «ابن الرومي» معروفا بالتطير ، ومن ذا الذي أجرى على التخيُّر ، وقد جاءت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار كثيرة ، تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن ، مثل مرة وشهاب !

* * *

---

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومي في نونيته الجميلة :

وادا ما طست شراً خمه رب شر ـ يقيمه مظنونه

وكان « ابن الرومي » يقول : « ان الطيرة موجودة في الطباع ، قائمة فيها ، وان بعض الناس — هي في طباعهم أظهر منها في بعض ، وان الاكثر في الناس — اذا لقي ما يكرهه — قال : « على وجه من أصبحت اليوم ! »

(٢) ارجع الى ص «٨٢» من هذا الجزء (٣) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والاجزاء بعد شرور

على أنه أنكر حتى هذا الجزء القليل جداً من الخير ـ في مكان آخر فقال :

لا أزعم الخير مازجا كدراً بل مزعمي أن كله كدر

ونحو من حكاية ابن الرومى التى حكاها الناجم [١] ما حكى عن امرأة من العرب أنها قالت للأخرى ،، سمانى أبى « غاضية » وانما تلك نار ذات غضى ، وتزوجت من بنى جمرة رجلا كان اسمه « توربا » وانما ذلك تراب ، فسمتت بى الاتراب ، وكان اسم أمه « سوارة » فلم تزل تساورنى فى الخصام ،،

فقالت الاخرى : « لكن سمانى أبى « صافية » فصفوت ، وزوجنى من بنى سعد بن بكر ، فبكر على السعد . واسم زوجى « محاسن » ـ جزى الصالحة ـ فقد حاسن وما لاسن ، واسم أبيه وفاف ـ رعاه الله ـ فقد وقف على خيره ، واسم أمه « راضية » رضيت أخلاقى ، ولم تجنح الى طلاقى ! »

* * *

وإذا كان الرجل خنار ما [٢] لم يزل فى الكنكث [٣] آرما ، ان رأى حمامة فرق من الحمام [٤] كما قال الطائى :

هن الحمام ـ فان كسرت عيافة [٥] من حائهن ـ فانهن حمام

وان آنس نعامة فما يأخذها من النعيم ، ويجعلها بالهلكة مثل الزعيم : يقول من الفند [٦] : « أولها نعى » وإن نظر الى عصفور ، قال : « عصف من الحوادث بوفور » فهو طول أبده فى عناء

* * *

ولهذه الطوية جعل ابن الرومى « جعفرا » من الجوع والفرار ، ولو هدى

---

(١) هي الحكاية التى رواها عثمان الناجم عن ابن الرومى وذكرها ابن القارح فى رسالته (٢) متطيراً (٣) التراب

(٤) الهلاك (٥) العيافة زجر الطير (٦) الخرف أو العجز

صرفه الى النهر الجرار لأن الجعفر النهر الكثير الماء ، ولكن إخوان هذه الخليقة لا يحملون الاشياء الواردة على الحقيقة (١)

وأراد بعضهم السفر فى أول السنة فقال . « ان سافرت فى المحرم ، كنت جديرا أن أحرم ، وان رحلت فى صفر ، خشيت على يدى ان تصفر » فأخر سفره الى شهر ربيع . فلما سافر مرض فلم يحظ بطائل ، فقال : « ظننته من ربيع الرياض ، فاذا هو من ربع (٢) الامراض »

* * *

وأما اعداده الماء المملوح فتعلة ، وما تنقع بالحيل غلة . وتقريبه الخنجر تحزر من جان ، وكم تنقض الاقضية ما بنى البان ، ورب رجل يحتفر له قبرا بالشام ، ثم يحشمه القدر بعيد الاجسام ، فيموت باليمن أو بالهند ،

---

(١) ومما برووه عن تطير ابن الرومى ماحكاه عمه « على بن عبدالله بن المسيب قال . دخل على ، يوم المهرجان ، وقد اهدى الى عدة من حوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز فى احدى عينيها نكتة فتطير من ذلك ، ولم يظهر الى أمره ؛ وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح فماتت . وحماه القاسم الوزير فجعل سدب ذلك المغنيتين ، وكتب الي :

ايها المتحفى بحـول وعور ... اين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمرا مهيبا ... ساءنا فيك ايها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر ، ارانا ما اعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحرّ ... ة مصبوغة بهـا الاكمان
وتجافى مؤمـل لى خليـل ... لج فيه الحمـاء والهجران

الي آخر القصيدة (ارجع الى ص «٨٨» حـ «٢»)

(٢) حمى تنوب يوما وتترك يومين ، وذلك أنها تأخذ فى الايام الثلاثة ثمانى عشره ساعة ـ وهى ربع ساعات تلك الايام الثلاثة ـ وسميت كذلك باعتبار الساعات

وما تدري نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير

وكما أن النفس جهلت مدفن عظامها ، فهى الجاهلة لنظامها ، كم ظان أنه يهلك بسيف فهلك بحجر [١] وموقن أن شجبه يقدر على مهاد ، فألقته الأسل ببعض الوهاد

* * *

والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومى مقيدان ، وما علمت انه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدا ، الا فى بيت واحد ، يتداوله رواة اللغة ، والبيت :

« كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون [٢] قد مالت طلاهم »

وهذا البيت مؤسس ، والذى قاله ابن الرومى من غير تأسيس ، وما يدرى الناجم [٣] — ولعله بالفكر راجم — أفى الجنة حصل ذلك الشيخ أم فى السعير !

ابو تمام [٤]

وأما «أبو تمام» فما أمسك من الدين بزمام ، فان قذف فى النار «حبيب» [٥] فما تغنى المدح ولا التشبيب !

---

(١) وهذا قريب من قوله :

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أتاه ليث — على العلات — يفترس

(٢) مفردها « نعج » وهو السمين ، أو الذى أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه (٣) يعنى أبا عثمان الناجم

(٤) ارجع الى ترجمته فى ص « ١٨٣ » ج « ١ » (١) هو أبو تمام

مناهة القصائد [1]

ولو أن القصائد لها علم وتأسف ، لأقامت عليه المدودتان اللتان فى أول ديوانه مأتما ، فناحتا عليه كابنتى لبيد ، وقالتا ما زعمه « الكلابى » فى قوله :

,, وقولا: «هو الميت الذى لا حريمه أضاع، ولا خان الصديق ولا غدر»
الى الحول ، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر،،

وكأنى بهما ـ لو قضي ذلك ـ لاجتمعت اليهما المدودات ، كما تجتمع نساء من كل أوب ، ولو فعلن ذلك لبارتهن «البائيات» بمأتم أعظم رنينا ، واذا كان مأتم المدودات فى مائة ممن يسعدهن ويظاهر ، وجب أن يكون مأتم البائيات فى آلاف ، لان الباء طريق ركوب ، والمد ـ فى القصائد ـ سبيل منكوب ، وما نظمه على « التاء» فانه لا يعجز عن الإيتاء ، وتجىء النائيتان فى حالك اللون ـ وان التاء لقليلة فى شعر العرب ـ الا أنهما تستعينان كلمة كثير :

« حبال السلامة اضحت رثاثا فسقيا لها ـ جددا أو رماثا»

وبأراجيز رؤبة [2] وما كان نحوها من القوافى المتكلفة ، والأشعار المتعسفة ، ولهما ـ فيما نظم « ابن دريد » ـ اعوان

فأما الداليات والرائيات وما بني على الحروف الدلل ، كاللام والعين واللام

---

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبى تمام ذوات حية تندب صاحبها كما تمثل من قبل فى (جـ ١ ص «١٢٤») أبيات لبيد الثلاثة قصورا فى الجنة

(٢) ارجع الى ترجمته فى جـ ١ ص «٢٢٧»

وما جرى مجراهن،فلو احتمع كل حيز منهن.لضاق عنهن الصدر والابراد، وزدن على ماذكر انه اجتمع فى جنازة «احمد بن حنبل» من النساء والرجال[1]

ويقال انه لم يجتمع فى الجاهلية ولا الاسلام جمع اكثر مما اجتمع فى موت احمد ، حرز الرجال بالف الف ، والنساء بستمائة الف ، والله العالم بيقين الاشياء :

وان كان «حبيب» ضيع صلواته ، فانه لضال ، لا يبلغ فيه كيد العداة ما بلغ من اهمال غداة ، واني لأضن بتلك الأوصال ، أن يطل جسدها وهو بالموقدة صال.لأنه صاحب طريقة مبتدعة.ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار ، فليته كالجعدى[2] أو ليته لحق يزيد بن مهلهل فقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم - وطرح عنه ثوب الغبي:

المازيار

وأما « المازيار » فخلال بالسفه سيار ، وحسبه ما يتجرع من الحميم ،

---

(١) احمد بن حنبل

توفى ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد اشتهر بحفظه وروايته للحديث وكان من أصحاب الشافعى ، صنف كتابه «المسند» وجمع فيه من الأحاديث مالم يتفق لغيره ، وكان ورعا حسن الوجه يخضب بالحناء خضبا حسنا

وحدثت فى زمنه المسألة المشهورة وهى القول بخلق القرآن فدعى الى الموافقة عليها فلم يجب،فضرب وحبس

ورووا أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة الف رجل وستون الف امرأة

(٢) ارجع الى ترجمته فى ج (١) ص « ٧٩ »

ويحتمل من المقال الذميم ، وقد خلد له فى الكتب ، ما يوجب لعنه الى يوم الدين

ابو مسلم الخراسانى

والعجب لأبي مسلم ، حطب لنار أكلته ، وقتل فى طاعة ولاة قتلته ، وليس بأول من دأب لسواه ، وأغواه الطمع — فيمن أغواه — وانما سهر لأم دفر [١] ، وتبع سرابا فى قفر ، فوجد ذنبه غير المغتفر عند صاحب الدولة « أبى جعفر [٢] »

*
* *

وكل ساع للفانية لا بد له من الندم . فدمنا لها يحسب من الضلال — كما تمني الفنع أخو الاقلال ، وهده زيادة فى النصب . وفاز بالسبق حائز القصب . يذمها على غير جناية — ولم تخص أحدا بعناية — بل أبناؤها فى المحن سواء لا تساعفهم الأهواء !

أعباء الفقير وأعباء الغنى

فرب حامل حزمة عضيد [٣] ، يعجز عنها عن القوت ، ويكابد شظف

---

(١) الدنيا — وأبو العلاء يكنيها بهذه الكنية . ومعناها « ام تتن » لتقمته عليها فهو لا يكاد يذكر الدنيا الا كناها بذلك .

(٢) انظر الى قول أبى العلاء فى ذلك : فى لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ، لا تسلمى »
« قد سكن القفر « بنو هاشم » وانتقل الملك الى الديلم »
لو كنت أدرى أن عقبكم كذاك ، لم اقتل أبا مسلم »

(٣) الطريقة من النخل — أو النخلة التى لها جزع يتناول منه المتناول

عيش ممقوت ، يلج سُلاءً في قدمه، ويخضبه الشائك بدمه ، وهو أقل أشجانا من الواثب على السرير. ينعم برشأٍ غرير يجمع له الذهب من غير حل، باعنات الامم ، وإذا ملأ بطنه من طعام[1] وسبح في بحر من الترف ، فتلك النعم ولذاته تحدث لها أذاته ، يختلجه القدر على غفول - وغاية السفر الى قفول .

***

وما يدرى العاقل - إذا افتكر - أى الشخصين أفضل ؟ أريب عُقِد عليه إكليل ، أم أرقش ظله في النكٍّ ظليل ، كلاهما بلغ آرابا ، وأحدهما يأكل ترابا ، والآخر يُعلَّل بالراح ، ويُجتهد له في الافراح

***

وما علمنا أن النسك موقيا . ولا في الأسباب الرافعة مُرقيا - والعالم بقدر عاملون - أخطأهم ما هم آملون - وما آمن أن تكون الآخرة بإرزاق[2]

---

(١) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لروميات له :

ساس الأنام شياطين مسلطة ... فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يخفل حمص الناس كلهم ... إن بات يشرب حمرا - وهو منطان

(٢) الجد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس وطرفة فى (ص ٢٠٦ و٢٠٤ حـ ١) وذكره فى مكان آخر فى لروميات فقال :

والبخت فى الاولى أنال العلا ... وليس فى آخرة بخت
كذاك قالوا ، وأحاديثهم ... يبين فيها الجزل والشخت

وكرره فى قوله :

أأخشى عذاب الله ، والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم ! ، انها الارزاق ، والمرء جاهل ... يهذب من دنياه ما لم يهذب

ولأبى العلاء أشعار أخرى كثيرة فى الجد ، نجتزىء منها بقوله :

على أن السر مغيب ، وكلنا ـ فى الملتمس ـ مخيّب ، والجاهل ـ وفوق

والسعد يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال الى أن يعمد الحجرا
وشرفت « ذات انواط » قبائلها ولم تباين ـ على علاتها ـ الشجرا
سيطلبنى رزق الذى لو طلبته لما راد ، والدنيا حظوظ واقبال
لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم الاديب ، بغير حظ ، مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح ، وهذا اعزل
اذا صدق الحد افترى العم للفتى مكارم لا تحصى ـ وان كذب الخال

العم أى الجماعة ولا تكرى أى لا تعقد والخال المحيلة

موجز رأى الشعراء فى الحد

وننتهز هذه المناسبة فنذكر نبذة من آراء الشعراء فى الحد ، ويمكن القول بان آراءهم جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغناء ، قال المتنبى :

هو الحد حتى تفصل العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيدا
وما الجمع بين الماء والنار فى يد بأصعب من أن أجمع الحد والفهما

وقال أبو تمام :

يمال الفتى من دهره ، وهو جاهل ويكدى الفتى من دهره ـ وهو عالم
ولو كانت الارزاق تأتى على الحجا اذن هلكت من جهلهن البهائم

وقال الصالى :

اذا جمعت بين امرئين صناعة فأحسنت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تنفقد منهما غير ما حرت به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل فالرزق واسع وحيث يكون العلم فالرزق ضيق

وقال ابن وهبون:

وحيث ترى رند السحابة واريا فثم ترى رند السعادة كابيا

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب ... كفيلا بسعد المطلب المتدانى
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه ... ويعطى مناه العاجز المتوانى

وقال المرورى الصرير

تنافى العقل والمال ... فما بينهما شكل
فعقل حيث لا مال ... ومال حيث لاعقل

وقال القاضى الفاضل

وزيادتى فى الحدق فيه ... نى زيادة فى نقص رزقى

وقال ابن سناء الملك

هو الجد حده ان اردت مساماً ... ولا تطلب التعليل فالأمر مبهم

ومما نختاره من شعر ابن الرومى فى « الحد » قوله :

عرت مطالب دنيا كل ذى أدب ... وهاد مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيها أن يذللها ... فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم وتجربة ... من مأكل حشف ، أو مشرب رنق
ودو الجهالة منها فى بلهنية ... من مسمع حسن ، أو منظر أنق
تبارك العدل فيها ـ حين يقسمها ... بين البرية قسما غير متفق !

وقوله .

لاتعجبن لمرزوق أخى هوج ... خطا تخطى أصيل الرأى طرافا
فخالق الناس أعراء بلا وبر ... كاسى البهائم أوباراً وأصوافا
مارلت أعرف أهل العجز فى دعة ... لايكلمون ، وأهل الكيس كلافا
أما ترى هذه الانعام ـ قد كفيت ... مما تساوم بالاحقاف خفافا !

وقوله :

دنيا علا شأن الوضيع بها ... وهوى الرفيع ـ يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه ... سلا ، ويطفو فوقه جفيفه

علي بن أبي طالب[1]

أما الذين يدعون في «علي» ـ عليه السلام ـ ما يدعون فتلك، ضلالة

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ... ويخفض كل ذي شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حي ... ولا يفلك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يحفظ كل واف ... ويرفع كل ذي زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التي يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه وهي:

ولما لمست الرزق فاجد حيله ... ولم يصف لي من بحره العذب مشرب
حطبت الى الاعدام احدى بناته ... فروحيها الفقر ـ اذ جئت أخطب
فأولدتها الحرن الشقي ، فما له ... على الارض غيري والد ، حين ينسب
فلو تهت في البيداء ـ والليل مسدل ... على حاجبيه ـ لما لاح كوكب
ولو حفت شراً فاستترت بظلة ... لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد انسان على بدرهم ... لرحت ـ الى رحلي وفي الكف عقرب
ولو يمطر الناس الدنانير ، لم يكن ... لشيء سوى الحصباء رأسي يحصب
وان يقترف ذنباً ببرقة مذنب ... فان برأسي ذلك الذنب يعصب
وان أر خيرا في المنام ، فنازح ... وان أر شراً فهو مني مقرب
أمامي من الحرمان جيش عرمرم ... ومنه ورائي جحفل حين أركب

وسيمر بك قول ابن الراوندي في الجد في ص «١٠٤» من هذا الجزء

(١) للشيعة آراء مضحكة في علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم «أنه لم يقتل ، وانما الذي قتله «ابن ملجم» هو شيطان تصور للناس في صورته ، أما علي فقد صعد الى السماء ، وسينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه»، وهي دعوى تشبه ما ادعوه في عيسى .

وادعى قوم ان الله أرسل جبريل الى علي ، فذهب الى محمد خطأ ـ لشدة الشبه

قديمة ، وديمة من الغواية تتصل بها ديمة ، وقد روي أنه حرّق « عبد الله

بين النبي والامام على ، وهذه الفرقة تقول « العنوا صاحب الريش » اى جبريل

وادعى آخرون ان الله خلق محمداً ثم فوض اليه تدبير العالم وتدبيره، فهو الذي خلق العالم دون الله، ثم فوض محمد تدبير العالم الى على بن ابى طالب ، فهو المدبر الثالث

ورعم غيرهم ان عليا هو الله ، وشتموا محمدا ، ورعمو ان عليا بعثه ليثنى عنه فادعى الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد قال : « عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفى هذه الطائفة يقول ابو اسحق ابن سويد العامرى :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الحجاج منهم وابن باب

ومن قوم ـ اذا ذكروا عليا ـ ... يردون السلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد الى اليوم ان عليا راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ، ومما يذكره بهذه المناسبة ـ على سبيل التندر والفكاهة ـ أن أحد أشياخنا المعممين ، المشتغلين بنظم الكلام . أراد ان يبتكر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير القديمة ، ويدفع عن نفسه معرة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحى ، الذى يحتاجه هذا العصر المملوء بالحياة والتفكير . فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكري العظيم ـ من الشاعر ـ هو ان يستبدل وصف البوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الاحد بتلك الخرافة ، ودعا الله ان يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بلقيا على بن أبى طالب ، فقال :

« فهب لى ذات احنحة ، لعلى ... بها القى على السحب الاماما »

فلم يردنا اقتناعا بجموده، ولكنه وفق الى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

***

وقد نسبو الى « على بن ابى طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كلياً وجزئيا ، وتدعى طائفة أنه

ابن سبأ » لما جاهر بذلك النبأ : ـ واعتقاد « الكيسانيه » فى « محمد بن الحنيفية » عجيب ، لا يصدق بمثله نجيب :

وضع الحروف الهجائية فى جلد الجفر ، وأنه يمكن استجراح ـ ما يأتى به الغيب ـ منها بطريقة خاصة ، ويدعون ان هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى اليهم ، وأنهم يتوارثونه ، وادعى آخرون أن فهم اسرار هذا الجفر قاصر على المهدى المنتظر ، وأنه ـ دون غيره ـ يستطيع أن يعقه حقيقة ما فى هذا الكتاب الذى سموه بهذا الاسم لأن عليا كتبه حروفا متفرقة فى ورق مصموغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للاولين والآخرين ، وفيه يقول ابو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة اذا كنت اطراسها ملأت جفرا (١) »

ولا يزال بعض العامة يعنى بهذه الخرافات وأشباهها ويأخذها بلا تدبر ولا روية : ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيخ الدجال ، وغير ذلك من الترهات ، وقد وقف أبو العلاء قسما كبيرا من رسالة الغفران واللزوميات ، لمحاربة اشباه هذه البدع ، والتشنيع على من يقولون بها ، وحسبنا ان نستدل بقوله منددا بتلك الخرافة التى يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حى » عليهم عفاء ، نعم ليل من الفتن احضرا
ولو صدقوا ما انفك فى شر حالة يعانى بها الاسفار ، أشعث مغبرا
حنى قائل بالمين ، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مصطرا

وقوله منددا بالمهدى المنتظر :

محوسية وحميمية ونصرانه ويهودية
تراقب مهديها أن يقو م فتلقى الى الحق مهدية

وقد عدد بظهوره فى مكان آخر فى (ص ٤٣) من هذا الجزء ، فليرجع اليها من شاء

---

(١) جلد الماعز

دعوى الربوبية

وقد بلغني أن رجلا بالبصرة يعرف « بشاباس » تزعم جماعة كثيرة أنه رب العزة ، وتجبى اليه الاموال الجمة ، ويحمل الى السلطان منها قسما وافراً ، ليكون ـ بما طلب ـ ظافراً ، وهو ساقط ، وحدثت عن امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك

رجعة الى ابن الراوندى

وقد سمعت من يخبر أن لابن الراوندى معاشر تذكر أن اللاهوت سكنه ويخترصون له فضائل ، تشهد الخالق وأهل المعقول ، ان كذبها غير مصقول ، وهو ـ في هذا ـ أحد الكفرة ، وقد أنشد له منشد :

قسمت بين الورى حظوظهم ... قسمة سكران بيّن الغلط
لو قسم الرزق هكذا رجل ... قلناله : «قد حنت فاستعط[1]»

ولو تمثل هذان البيتان ، كانا ـ في الإصر ـ يطولان أرمى مصر [2]

أبو جوف

وقد ظهر فى الضيعة المعروفة بالنيرب ، رجل يعرف بأبى جوف ،

---

(١) أى ادخل السعوط فى أنفك لتفيق ، والسعوط هو ما يدخل الانف من مسحوق دقيق التبغ ، ولابن الراوندى فى هذا المعنى ، بيتان آخران ، أقل شناعة من هذين البيتين ، وهما قوله

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الاوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

(٢) اى هرمى مصر

كان يدعى النبوة ، ويخبر بأخبار مضحكة ، وكان له قطن فى بيت ، فقال إن قطنى لايحترق ، وأمر ابنه أن يدني سراجا اليـه ، فأخذ في القطن ، وصرحت النساء ، واجتمعت الجيرة .

* * *

وحدثنى من شاهده : أنه كان يكثر الضحك من غير موجب ؛ ولا عند حادث معجب ، فقيل له : « لم تضحك ؟ » فقال كلاماً معناه : « ان الانسان ليفرح بهين قليل ، فكيف من وصل الى العطاء الجليل ! »

وكان بيِّن الجنون ، ليس خبله بالمكنون ، فاتبعه الأغبياء ، وكذب ماتقوله الانبياء ، حتى قتله والى حلب

عودة الى على بن أبى طالب

وبعض الشيعة يحدث أن «سليمان الفارسى» كان فى نفر جاءوا يطلبون على بن أبى طالب ـ سلام الله عليه ـ فلم يجدوه فى منزله ، فبينما هم كذلك ، جاءت بارقة تتبعها راعدة ، واذا على ، «قد نزل على اجار البيت» فى يده سيف مخضوب بالدم ، فقال : « وقع شجار بين فئتين من الملائكة ، فصعدت لأصلح بينهما ! »

أفلا يرى هذه الامة كيف افتتنت فى الضلالة ! كافتتان الربيع فى إخراج الكلأ ! وللكذب سوق ليست كالصدق !

* * *

وأما الذى ذكره من بلوغ السن ، فان الله سبحانه — خلق مقرا وشهداً ، ورغبة فى العاجلة وزهداً ، واذا اللبيب أنعم النظر لم ير الحياة الا تجذبه الى الضير ، صبح يتبسم وإمساء ، كأنعما سيدا ضراء ، والعمر ثلة ، وهما على السارح يغيران ، فيفنيان السائمة [١]

الزواج

وقد تحدث بعض طلاب الأدب ، أنه ذكر التزويج — يريد الخدمة فسرني ذلك ، لأنه دل على اقامة بالوطن ، وفى قربه الفرحة ، اذ كان الشجرة الوارف ظلالها فى الهواجر ، الطيب ثمرها للذائق والارج نسيمها للناشق وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب « اذا بلغ الرجل الستين فاياه وايا الشواب ، ولكن النصف [٢] »

---

(١) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

هل الناس الا نظير السوام وآحادهم أسد تفترس

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة فى لزومياته ، من ذلك قوله:

اذا ما ابن ستين رصم الكعاب الا فقد حلت البهله
هو الشيخ ، لم يرضه أهله ولم يرض فى فعله أهله
فلا يتروح أحو الاربعين الا محرنة كهله
رأى الشيب فى عارضيه المس ، فمعم القرين له الشهله

وقوله: اذا أنت زوجت العجوز، على الصبا فأيامها صن عليك وصنر

وقوله : كأنك — بعد خمسين اسفلت لمولدك — البناء ، دنا ليهوى
وانك — ان تروح بنت عشر — لأحيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية «شيخ مهو» مشهورة ، لا نحب أن نذكرها هنا ، فليرجع اليها من شاء ، فى (ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

ولو نشط لهذه المأربة، لتنافست فيه العجز والمكتهلات، وهل هو إلا كما قال الأول:

«ياعز! هل لك فى شيخ فتى أبداً وقد يكون شباب غير فتيان»

فليس بأول من تزوج - على السن - عجوزاً كما قال:

«اذا ما أعرض الفتيات عنى فمن لى أن تساعفنى عجوز

كأن مجامع اللحيين منها - اذا حسرت عن العرنين - كوز»

ويروى للحارث بن حلزة، ولم أجده فى ديوانه:

وقالوا ما نكحت؟ فقلت خيراً عجوزاً من عرينة ذات مال

نكحت كبيرة وغرمت مالا كذاك البيع مرتخص وغال[1]

وأعوذ بالله مما قاله الآخر

عجوز لو ان الماء يسقى بكفها لما تركتنا بالمياه نجوز

وما زالت العرب تحمد الحيزبون والشهلة. ولا تكره - مع الشرخ - الكهلة:

زواج النبى بخديجة

وقد تزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد، وهو شاب، وهي طاعنة فى السن، وقالت له أم سلمة ابنة أبى أمية: «يارسول الله انى امرأة قد كبرت وما أطيق الغيرة» فقال. أما قولك قد كبرت،

---

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء:

لاتنكحن عجوزا، ان دعيت لها وان حميت على تكييحها الذهبا

فان أتوك وقالوا إنها نصف فان اطيب نصفيها الذى ذهبا

فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فانى سوف أدعو الله أن يزيلها عنك

عامة الشيخ الى الزواج

ولا أشك أنه قد استخدم فى مصر أصناف جوار ، ولولا أن أخا الكبرة يفتقر الى معين ، لكانت الحزامة أن يقتنع بورد المعين ، فهو يعرف قول القائل :

«ما العيش الا القفل والمفتاح وغرفة تخرقها الرياح »

« لا صحب فيها ولا صياح »

الخدم

وحدثني « ابن القنسرى » المقرئ — « أنه سمعه يسأل عن غلام للخدمة ، وربما كان استخدام الأحرار يمنع من القرار ، فقد قال أبو عبادة .

أنا من « ياسر ويسر ونجح » لست من « عامر » ولا « عمار »

ما بأرض العراق ياقوم حر يفتديني من خدمة الأحرار؟

وأن يخدم نفسه الوحيد ، خير من أن يلج بيته العبيد ، فطالما أحوجوا المالك الى ضرب .

« لؤم الخدم (١) »

ورب نازل من أهل الأدب فى خان — يخدمه صبى — هو من الرق حر — وفي خدمته السرق والضر ، اذا أرسله بالدراهم ليأتيه بالبطيخة — حيـ

---

(١) قال ابو العلاء

" ومن عناء الليالى الى خادم ضغن ان يُؤمر الامر يفعل غير ما أُمرا

يكثر البطيخ ـ سرق فى السبيل القطع ، وانتهى فى الخيانة وتنطع ، ثم وقف بالبائع فغبنه ، فأخذ صغيرة من البطيخ ، ثم انصرف بها لاعباً ، فلم يزل يتلقف بها فى الطريق حتى كسرها ، فاختلط حبها بالحصباء .

ويجوز أن يحملها ـ فى حال السلامة ـ ويمضي ليسبح مع الفتيان ـ فاذا نزل فى الماء اختطفها بعض العَرِمة من الصبيان ، فأكلها ـ وهو يراه ـ لا يحفل بأديمها ـ إذ فراه

وقد يرسله بالغضارة [١] يلتمس لبنا ، فيقابل ـ من سوء الرأى غبنا ـ فاذا حصل فيها الهدبد [٢] ، فاذا هو على الصحراء متبلد ، وصارت الفخارة خزفا لا يُراد .

* * *

وأما أهل بلدى ـ حرسهم الله ـ فإذا كان الحظ قد أعطانى حسن ظن الغرباء ، فلا يمتنع أن يعطينى تلك المنزلة من الرهط القرباء ، ولكنهم معى كطلاب الخطبة من الأخرس

التوبة

وأما اشفاق الشيخ ، فتلك سجية الأنيس ، لا يختص بها أخو الجبن عن الشجاع ، ومن القسوط تعرض بالقنوط « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

* * *

كم من أديب شرب وطرب ثم تاب ، فقد يضل الدليل فى ضوء القمر ،

---

(١) القصعة (٢) اللبن

ثم يهديه الله ، وكم استنقذ من اللج غريق فسلم

الفضيل بن عياض

وقد كان الفضيل بن عياض ، يسيم فى أوبل رياض ، ثم حسب في الزهاد ، وجعل من أهل الاجتهاد ، ورب خليع وهو فتى ، تصدر لما كبر وأفتى ، ومغن بطنبور أو عود ، قدر له تولى السعود ، فرقى منبراً للعظات

عمر بن عبد العزيز

ولعله قد نظر فى طبقات المغنين ، فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس ، هكذا ذكر «ابن خرداذبة» وإن يك كاذبا فعليه كذبه

ابو حذيفه وحماد عجرد

والحكاية معروفة ، أن أبا حذيفة[1] كان اشارب حماد عجرد وينادمه ، فنسك أبو حذيفه ، وأقام حماد فى الغى ، فبلغه أن أبا حذيفه يذمه ويعيبه ، فكتب اليه حماد .

ان كان نسكك لا يتم ... بغير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئـ ... ـت مع الادانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى
أيام تعطينى وتأ ... خذ فى أباريق الرصاص

---

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة اليه ، وكان فى زمن عبد الملك وهشام ابن عبد الملك ، ويمكن الرجوع الى مذهبه فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى

عمر بن الخطاب

أليس الصحابة - عليهم رضوان الله - كلهم كان على ضلال ، ثم تداركه المقتدر ذو الجلال ؟ ؟

وفى بعض الروايات ، أن عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجمعاً كانوا يجتمعون فيه للقمار ، فلم يجد فيه أحدا ، فقال لأذهبن الى الخمار لعلى أجد عنده خمراً ، فلم يجد عنده شيئاً . فقال لأذهبن ولأسلمن ، والتوفيق يجىء من الله سبحانه!

عودة الى النبى

وفيما خوطب به النبى - صلى الله عليه وسلم - «ووجدك ضالا فهدى»

وذكر أبو معشر المدنى ، فى كتاب «المبعث» حديثاً معناه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ذبح ذبيحة للأصنام ، فأخذ شيئا منها ، فطبخ له ، وحمله زيد بن حارثه ، ومضيا ليأكلاه فى بعض الشعاب ، فلقيهما « زيد ابن عمرو بن نفيل » وكان من المتألهين فى الجاهلية ، فدعاه النبى - صلى الله عليه وسلم - ليأكل من الطعام ، فسأله عنه ، فقال : « هو شىء ذبحناه لآلهتنا » فقال زيد بن عمرو : « انى لا آكل من شىء ذبح للاصنام ، وانى على دين ابراهيم - صلى الله عليه وسلم » فأمر النبى «زيد بن حارثة» بالقاء مامعه

تميم بن أوس الدارى

وفى حديث آخر - وقد سمعته باسناد - أن تميم بن أوس الداري [1]

---

(١) نسبة الى « الدار » وهى قبيلة من « لخم »

كان يهدى الى النبي ، فى كل سنة ، راوية من خمر ، فجاء في بعض السنين ، وقد حرمت الخمر ، فأراقها

احمد بن حنبل والخمر (١)

وقد ذكر عند ثعلب ، أحمد بن حنبل ، ان كان شرب النبيذ قط ، والنبيذ ـ عند الفقهاء ـ غير الخمر ، فقال ثعلب : « أنا سقيته بيدى »

الخمر

وإنما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر ، ولولا ذلك ، لكان غيرها من الأشربة أعذب وأدفأ (٢) ، وان كان الشيخ قد شرب ، فله

---

(١) ارجع الى ص « ٩٦ » من هذا الجزء

(٢) رأى أبى العلاء فى الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذائذ ويعرف لها مراياها ؛ ولا يتردى فيما تحدثه فى نفس شاربها من نشوة الفرح والطرب ، ويعلم أن ذلك هو السر فى تهافت الناس على شربها ـ على اختلاف العصور والأمكنة

فهو من أعرف الناس بمرايا الخمر ، وان كان لم يذق لها طعما ، فقد قرأ حل ما كتبه عنها شعراء العربية ـ جاهليين وإسلاميين وعباسيين ـ ودرسه ، كما درس غيره ـ فأصبح من أعلم الناس بها ـ وليس ذلك مستغرباً ، فقد أتى أبو العلاء فى أشعاره بكثير من التشبيهات الرائعة التى تعتمد على البصر ـ قبل غيره ـ وحسبك ما أتى به من الاوصاف الكثيرة الدقيقة، فى وصف الدروع وغيرها. ونكتفى من ذلك كله ببيته المشهور ، الذى وصف به سهيلا فقال :

« وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان »

ولم يقصر « بشار » فى كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، واجادة الاوصاف

أسوة بشيخ الازد « محمد بن الحسن » اذ قال :

التى كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم . وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :

« كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه »

***

اذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ويدرك مراياها تماماً ، نعم ، وقد تغنى شربها فى كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طلقة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب — فى كل موضع تمناها فيه تقريبا — بالسبب الرئيسى الذى يدفعه الى العزوف عنها ، والاحجام عن شربها ، وهو « ارراؤها باللب » وقد عرفت أن ابا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويجله ، ويفتن فى تقديسه انظر إلى (ص٥٢و٥٣و٥٤) حتى تضاءل أمامه كل اعتبار قيس اليه ، وقد اظهرنا أن من أكبر الاسباب التى أرعجته من لقاء الموت — رغم حنينه الدائم اليه — هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذى يحرص عليه ويضن به . (انظر إلى ص ١٦)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر فقال :

وما أتوقى والخطوب كثيرة من الدهر الا أن يحل بى الهتر

ويمكننا أن نتخذ البيت التالى مفتاح فلسفته فى الخمر ، وهو :

ولولا أنها باللب تزرى لكنت أحا الندامة والندم

***

والخمر — بعد ذلك — قد حرمها الاسلام ، ولو حلل شربها — لما شربها أبو العلاء

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقه فيحمل ثقلا من همومى وأوزارى

وهيهات ! — لو حلت — لما كنت شاربا محففة فى الحلم كفة ميزانى

وليس ذلك ببدع على من حرم على نفسه أكل اللحم مع اباحة الشرع ذلك .

فهو اذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان فقد دفعه الاشفاق على عقله — أن يحرم على نفسه الخمر — ولو حللها دينه — و لو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السر فى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها احيانا ، فقد تمناها فى

بل رب ليل جمعت قطريه لى بنت ثمانين ـ عروس تجتلى !

لاميته التى قالها ـ وهو بالعراق وأطهر فيها حنينه ووحده الشديد الى لده «المعرة» فقال :

«تميت أن الحمر حلت لنشوة تحيلنى كيف اطمأنت بى الحال
وأذهل أنى بالعراق ، على شفا ترى الامانى لا أبيس ولا مال
مقل من الاهلين يسر وأسرة كمى حر بابين مشت واقلال!»

على أنها أمنية اليائس الذى يفضل الموت على الحياة !

واليك نخبة مختارة مما قاله فى الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا اليه :

لو كانت الخمر حلا ، ما سمحت بها لمفسى الدهر لا سراً ولا علنا

ويهجر طيب الراح حوفا من السكر

هى الراح أهلا لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح
فلا تحسبنك عروس المدام ولا يطرسك مغى صدح
ومن يعتقد لمه ساعة فقد مات فيها بحظ فدح

وقد شرح فى الأبيات التالية ، ما ينجم عن الذهول ، الذى تحدثه الخمر فى نفوس شاربيها فقال :

الباطلية بات كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرت ملاحاة الصديق وهجره ، وأدى الديم ، وفرقة الاحباب
هتكت حجاب المحصنات ، وحشمت مهن العميد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف ، أنهم لبسوا ـ على كبر ـ برود شباب
واذا تأملت الحوادث ، ألفيت صهب الدنان أعادى الالباب

***

وجماع القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، فى اشعاره ، وكما تستطيع ان تفرد لبعض الشعراء ـ كأبى نواس مثلا ـ ديوانا فى مدح الخمر ، تستطيع أنت تفرد لأبى العلاء كذلك ، ديواناً فى ذمها

ثم قال فى آخر القصيدة (١)

فان أمت فقد تناهت لذتى وكل شىء بلغ الحد انتهى

وما أختار له أن يأخذ بقول الحكمي :

قالوا «كبرت» فقلت «ما كبرت يدى عن أن تسير الى فمى بالكاس (٢)»

***

وقد آن لمولاى الشيخ أن يزهد في شيمة حميد الأعجى ، قائل هذه الأبيات :

« شربت المدام فلم أقلع وعوتبت فيها . فلم أرجع

« حميد » الذى أمدح داره أخو الخمر ، ذو الشيبة الأصلع

علاه المشيب على حبها وكان كريما فلم ينزع »

وقال آخر :

---

(١) يعنى مقصورة « ابن دريد » المشهورة التى أولها :

ياطيبة أشمه شىء بالمها ترعي الخزامى بين أشجار القنا

وقد مر بعض ابياتها فى (ج « ١ » ص « ٥٧ ، ٥٨ و٥٩ »)

(٢) هذا البيت من سينية أبى نواس الجميلة التى يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس قس ذا لنا ، ياعاذلى بقياس :

واذا عددت سنى « كم هى ؟ » لم أحد للشيب عذرا فى النزول براسى

قالوا : « كبرت » فقلت : « ما كبرت يدى عن أن تحث الى فمى بالكاس ! »

صفراء ، زان رواءها مخمورها فلها المهذب من ثناء الحاسى

وكأن شاربها ـ لفرط شعاعها بالليل ـ يكرع فى سنا مقباس

فالراح طيبة ، وليس تمامها الا بطيب خلائق الجلاس!

تعاتبني فى الراح أم كبيرة ... وما قولها ـ فيما أراه ـ مصيب
تقول : « الا تجفو المدام ، فعندنا ... من الرزق تمر مُكشب وزبيب ؟ »
فقلت: « رويدا ، ما الزبيب مفرحى ... وليس لتمر فى العظام دبيب
فان « حميداً » علها فى شبابه ... ولم يصح منها ـ حين لاح مشيب »

توبة ابن الفارح

واذا تسامعت المحافل بتوبته ، اجتمع عليه الشبان المقتبلون، والادباء المكتهلون ، وكل أشيب ، فيقتبسون من آدابه ، ويُصغون لمسامع خطابه، وجلس لهم فى بعض المساجد بحلب ، حرسها الله ، فانهامن بعد« ابى عبدالله ابن خالويه عطلت من الأدب »

حديث طالوت

ذكر من نظر فى كتاب « المبتدا » حديث « طالوت » لما أمر ابنته وهى امرأة «داود » ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تدْخله عليه ـ وهو نائم ـ ليقتله ، فجعلت له فى فراش « داود » زق خمر ، ودسّته عليه ، وضربه بالسيف ، وسالت الخمر ، فظن أنها الدم ، فأدركه الأسف والندم ، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ـ ومعه ابنتُه ـ فأمسكت يده ، وحدثته ما فعلته ، فشكرها على ذلك :

عودة الى ذكر الحور

واذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة ، فلعل جواريه المعدات له فى الخلد ، يسألن عن أخباره من يرد

عليهن من الصلحاء ، فيسمعن مرة أنه بالفسطاط ، ومرة أنه بالبصرة ومرة أنه ببغداد ، وخطرة أنه بحلب ، فاذا شاع أمر التوبة ، ومات ناسك من أهل حلب ، أخبرهن بذلك فسررن وابتهجن ، وهنأهن جاراتهن !

* * *

ولا ريب أنه قد سمع حكاية البيتين التاليين ، فى كتب الاعتبار :

أنعم الله بالخيالين عينا ... وبمسراك يا أميم الينا

عجبا : ماجزعت من وحشة اللحـ ... ـد ، ومن ظامة القبور علينا

رجعة الى الخمر

أعوذ بالله من قوم يحنهم المشيب على أن يستكثروا من أم زنبق[1]

قال حاتم :

وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

يُفَكُّ به العاني ويؤكل طيباً ... وليست تُعريه القداح ولا اليسر

أ « ماوى » ان يصبح صداى بقفرة ... من الأرض ـ لا ماء لدى ولا خمر

ترى أنما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى ـ مما بخلت ـ به صفر

وقال طرفة .

فان كنت لا تسطيع دفع منيتى ... فدعني ابادرها بما ملكت يدى[2]

وقال ابن المعتز :

لا تطل بالكؤوس مطلى وحبى ... ليس يومى يا صاحبي مثل أمسى

---

(١) هى الخمر (٢) ارجع « جـ ١ » ص « ٢٠٢ ـ ٢٠٤ »

لا تسلني ، وسَل مشيبي عني مذ عرفت الخمسين أنكرت نفسي

فهذا حثته كثرة سنيه على أن يستكثر من السلافة ، وما حفظ حق الخلافة :

وأنا أضن به أن يكون كأبي عثمان المازني . عوتب في الشراب فقال: « اذا صار أكبر ذنوبي تركته : »

المعتصم وابراهيم المهدي

وقد روى أن المعتصم دعا ابراهيم كعادته ، فغناه وبكى ، فقال له المعتصم «ما يبكيك؟» فقال « كنت عاهدت الله اذا بلغت ستين سنة أن أتوب ، وقد بلغتها » فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور الشراب!

الهيام بالخمر

وكان في بلدنا رجل مغرم بالقهوة [1] فلما كبر رغب في المطبوخ وكان يحضر مع نداماه . وعندهم قدح واحد ، فيشرب هو من المطبوخ ويشرب أصحابه من النيء . فاذا جاء القدح اليه ليشرب غسله من أثر الخمر وشرب فيه . فاذا فرغ المطبوخ ، رجع فشرب من شراب اخوانه

*
* *

وأما مخاطبته غيره ـ وهو يعني نفسه ـ فهو كقولهم في المثل « إياك أعني واسمعي يا جاره » ولا عندُد عن الجبلة ، يريد المتنسك ان ينصرف حبه عن العاجلة ، وليس يقدر على ذلك كما لا تقدر الظبية أن تصير لبؤة

---

(١) الخمر

ولا الحصاة أن تتصور لؤلؤة [١]« يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من المخطئين »

لقد علمت ، وما أنهاك عن خلق ألا يكون امرؤ الا كما حلفا [٢]

***

---

(١) الجبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته وهو بلا ريب أول من يدين بالجبر ، ونجترئ من اشعاره الكثيرة بالابيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت وايمانه الذى لا يتزعزع ، بمذهب الجبر وادعائه للقضاء والقدر ، وهى :

وما فسدت احلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سبقته المقادر
وفى الأصل غش ، والفروع توابع وكيف وفاء النحل ، والأب غادر ؟
اذا اعتلت الافعال جاءت عليلة كحالاتها ، أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون — ان كان سامعا — « أأنت على تغيير لونك قادر ؟ »

والعقل رين — ولكن فوقه قدر — فماله فى ابتغاء الرزق تقدير
ويجرى قضاء مالكم عنه حاجر فألقوا الى مولاكم بالمقاليد
نهاب أمورا — ثم نركب هولها على عمت — من صاغرين قماء !
ونحاذر الأشياء — بعد يقينها ألا يرد الكائنات حذار
وحبلة الناس الفساد ، فصل من يسمو بحكمته الى تهذيبها
يتحارب الطمع الذى مرحت به مهج الانام . وعقلهم فيفله
وقيل نفوس الناس تسطيع فعلها وقال رجال : « بل تبين حبرها »
ولا ألوم غبيا فى غباوته فالقضاء أتته قلة الفطن
لا تمدحن ولا تذمن امرأ فيها ، فغير مقصر كمقصر

(١) يشبه قول ذى الاصبع العدوانى : .

وكثير من الذين يتلون الآية . « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وهم بها مصدقون ، ومن خشية الهم مشفقون ، يضنون بالقليل التافه ولا يسمحون للسائل [1] فكيف تكون حال من ينكر حديث الجزاء ، ولا يقبل عن الفانية حسن العزاء

أبو طلحة واليهودى

وقد مر حديث « أبى طلحة » أو « أبى قتادة » ومعناه أنه خاصم يهوديا الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لأبى طلحة حديقة نخل ، وبينه وبين اليهودي خلف فى نخلة واحدة ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليهودى : أتسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلة فى الجنة ، ونعتها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنعوت أشجار الجنة ، فقال اليهودى : « لا أبيع عاجلا بآجل » فقال « ابو طلحة » أتضمن لى يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعطيه الحديقة ؟ فقال « نعم » فرضى ابو طلحة بذلك وأخذ اليهودى وذهب الى حديقته ، فوجد فيها امرأته وأبناءه ، وهم يأكلون من جناها ، وجعل يدخل اصبعه في أفواههم فيخرج ما فيها من تمر فقالت امرأته « لم تفعل هذا بينيك ! » فقال : انى قد بعت الحديقة ، فقالت . « ان كنت بعتها بعاجل فبئس

كل امرئ صائر يوما لشيمته وإن تخلق أحلاقا الى حين

وقريب منه قول الآخر

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها رادع

(١) افتن أبو العلاء فى نظم هذا المعنى فقال :

دنتم بأن سيجازيكم الهكم فما لأفعالكم أفعال اهمال

ما فعلت ! » فقص عليها الخبر ، ففرحت بذلك .

مرض الناسى

ولو قيل لبعض عباد هذا العصر « اعط ابنة ، لتعطى فى الآخرة ابنة من فضة » لما أجاب ـ ولو سئل امة عوراء ـ يعوض منها فى الآخرة بحوراء لما فعل ، على أنه من المصدقين ، فكيف من غذى بالتكذيب وجحد وقوع التعذيب ؟

ميتة فاذوه

وأما « فاذوه » فالقى طائر الحين ، متكفيا من بين جناحين ، فلا إله إلا الله ، ما أعد المهراس ليُنضخ به الراس ! ولكن لكل أجل كتاب ! منته نفسه التوبة ، فكانت كصاحبة امرئ القيس ـ لما قل لها .

« منيتنا بغد ، وبعد غد ، حتى بخات كأسوإ البحل »

أبو الهذيل العلاف

ويحكى عن « أبى الهذيل العلاف » أنه كان يمر فى الاسواق على حمار ويقول « يا قوم ! احذروا توبة غلامى » وكان له غلام يعد نفسه التوبة ، فسقطت عليه آجرة فقتلته

بدء التعارف بين المعرى وابن القارح

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ ، من رجل واسطى ، يتعرض لعلم العروض ، ذكر انه شاهده بنصيبين وفيها رجل يعرف بأبى الحسين البصرى معلما لبعض العلوية ، وكان غلام يختلف اليه يعرف « بابن الدان » وقد

جتاز الشيخ ببلدنا ـ والواسطى يومئذ فيه ـ وقد شاهدت عند أبى احمد عبد السلام ـ رحمه الله ـ كتبا عليها سماح لرجل من أهل حلب ؛ وما أشك أنه الشيخ ، وهو لا يفتقر الى تعريف بالقريض ، كما قال الطائى

تحميه لألاؤه ـ أو لوذعيته ـ من أن يذال بمن ، أو ممن الرجل

أساتذة ابن القارح

وأما العلماء الذين لقيهم ، فأولئك مصابيح الناجية وكواكب الداجية ، وإن فى النظر اليهم لشرفا ، فكيف بمن اغترف من كل بحر ، وَجَدَ غَرَفًا ، وإنما أقول ذلك على الاقتصار ، ولعله قد نزف بحارهم بالقلم والفهم ، وسهلوا له ما صعب من جبال العربية

حجج ابن القارح

وأما حججه الخمس فهو ـ إن شاء الله ـ يستغني فى الحشر بالأولى منهن ، وينظر فى المتأخرين من أهل العلم ، فلا ريب انه يجد فيهم من لم يحج ، فيتصدق عليهم بالاربع ، وكأنى به ، وعما عم الحجيج يرفعون التلبية بالعجيج وهو يفكر فى تلبيات العرب ، وانها جاءت على ثلاثة أنواع . مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور

***

وكأني به لما اعتزم على استلام الركن ، وقد ذكر قول القائل :

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة ، والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن فى بلد حرام به ـ لله أخلصت القلوب!
« أتوب اليك يا رباه ـ مما جنيت ـ فقد تظاهرت الذنوب

فأما من هوى «ليلى» وحبي زيارتها، فانى لا أتوب »

ولعله قد ذكر هذه الابيات فى الطواف .

اطوف بالبيت ـ فيمن يطوف ـ وأرفع من مئزرى المسبل
وأسجد بالليل حتى الصبا ح ـ واتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الكرب عن يوسف يسخر لى ربة المحمل

وذكر عند تفرق الناس هذين البيتين .

ودعى القلب « ياقريب » وجودى لمحب فراقه قد أحما
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتُزَما

وكأنى به وقد مر بأنطاكية ، فذكر قول امرئ القيس .

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل ، أو كجنة يثرب

أبو الطيب اللغوي

وأما ابو الطيب اللغوى ، واسمه «عبدالواحد بن على » ولا أشك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته ، لأن الروم قتلوه وأباه ، فى فتح حلب ، ،وكان «ابن خالويه» يلقبه « دحروجة الجبل » لأنه كان قصيرا ، وقد كان « ابو الطيب اللغوى » بينه وبين أبى العباس بن كلاب « البَكْتَمرْد » مودة ومؤانسة ، وله يقول :

يا عبد ! (١) إنك عند القلب جنته حبا ، وإنك ـ عند الطرف ـ ناظره
أزمعت سيرا ، فقل ما أنت قائلة واذكر لراعى الهوى ما أنت ذاكره

(١) يريد « يا عبد الواحد »

لا أشتكى سهرا طالت مسافته الله يعلم أنى الليل ساهره

وقد كان « أبو الطيب » يتعاطى شيئاً من النظم ، وقد علم الله أننى لا فى العير ، ولا فى النفير ، كلما رغبت في الخمول ، قدر بى غير المأمول . كان حق الشيخ — إذ أقام فى « معرة النعمان » سنة — أن لا يسمع لى بذكر ، ولا أخطر له على فكر ، والآن قد غمر إفضاله ، وأظلنى دوح أدبه ، وهو كريم الطبع — والكريم يخدع ، ومن سمع جاز أن يخال

ابن القارح في مصر

وأما ما ذكره من ميله فى مصر الى بعض اللذات فهو يعرف الحديث «أريحوا القلوب تع الذكر : وقال أحيحة بن الجلاح»

صحوت عن الصبا ، واللهو غول ونفس المرء — آونة — ملول

وقد عاشر ملوكا ووزراء ، وقد سمع انباء النعمان الاكبر ، اذ فارق ملكه وتعوض من الحرير المسوح . وإياه عنى العبادى [1] فى قوله :

وتذكر رب الخورنق اذ فكـــر يوما ، وللهدى تفكير
سره ملكه وكثرة ما يمـ ـلك ، والبحر معرضا ، والسدير
فارعوى جهله فقال « وما غبـ ـطة حى الى الممات يصير » ؟

الهنود والخمر

والسكر محرم فى كل الملل ، ويقال إن الهند لا يملكون عليهم رجلا يشرب مسكراً ، لانهم يرونه منكراً ، ويقولون : « يجوز أن يحدث فى

---

(١) ارجع الى (ج « ١ » ص « ٤٨ و ٤٩ »)

المملكة نبأ والملك سكران » لعنت القهوة !

* * *

وينبغي أن يزهده فى الصهباء أن نداماه الاكرمين أصبحوا فى الاجداث العافية ، كم جلس مع فتيان أتى عليهم الزمن كلّ الاتيان ، فكان كما قال الجعدى :

تذكرت والذكرى تهيج لى الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
ندامای عنـد المنذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الارض مقفرا

وهو يعرف الابيات التى أولها :

خليلى اهبا بطالما قد رقدتما أجدكما لا تقضيان كراكما

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر :

أما الطلاء فانى لست ذائقها حتى ألاقى بعد الموت جبارا

دنانير ابن القارح

وسرتني فيئة [1] الدنانير اليه ، فتلك أعوان تشبه منها الألوان ، ولها على الناس حقوق ، تبر إن خفيف عقوق ، ـ قال عمرو بن العاص لمعاوية : «رأيت فى النوم أن القيامة قد قامت ، وجيء بك وقد ألجمك العرق» فقال معاوية : « هل رأيت ثم من دنانير مصر شيئا ؟ »

وهذه لاريب من دنانير مصر ، لم تجيء من عند السوق ، ولكن من عند الملوك ولم تكن مهر هلوك . فالحمد لله الذى سلمها الى هذا الوقت ، ولم تكن كذهب صار الى الخمارة مع الموزون ، كما قال :

---

(١) عودة ـ رجعة

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق ـ في بيتها ـ شائلا
وزنّا لها ذهبا جامدا ، فكانت لنا ذهبا سائلا

أخذت من جوائز كرام صيد، تارة بالخدمة وتارة بالقصيد، ولم تكن فى العبدية مرهنات ، ولا ـ عند الغرض ـ موهنات! وهى ـ عند البله والكيس أجود من الخاتم الذى ذكره « ابن قيس » فقال :

إن ختمت ، جاز طين خاتمها كما تجوز العبدية العتق [١]

بائع كميته

ولو أخذ منها النادم على بيع كميته ، لأسكنت البهجة فى خلده [٢] وبيته ، ولم يأسف أن عوض حمارا من فرس ، ولو جد ـ على الشكوى ـ ذا خرس ، ولم يقل :

ندمت على بيع «الكميت» وانما حياة الفتى هم له وخسار
ولما أتانى بالدنانير سائمى أصاخت، وهشت ـ للبياع ـ «نوار»
وقالت : أتم البيع ، واشتر غيره ، فحولك ـ فى المشتا ـ بنون صغار
فأنفقت فيهم ما أخذت ـ ولم يزل لدى شراب راهن [٣]، وقُتَار [٤]
إلى ان تداعى الجند ـ بالغزو ـ وانجلت غيوم شتاء ـ سحبهن غزار
وأعوزنى مهرٌ ـ يكون مكانه ـ كأن ليس ـ بين العالمين ـ مهار

---

(١) أراد بالعبدية دنانير نسبها الى « عبد الملك بن مروان » ويقال انه أول من ضرب الدنانير فى الاسلام

(٢) قلبه (٣) معدّ أو حاضر (٤) الدخان من المطبوخ

وسار ـ على الخيل المغذة ـ صاحبي، وسرت ، وتحتى ـ للشقاء ـ حمار !

***

ولله المنة ـ كما نجاها ـ بالقدر ـ من بكور ، ليس من بكره بالمشكور يحمل معه دنانير ، ولا يصحب، من القوم صنابير[١] ، فيقيم بهم فى الدسكر أياما ، أيقاظا ـ فى السكر ـ أو نياما ، فتفنى الذهب ، قال الجعدى : [٢]

ودسكرة ـ صوت أبوابها كصوت الموانح فى الحوأب [٣]
سبقت اليها صياح الديوك وصوت نواقيس ، لم تضرب

وقال آخر

وقبضة من دنانير غدوت بها للدَّسكرى ـ وحولى فتية سمح
ولم يزل ـ ثم ـ يسقينا ويأخذها حتى استقل بما فى الصرة القدح

* * *

ودنانيره باذن الله مقدسات ، وان كانت زائدة على الثمانين ، فقد أوفت على عدة أصحاب « موسى » الذين جاء فيهم « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » وعلى عدة الاستغفار فى قوله « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وعلى عدة أذرع فى السلسلة فى قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه »

ولو كانت سنو « زهير » مثلها لما وصف نفسه بالسآمة ، ولو أدركه عروة بن حزام وهو يقول :

يكلفني عمى ثمانين ناقة ومالى يا « عفراء » غير ثمان

---

(١) بخلاء (٢) ارجع الى ترجمته فى (جـ « ١ » ص « ٧٩و٨٠و٨١ ») (٣) الدلو

لجاز ان يرق له فيغيثه من هذه الثمانين ببعضها ، أو يسمح له بكلها لأنه كريم طبع ، ولو صارت فى يد عروة هذه الثمانون ، لبلغ بها الأمنية ، لأن الناقة فى ذلك الزمان كانت ربما اشتريت بعشرة دراهم ، وفى بعض أخبار الفرزدق ، أن رجلا من ملوك بنى أمية اعطاه مائة من ابل الصدقة فباعها بألف وخمسمائة درهم بعد ما ثنى به وزيد فى الثمن

الجمل فى زمن المنصور

وقد مرت به الحكاية التي يذكرها اصحاب التاريخ « أن الجمل كان يباع فى زمن أبي جعفر المنصور بدرهم ، وانه صادر قوما من اصحابه وكانت لهم نعاج فباعوها ثمانى نعاج بدرهم » هذا ما وجد بخط المرزباني فى تاريخ ابن شجرة

فضل الذهب

وهى أنضر من الثمانين التى ذكرها العلوي البصرى فى قوله :

عبرت اليهم فى ثمانين فارسا فأدركت منهم بغيتى ومراديا

لله در الذهب من خليل [١] ، فانه يفىء بظل ظليل ، ماهو كغيره بال

---

(١) من أجل ماقرأناه فى وصف الديبار مدحا وذما ، قول « الحريرى » فى مقامته الثالثة فى مدحه :

أكرم به أصفر ـ راقت صفرته جواب آفاق ـ ترامت سفرته

مأثورة سمعته وشهرته قد أودعت سر الغنى اسرته

وقارنت ـ نجح المساعى ـ خطرته وحببت ـ الى الأنام ـ غرته

كأنما ـ من القلوب نقرته به يصول من حوته صرته

وان تفانت ـ أو توانت ـ عترته !

والدر اذا كسر ذهبت قيمته ، ورب ذهب فى سوار ، جعل فى خلخال ثم نقل الى جام أو كاس ، وهو بحسنه ماتغير لبشار النيران

ابنة أخته

وأما ابنة الأخت . فانها أدلت على الخال ـ إذ كان أحد الوالدين ! ولا نجعلها أختا للهجرس لأنه طالب خاله بثار ، فلم يقبح ما فعل من الآثار

باحمذا بصاره ، وبصرته وحمدا مغباته وبصرته
كم آمر ـ به اسبست امرته . ومترف ـ لولاه ـ دامت حسرته
وحيش هم ـ هرمته كرته ومستشيط ، تتلظى حمرته
أسر نحواه ـ فلانت ثمره . وكم أسير أسلمته أسرته
أنقده ـ حتى صفت مسرته
وحق مولى أبدعته فطرته ـ لولا التقى ـ لقلت : « حلت قدرته »

* * *

ثم ذمه ـ بعد ذلك ـ فى نفس المقامة فقال .

تبا له ! من خادع مماذق أصفر ـ دى وجهين ـ كالمنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق ريبة معشوق ، ولون عاشق
لولاه ـ لم تقطع يمين سارق ولا بدت مطامة من فاسق
ولا اشمأر من بخيل طارق ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استعيد من حسود راشق وشر مافيه من الخلائق
أن ليس يغنى عنك فى المضايق ، الا اذا فر فرار الآبق

* * *

واها لمن يقذفه من حالق ، ومن ـ اذا ناجاه نحوى الوامق ـ
قال له ـ قول المحب الصادق ـ . « لارأى فى وصلك لى ، ففارق ! »

« قاتل خاله »

ولكن يشبه أن تكون أختا لابن مُضَرِّس — حين فاتتها الأُخوّة من الهجرس!

وهو المعروف بالخُتُوت ، واسمه « توبة » وكان له أخ يقال له . « طارق » فقتله رهط خاله ، فرأى أن يقتل خاله ، وقال :

بكت جزعا أمى « رُمَيْلة » أن رأت ... دما — من أخيها — فى المهند باديا
فقلت لها : « لا تجزعى ، إن طارقا ... حميمى ، الذى كان الخليل المصافيا »
« وما كنت — لو أعطيت ألفى نجيبة ... وأولادها — لغوا تساق — وراعيا »
« لأرضى بوتر منهم — دون أن أرى ... دما من « بنى عوف » على السيف حاريا »
« وما كان فى « عوف » دم لو أصبته ... ليوفينى — من طارق — غير خاليا : »

أدب الخؤولة

ويجوز أن يكون قد وَشَح الى هذه المرأة شيء من أدب الخؤولة فليتق معرة بيانها ، أكثر من اتقائه خُلسة بنانها

فهو يعلم أن الشعر ورثه « زهير بن أبي سلمى » من خاله « بشامة ابن الغدر » ولم يكن فى « مُزينة » شعر يذكر ، وحضره « زهير » عند الوفاة فأراد أن يعطيه شيئا من ماله ، فقال « بشامة » « أما يكفيك أنى ورثتك غرائب القصيد : »

غريزة المرأة

وربما كان في نساء « حلب » شواعر ، فلا يأمن من أن تكون هذه منهن ، فطالما كن أجود غرائز من رجالهن :

وحدث رجل ضرير ، من أهل « آمد » يحفظ القرآن ، ويأنس بأشياء من العلم ، أنه كان ـ وهو شاب ـ له امرأة مقيّنة (تزين النساء فى الأعراس) ـ وكان ينجم على الطريق ، وكانت له قرعة فيها ـ أشعار ـ كنحو ما يكون فى القرع ـ وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها فى بيته ـ ولا غريزة له فى معرفة الأوزان ، فيكسر البيت ، فتقول له امرأته الماشطة « ويلى : ما هذا جيد ! » ـ فيلاجئها ـ ويزعم أنها مخطئة .

فاذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك فأخبره بأن الصواب معها ، وعرفه كيف يجب أن يكون ، فإذا لقنه عنه ، عاد فى الليلة الثانية فذكره ـ وقد أصلح ـ فتقول الماشطة : « هذه الساعة جيد »

وكان لى كرى من أهل الباديه يعرف بعلوان ، وله امرأة ، تزعم أنها من « طى » ، فكان لا يعرف موزون الأبيات من غيره ، وكانت المرأة تحس بذلك ، وكانت تتأسف على طفل مات لها ، يقال له : « لاحب » وكانت تنشد هذا البيت :

« إذا كنت من جرا رجيبك موجعا فلا بد ـ يوما ـ من فراق حبيب

فقالت يوما . « اذا كنت من جرا رجيب موجعا » فعلمت أن الوزن مختل ، فقالت . إذا كنت من جرا رجيب ـ موجعا ، فحركت التنوين ، وأنكرت تحريكه بالطبع ، فقالت . « اذا كنت من جرا رجيبك موجعا » فأضافته الى الكاف ، فاستقام الوزن واللفظ !

وفى الكتاب العزيز : « يأيها الذين آمنوا إن من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ، فان الله غفور رحيم »

أبو بكر الشبلى

وأما أبو بكر الشبلى - رحمه الله - فلا ريب انه من أهل الفضل، وأرجو أن يكون سالما من مذهب الحلولية، وأنشدنى له منشد :

« باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى ففزت بوجدى
وإذا كان فى القيامة نودى أين أهل الهوى؟ تقدمت وحدى »

فان صح أن هذين البيتين له فلا تمتنع أن يعترض عليه قائل فيقول: « ان ادعاءه الانفراد من العالم، لا يسلمه اليه البشر، ان كان هواه للمخلوقين أو الخالق فله فى الامم نظراء كثير »

ختام الرسالة

وانا اعتذر إلى مولاى الشيخ الجليل من تأخير الاجابة، فان عوائق الزمن منعت من إملاء السوداء، وانا مستطيع بغيرى، فاذا غاب الكاتب فلا إملاء، ولا ينكر الاطالة على. فان الخالص من النضار، طالما اشترى باضعافه فى الزنة من اللجين. فكيف اذا كان الثمن من النُّفَيات[1]، اللائى يوجدن فى الطرق مرميات؟

وعلى حضرته الجليلة سلام، يتبع قرومَه[2] افالهُ[3]. وتلاحق بعُوذه[4] أطفاله

﴿ تمت رسالة الغفران وانتهى الجزء الثانى ﴾

---

(١) جمع نفية وهى ما تنفيه الحوافر من حصى وغيرها، ومعناها هنا الاشياء الحقيرة التافهة (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل (٣) جمع افيل وهو صغير الابل (٤) جمع عائذ وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج

تحت الطبع

بقلم

كامل كيلاني

بالأوقاف

(١)

عبقرية ابن الرومي

ألم فيه المؤلف بعصر ابن الرومي وأثره فيه، وتكلم عن طبيعته وتأثر المتنبي شعره، ورأى المعري فيهما، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيرهم جميعاً، والعنت الذي لقيه «ابن الرومي» من معاصريه، وأثر ذلك في شعره، واقداعه في الهجاء، ورأيه في الجبر والاختيار، وعثور حده، وشراهته، ونهمه في الأكل، واطالته القصائد مع المحافظة على الاجادة ودقة الاداء وروعة الاسلوب والأمن من السقط والتكرار في اكثر الاحيان؛ وشيوع الخاطر في قصيده الخ الخ

(٢)

أساليب الشهرة

(٣)

نماذج مختارة

من الشعر السخيف

نظرات
فى تاريخ الأدب الأندلسى
مجموعة محاضرات
ألقاها فى الجامعة المصرية
كامل كيلانى
بالأوقاف

تناول فيها الكلام على أهم النقط الرئيسية التى أثرت فى الأدب الاندلسى ، وأتى بسدة من تاريخ الاندلس ، ونشأة ملوكها ، وأثرهم فى البلاغة ، وخطر الدين عندهم ، وشغفهم بالموسيقى ، وأثر ذلك فى انشاء الموشحات ، وتأثرهم بالمشارقة الخ مع مناقشة طائفة من آراء المستشرقين « نيكلسون » و « دورى » ومقارنتها بآراء أشهر مؤرخى العرب ، قالت احدى كبريات الصحف العربية بمناسبة ظهوره من مقال: « .. ... حسب المؤلف انه شد عن الطريقة العتيقة فى كتابة تاريخ الادب ، وحسبه انه طرق موضوعا فذا مستطرفا ، لم يسبقه اليه كاتب من المحدثين اللهم الا ان يكون من المستشرقين : »

«لمحاضرات الأستاذ كامل افندى كيلانى »قيمتها الأدبية كمرجع لاغنى عنه ، وكنور انسكب على هذا الباب من الادب العربى ،وكقطعة تحليلية تشعرك حين تقرؤها ـ بأنك قبالة عمل نتيجة لمجهود عنيف .... »

الى أن قالت : « ومهما يكن من اختلاف الآراء فى هذا الكتاب،فلم ينكر احد أنه مفيد وضرورى للنهضة ، أما انه مفيد ، فللمعلومات النفيسة التى احتواها . وللطريقة العلمية التى احتذاها . واما أنه ضرورى،فلأن الحرأة الفكرية والاستقلال فى الرأى والاعتداد بالشخصية ـ مهما عاها عليه البعض ـ من أقوى دعائم النهضات»

والكتاب مطبوع على ورق صقيل ، وعدد صفحاته ٣٨٠ من القطع الكبير ويطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على،وثمنه عشرة قروش.

رسالة الغفران

الجزء الثالث

رسالة ابن القارح

رسالة الملائكة

إيجاز وشرح

كامل الكيلاني

بالأوقاف

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة للشارح

(المطبعة التجارية الكبرى بشارع عابدين بحارة فايد رقم ٣ تليفون نمرة ٠٩-٦١)

رسالة ابن القارح

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية

الحمد لله وصلواته على محمد وأبرار عترته وأهليه .

كتابي ـ أطال الله بقاء مولاى الشيخ الجليل ، وجعلنى فداءه [1] » ـ على الصحة والحقيقة ، وليس على محار اللفظ ومحرى الكتابة ، ولا كما قال بعضهم ـ وقد عاد صديقا له ـ : « كيف تجدك ، جعلنى الله فداك ؟ » وهو يقصد تحببا ، ويريد تملقا ، ويظن انه قد أسدى جميلا ، يشكره صاحبه ان نهض واستقل ، ويكافئه عليه إن افاق وأبل

حنين صادق

ويعلم الله الكريم ـ تقدست أسماؤه ـ أنى لو حننت اليه ، حنين الواله الى بكرها [2] ، أو الحمامة الى الفها [3] ، أو الغزالة الى حشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالى والأيام ، لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الأمن ، والغريق الى النجاة ، والقلق الى السكون ـ بل حنين نفسه الى الحمد والمجد

فضل الى العلاء

فان وهب الله لى ملا من العمر ، يؤنسنى برؤيته ، ويعلقنى بحبل مودته . صرت كسارى الليل ، ألقى عصاه ، وأحمد مسراه ، وعسى الله أن يمن بذلك ، وأ

---

(١) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٣ »)

(٢) وارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٥ ») . (٣) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٥ »)

أسأل الله ـ على التداني والبعاد ـ إمناعه بالفضل الذي استعلى على عاتقه وغاربه ، ثم مر على بحره الهياج ، ونظر في لالاء بدره الوهاج ، حليق أن يكتم قلده ، الا أن يلقى اليه بالمقاليد ، أو يستوهبه إقليدا من الأقاليد ، فيكون منسوبا اليه ، ومحسوبا عليه ، واحد اصحابه وحزبه ، وهيهات . ليس التكحل في العينين كالكحل ، وأحلاق المرء تلزمها لزوم الالوان الاجفان ، لا يقدر الابيض على السواد ، ولا الاسود على البياض ، ولا الشجاع على الجبن ، ولا الجبان على الشجاعة ، قال أبو بكر العرزمي :

بمر جبان القوم عن ام رأسه ويحمي شجاع القوم من لا يباسمه
ويورق معروف الجواد ، عدوه وحرم معروف البخيل ، أقاربه
ومن لا يكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عمن يوائمه

ومن أين للصباب صوب السحاب ، وللعراب هدى العقاب ، وكيف ، وقد أصبح ذكره في مواسم الذكر آذانا ، وعلى معالم الشكر لسانا [1] ، ثم دافع العيان ، وكابره واستبد بالاوهاك ، كان كمن صالت بوقاحة الحجر ، وحاسن بقماحته القمر ، وهذى وهدر ، وكان .

« كناطح صخرة ، يوما ، ليوهنها فلم يضرها ، واوهى قرنه الوعل [2] »

ورود حلب

وردت حلب ـ حماها الله تعالى وحرسها ـ بعد ان رميت بآبده الآباد ، فلما دخلتها وبعد لم استقر في الدار ، وقد ذكرتها لفقداذ معرفة وجار ، واشدتها باكيا .

اذا زرت ارضا ـ بعد طول اجتنابها ـ فقدت حبيبا ، والبلاد كما هيا

---

(١) ارجع الى (ج «٢» ص «٦٠»)

(٢) هذا البيت اشهر من ان يشار اليه لكثرة الاستشهاد به ، وهو من معلقة « الاعشى » الرائعة ، وقبله قوله

الست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ـ ما أطت الابل ،

ابو القطران و وحشية [١]

كان أبو القطران يهوى ابنة عمه بنجد ، واسمها «وحشية» فاهتداها رحل شامى الى بلده ، فغمه بعدها ، وساءه فراقها ، فقال من قصيدة :

اذا تركت وحشية النحد ، لم يكن لعينيك ـ مما تبكيان ـ طبيب
رأى نظرة منها ، فلم يملك البكا ، معاور يربو تحتهن كثيب
وكانت رياح الشام تكره مرة ، فقد جعلت تلك الرياح تطيب !

فضلت من الرياح ، على الرياح ، كما حصل لأبى القطران من وحشية

« ذكرى أبى العلاء »

ثم . . . . وثم . . . . . وثم . . . . . .

ثم اجرى ذكره ، من غير سبب حره ، وغير مقتض اقتضاه فقال : [٢]

« الشيخ بالنحو اعلم من سيبويه ، وباللغة والعروض من الخليل »

« رسالة ابى الفرج الزهرجى [٣] »

كان أبو الفرج الزهرجى كاتب حضرة « نصر الدولة » كتب رسالة اليه . استودعنيها وسألنى ايصالها الى جليل حضرته ، فسرق عدىلى رحلا ، الرسالة فيه . فكتبت هذه الرسالة اشكو اموري ، وما لقيت فى سفرى من أقيوام ، يدعون العلم والادب ـ والادب أدب النفس ، لا أدب الدرس ـ وهم اصفار منهما جميعاً . ولهم تصحيفات [٤] ، كنت اذا رددتها عليهم ، نسبوا التصحيف الى ، وصاروا البا على .

الزهرجى و ابن القارح

لقيت ابا الفرج الزهرجى بآمد ـ ومعه حزانة كتبه ، فعرضها على ، فقلت

---

(١) هو ابو القطران المرار بن سعيد الفقعسى . و «وحشية» هى حبيبته التى تغنى فى حبها ارجع الى (ج «٢» ص «١١») (٢) ارجع الى ج «٢» ص «١٩» (٣) ارجع الى ج «٢» ص «٢٠») (٤) ارجع الى ج «٢» ص «٢٣»

« كتبك هذه يهودية ، قد برئت من الشريعة الحنيفية ! »

فأظهر من ذلك اعظاما وانكارا ، فقلت له : « أنت على المجرب ، ومثلى لا يهرف بما لا يعرف ! »

فقرأ ـ هو وولده ، وقال : « صغر الخبر الخبر » وكتب الى رسالة يقرظنى فيها ، وطمع له كريم ، وحلق غير ذميم

المتنبى (١)

قال المتنبى : « أدم الى هذا الزمان أهيله » صغرهم تصغير تحقير ، وهو سائغ فى مجارى الشعر ، وقائله غير ممنوع من المطم والنثر ، ولكنه وضع فى غير موضعه وخاطب به غير مستحقه ، وما يستحق زمان ساعده بلقاء سيف الدولة ، ان يطلق على أهله الذم ، وكيف وهو القائل يخاطبه :

« أسير الى أقطاعه فى ثيابه على طرفه من داره بحسامه »

وقد كان من حقه ان يجعلهم فى حمارته ، اذ كانوا منسوبين اليه ، ومحسوبين عليه :

« الزمان (٢) »

ولا يحب أن يشكو عاقلا ناطقا الى غير عاقل ولا ناطق ، إذ « الزمان حركات الفلك » الا ان يكون ممن يعتقد أن الأفلاك تعقل وتفهم وتدرى بمواقع افعالها ، ومقصود وارادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على ان يقرب لها القرابين ، ويدخن الدخن ، ويكون مماثلا لقوله :

فتما لدين عميد الحوم ومن يدعى أنها تعقل

أو يكون كما قال الله تعالى ـ فى كتابه الكريم : « مذبذبين بين ذلك ، لا الى

---

(١) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٢٤ ») والى كتاب مطالعات فى الكتب والحياة للاستاذ العقاد ص (ص ١١٨ـ١٢٣) (٢) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٣٢ »)

هؤلاء ، ولا الى هؤلاء » ويوشك ان تكون هذه صفته

رواية القطربلى [١] وابن أبى الازهر [٢]

حكى القطربلى وابن أبى الازهر فى تاريخ احتما على تصنيفه ، — واهل بغداد وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف فى معناه مثله لصغر حجمه وكثر علمه — أن المسمى أحرج ببغداد من الحبس الى مجلس أبى الحسن «على بن عيسى» الوزير — رحمه الله — فقال له : « انت احمد المسمى » فقال : « انا أحمد المتنبى » وكشف عن بطنه . فاراه سلعة فيه ، وقال . « هذا طابع نبوتى ، وعلامة رسالتى » فامر بقلع حمشكه وصفعه بهما حمسين ، واعاده الى محدسه

ويقول لسيف الدوله .

« وتعصمون على من نال رفدكم حتى يعاقبه المعيص والمس »

كذب والله . لقد كان ينحرش بالمكارم ويتحكك بها ! — وهذا غير قادح فى طلاوه شعره ، ورونق ديباجته :

الزنادقة والملحدون [٣]

ولكنى أغتاظ على الزنادقة والملحدين . الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون ادخال الشبه والشكوك على المسلمين ، ويستعدون الفدح فى نبوة النبيين . ويتطرفون ويتقدفون — اعجابا بذلك المذهب : « نبه مغن ، وطرف زنديق [٤] »

بشار بن برد [٥]

وقتل المهدى بشارا على الزندقة ، ولما شهر بها وخاف ، دافع عن نفسه بقوله

« ويا « ابن بردا » رأسى على ثقيل واحتمال الرأسين عبء ثقيل

---

(١) « القطربلى » نسبه الى قطربل البلد المشهور بخوزه حمره (٢) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٢٥ ») (٣) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٤ » (٤) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٨ » (٥) ارجع الى (ج « ١ » ص « ١٧٧ » وج « ٢ » ص « ٣٥ »)

فادع غيرى الى عبادة ربيـــس ، فانى بواحد مشغول »

صالح بن عبد القدوس (١)

وأحضر «صالح بن عبدالقدوس» وأحضر المطبع والسياف . فقال . « علام تقتلنى ؟ » قال : « على قولك :

« رب سر أكتمه ، وكأنى أحرس به أو بنى لسانى عقل
ولوَ انى أطهرت للناس دينى لم يكن لى فى غير حسى ـ أكل »

ياعدى الله وعدى نفسه :

« السر دون المحاسات ، ولا يلفاك ـ دون الخبر ـ من سر : »

وقال : « قد كنت زنديقا ، وقد تبت عن الزندقة ! » قال : « كيف؛ وأنت القائل :

« والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى غيه كذى الضنى عاد الى نكسه »

وأخذ غفلته السياف ، فاذا رأسه يتدهدأ (٢) على المطبع (٣)

القصار الأعور

وظهر فى أيامه ـ خلف بخارى وراء النهر ـ رجل قصار أعور ، عمل له وجهاً من ذهب ، وحوطه برب العره ، وعمل لهم قمراً فوق جبل ، اربعاعه فراسخ ، فأنفذ المهدى اليه ، فأحيط به وبقلعته . فخرق كل شىء فيها ، وجمع كل من فى البلد ، وسقاهم شرابا مسموماً . فماتوا بأجمعهم ، وسرب فلحق بهم ، وعجل الله روحه إلى النار !

الصناديقي (٤)

والصناديقي فى اليمن ، حوطب بالربوبية ، وكوتب بها ، فكانت له دار افاضة ،

---

(١) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٣٨ ») (٢) يتدحرج (٣) بساط من الأدم
(٤) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٣٩ »)

يجمع اليها نساء البلدة كلها ، ويدخل الرجال عليهن ليلا !

قال من يوثق بخبره : « دخلت اليها لأنظر ، فسمعت امرأة تقول : « يابنى » فقال : « يا أمه ، نريد أن نعصى أمر ولى الله فيما ! » وكان يقول . « اذا فعلتم هذا لم يتمير مال من مال ، ولا ولد من ولد ، فتكونون كنفس واحده (١) » فغراه « الحسنى » من صنعاء ، فهرمه ، وتحصن منه فى حصن هناك ، فأبعد اليه « الحسنى » طبيباً بمبضع مسموم ، فقصده به ، فقتله

الوليد بن يزيد (٢)

والوليد بن يزيد ، أقام فى الملك سنة وشهرين وأياماً . وهو القائل .

« اذا متّ يا « أم الحميكل » فابكنى ، ولا تأملى بعد العراق تلاقيا

فان الذى حدثته من امانيا أحاديث طسم تترك العقل واهيا

فرمى المصحف بالنشاب ، وخرقه وقال

« اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل : « يارب خرقنى الوليد (٣) » »

وأنفذ الى مكة بناء محوسيا ، ليبنى له على الكعبة مشربة ، فمات قبل ذلك ، وكان الحجاج يقولون . « لبيك اللهم لبيك . يا قاتل الوليد بن يزيد »

واحضر بدرة من ذهب — وفيها جوهرة جليلة القدر — صورة رجل ، فسجد له وقبله ، وقال . « اسجد له يا علج ! » قلت . « ومن هذا » قال . « هذا مانى (٤) ، شأنه كان عظيما ، فمحل أمره لطول المده » فقلت : « لا تحقرن السجود

---

(١) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٤٠ ») (٢) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٤٤ »)

(٣) يروى له قبل هذا البيت قوله

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

وكان قد فتح المصحف ذات يوم ليتفاءل به فوجد فيه « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فاعتدم عصبه ، ومزقه وقال هذين البيتين وفى رواية اخرى « قتل يارب خرقنى الوليد ! »

(٤) « مانى » هو زعيم المذهب المانوى ومؤسسه ، ظهر فى ايام سابور بن اردشير وقتله بهرام ابن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ م وهو يزعم أن العالم مصنوع من اصلين قديمين هما النور والظلمة وأنهما أزليان سرمديان . وانه ما من شىء الا وهو من اصل قديم . وأن الخير كله من النور ، والشر كله من الظلمة ، وقد اشار المتنبى الى ذلك فى قوله يمدح كافور الاخشيدى

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب

وقلك ردى الاعداء تسرى اليهم ، وزارك فيه ذو الدلال المحجب

الا لله » فقال : « قم عنا »

* * *

وكان يشرب على سطح ـ وبين يديه باطية كبيرة بلور ، وفيها أقداح ـ فقال لندمائه : « أين القمر الليلة ؟ » فقال بعضهم . « فى الباطية » فقال : « صدقت ، أتيت على ما فى نفسى ، والله لاشربن الهفتحة (١) » وكان بموضع حول دمشق يقال له « البحر » فقال :

« تلعب بالمبوة هاشمي بلا وحى أتاه ولا كتاب »

فقتل بها ، ورأيت رأسه فى الباطية التى أراد أن يهفتح بها

أبو عيسى بن الرشيد (٢)

وأبو عيسى بن الرشيد ، القائل :

ذهابى شهر الصوم ، لا كان من شهر ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر
ولو كان يعدينى الامام بقدرة على الشهر ، لاستعديت دهرى على الشهر

عرض له فى وقته صرع ، فمات ، ولم يدرك شهراً غيره ، والحمد لله!

الحبابى (٣)

والحبابى ، قتل بمكة الوفا ، واستهلك من النساء والغلمان ، من ضاق بهم الفضاء كثرة ، وأحد حجر الملترم ، وظن أنها مغناطيس القلوب ، وأخذ الميزاب ، قال « وسمعت قائلا يقول لغلام دحمسان (٤) طوال ، يرفل فى برديه ، وهو فوق الكعبة : « يا رحمة ! أقلعه وأسرع » (يعنى ميزاب الكعبة) ـ فعلمت أن أصحاب الحديث صحفوه ، فقالوا : « يقلعه غلام اسمه « رحمة » » ، كما صحفوا على

---

(١) شرب الخمر سبعة اصابيع متتالية
(٢) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٤٥ ») (٣) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٤٦ »)
(٤) شديد السمرة سمين عليظ

«علىّ» ـ رضى الله عنه ـ قوله : « تهلك البصرة بالريح » فهلكت بالزنج (١) !

(١) هلاك البصرة بالزنج

فى سنة سبع وخمسين ومائتين اكتسح الزنج مدينة « البصرة » عنوة وأتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية مايفوق الوصف شناعة ووحشية :

كان أول من واقع أهل البصرة « على بن ابان » فى جماعة من الزنج والاعراب، وكان بها يومئذ « بغراج » فى جماعة من الجند ، فأقام بقابلهم يومين ، ومال الناس نحوه ؛ وأقبل يحيى بمن معه . قاصدا نحو الجسر

دخل على بن ابان المهلبى (لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال) وقت صلاة الجمعة ، قال محمد بن سمعان : « فانى يومئذ (يوم الجمعة) لفى المسجد الجامع . إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه ، زهران والمربد وبنى حمان ، فى وقت واحد ، كأن موقدها كانوا على ميعاد ، وحل الحطب . وأيقن أهل البصرة بالهلاك، وسعى من كان فى المسجد الجامع الى منازلهم ، ومضيت مبادرا الى منزلى (وهو يومئذ فى سكة المربد) فلقينى منهزمو اهل البصرة راجعين نحو المسجد الجامع وفى آخرهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشمى ـ وهو على بغلة منقلد سيفه ، يصيح بالناس ـ : « ويحكم ! أتسلمون بلدكم وحرمكم ، هذا عدوكم قد دخل البلد ! » فلم يلووا عليه ، ولم يسمعوا منه ، فمضى وانكسفت سكة المربد ، فصار بين المنهزمين والزنج فيها فضاء يسافر فيه البصر ، وقد أقام « ابن ابان » يقتل ويحرق يوم الجمعه وليلة السبت وبوم السبت

وغادى « يحيى » البصرة فى يوم الاحد ـ ميمما الجسر بمن معه ـ فتلقاه « بغراج » و « بريه » فى جمع ، فردوه ، فرجع يومه ذلك ، ثم غاداهم اليوم الآخر ، فدخل وقد تفرق الجند وهرب « بريه » وانحاز « بغراج » بمن معه ، فلم يكن فى وجهه أحد يدافعه

ولقيه ابراهيم بن يحيى المهلبى ؛ فاستأمنه لأهل البصرة فأمنهم ، فنادى منادى ابراهيم . « من أراد الامان فليحضر دار ابراهيم » فحضر أهل البصرة قاطبة، حتى ملئوا الرحاب ، وهم مطمئنون لما اعطوه من الامان :

* * *

وقال فى خطبته ـ يخاطب الزنج ـ :

قال الحسن بن عثمان المهلبى ـ وكان من أصحاب « يحيى بن محمد » ـ محدثا محمد بن سمعان ـ:

« أمرنى يحيى فى تلك الغداة بالمسير الى مقبرة بنى يشكر ، وحمل ما كان هناك من التمابير ، فسرت اليها ، فحملت بيدى وعشرين ثورا على رءوس الرجال ، حتى أتيت بها دار ابراهيم بن يحيى ـ والناس يظنون انها تعد لاتخاذ طعام لهم ـ وهم من الجوع وشدة الحصار والجهد على امر عظيم ، وكثر الجمع بباب ابراهيم بن يحيى ، وجعلوا يثوبون ويرتادون حتى اصبحوا ، وارتفعت الشمس

قال ابن سمعان « وانا يومئذ قد انتقلت من سكة المربد من منزلى الى حد أرحى هشام (المعروف بالداف) ـ فانى لهناك اذ اتى المخبرون بخبر الواقعة بحصرة دار ابراهيم ابن يحيى ، وذكروا ان يحيى بن محمد البحرانى امر الزنج فاحاطوا بذلك الجمع . ثم قال: « من كان من آل المهلب فليدخل دار ابراهيم بن يحيى » فدخلت جماعة قليلة ، واغلقوا الباب دونهم ـ ثم قيل: « دونكم الناس فاقتلوهم ولا تبقوا منهم واحداً »

فخرج اليهم محمد بن عبدالله المعروف بأبى الليث الاصبهانى فقال للزنج : « كيلوا » وهى العلامة التى كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله ، فأخذ الناس السيف

قال الحسن بن عثمان « فانى لأسمع تشهدهم وصجيجهم وهم يقتلون ، ولقد ارتفعت أصواتهم بالتشهد حتى سمعت بالطفاوة ، وهم على بعد من الموضع الذى كانوا به »

وهكذا انتهز « يحيى » هذه الفرصة فغدر بمن أمنهم ، وأمر بأخذ السكك والطروق والدروب لئلا يتفرقوا ، وهكذا قتل كل من شهد ذلك الموقف الا الشاذ !

قال الحسن بن عثمان : « ولما أتى على الجمع الذى ذكرناه أقبل الزنج على قتل

« انكم قد أعنتم بقبيح منظر ، فاشفعوه بقبيح مخبر ، اجعلوا كل عامر قفرا ، وكل بيت قبرا »

من أصابوا »

« ودخل «على بن أبان» يومئذ فأحرق المسجد الجامع ، وراح الى الكلأ فأحرقه من الجبل الى الجسر ، والنار فى كل ذلك تأخذ فى كل شىء مرت به ، من انسان وبهيمة وأثاث ومتاع .

ثم ألحوا بالغدو والرواح على من وجدوا ، يسوقونهم الى « يحيى بن محمد » فمن كان ذا مال قرره حتى يستخرج ماله ويقتله ، ومن كان مملقا قتله ، وبقوا كذلك عدة أيام ، ثم أمر يحيى أن ينادى بالامان ليظهروا ، فلم يظهر أحد .

ولما انتهى الامر الى « الخبيث » — صاحب الزنج — صرف على بن ابان عنها وأقر « يحيى » عليها ، لموافقته هواه فى كثرة القتل ، وصرف عليا لابقائه على أهلها ، فهرب الناس على وجوههم ، وصرف الخبيث جيشه عن البصرة (١) »

***

وقد أظهر « ابن الرومى » شناعة « الزنج » ووحشيتهم فى ميميته الفذة التى وصف فيها نزولهم « البصرة » وما أتوه فيها من الهول ، وهى قصيدة رائعة فياضة بالشاعرية العالية نختار منها قوله :

بينما أهلها بأحسن حال ... اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل ، اذا راح مدلهم الظلام
أى هول رأوا بهم ! أى هول ... حق منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام

الى ان يقول :

عرّجا صاحبى بالبصرة الزهـ ... ـراء ، تعريج مدنف ذى سقام

---

(١) ملخصة عن ابن الاثير والطبرى وابن خلدون

* * *

قال « أبو عبدالله بن رزام » الطائى الكوفى :

« كنت بمكه ـ وسيف الجنابى ـ قد أخذ الحاج ، ورأيت رجلا منهم قد قتل جماعة ـ وهو يقول : ،، يا كلاب ! أليس قال لكم « محمد المكى » : « من دخله[1] كان آمناً » أى أمن هذا ؟ ،، فقلت له : « يا فتى العرب ! تؤمننى سيفك أفسر لك هذا ؟ » قال : « نعم » قلت : فيها خمسة أجوبة الأول : « من دخله كان آمناً من عذابى يوم القيامة » والثانى « من الفرض الذى فرضت عليه » والثالث : « حرج مخرج الخبر ـ وهو يريد الأمر ، كقوله : والمطلقات يتربصن بأنفسهن » والرابع : « لا يقام عليه الحد فيه ، اذا جنى فى الحل » والخامس : « من الله عليهم بقوله : انا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم »

فقال : « صدقت ! هذه اللحية الى توبة ! » فقلت : « نعم » فحلانى وذهب

الحلاج[2]

والحسين بن منصور الحلاج ، من نيسابور ، وقيل من « مرو » يدعى كل علم ، وكان متهوراً حسوراً ، يروم اقلاب الدول ، ويدعى فيه أصحابه الالهية ، ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، وفى تصاعيف

فاسألاها ـ ولا جواب لديها لسؤال ـ ومن لها بالكلام :
« أين صوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزحام ؟ »

ثم يقول :

رب قوم باتوا بأجمع شمل تركوا شملهم بغير نظام

والقصيدة على هذه الوتيرة من دقة الوصف وروعة الاسلوب ، وهي طويلة يجدها القارىء فى الجزء الثالث من « ديوان ابن الرومى » من (ص ٤١٩ ـ ٤٢٧) وأحب ألا تفوته

(١) يعنى البيت الحرام (٢) ارجع الى ج « ٢ » ص « ٥٠ »

ذلك ، يدعى أن الالهية قد حلت فيه ، وناظره على بن عيسى الوزير ، فوجده صفرا من العلوم ، وقال : تعلمك لطهورك وفرضك ، أجدى عليك من رسائل . أنت لاتدرى ماتقول فيها ، كم تكتب الى الناس : « تبارك ذو النور الشعشعانى الذى يلمع بعد شعشعته » ما احوجك الى أدب !

* * *

حدثنى أبو على الفارسى ، قال : « رأيت الحلاج واقفاً على حلقة أبى بكر الشبلى ، فنفض كمه فى وجهه ، وأنشد :

ياسر سر يدق حتى يجل عن وصف كل حى
وظاهرا باطنا ، تبدى من كل شىء ، لكل شى
ياجلة الكل . لست غيرى فما اعتذارى اذن الى

وهو يعتقد أن العارف ابن الله ، بمنزلة شعاع الشمس ، منها بدا ، واليها يعود ومنها يستمد ضوءه ـ أنشدنى « الظاهر » لنفسه :

أرى جيل التصوف شر حيل فقل لهم ـ وأهون بالحلول :
أقال الله ـ حين عشقتموه ـ : « كلوا أكل البهائم وارقصوا لى » :

وحرك يوما يده ، فانتثر مسك ، وحرك مرة اخرى ، فانتثر دراهم ، فقال له بعض من حضر ـ ممن يفهم ـ : « أرنى دراهم معروفة ـ أومن بك ، وحلق معى ان اعطيتنى درهما ، عليه اسمك واسم ابيك » فقال : « وكيف هذا ، وهذا لا يصنع ؟ » قال : « من أحضر ما ليس بحاضر ، صنع ما ليس بمصنوع ! »

وكان فى كتبه : « انى مغرق قوم نوح ، ومهلك عاد وثمود » فلما شاع أمره وعرف السلطان خبره ـ على صحة ـ وقع بضربه ألف سوط ، وقطع يديه ، ثم أحرقه بالنار ، فى آخر سنة تسع وثلثمائة ، وقال لحامد بن العباس : « أنا اهلكك » فقال حامد : « الآن صح انك تدعى ما قرفت به ! »

ابن ابى العذافر

وابن ابى العذافر [1] ، وصورته صورة الحلاج ، ويدعى عنه قوم أنه اله

(١) هو « أبو جعفر محمد بن على الشلمغانى » أصله من قرية من قرى واسط تعرف بشلمغان

وأن الله حل فى آدم ، ثم فى شيث ، ثم فى واحد واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة ، حتى حل فيه ، وكان قد استغوى جماعة منهم «ابن ابى عون» صاحب كتاب التشبيه ، ومعه ضربت عنقه ، وكانوا يبيحونه حريمهم واولادهم يتحكم فيهم ، وكان يتعاطى « الكيمياء » وله كتب معروفة

ابن الراوندي[1]

وكان احمد بن يحيى الراوندى ، من أهل « مرو الروذ » حسن الستر ، جميل المذهب ، ثم انسلخ من ذلك كله ، بأسباب عرضت له ، ولأن علمه كان اكثر من عقله ، وكان مثله كما قال الشاعر :

« ومن يطيق مردّا[2] عند صبوته ومن يكون لمستور[3] اذا خلعا[4] »

مصنفاته

صنّف : (١) كتاب « التاج » يحتج فيه لقدم العالم ، فنقضه ابن الخياط

---

(١) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٧٠ـ٧٣ و ١٠٤ »)

(٢) طويل العزوبة ، وفى رواية اخرى « مدك » اى ممس ـ وهى احود والبق (٣) عفيف

(٤) اصبح خليعا وهذا البيت من قصيدة جميلة لمحمد بن بشير الانصارى وقد ذكرها صاحب الأمالى فقال :

قال « عبد الله بن محمد بن بشير » البصرى « على أن جارية لبعض الهاشميين فدمثت اليه امى تعاتبه فكتب اليها الابيات التالية :

لا تقنعى لوعة ـ اثرى ـ ولا هلعا ولا تقاس هدى ـ الهم والجزعا
بل ائتسى تحدى ـ ائتسيب ـ اسا تمثل ما قد شعت اليوم ـ قد شجعا

***

ما تصنعين بعين عك طامحة الى سواك وقلب عك قد ولعا ؟
ان قلت « قد كنت ودود وكريمة » فقد صدقت ، ولكن ذاك قد منعا
واى شىء من الدنيا سمعت به الا ـ اذا صار فى غايته ـ انقطعا !

***

لم تبق عينا « حسين » عند لحظهما ـ اغيرها فى فؤادى بعدها طمعا
ومن يطيق مدك ـ عند صبوته ؟ ومن يقوم لمسور ـ اذا خلعا

وما زالت العرب تسمي القبر بيتاً . وان كان المنتقل اليه ميتاً :

فان خرجت الى نؤس فواحزنى وان نقلت الى نعمى ، فطوبى لى

وربما حشى ان يسلبه حسه الذى يغر به ، ويتصاءل بالقياس اليه كل اعتبار آخر ، حتى انه حرم على نفسه الحرصا ان تذهب به سورتها — كما سنبينه فى حينه — فيقول :

ولو كان يبقى الحس فى فم مبت لآليت أن الموت فى الفم أعذب

***

وفى هذه الحالة ترى حسنه الى الموت مقرونا بشىء من الجزع والرهبة منه ! على انها نوبات خائبة ، تعرض له . فتمثقه بما استشهدنا به من كلامه

فأما يقينه الذى لا يفنأ يردده . ويغنى به فى أكبر أحاييه ، فهو النزوع الى تفضيل الموت . لانه يرى فيه المنفذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها ، واليك نخبة مختارة من كلامه تريدك اقناعا بايمانه الثابت ، بما ذكره فى رسالته هذا عن الرمس ، من انه « يغنى الناوى به بعد عدم ويكفيه المؤونه » :

ما أعدل الموت من آت وأسبره فهيحمى ، فانى غير مهتاح
العدم أفقر منا ، كل ذات غنى والموت أغنى — نحن — كل محتاج
اذا حياة علينا للأذى فتحت بابا من الشر ، لاقاه بارتاج
يغنى الفتى بالمنايا عن مآربه وتسمح الروح فى طفل فيغتفر
كأس المنية أولى بى ، وأروح لى من أن أكابد أثراء واحواجا
لكون حلك فى رمس أعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج الافا تناصره والميت ليس الى حلوى يحتاج
أصبح فى لحدى على وحدتى لست الى الدنيا بمحتاج
كشفى رأسى وافتقارى بها خير من التمليك والتاج
انى يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يفوض الى

« أبا عثمان : أنت قريع قومك، وجودك للعشيرة دون لومك
تمتع من أحيك ، فما أراه يراك ، ولا تراه بعد يومك

وألح به البول ، فقلت له : « البول ملح بك » فقال :

غداً يبقطع البول ويأتى الويل والعول
الا إن لقاء الله هول دونه الهول

ومات من الغد ، فأرجو أن يكون هذا القول توبة له مما كان اعتقده من ذبح نفسه !

أبو تمام (١)

قال الحسن بن رجاء الكاتب : جاءنى أبو تمام الى خراسان ، فبلغنى أنه لا يصلى ، فوكلت به من لازمه أياماً ، فلم يره صلى يوماً واحداً ، فعاتبته ، فقال : « يامولاى ! قطعت الى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة وبعد الشقة ، ولم أره يثقل على ، فلو كنت أعلم ان الصلاة تنفعنى ، وتركها يضرنى ، ما تركتها ! » وأردت قتله ، فخشيت أن يحمل على غير هذا

ابو جعفر بن محمد

قد ظهر بالبصرة من يدعى أنه جعفر بن محمد — عليهما السلام — وانه متصل به ، وروحه فيه ، ومتصلة به ، ولو استقصيت القول فى هذا الفن لطال جدا ، ولكن

لا بد للمصدور أن ينفثا وللدى فى الصدر أن يبعثا

بل لو قلت كل ما أعلمه ، أكلت رادى فى محبسى ، بل كنت أنشد :

أحمل رأسا قد مللت حمله ألا فتى يحمل عنى ثقله (٢)

---

(١) ارجع الى (ج «١» ص « ١٨٣ » وج «٢» ص «٩٤-٩٦»)

(٢) هذا من رجز الشاعرة المبرزة « أم حكيم » وهي من شواعر « الخوارج » وممن يضرب بهن المثل فى الاقدام والشجاعة ، كانت تحمل على الناس وترتجز :

واستريح الى ان أنشد :

ليس يشفى كلوم غيرى كلومى ما به ما به ، وما بى ما بى

شكوى الزمانه

ان شكوت العصر واحكامه ، وذممت صروفه وأيامه، شكوت من لا يشكى أبدا ، وذممت من لا يرضى أحدا ، شيمته اصطفاء اللئام ، والتحامل على الكرام ؛ ورفع الوضيع، ووضع الرفيع؛ طاهره يسر ويونس، وباطنه يسوء ويؤيس، وقعت فيه اياكالغريق يطلب معلقا والاسير يندب مطلقاً، واستحسن قول على بن العباس ابن جريج الرومى :

ألا لبس شيبك بالمترع فهل أنت عن غيه مرتدع ؟
وهل أنت تارك شكوى الزمان اذا شئت تشكو الى مستمع ؛
فشيب أحى الشيب أمنيه اذا ما تناهى اليها هلع (١)

عزوف ابن القارح عن الغوانى

كنت فى حال الحداثة أقرب الناس الى ، وأعزهم على ، من قال لى : « جعل الله لك أمد الاعمار واطولها » فلما بلغت عشر الثمانين ، جاء الجزع والهلع ، فمم

« أحمل رأسا ، قد ملت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟ »

وفيها يقول « قطرى بن الفجاءة » ميميته المشهورة

« لعمرى انى فى الحياة لزاهد وفى العيش — ما لم ألق أم حكيم !
من الخمرات البيض — لم ير مثلها شفاء لذى بث ، ولا لسقيم
لعمرك إنى — يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر — جد لئيم

الى آخر القصيدة

(١) ومن احسن ما فى تلك القصيدة قوله

وطول البقاء حبيب القلى ولكن بأى مقيت شفع
اذا المرء طال به مدة علا الشيب مفرقه أو هلع

وقوله .

وشيجوحة الموء أمنية متى — ماتناهى اليها — هلع

أرتاع ، وهو الذى كنت اتمنى ، ويتمنى لى أهلى من صدوف الغوانى عنى ، فأنا والله عنهن أصدف ، وبهن وأدوائهن أعرف ، اذ لست ممن يشد تحسرا عليهن قول البحترى :

ان أيامه من البيض بيض ما رأين المفارق السود سودا
بلدة تنبت المعالى ، فما يثـ غر الطفل فيهم أو يسودا (١)

وهذه صفة معرة النعمان ، لاخلت منه ، فقد وجدت أهلها معترفين بعوارفه

قريش والنبى

قالت قريش للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أتتابعك من هؤلاء الموالى ، كبلال وعمار وصهيب ، حير من قصى بن كلاب ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ؟ » فقال : « نعم ، والله لئن كانوا قليلا ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ويقتدى ، فيقال : « هذا قول فلان ، وذكر فلان » فلا تفاخرونى بآبائكم الذين موتوا فى الجاهلية ، فلما يدهده الجعل بمنخره ، خير

---

(١) من قصيدة للبحترى أولها :

انما الغى أن تكون رشيدا فانقصا من ملامة ، أو فزيدا
حلياه وجدة اللهو ـ ما دا م رداء الشباب غضا جديدا ـ
ان أيامه من البيض بيض . ما رأين المفارق السود سودا

ومنها :

ان فى السرب ـ لو يساعدنا السر ب ـ شموسا يمشين مشيا وئيدا
يتدافعن بالأكف ويعرضـ ن عليما عوارضا وخدودا

الى أن يقول :

ذات حسن لو استزادت من الحسـ ن اليه ، لما أصابت مزيدا

من آبائكم الذين موتوا فيها ، فاتبعونى ، أجعلكم أنسابا ، والذى نفسى بيده ؛ لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ! ،،

فقال له عمه أبو طالب : « ابق على وعلى نفسك »

فطن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه خاذله ومسلمه ، فقال : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو اهلك فيه ، ما تركته » ثم استعبر باكيا ، ثم قام ، فلما ولى ، ناداه : « أقبل يا ابن أخى ! » فاقبل ، فقال : « اذهب وقل ما شئت ، فوالله لا أسلمتك لسوء ابدا » فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يذكر ، يوما ، ما لقى من قومه من الجهد والشدة ، قال : « لقد مكثت أياما ، وصاحبى هذا ـ يشير الى أبى بكر ـ بضع عشر ليلة ، ما لنا طعام الا البرير فى شعب الجبال »

صبر الصحابة

عاقبة الصبر

وكان عتبة بن غزوان يقول ـ اذا ذكر البلاء والشدة التى كانوا عليها بمكة ـ : « لقد مكثنا زمانا ، ما لنا طعام الا ورق البشام ، أكلناه حتى تقرحت أشداقنا ولقد وجدت يوما تمرة ، فجعلتها بينى وبين سعد ، وما منا اليوم ، الا وهو أمير على كورة »

وكانوا يقولون ـ فيمن وجد تمرة ، فقسمها بينه وبين صاحبه ـ : « ان أسعد الرجلين من حصلت المواة فى قسمه ، يلوكها طول يومه وليلته ، من عدم القوت » وكذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد رعيت غنيمات أهل مكة لهم بالقراريط »

بدء الدعوة

وابتداء أمره ، أنه وقف على الصفا ، ونادى : « يا صباحاه ! »

فجاءوا يهرعون ، فقالوا : « ما دهمك ؟ ما طرقك ؟ »

قال : « بم تعرفونني ؟ » قالوا : « محمد الأمين »

قال : « أرأيتم ، ان قلت لكم إن خيلا قد طرقتكم في الوادي ، وان عسكرا قد غشيكم من الفج ، أكنتم تصدقونني ؟ » قالوا : « اللهم نعم ! ما جربنا عليك كذبا قط ! » قال . « فان الذي أنتم عليه ، ليس لله ، ولا من الله ، ولا برضاه الله : قولوا : « لا اله الا الله » واشهدوا اني رسوله ، واتبعوني تطعكم العرب ، وتملكوا العجم ، وان الله قال لي : « استحرجهم كما استحرجوك ، وابعث جيشا أبعث خمسة أمثاله وصمم لي أنه ينصرني بقوم منكم ، وقال لي : « قاتل بمن أطاعك من عصاك » وصمم لي أنه يغلب سلطاني سلطان كسرى وقيصر »

ثم انه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غزا تبوك في ثلاثين الفا . وهذا من قبل الله ، الذي يحمل من لا شيء ، كل شيء ، ويحمل كل شيء لا شيء . يجمد المائعات ، ويميع الجامدات ، يجمد البحر ، ثم يفجر الصخر ، وما مثله في ذلك الا كمثل من قال « هذه النملة الصغيرة ، تهزم العساكر الكثيرة » وكذا حقيقة أمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى لقد قال عروة بن مسعود الثقفي لقريش ؛ وكان رسولهم اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية . « لقد وردت على النجاشي ، وكسرى ، وقيصر ، ورأيت جندهم وأتباعهم ، فما رأيت أطوع ولا أوقر ولا أهيب من أصحاب محمد لمحمد هم حوله وكأن الطير على رءوسهم ، فان أشار بأمر ، بادروا اليه وان توضأ ، اقتسموا وضوءه »

وكانوا له بعد موته أطوع منهم في حياته ، حتى لقد قال بعض أصحابه : « لا تسموا أصحاب محمد . فانهم أسلموا من خوف الله ، وأسلم الناس من خوف أسيافهم »

فتأمل كيف استفتح دعوته وهو ضعيف ، وما كان مثله في ذلك الا مثل من قال : « هذه الهباءة تعظم وتصير حبلا يغطي الارض كلها » ثم أنذر الناس بها في حال ضعفها !

العبدرى والنبى

وجاء صلى الله عليه وسلم ، يوما ، ليدخل الكعبة ، فدفعه «عثمان بن طلحة العبدرى» فقال : « لا تفعل يا عثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدى ، أضعه حيث شئت » فقال : « لقد ذلت يومئذ قريش وقلت » قال : « بل كثرت وعزت »

مساوئ الدنيا

وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه ،واجعلهما معينتى على دفع شهواتى ، وأشكو اليه عكوفى على الامانى ، وأسأله وهما لمواعظ الدنيا ، فقد عميت ، ولست أحد منى حاجزا لرغبتى فيها ـ، ياأولى الابصار! صفحناعن مساوئ الدنيا اغماضا لعاجل موفق التنغيص ، ترمى اليه يد الزوال ، وتكمن له الآفات !

قال كثير :

« كأنى أباحى صخرة ـ حين أعرضت ـ من الصم ، لو تمشى بها العصم زلت »

وأقول على مذهب « كثير » : « يادنيا : فى كل لحظة لطرفى منك عبره ، وفى كل فكرة لى منك حسرة ، يامرنقة الصفا ، ويانا قضة عهد الوفا ! ماوفق لحظة من عرج نحوك ، ولا سعد من آثر المقام على حسن الظن بك !هيهات يامعشر أبناء الدنيا : لكم فى الظاهر اسم « الغنى » وفى الباطن « أهل التقلل »

كل صفاء الى كدر

كم من يوم لى أغر كثير الأهله ، قد أصحت سماؤه ، وامتد على ظله ، عمدنى ساعاته بالمنى ، ويضحك لى بها عن كل ما أهوى ، حتى اذا اتصل بكل اسبابى وامتزج سروره بفرحى وروحى وأترابى ، نفست على به الدنيا ، فسعت بالتشتت الى ألفته ، والنقص الى مدته ،فكسفت بهجته كسوفا ،وأرهقت نضرته ، وحسمه الفراق ، وقطعتنا فرقا فى الآفاق ـ بعد ان كنا كالأعضاء المؤتلفة ، والاعضاء اللدنة المنعطفة !

حسرة وندم

واحسرتى فى يوم يجمع شرتى كمن ولحد :

ضيعت مالا بد منه بالدى لى منه بد

وانشد قول ابن الرومى .

الا ليس شيئك بالمتبرع فهل أنت عن غيه مرتدع [1]

فأقلق وأبكى بكاء غير نافع ، وانشد

لسانى يقول ولا أفعل وقلبى يريد ولا أعمل

وأعرف رشدى، ولا أهتدى وأعلم — لكننى أجهل

الخمر

عرض على بعض الناس كأس خمر . فامتنعت منها ، وقلت « حلوى والمطبوخ على مذهب الشيخ الأوراعي .. وقلت لهم : « عرض ابراهيم بن المهدى على محمد ابن حارم الخمره ، فامتنع ، وانشد :

أبعد شيبى أصبو والشيب للجهل حرب

سن وشيب وجهل أمر لعمرك صعب

يا ابن امام فألا [2] أيام عودى رطب [3]

وإذ مشيبى قليل ومنهل الحب عذب

واذ شهاء الغوانى منى حديث وقرب

فالآن — لما رأى بى الـ عدال ماقد أحبوا

وآنس الرشد منى قوم — أعاب وأصبو ؟

آليت أشرب خمرا ما حج لله ركب

---

(١) ارجع الى ص «١٨» من هذا الجزء

(٢) تعنى « فهلا »

(٣) يقول « أأصبو بعد الشيب ؟ أفما كان يجدر بى ذلك فى وقت صباى ؟ » .

توبة

واقبل على نفسي تخاطبها ، ولها معاتبا ، والخطاب لغيرها ، والمعنى لها :

انظر أمهلكم حتى كأنه أمهلكم ؛ اما تستحيون من طول مالا تستحون ، فكم كالوالد تقلبه يد اللطيف به ، على فراش العطف عليه ، تصرف اليه المنافع بغير طلب منه اصغره وتصرف عنه المضار بغير حذر منه لخطره ، اما سمعت الرسول عليه الصلاة والسلام اذ يقول في دعائه « اللهم اكلاني كلاءة الوليد الذي لا يدري ما يراد به ، ولا ما يريد » حل من لوالب القلوب والهمم بيده ، وعرائم الاحكام والاقسام عنده :

« اسيت ذكر احبة ينسون ذنبك عند ذكرك
وعفوهم ، ولطالما كانوا حلاوك طوع أمرك
وصبروا عند فراقهم ، ما كان عذرك عند صبرك ؟

***

تبرك من اذا عفوته ، واسعت ذكره ، وتعديت حده ، وبركت يده ، وصمعت امره ونهيه ، وعوات في مسئلته عليه ، وقلت : « يارب ! » قال . « لبيك » (واذا سألك عبادي عني فاني قريب)

اليس يقول لك . « ماعرفك بي » فتقول « حلمك ، والا لو ارسلت على بقعة لجمعتني عليك اذا اردت الجمعتني » .

اذنبتي من عمر بحر الهوى حتى بيدي قبل ان اغرقا
انا لك عبد ، فكوني كمن اذا سره عبده أعتقا

صيغة فاذوه[1]

كان ببغداد رجل كبير الرأس ، فيلي الادبين ، اسمه « فاذوه » رأسه في الارض الاربعة مكشوف ، لا يتورع عن ركوب محرمة ، يقال له « يافاذوه ! ويلك تب الى الله » فيقول . « ياقوم ! لم تدخلون بيني وبين مولاي ، وهو الذي يقبل

(١) ارجع الى (ب) « ٢ » ص « ١٢١ »

الموتة عن عباده» فكان فى بعض الشوارع وما داهما . والشارع قد اتسع اسفله وضاق اعلاه ، والتقت حماحاه فيه ، فحاولت حاره حارتها مهراسا اسفل من بدها على رأس «فاذوه» فهرس رأسه . وحلط كحلط الهريسة . وأشله عن الموته . وكان لا واعظ صالح يقول لنا « احذروا ميتة فاذوه »

بدء التعارف

بلغنى عن مولاى الشيخ - ادام الله تأييده - أنه قال وقد ذكرت له - « اعرفه جدا ، هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى »

فذلك منه - ادام الله عزه - رائع لى ، حوفا أن يستشر طبعى . وأن يصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر . وهو بتعريف التبكير انفع لى عنده . لجلالة قدره ودينه ونسكه . وأنا أطلعه طلعه

ترجمة ابن القارح[1]

دراسته وأساتذته

«كنت أدرس على أبى عبد الله بن خالويه - رحمه الله - واختلف الى دار أبى الحسين المغربى ، ولملازمات ابن خالويه ، سافرت الى بغداد ، ونزلت على أبى على الفارسى وكنت اختلف الى علماء بغداد ، الى ابى سعيد السيرافى . وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبيدة المرزبانى ، وأبى حفص الكتانى . وكتبت حديث رسول الله (ص) وبلغت نفسى أغراضها جهدى . والجهد عادر »

سفره الى مصر

مقابلة ابن الحسين المغربى

«ثم سافرت منها الى مصر ، ولقيت أبا الحسن المغربى ، فألزمنى أن لزمته

(١) ارجع الى (ج «٢» ص «١٣١» والى ج «١» ص «٢٩»)

وحدثت أيضاً أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام ، فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه ، وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح : « لا تحلها فى يومك » وعد له أياماً ولياليَ ، وان ذلك الكاتب قبل منه ، فبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : « هو كمحيي الأموات »

وحدث رجل كان ابو الطيب قداستحفى عنده فى اللاذقية ـ أو فى غيرها من السواحل ـ : أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « انك ستجد ذلك الكلب قد مات » فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئا من المطاعم مسموماً ، وألقاه له ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل

اختلاف الخواطر

وأما القطربلي وابن أبي الأزهر فمن الزول [1] اجتماعهما علي تأليف كتاب ، وقل ما يعرف مثل ذلك .

ونحو منه قصة « الخالديين » اللذين كانا في الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند سيف الدولة ، وانصرفا على حد مغاضبة ، ولهما ديوان

(١) العجب

أردت أن العنك » قلت : « فالعنى غائباً » قال : « لا . فى وجهك أشفى » قلت « ولم ؟ » قال : « لمخالفتك اياى فيما تعلم »

* * *

وقلت له ـ ونحن على الماس ، بينى وبينه ـ : « لى حرمات ثلاث . الملدية ، وتربية أبيه لى ؛ وتربيتى لاخوته » قال : « وهذه حرمة مهتكة . الملدية نسب بين الحدران ، وتربية أبى لك ؛ منة لنا عليك ، وتربيتك لاخوتى ؛ بالخلع والدنانير » ـ أردت أن أقول له : « استرحت من حيث تعب الكرام » فخشيت جنون جنونه

* * *

وقال لى ليلة : « أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السمعة ، فى بيت واحد ، وليس يسمح ما أرضاه » فقلت . « أنا أفعل من هذه الساعة » فأخذت القلم ، وكتبت بحضرته :

لقد أشبهتنى شمعة فى صفاتى ... وفى هول ما ألقى وما أتوقع
تحول ـ وحرق فى فناء ـ ووحدة ... وتسهيد عين واصفرار وأدمع

فقال : « كيف عملت هذا قبل هذا الوقت ؟ » فقلت « تمعنى سرعة الخاطر وتعطينى علم الغيب ؟ » وكان ابو القاسم ملولا ، لا يمل أن يمل ، ويحقد حقد من لا يلين كبده . كأنه من كبره قد ركب الفلك . فمهما رأيته سادراً جاريا فى غلواء صاق على غلوائه . محوت ذكره عن صفحة فؤادى

فى الناس ان رثت خصالك واصل ... وفى الارض عن دار الملى متحول

وأنشدت الرحل أبياتا ، أعتذر بها فى قطعى له

فلو كان منه الخير ـ اذ كان شره ... عتيداً ـ لقلنا «إن خيراً مع الشر»
ولو كان ـ ادنى خير ـ لا شر عنده ، ... صبرنا . وقلنا « لا يرش ولا يبرى »
ولكنه شر ، ولا خير عنده ... وليس على شر ـ اذا دام ـ من صبر

وبعد أخي أبيه ـ وكان قرما [١] من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا «ابن كبشة [٢]» أن سنحيا ، وكيف حياة أصداء [٣] وهام
أتترك أن ترد الموت عني وتحيني اذا بليت عظامي

ولا يدعى مثل هذه الدعاوى الا من يستبسل وراءها للحمام ، ولا يأسف له عند إلمام

عودة الى أبي الطيب المتنبي

وحدثت أن أبا الطيب ، لما حصل في بني عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له ـ وقد تبينوا دعواه ـ: «هاهنا ناقة صعبة ، فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل » وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة [٤] وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم

---

(١) سيداً عظيما (٢) يعنى به النبي (ص .)
و« أبو كبشة » هو اسم جاهلي كان يعبد الشعرى اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الاصنام ، فاستعادت الجاهلية هذا اللقب للنبي (ص .) لمخالفته اياهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته اياهم الى الاسلام .
(٣) موتى ، أو اجساد ميتة
(٤) التي تلين بعد استصعاب

حافظة ابن القارح

وأنا تعبت ، وحفظت نصف عمرى ، ونسيت نصفه ، وذاك انى درست ببغداد ، وخرجت عنها ، وأنا طرى الحفظ ، ومصيت الى مصر ، فأمرجت نفسى فى الاغراض البهيمية ، وأردت ـ بزعمى وحديعة الطبع المليم ـ أن أذيقها حلاوة العيش ، كما صبرت فى طلب العلم والأدب ، ونسيت أن العلم غذاء النفس الشريفة وصيقل الافهام اللطيفة ، وكنت اكتب خمسين ورقة فى اليوم ، وأدرس مائتين فصرت الآن اكتب ورقة واحدة ، وتحكنى عيناى حكا مؤلما ، وأدرس خمس أوراق وتكل

أوقات الملل والعزوف عن العلم

ثم دفعت الى أوقات ليس فيها من يرغب فى علم ولا أدب ، بل فى فضه وذهب فلو كنت « اياسا » صرت « باقلا »

وأضع كتابا عن يمينى ، وأطلبه عن شمالى ، وأريد ـ مع صعفى ـ ارتادلنفسى معاشا ، بظهر غير ظهير ، بل كسيل عقير ، وصلب غير صليب ! ـ ان حلست فهو كالدمل ـ وان مشيت ـ فحملتى دماميل !

ومعى بقية زرة يسيرة من جملة كثيره ـ لو وجدت نقلة ـ أعطيه اياها ، ليعود على بما أرفه به جسمى من الحركه ، وقلبى من الشغل ، وأنا اجد من ادفعها اليه وبقى أن يردها الي

فساد الثقة

دفع رجل الى صديق له جارية ، واودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه اليه : يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب

سارقة غلامها

ومن طريف الاخبار أن بيت أختى سرقت لى ثلاثة وثمانين ديناراً ، فلما عددها

السلطان ، وأخرجت اليه بعضها ، قالت : « والله لو علمت أن الامر يجرى كذا كنت قبلته » فاعجبوا من هريستى وزبونى !

***

ووالله لولا صعفى وعجزى عن السفر ، لخرجت اليه مبشرا بمجالسته ومحاضرته ، فأما مذاكرته فقد يئست منها ، لما قد استولى على النسيان ، واحتوى على قلبى من الهموم ، والى الله التشكوى لا منه ، وليس يحسن أن أشكو من يرحمنى ، الى من لا يرحمنى !

ابو بكر الشبلي

وكان ابو بكر الشبلى يقول: ,,ليس غيرالله غير ، ولا عند غيرالله خبر ،، وقال يوما . ,, ياجواد ؟ ،، ثم امسك مفكرا ، ورفع رأسه ثم قال :,,ما أو قحنى !أقول لك « ياجواد » وقد قيل فى بعض عبيدك :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها ، فليتق الله سائله

وقد قيل فى آخر :

تراه ـ اذا ما جئته ـ متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله ،،

ثم قال : « بلى ! أقول ياجواداً فاق كل جواد ، وبجوده جاد من جاد »

ابن السماك والرشيد

ودخل ابن السماك على الرشيد فقال له « عظنى » ـ وفى يد الرشيد كوز ماء ـ فقال : ـ ,,مهلا يا أمير المؤمنين ، ارأيت إن أقدر الله عليك مقدرا ، فقال « لن أمكنك من شربه الا بنصف ملكك » اكنت فاعلا ذلك ،، قال « نعم » قال : « اشرب ـ هنأك الله » فلما شرب ، قال : ,, ارايت يا امير المؤمنين ، ان لو اسفت نفس هذا المقدار عليك ، فقال : « لن امكنك من اخراج هذا الكوز ، الا بان أستبد بملكك دونك ، اكنت فاعلا ذلك » قال :« نعم » ـ قال : « فاتق الله فى ملك لا يساوى الا بولة ! »

نعم الله وآلاؤه

وكيف أشكو من قاسى وعانى - بيفاً وسبعين سنة - كان قميصى ذراعين ، ومركل بى والدين حدبين مشفقين ، يتناهبان فى دقته ورقته وطيبه .

فلما صار اثنى عشر ذراعا ، تولاه هو وطعامى ، ثما أجاعنى قط ولا أعرانى : « والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين »

***

كنت - بتنيس - وبين يدى انسان يقرأ - ويحزن - : « يوفون بالنذر ويخافون (١) » - ويبكى ، فخطر لي خاطر ، فقلت : « أنا بضد هؤلاء القوم - صلوات الله عليهم - أنا لا أنذر - ولا أفى ، ولا أخاف شقاء ولا عناء : »

عودة الى ابى بكر الشبلى

وحدثنى من أثق به ، ولا أتهمه - عن أبيه وكان زاهدا ، قال : « كنت مع أبى بكر الشبلى ، ببغداد ، فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأينا شاويا ، قد أخرج حملا من التنور ، والى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر اليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يامولاي ! دعنى آخذ من هذا وهذا ورقاقا وخبزا ، ومنزلى قريب ، تشرفنى بأن تجعل راحتك اليوم عندي ، فقال : « ياهذا ، أظننت أنى قد اشتهيتهما ؟ ، وانما فكرى فى ان الحيوان كله ، لايدخل النار الا بعد

---

(١) الآية فى سورة « الدهر » وهى : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولا شكوراً ، انا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك ، لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة قدروها تقديرا » الخ

الموت ، ونحن ندخلها أحياء » :

***

يارب عفوك عن ذي شيبة وجل كأنه ـ من حذار النار ـ مجنون :
قد كان ذمم أفعالا مذممة ـ أيام ليس له عقل ولا دين

ختام الرسالة

تمت الرسالة والحمد لله وصلواته على محمد ، وانا اعتذر من خطل فيها أو زلل ، ومن ذا الذى يؤتى الكمال فيكمل ، قال عمر بن الخطاب . « رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى » واسأله ـ ادام الله عزه ـ تشريفى بالجواب عنها ، فان هذه الرسالة ـ على مابها ـ قد استحسنت وكتبت عنى ، وسمعت منى ، وشرفتها باسمه وبذكره ، والرسالة التى كتبها الزهرجى الى ، كانت أكبر الاسباب فى دخولى الى حلب ، واذا جاء جواب هذه سيرتها بحلب وغيرها ـ ان شاء الله ـ وبه الثقة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

تمت رسالة ابن القارح

رسالة الملائكة

تمهيد (١)

ليس مولاى الشيخ بأول رائد طعن فى الارض العارية فوجدها من السمات قفراً ، ولا آخر شائم طن الخير بالسحابة فكانت من قطر صفرا !

حاءتنى منه فوائد كأنها فى الحسن بنات بحر (٢) متمثلا ببيت صخر :

« لعمرى ! لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان »

ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ؛ أولئك ينادون من مكان بعيد !

تبرؤه من مظنة العلم

كنت فى عنفوان الشبيبة أود أننى من اهل العلم ، فسحنتنى عنه سواجن غادرتنى مثل الكرة مع الحاجن (٣) ! فالآن مشيت رُوَيداً ، وتركت « عمرا » للضارب و « زيْدا (٤) » وما أوثر أن يزاد فى صحيفتى خط فى النحو ، فيخلد آسما من المحو !

* * *

واذا صدق فجر اللمة (٥) ، فلا عذر لصاحبها فى الكذب ، وكون الحالية

---

(١) كتبها جوابا على مسائل تعريبيه القاها اليه مض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الاسلوب العريد ارجع الى (ج « ١ » ص « ٤٢ ـ ٤٤)

(٢) سحائب يحتن قبل الصيف منتصبات رقاقا (٣) الصولجان

(٤) يشير الى قول النحويين « ضربُ زيد عمرا » (٥) يعنى الشيب

بلا خرص (١) أجمل بها من التحرص (٢) ، وقيام المادة بالمبادب أحسن بالرجل من أقوال الكاذب

* * *

وهو يلزمه البحث عن غوامض الأشياء ؛ لانه يعتمد بسؤال رائح وغاد . وحاضر يرجو الفائدة وباد ، فلا غرو ان كشف عن حقائق التصريف ؛ واحتج للنكرة والتعريف وتكلم فى همز وادغام ، وأزال الشبهة عن صدور الطغام

فأما أنا فحلس البيت(٣) . ان لم اكن الميت فشبه الميت !

لو أعرضت الاغربة عن العيب اعراضى عن الأدب والاديب ، لأصبحت لا تحسن نعيبا !

مسائل الصرف

ولما وافى شيخنا « أبو فلان » بتلك المسائل ، ألفيتها ـ فى اللدة ـ كأنها الراح يستفز من سمعها المراح (٤) ، وكانت الصهباء الجرجانية طرق بها عميد كفر (٥) ، بعد ميل الجوزاء وسقوط الغفر (٦) ، فلما حلبت الهدى ، ذكرت ما قال الاسدى (٧) :

فقلت «اصطبحها ، أو لغيرى فاهدها ... فما أنا بعد الشيب ـ ويلك ـ والخمر

تحاللت عنها فى العصور التى مضت ... فكيف التصابى بعد ما كلأ العمر(٨)

وحق مثلى أن لا يسأل ، فإن سئل ، تعين عليه أن لا يجيب . فان أجاب ، فرض على السامع أن لا يسمع منه ، فإن حالف باستماعه ، فعريضة أن لا يكتب ما يقول ، فإن كتب فواجب أن لا ينظر فيه ، فإن نظر ، فقد خبط خبط عشواء

---

(١) القرط ، أو حلقة الذهب والفضة (٢) التحرص (٣) ملازم البيت فيه ارجع الى (جـ « ١ » « ٨ »)

(٤) اشتداد الفرح حتى يجاوز الانسان حده فيتحتر ويختال (٥) سيد القرية (٦) النجم

(٧) يعنى « الاقيشر الاسدى وقد مرت ترجمته فى (جـ « ١ » ص « ٤٩ ») »

(٨) ذاعت شهرة هذه الأبيات حتى لم تكد تخلو من رواياتها متأدب وغالوا فى شأنها حتى فضلوها على كل ماعداها ، وقد اثبتناها فى الجزء الاول من « ص ٤٩ ـ ٥٠ » بمناسبة ترجمة « الاقيشر الاسدى » فليرجع اليها القارئ ان شاء

رسالة الملائكة

حواره مع عزرائيل

وقد بلغت سن الاشياخ ـ وما جار بيدى نفع من هذا الهذيان ، والظعن من الآخرة قريب !

أفترانى أدافع « ملك الموت » فأقول : « أصل ملك مألك ، وانما أخذ من الألوكة (١) ثم قلب ؛ ويدلنا على ذلك قولهم فى الجمع « ملائكه » لان الجموع ترد الأشياء الى أصولها »

فيعجبه ما سمعه ، فينظرنى (٢) ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض على قلت : ورن ملك هذا مَعَلٌ ، لان الميم زائدة ؛ وادا كان الملك من الألوكة ، فهو مقلوب من « ألك » الى « لأك » ووزن الملائكه ـ على هـذا القلب ـ « مفاعلة » لانها مقلوبة عن مآلكة

فيقول الملك : « ما هذه الاباطيل ؟ ان كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، والا فاحساً وراءك »

فأقول : « أمهلنى ساعة حتى اخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة ! »

فيقول الملك : « هيهات ! ليس الأمر الى ، اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »

حواره مع منكر ونكير

أترانى اذ أرى منكراً ونكيراً ، فأقول : « كيف جاء اسما كما عربيين منصرفين ـ وأسماء الملائكة كلها من الاعجمية ، مثل اسرافيل وجبرائيل وميكائيل ؟ »

فيقولان : « هات حجتك ، وخل الزخرف عنك »

---

(١) الرسالة (٢) يمهلنى أو يؤخرنى

فأقول ـ متقرباً اليهما ـ : « قد كان ينبغى لكما أن تعرفا وزن ميكائيل وجبرائيل على اختلاف اللغات ، اذ كانا أخويكما فى عبادة الله ـ عز وجل »

فلا يزيدهما ذلك الا غيظا:

ولو علمت أنهما يرغبان فى مثل تلك العلل ، لأعددت لهما شيئاً كثيراً من ذلك ، ولقلت . « ما تريان فى وزن « موسى » اسم كليم الله ؛ الذى سألتماه عن دينه وحجته ، فأبان وأوضح ؟ »

فان قالا : ,, «موسى» اسم أعجمى الا أنه يوافق العربية ، على وزن« فعلى »

أما «مُفعل» اذا كان من بنات الواو مثل «أوسيت» و«أوريت» فانك تقول «موسى» و «مورى»

و ن كانت من ذوات الهمز ، فانك تخفف حتى تكون الواو حالية من « مفعل»

واذا قيل : ان «موسى» «فعلى» فان جعل أصله الهمز ، وافق «فعلى« من « مأس بين القوم » اذا أفسد بينهم ، قال الأقوه :

أما ترى رأسى أزرى به «ماس» رمان ، ذى انتكاس «موس»

ويجوز أن يكون «فعلى» من «ماس يميس» فقلبت الياء واواً للضمه كما قالوا «الكوس» من «الكيس»

* * *

فاذا سمعت ذلك منهما ، قلت: « لله دركما ! لم أكن أحسب أن الملائكة تنطق بمثل هذا الكلام ، وتعرف أحكام العربية ! »

* * *

فان غشى على من الحنقة ، ثم أفقت ـ وقد أشارا الىّ بالارزبة ـ قلت .

« تثبتا ـ رحمكما الله ـ كيف تصغران « الارزبة » وتجمعانها جمع تكسير

فان قالا : «أُرَيزبة» و «أرازِبّ» ـ بالتشديد ـ

قلت : « هذا وهم ! انما ينبغى أن يقال : « ارَيزَبة » و « أرازب

ـ بالتخفيف ـ »

فان قالا : « كيف قالوا : «علانى» فشددوا ؟ كما قال القريعى :

« وذى نجوات طامح الطرف ، جاذبت حدانى ، فلوّى من علانية يدى »

قلت : « ليس الياء كغيرها من الحروف ، فانها ـ وان لحقها التشديد ، ففيها عنصر من اللين »

فان قالا : « اليس قد زعم صاحبكم « عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه » أن الياء ـ اذا شددت ـ ذهب منها اللين واجار فى القوافى طياً مع طى ؟ »

قلت : « قد زعم ذلك ، الا ان السماع عن العرب لم يأت فيه بحو ما قال ، الا ان يكون نادراً قليلا :

* * *

فاذا عجبت مما قالاه اظهرا لى تهاونا [1] بما يعلمه بنو آدم ، وقالا : « لو جمع ما علمه أهل الارض ـ على اختلاف اللغات والارمنة ـ ما بلغ علم واحد من الملائكة يعدونه فيهم ليس بعالم [2] »

فأسبح الله واحمده :

***

واقول : « قد صارت لى بكما وسيلة ، فوسعا لى فى الحدث ـ ان شئتما بالثاء ، واد شئتما بالفاء ، فان احداهما تبدل من الاخرى »

فيقولان ـ أو احدهما ـ : « انك لمهدم الحول [3] ، وانما يوسع لك فى « ريمك [4] » عملك ، فأقول لها : » ما افصحكما ، لقد كنت سمعت فى الحياة الدنيا ان « الرّيم » القبر ، وسمعت قول الشاعر :

« اذا مت ، فاعتادى القبور ، وسلمى على « الريم » اسقيت السحل الغواديا »

فيقولان : « بؤسا لك ! » اى علم فى ولد آدم ؟ انهم للقوم الجاهلون !

---

(١) استخفافا (٢) ارجع الى (حـ « ١ » ص « ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٩ »)

(٣) الحدق او القدرة على التصرف (٤) قبرك ارجع الى (حـ « ١ » ص « ١١٠ »)

حواره مع مالك

وهل اتودد الى « مالك » حارن النار ، فأقول .

« اخبرنى ـ رحمك الله ـ ماواحد الربانية ؟ فان بنى آدم فيه مختلفون ـ يقول بعضهم : « الزبانية لاواحد له من لفظه ، وانما يجرى مجرى السواسية [١] » ومنهم من يقول : « واحد « الربانية » « رَبية[٢] » وقال آخرون: « واحدها « زَبْنِى » او « رَبَنِى » فيعبس لما يسمع ويكفهر

***

فأقول : « يامالك ! ماترى فى نون « غسلين » وما حقيقة هذا اللفظ ؟ اهو مصدر كما قال بعض الناس ؟ ام واحد ام جمع اعربت نونه لشبهها بنون « مسكين » كما اثبتوا نون « قلين » و « سنين » فى الاضافة ، وكما قال سحيم :

عرفنا « جعفرا » وبنى ابيه وانكرنا زعانف آخرين

وماذا تبتغى الشعراء منى وقد جاورت حد الاربعين ؟

فأعرب النون

***

وهل النون فى « جهنم » زائدة ؟

اما « سيبويه » فلم يذكر فى الابنية « فعلل » الا قليلا ، و « جهنم » اسم اعجمي ، ولو حملناه على الاشتقاق لجاز ان يكون من « الجهامة » فى الوجه [٣] اذا جعلنا النون زائدة

وقال « رَكِيّة [٤] جهنام » اذا كانت بعيدة القعر ، فان كانت « جهنم » عربية فيجوز ان تكون من هذا :

---

(١) القوم المستوين فى الشىء ، كما قيل

سواسية سود الوجوه كأنما بطونهم من كثرة الزاد أوطف

(٢) هو متمرد الجن والانس أو الشديد . وقد سمى بذلك بعض الملائكة لدعهم اهل النار اليها (٣) بسور الوجه واكفهراره

(٤) ئر ذات ماء

وزعم قوم : انه يقال : «أحمر حهمام» اذا كان شديد الحمرة ، ولا يمتنع أن يكون اشتقاق« حهنم » منه !

ويقول مالك : « ما أجهلك واقل تميزك ! ما جلست هنا للتصريف ، وانما جلست لعقاب الكفرة والمشركين والقانطين !

حواره مع السائق والشهيد

وهل أقول للسائق والشهيد اللذين ذكرا فى كتاب الله ـ عز وجل (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد). ـ «ياصاح! أنظراني»(١)

ويقولان : «تخاطبنا مخاطبة الواحد ـ ونحن اثنان ؟»

فأقول : «الم تعلما ان ذلك جائز من الكلام ؟ وفى الكتاب العزيز : « وقال قرينه هذا مالدى عتيد ، الفيا فى جهنم كل كفار عنيد » فوحد القرين ، وثنى فى الامر ، كما قال الشاعر :

« فان تزجراني يا «ابن عمار» انزجر ـ وان تدعانى ـ أجم عرضا ممنعا

وكما قال امرؤ القيس :

« خليلى : مرا بى على أم جندب لأقضى حاجات الفؤاد المعذب

الم تر انى ـ كلما جئت طارقا .وجدت لها طيبا ـ وان لم تطيب

فهذا كله يدل على ان الخروج من مخاطبة الواحد الى الاثنين ، ومن مخاطبة الاثنين الى الواحد ، شائع عند الفصحاء !

مظاهرة عند رضوان

وهل اجىء فى جماعة من ممارسى الآداب، قصرت اعمالهم عن دخول الجنة ولحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار ، فنقف على باب الجنة ، فنقول . «يارضوان !

(١) امهلانى

لما ليك حاحة: » ويقول بعضنا . «يارصو[١]» فيضم الواو

فيقول رضوان : « ما هذه المخاطبة التى ماخاطبنى بها ـ قبلكم ـ أحد فنقول : « كنا فى الدار الاولى نتكلم بكلام العرب ،وانهم يرحمون الدى فى آخره الف ونون ، فيحذفونها للترخيم ! »

***

فيقول رضوان :«ماحاجتكم ؟» فيقول بعضنا : انا لم نصل الى دخول الجنه لتقصير الاعمال ، وادركنا عفو الله فمحونا من النار ، فبقينا بين الدارين ، ونحن نسألك ان تكون واسطتنا الى اهل الجنة ، فانهم لا يستغنون عن مثلنا

وانه قبيح بالعبد المؤمن أن ينال هذه النعم ، وهو ـ اذا سمح الله ـ لحن : ولا يحسن لساكن الجنان أن يصيب من ثمارها فى الخلود ـ وهو لا يعرف حقائق تسميتها ! »

كثرى الجنان ـ : ولعل فى الفردوس قوما لا يدركون أحرف « الكثرى » كلها أصلية أم بعضها روائد ، ولو قيل لهم : « ماوزن كثرى ـ على مذهب أهل التصريف ؟ » لم يعرفوا فعله [٢]

السفرجل ـ . وما يحمل بالرجل من الصالحين ان يصيب من سفرجل الجنة ، وهو لا يعلم كيف تصغيره وجمعه ، وهو لا يشعر إن كان يجوز أن يشتق منه فعل أم لا ؟

السندس ـ : وهذا السندس الذى يطأه المؤمنون ويفرشونه، كم فيهم من رجل لا يدرى : أوزنه « فعلل » أم « فيعل » ؟

---

(١) ماذى مرحم . قال أبو العلاء فى لزومياته

« يارصو ! لا أرجو لقاءك بل أخاف لقاء مالك

(٢)«وهذا يشاكل قول سيبويه » له خيرا واذا صح قولهم الواحد : « كثراه » فالف « كثرى » ليست للتأنيث ورعم بعض أهل اللغة أن « الكثرى » تداخل الشيء بعضه فى بعض ، فان صح هذا . فمنه اشتقاق « الكثرى » . « أبو العلاء »

شجرة طوبى ـ: وشجرة طوبى ، كيف يستظل بها المؤمنون المتقون ويجتنونها آخر الابد ، وهم لا يعرفون : أمن ذوات الواو هى ؟ أم من ذوات الياء؟ ولعلما لو سألنا من يرى « طوبى » فى كل حين : « لم حذف منها الألف واللام ؟ » لم يجد لذلك جوابا !

الحور ـ : ومن هو مع « الحور العين » خالدا مخلدا ، هل يدرى ما معنى الحور؟

الاستبرق ـ: وكيف يستجيز من فرشه الاستبرق أن يمضى عليه ـ أبداً بعد أبد ـ وهو لا يدرى كيف يجمعه جمع التكسير ؟ وكيف يصغره

بلاد عبقر

وهـذا العبقرى الذى عليـه اتكأ المؤمنون ـ الى أى شىء نسب ؟ فاما كنا نقول فى الدار الاولى ان « عبقر » بلاد يسكن الجن ، وانهم اذا رأوا شيئا جيدا قالوا : « عبقري » اى كأنه عمل الجن ـ اذ كانت الانس لا تقوى على مثله ؟ ثم كثر ذلك ، حتى قالوا : « سيد عبقرى » و« طلم عبقرى »

***

وان كان اهل الجنة عارفين لهذه الاشياء ، قد الهمهم الله العلم بما يحتاجون اليه ، فلن يستغنى عن معرفته الولدان المخلدون ، فان ذلك لم يقع لهم ، وانا نرضى بالقليل مما عندهم أحراً على تعليم الولدان .

نعيم أهل الجنة

فيبسم اليهم « رضوان » ويقول : « ان أهل الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون » فانصرفوا ـ رحمكم الله ـ فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه ، وانما كانت هذه الاشياء أباطل زخرفت فى الدار الاولى

حوارهم مع الخليل بن أحمد

فاذا رأوا جده فى ذلك ، قالوا : « رحمك الله ! نحن نسألك أن تعرف بعض علمائنا الذين حصلوا فى الجنة بأنا واقفون على الباب نريد أن نخاطبه فى أمر ! »

فيقول رضوان : « من تؤثرون أن أعلم بمكانكم من أهل العلم الذين غفر لهم
فيتسارون طلائلا ، ثم يقولون : « عرف بموقفنا هذا الخليل بن أحمد
الفرهودى » : فيرسل اليه رضوان بعض أصحابه ، فيقول : « على باب الجنة قوم
قد أكثروا القول ، وانهم يريدون أن يخاطبوك »

فيشرف عليهم الخليل فيقول : « انا الذى سألتم عنه ، فماذا تريدون؟ » فيعرضون
عليه مثل ماعرضوا على رضوان .

فصاحة أهل الجنة

فيقول الخليل . « ان الله جلت قدرته جعل من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام
العرب ناطقاً بأفصح اللغات ، كما نطق بها « يعرب بن قحطان » أو « معد بن عدنان .
لايدركهم الزيغ ولا الزلل ، وانما افتقر الناس - فى الدار الغرارة - الى علم اللغة
والنحو ، لان العربية أصابها بعض تغيير ، فأما الان ، فقد رفع عن أهل الجنة
كل الخطأ والوهم ، فاذهبوا راشدين - ان شاء الله ! »

فيذهبون - وهم محققون ماطلبوه !

ختام الرسالة

ثم أعود الى ما كنت متكلما فيه - قبل ذكر « الملائكة » - فأقول : ان سؤال
الشيخ مولاى كما قال الاول

« فهذى سيوف ياعدى ومالك كثير - ولكن أين بالسيف ضارب؟ »

يزعمون أننى من أهل العلم [1] وأنا منه خلو - الا ماشاء الله - ومنزلتى الى
الجهلاء أدنى منها الى الرهط العلماء ، ولن أكون مثل الربد - أزعم فى الابل أننى
طير ، وفى الطير أننى بعير سائر - والتمويه خلق ذميم !

ولكننى صب - لا أحمل ولا اطير ، اذا حلوت تعللت ، وان فارقت مأواى ضللت ،
وذكر « ابن حبيب » أنه يقال فى المثل . « أحير من ضب » وذلك انه - اذا فارق

(١) إرجع الى (حـ « ٢ » ص « ٦ ») و (جـ « ٣ » ص « ٣٣ »)

بته فأبعد لم يهتد أن يرجع اليه، وقد علم الله ـ تعالت قدرته ـ أنى لا أتهيج بأن أكون ـ فى الباطن ـ أستحق تثريبا ، وادعى فى الظاهر أديبا :

ومثلى مثل « البيعة الذامرة » يدعى طوائف من الشيعة أنها ترى من الحمى ـ أو من كدا ـ وانما هى حدر فائمة لا تفرق بين ملطس الهادم والسبعة بيد الحاجر ، وليس بدعا من كذب عليه ، وادعى ما ليس له عنده ، وقد نؤت بتكذيب القالة ، واعترفت بالجهالة ، واعتذرت بالتقصير :

وقد حرم على الكلام فى هذه الأشياء لأنى طلقتها طلاقا بائنا ـ لا أملك فيه الرجعة ـ وذلك لانى وجدتها فوارك (١) فقابلت فركها بالصلف ، ولو أنى كما قطن ، لبلغت ما أحببت ، ورزت للاعين ثما استترت ، وقد يروى البيت السائر :

« والستر ـ دون الفاحشات ـ ولا يلقاك ـ دون الخير ـ من ستر (٢) »

وانما ينال الرتب من الآداب من يباشرها بنفسه ، ويفى الرمى بدرسه ، لا هو العاجز ، ولا المحاجر

***

ومثله لا يسأل للفائدة ، بل للامتحان والخبرة ، فان سكت جاز أن يسبق الى الظن الحسن أن السكوت ستر يسبل على الجهول ، وما أحب أن تفترى على الظنون ، كما افترت الالسن فى ذكرها أنى من أهل العلم ، وأحلف : لا أذأرمى صابة (٣) أو مقرا (٤) أبر لدى من أن أتكلم فى هذه الصناعة كلمة :

وقد تكلفت الاصابة ـ فان أخطأت ـ فبيت الخطأ ومعدنه ، وتعرض لما لا أحسنه ـ وإن أصبت ـ فلا أحمد على الاصابة . رب دواء ينفع وصفه ممن ليس بآس ، وكلمة حكمة من حليف وسواس :

وهذا آخر ما سمح به القلم ، والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب

تمت رسالة الملائكة

---

(١) جمع فارك وهى المرأة التى تمقت زوجها (٢) ارجع الى (حـ « ٣ » « ص ٧ » (٣) شجرة مرة (٤) صبرا

خاتمة تحليلية

دراسات فى رسالة الغفران

لو أردنا اثبات كل ما كتب عن رسالة الغفران لاحتجنا الى افراد سفر ضخم ، فلنقتصر من ذلك على الفصول الممتعة التالية ، ليستأنس بها القارىء فى دراسة الرسالة، ويقف منها على مدى أثرها فى نفوس المفكرين، ومنزلتها فى تقديرهم ، وما افتتحت من مناحى تفكيرهم وأثارت من أوجه الخلاف بين آرائهم ؛ ثم يتفسح له أفق درسها وتتهيأ له الاحاطة بجوانبها المختلفة ومراميها البعيدة ومراياها العالية :

الخيال في رسالة الغفران

(١)

ان رسالة الغفران نمط وحدها فى آدابنا العربية ، وأسلوب شائق رائق طريف فى النقد والرواية ، وفكرة لطيفة لا نعلم أن أحداً سبق المعرى اليها (اللهم الا اذا استثنينا محاورات لوسيان فى الاولمب والهاوية) ، وفذلكة جامعة لأشتات من نكات النحو واللغة . ذلك تقدير حق ، وحر لرسالة الغفران . أما أن ينظر اليها كأنها نفحة من نفحات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثيلها الشعراء، والقصص التى يخترعونها اختراعا، أو يسطر اليها كأنها عمل من أعمال التوليد الصور والباس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة فليس ذلك حقاً وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالة الغفران كلا ولا هو مما يغضب المعرى ان يقال هذا القول فى رسالته :

عباس محمود العقاد

(٢)

أعجبت ادن بكتاب العقاد ، على أن شيئا فى الكتاب أعجبنى سوى خاص وهو هذه الفصول التى كتبها عن أبى العلاء عامة وعن رسالة الغفران خاصة ، لم أكد أرى هذه الفصول التى كتبها عن أبى العلاء عامة، وعن رسالة الغفران خاصة ، لم أكد أرى هذه فصول حتى حرصت على

قراءتها حرصا شديداً لانى — كما تعلم — شديد الصلة بأبى العلاء واحب أن ارى آراء الناس فيه وان أتبين مقدار ما بين هذه الاراء وبين آرائى من قرب أو بعد

أول هذه الفصول يتناول حزن ابى العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن ابا العلاء كان حزينا غاليا فى الحزن ومتشائما مسرفا فى التشاؤم ، والناس جميعا احرار فى ان يحزنوا وان يتشاءموا كأبى العلاء ، او أن يبتهجوا ويبتسموا كاصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الامرين ، الناس احرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا احراراً وليذهبوا فى الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . وادن للعقاد ان يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج ابو نواس ، أو ان يتخذ بين الامرين مكانا وسطا ، فالامر فى هذا راجع الى الطبيعة والمزاج قبل ان يرجع الى العقل والتفكير ولكن الذى اخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقاً فى رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد! نعم ان العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو — بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء — عاد فاثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ، اما أنا فلن انخدع له ، فهو ينكر على ابى العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « سمه سوده ! » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد ان « دانت » انما صار شاعراً نابغه خالدا على العصور والاجيال واثقا من اعجاب الناس جميعا ، لشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ استغفر الله ، إن من الاوربيين الان من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيراً

وما الخيال ؟ أما اذا كان الخيال ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من ان يخترع شيئا من لاشىء أو يؤلف شيئا من اشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال ، لانه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لاشىء ولم يؤلف بين متناقضات . ولكنا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا ان الخيال لا يخترع شيئا من لاشىء وانما يستمد صوره ونتائجه من الاشياء الموجودة ، يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر

النفس ويفتنها ، واذا كانوا صادقين — ونحسبهم صادقين — فحظ أبى العلاء من الخيال فى رسالة الغفران لاحد له ليس لابى العلاء حظ من الخيال ! واذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الحمة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا قيما لذيذاً لم يكن أبو العلاء ملزما ان يخترع الشعراء والعلماء والحمة والنار فـ« دانت » لم يخترع « ڤرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الاشخاص الذين لقيهم فيه وانما استمدهم جميعا من الادب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هـذا مصدر مجده الخالد . لا نقل ان حظ أبى العلاء من الخيال قليل بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود لأنه الخيال الخصب الممتع حقا ، هو الخيال الذى تجده عند « دانت » والذى تجده عند « اناتول فرانس » عند « اناتول فرانس » بنوع خاص ، وما اقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ، ليس بين الرجلين الا فرق واحد وهو أن تشاؤم الكاتب العربى محزون مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق ، ومن غريب الامر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ، انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة مايروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى فقالوا ان الرجل لا شخصية له وانما هو يجمع آثار غيره لا اكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران لأن ابا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أحد عن رجال الدين ، ولكن غير العقاد حليق بأن يتورط فى مثل هذا الخطأ فسر البلاغة — ولقد كدت أقول الاعجاز — أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد . أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله الى فهم السخرية العلائيه فى رسالة الغفران ، ولعلى أول من سبق الى ذكر هذه السخرية ولعلى لقيت فى سبيل هذه السخرية العلائية شيئا من العنت والأذى . ولكنى كنت احب أن يذهب العقاد فى تحليل هذه السخرية العلائية الى أقصى ما تنتهى اليه حرية البحث ، فلم يكن أبو العلاء ساخرا من الناس فى حياتهم العادية ولا فى آمالهم وأعمالهم وحدها ، وانما رسالة الغفران

مثل قوى شديع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى فى الدين ، فهو لايسخر من شهواتهم ولذاتهم، وانما يسخر من دينهم ويقينهم . والذى أحب ان يلتفت اليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيليه عند مايعرض ابو العلاء لإوز الجنة أو بقرها أو عند مايعرض للحصومة بين الشعراء، وانما هى هذه السخرية الجميلة العامة المكررة التى تمثل — الله عز وجل — كأنه قد فرغ للذات اهل الجنة و شهواتهم يديرها ويدبرها، لاعمل له الا هذا، ولا تفكير له الا فى هذا

ان الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه مافيها من سخرية لايستطيع ان يسلم بأن ابا العلاء كان مسلما حقا . وقد أفهم ان يتجنب العقاد مثل هذا البحث لان فيه شيئا من الحرج ، ولكنى احب ان يكون الناس جميعا مثلى يكرهون انصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء !

انا معجب بما كتب العقاد عن أبى العلاء !

طه حسين

السخر في رسالة الغفران (١)

هذه الملكه تظهر فى شعر المعرى ظهورها فى شعره . وهى اظهر ماتكون فى رسالة الغفران التى نحن بصدد الكلام عليها الآن . فى هذه الرسالة كان المعرى ساخرا جادا فى السخر ، يخرج التشاؤم مخرج التفاؤل ، ويعرض اليأس فى ثوب الأمل، ويبتسم من آمال الناس فى الدنيا والآخرة ثم يعود فيبتسم من ابتسامه، ويعبث بالكافرين ويعرض بهم فى ظاهر القول ، وهو بالمؤمنين أشد عبثاً وأبلغ تعريضا . وقد وفق فى بعض أحاديث الرسالة توفيقاً يذكرنا بغمزات هينى وتقريعات كارليل ودعابة سرفانتس وغيرهم من كبار الساخرين والهجائين الذين نعتز الآداب الغربية بآثارهم ويعدها الكثير من قرائنا لغواً وهذراً. لخلطهم بين الهزل والسخر، وقلة تمييزهم بين ضحك المجون والبطالة وضحك المعرفة والشعور العميق !

انظر مثلا الى كيوخ الحظيئة فى

(١) نثبت هنا هذا الفصل الرائع من الفصول القيمة الصافية التى بسط فيها الاستاذ العقاد آراءه فى ابى العلاء عامة ورسالة الغفران خاصة . وكتبها بعنوان « نظرات فى الحياة على ذكر رساله الغفران » من (ص ٧٠ — ١٧٩) وهى منشورة فى كتاب له رائع وفى متناول القراء وهو « كتاب مطالعات فى الكتب والحياة » ونلح ألا تفوت القارئ

الجنة . يذهب صاحب المعرى «فاذا هو ببيت فى اقصى الجنة كانه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة : وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك

فيقول: «ياعبدالله! لقد رصيت بحقير»

فيقول : « والله ماوصلت اليه إلا بعد هياط ومياط وعرق من شقاء وشفاعة من قريش وددت انها لم تكن»

فتأمل كيف ضن المعرى على الحطيئة بقصر واحد ـ حيث القصور لاعداد لها . ولا كلفة فى بنائها ـ ومثل فى حلدك حال الحطيئة وقد ادخل الجنة بعد شق النفس فاذا هو بأنس الدارين وساكن الكواح فى الارض وفى السماء .. واذا هو لئيم غير زاكى المنبت ، خبيث اللسان ، ناكر للجميل كما كان فى الدار الدنيا ، فهو ينتفع بشفاعة قريش ويود أنها لم تكن . ويحو من النار ، ولا يحمد الله على ماصار اليه كانه لايزال يتمثل بقوله :

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا
فسيان لا ذم عليك ولا حمد
وان شئت ان تستعين على استحضار صورة الكوخ فى الجنة فتمثل موكبا من مواكب الملوك الفاتحين تمشى فيه بغلة أبى دلامة ، أو رهانا فى مضمار العتاق المسومات يدخله حمار كحمار المسيخ الدجال الذى تنبئنا عنه الاساطير . وانظر كيف يكون مرأى ذلك فى النظر ، ووقعه فى الخاطر : فكوخ الحطيئة فى عليين ، هو بغلة أبى دلامة فى موكب الملوك وحمار المسيح فى رهان الجياد ، وهو فى جملته وتفصيله صورة مضحكة عريقة فى الفكاهة بليغة فى السخر والدعابة :

وانظر الى قصة الاور فى الجنة . يمر بان القارح صاحب المعرى رف من الاور الجنة «فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لامر ـ ومن شأن طير الجنة ان يتكلم ـ فيقول ماشأنك ؟

فيقلن ألهمنا ان نسقط فى هذه الروضة فنغنى لمن فيها من شرب

فيقول على بركة الله القدير

فيسقط فيصرن حوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة ـ وبأيديهن المزاهر وأنواع مايلتمس من الملاهى ـ ولا يزلن فى غناء وقصف وإنشاد اشعار حتى يبدو للشيخ فيقول للنابغة الجعدى :

« يا أبا ليلى ! ان الله ـ جلت قدرته ـ من علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حولهن عن حلق الاوز : فاختر لنفسك واحدة منهن فلتذهب معك الى منزلك تلاحسك أرق اللحان وتسمعك

عروب الألحان » فيقول لبيد بن أبى ربيعة. إذا خذ أبو ليلى قيمة واحد غيره مثلها أليس ينتشر خبرها فى الحمة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك ارواح الاور ؟؟ فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك العباد ..!

وكأنى بحلائق المعرى المتوزعة فى كتبه قد ظهرت كلها فى هذه الكلمة الاخيرة ، ففيها مرح مليح وسخر طريف ، وفيها فوق ذلك دليل على شعوره باللياقة وحذره من التعرض للضحك وزجره النفس عن شهواتها ولذاتها من اجل ذلك وأمثاله ، وصدق بلوتارك صاحب التراجم المشهورة اذ قال ان نكتة واحدة تسفل عن الرجل قد تغنى فى الدلالة عليه ما لا تغنيه الترجمة المسهبة والحوادث الكثيرة

وشبيه بهذا فى الدلالة على شدة اتقاء المعرى للضحك وحصور الحذر منه فى ذهنه ، حواره الذى أجراه بين عدى بن زيد وابن القارح اذ يسأل هذا عديا فى اعراب بيت من شعره فيقول له « دعنى من هذه الأباطيل ! ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحب قمص فهل لك ان تركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها وخيطان نعامها واسراب ظبائها وعانات حمرها ؟؟ فان للقنيص لذة !

فيقول الشيخ : « انما أنا صاحب قلم ولم أكن صاحب حيل . وما يؤمنى اذا ركبت طرفا وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل الا بعد ما كبروا
فهم ثقال على أكتافها عنف

.... . أن يقدفنى على صخور رمرد فيكسر لى عصدا أو ساقا فاصير ضحكة فى أهل الجنان ، . » وهذا حوار جاء عرضا مقتضبا مما تقدمه وتلاه ، فيزيد فى دلالته على ما اشرنا اليه ، ان المعرى انتدعه من عنده ولم يكن فى سياق الحديث ما يدعو اليه او يوحيه الى الذهن بمناسبة قريبة . فكأن هاجس الحذر من الضحك قائم فى ذهن المعرى متجسم أمام وهمه ، تحركه أضعف المناسبات أو يحرك نفسه بغير مناسبة . ومثل هذا ينم بلا ريب على حلق كمين فى النفس وعادة لاصقة بالفكر ، ويستدل منه على تيقظ الرجل للمضحكات واستعداده الدائم لتحاشيها ، مما يدل على معرفة منه بمواطن السخر وسرعة اهتداء الى مناشئه ودواعيه .

***

وقد وضع المعرى ابليس فى جهنم كما ينبغى له : ولكنه لم يشغله عن الكيد والاغواء بما هو فيه من الضجر والعذاب ، فلما أطال ابن القارح فى سؤال أهل النار

وأكثر عليهم من المناقشة مال ابليس الى الزبانية يقول لهم : « مارأيت أعجز منكم اخوان مالك : ألا تسمعون هذا المتكلم بمالا يعنيه ؟؟ فلو أن فيكم صاحب نجيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه الى سقر ! » وهذا إصرار على الشر يستحق أن يضحك منه . اذ ما أبعد ماينبغى أن يكون الاغواء من المعذب الذى يضطرب فى الاغلال والسلاسل وتأخذه مقامع الحديد فى أيدى الزبانية وما أغرب ان يتخذ ابليس الزبانية آلة وجنداً يستعين به على الاضرار والكيد، وهم جند الله المسلط عليه لاضراره بالناس وكيده لهم ؟؟ فهذا مايسمونه المفارقة أو هو التناقض المضحك الذى ألقاه المعرى على شيخ الساحرين ليعجب من خبثه وعناده ، ويجعل منه سبيلا الى ابتسامة من ابتساماته الهادئة الهازئة .

على ان اغرب ما فى هذا الموقف ان يكون الساخر الأكبر نفسه سخرية وهزؤاً لأحد من الناس !

* * *

وفى الرسالة كلمات كثيرة مبثوثة على هذا النحو تارة فى وضوح وصراحة وتارة فى خفاء ومواربة. فتأمل مثلا قول النابغة الجعدى لصاحبه الذبيانى : « اقسم ان دخولك الجنة من المنكرات ولكن الاقصية جرت كما شاء الله : لحقك ان تكون فى الدرك الاسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك . ولو جار العلط على رب العزة لقلت انك قد غلط بك » وتأمل قول الشيخ ابن القارح — حين اراد ان يصلح بينهما — : « يجب ان يحذر من ملك يعبر فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه الى الجبار الاعظم فلا يجر ذلك الا الى ماتكرهان . واستغنى ربنا ان ترفع الاخبار اليه ولكن حرى ذلك محرى الحفظة فى الدار العاجلة. أما علمتما ان آدم أخرج من الجنة بذنب حقير . فغير آمن من ولد ان يقدر له مثل ذلك : » وتأمل قول أوس بن حجر من اهل النار — وهو تكرار لمعنى كلام النابغة الجعدى من اهل الجنة — : « ولقد دخل الجنة من هو شر منى، ولكن المغفرة أرزاق . كأنها النشب فى الدار العاجلة .! » وأمثال هذه الكلمات كثيرة فى رسالة الغفران لانحصيها ولكن نحيل القارىء عليها وحسبنا ان نقول هنا ان الرسالة كلها فى وضعها وفى تركيبها وفيما بدا من معانيها القريبة ، وما انطوت عليه من المغازى البعيدة والمضامين الخفية ان هى الا ضحكة

واحدة متصلة ، يجهر بها المعرى حيناً ويوارب بها أحيانا . وقد يغرق فى السخر حتى يوارب ويدارى حتى نخاله ساحراً من السخر ، مترفعاً عن الاهتمام لاظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته !

عباس محمود العقاد

رسالة الغفران

(١)

تطالع فى هذه الرسالة الطول ، ولكنك تشيم وراءه تهاتف المرتاب العصى ، وتتنزه من هذه الرسالة فى ظلال الفردوس الوريفة ولكنك تتسمع تحت أوراق نضرتها صيح السخر الخفى . يقرؤها شديد الغفلة فاذا هى سابيح للعرير القادر على كل شىء « ولاشىء على قدرة ربنا بعزيز » ويقرؤها الفطن فلا يأتى على بضع صحائف حتى يشتبه ، ثم يمضى فيها فيقوى اشتباهه ولا يأتى على آخرها الا والشبهة راسخة . ينكر القارىء الفطن على أبى العلاء باره وجنته ، ثم هو لا يملك الانكار وفى الكتاب المنزل مصداق وشهيد . فما أورد أبو العلاء نعمة او نقمة الا ورتل آية بينة يستوحي وجيهها ويعتمد بصيصه من قبسها وقد بهره اعجازها . كذلك ما استباح ابو العلاء لمخيلته وصفا نص القرآن على خلافه ، ولا استعرض تصورا جاء القرآن بما يحظره وينفيه ... ماذا ؟ هو ذاك الباب الخلفى ، ومن هنا ينسل هذا الساحر الكبير ليصنع اللغم ويعمل

المخيلة لا بد لها أن تعمل ، وهى القدرة الخالقة فى آثار الفن ولها الأثر الكبير فى قضايا العلم . وإلا فماذا غير المخيلة يحمل « نيوتن » من مشاهدة تفاحة تهوى من شجيرتها الى الارض — الى استنباط قانون جاذبية الارض ، وماذا غير المخيلة يولد الصلة فى خاطر المتى « حيمس وات » بين ارتجاجات الغطاء فوق ابريق الشاى فى غليانه ، وبين امكان تسيير القاطرات بقوة البخار . فلا ممدوحة اذن للعالم المخترع عن المخيلة تحدس وتفترض ، والتجارب بعد ذلك كفيلة بتحقيق او تفنيد ما تهجس به المخيلة وهى بمثابة حافز وراند يصدق وحيه او يكذب — ولكنه — فى صدقه وفى كذبه — يفضى الى الحقيقة التى يعمد اليها ، او الى حقيقة من الحقائق يعثر بها عن عرض فى سياق سعيه الضال ، اما فى ملكوت الفنون والآداب

فالمخيلة نسمة الحياة لها، فلا يكون الفن فنا ولا الادب ادبا بغيرها، فهيهات لابى العلاء ان يسد الفضاء على مخيلته ويقعد سبحات تصوراته وان يك يعرض لاوصاف جنة الله وناره . وليس ابو العلاء اول من عرض لوصف الدار الآخرة وصفا مفصلا ، بل وصفها من قبله غيره - فقهاء ومحدثون واعلام فلاسفة ورجالات دين - ومنهم من وضع جغرافيتها ورسم خريطتها ولكن شتان فى هذا جميعا بين خيال مصدق يكبر ويهلل ويصف القدرة بأجل مايتصوره من جليل الاوصاف ، وخيال مرتاب يصطنع التكبير والتهليل ولكنه يعرف ان ليس بين الجليل والمضحك الا خطوة ، فيعول على هذا فى السخر الخفى وابو العلاء يأخذ عن القرآن وصف الاخرة ويستطرد فى الوصف الرائع الجليل وهو يشوبه ويدخل على سياقه مسخا مضحكا عجيبا - بحجة ان (لاشىء على قدرة ربنا بعزيز) ويتقى ابو العلاء مغبة هذا المسخ ويقدم الحيطة دون افتضاحه بأن لاينى - بين الاسطر القليلة والاخرى - عن ذكر الله كثيراً مشفوعة به تسبيحة بعد تسبيحة: «سبحانه - عز وجل تقدست أسماؤه ، جلت عظمته ، تبارك الملك القدوس ومن لاتدرك يقينه الحدوس» وهكذا . وليس فى هذه التسابيح للخالق القدير مايلهج به فمه ولاتؤمن به سريرته فان أبا العلاء مؤمن بالله ولكنه يريد ان يدخل فى روعنا الوهم بانه حين يصف الدار الآخرة يصفها لا وصف رافض للديانات المنزلة كافة، مفيق من مكر القدماء - كما يسميها - بل وصف مسلم يتصورها فى حميا أذكاره وسبحات شوقه الدينى

واليك مثالا على سخر الرحل - وان كانت الرسالة بجملتها مثالا عليه . ولسوف يرى قارئ الرسالة لنفسه هذا الرأى . ولا يسعنا فى معرض التمثيل لقراء مقالنا الآن ، الا أن نلجأ الى اجمال بعض صورها المفصلة الوافية ، وقد نجمع منها نبذا أشتاتاً وندمجها كما فعلنا فى توصيف الجنة وغيرها، اذ لا سبيل لغير ذلك هنا .

بدليل الآية « مثل الجنة التى وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات »

أتعرف ماذا يتمثله لنا بدليل الآية الكريمة! يتمثل الجنة - فيها شجر لذيذ اجتناء ،كل شجرة تأخذ ما بين المشرق الى المغرب بظل غاط[1] وتجرى فى أصول

(١) مخيم

ذلك الشجر انهار تختلج من ماء الحيوان(١) والكوثر يمدها فى كل أوان ، من شرب منها البغية فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت . وسعد (٢) من اللبن متخرقات ، لا تغير بأن تطول الاوقات ، تغترف منها فى مراود(٣) العسجد ، فتارة البان الابل وتارة البان البقر ، وان شئت لبن الضأن فإنه كثير حم وكذلك لبن المعز ، وان أحببت وردا من رسل الاراوى (٤) فرب نهر منه كأنه دحلة أو الفرات ، وحفافر الرحيق المختوم يعمد اليه المغترف بكؤوس من العسجد ، وأباريق حلقت من الزبرجد ، وكم على تلك الانهار من آنية زبرجد محفور ، وياقوت خلق على خلق الطور(٥) ، من أصفر وأحمر وأزرق ، يخال ان لمس أحرق . وفيها أوان على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة فمنها ماهو على صور الكراكى ، وأخر لشاكل المكاكى(٦) ، وعلى حلق طواويس وبط ، فبعض فى الجارية وبعض فى الشط يتبع من أفواهها شراب ، كأنه من الرقة سراب ، شهد له كل وصاف للخمر ، من محدث فى الزمن وعتيق فى الأمر .

تلعب فى تلك الانهار الخمرية أسماك هى على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه فى العيون النبعية ، الا أنه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مد مؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذبا لو وقعت الجرعة منه فى البحر الذى لا يستطيع ماءه الشارب ، لحلت منه أسافل وغوارب ، ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الانوار(٧) ولا هو فى موم(٨) متوار ولكن قال له العزيز القادر « كن » فكان وبكرمه أعطى الامكان ، واها لذلك عسلا ، لو حمله الشارب المحرور غذاءه طول الابد ماقدر له عارض موم (٩) ولا لبس ثوب المحموم ، فمن قدر له أن أن يذوق ذلك الارى (١٠) لعلم أذ شهد الفانية — اذا قيس — اليه وجد يشاكه الشرى(١١) ولو حالط من مه ماخلق الله سبحانه فى هذه الدار الخادعة كالصاب والمقر والشيح لعاد ذلك كله وغيره يعد من اللذائذ ، فآض ما كره من الصاب كأنه المعتصر من المصاب(١٢) فانقطعت معايش أرباب القصب فى سواحل البحر وصنع من المر الفالوذج المحكم بلا سحر

(١) الحياة (٢) مجار أو قنوات (٣) أقداح كبيرة (٤) ابن آوى الجبل (٥) الطاء (٦) جمع مكاء «طير معرد» (٧) الأزهار (٨) شمع العسل (٩) حمى (١٠) العسل (١١) العلقم (١٢) قصب السكر

واذا من الله ـ تبارك اسمه ـ بورود تلك الانهار صاد فيها الوارد سمك حلاوة لو بصر به أحمد بن الحسين (المتنبي) لاحتقر الهدية التي أهديت اليه فقال فيها

أقل ماقى اقلها سمك
يلعب فى بركة من العسل »

***

طال بالقارئ اقتباسا ولكنما ما أطلساه بل اصطنعنا قصارى القصد مع الحرص كل الحرص على أسلوب الرجل وطريقته فى الكتابة وهي ايثار الغريب والمرام السجع وتكلفه المبالغة والاستقصاء فى الوصف مستمدا أكثر معانيه مما يحفظ ولكن فصله كبير فى أن صوره الوصفية ليست رسما مسطورا أو شخوصا جامدة لاحراك بها بل جرما مجسما وحياة غادية رائحة، وذلك بلمسة واحدة من ريشته ـ شأن المصور الحاذق ـ فانظر أثر التجسيم الذى أحدثته ـ كلمة محفور فى قوله «آبية ربرجد محفور» وانظر الحياة التى بعثتها فى الصور كلمة « الغاديه الى الانوار(١)» فى قوله «عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الانوار» وتذكر ذكريات الاسفار التى تمثلها كلمة فى سواحل البحر فى قوله « معايش أرباب القصب فى سواحل البحر » فهذه ليست زوائد بل اجزاء عضوية لا تحقق حيـاة بدونها ومتممات لاغنى عنها ، والفطنة اليها هى الفارق بين الفنان الكبير وبين عامة الفنانين

***

هذه جنة أبى العلاء لم يختلقها من العدم فان للجنة خالقها ولكن اختلق فيها . صاغ أبو العلاء أسماكا من ذهب وفضة وصنوف الجوهر، وجعلها تلعب فى الانهار الخمرية ، وهيأ سمك حلاوة يصيدها وراد الانهار العسلية ، واختلب فى قنوات اللبن ماتدره سائمة الارض من البان الابل والبقر والصأن والمعز وتيوس الجمل . فلعمر الله أى تأليه وتقديس فى هذه الموت والبدع ! ولو رواها متصوف يهرف بالجنة فى يقظته وفى منامه ويهتف فى عمارتها وزينتها وتطير نفسه اشتياقا الى نعيمها وملاذها فيعدد ألوان النعيم ويصف أفانين الملاذ بأقصى قصارى مبالغاته فتكبو به المبالغه كثيرا فملق اكثرها سخفا لا اعجازا ـ لقلنا: «جاد سليم الميه يجىء بالسخف لانه سخيف ومن طبعه السخف ؛ فهو يترك طاعه على مايسه ولو كان قدس الاقداس» ولكن أطنب فى هذا النحو الفيلسوف

(١) بالازهار

الشاعر صاحب اللروميات ، وصار يكدس الصور الممسوحة والمبالغات المائية والمهاترة المعربدة والحركة السمجة والحادث المضحك، فهو يصطنع السخف ليدل على ان السخف فى طبع الموضوع، وانه جدير بان يعرض له بالعبث والسخر

«٢»

ولكن قد يصر متعنت على ان هذا الكلام فى وصف الجنة رىء ، وفيه مبادح لصرفه على غير السحرية والاستهراء ونحن - اراء اصراره وتعنته - لا نملك الدليل والتحليل ، فليس الامر مما تتقارع فيه الحجج وتتساجل البينات وانما هى ألوان سحرية تدرك بالبديهة ولا يحتكم فيها الى غيرها ؛ فنحن ندرك بالبديهة ان الجنة ليست كذلك وأن وصفها متنافر مختل التوازن وان أبا العلاء يدخل التنافر ويخل التوازن ليعرضها فى معرض هزء وسخرية . واذا كان سلاح التدليل والتحليل لا يعمل فى هذا الميدان فاننا لا نيأس من قوة الاقناع فى سلاحنا القديم، فلنضرب من الرسالة أمثلة يتفاقم خطرها وتستفحل شدتها تدريجاً لعل فى صبرها الدراك ما يساعد البداءة المتعنته على هتك الستر واستشفاف السخر :

فننقل نبأ طاووس من طواويس الجنة - يعبر ويروق من رآه حسنا، فيشتهيه أبو عبيده مصوصاً (١) فيتكون كذلك فى صفحة من الذهب ، فاذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها الى بعض، ثم تصير طاووسا كما بدا :فتقول الجماعة ، «سبحان من يحيي العظام وهى رميم !!.» كأن بعث ذلك الأكول نفسه. وجماعته أنفسهم ، من تراب - يتهافت فى طوال الاعصر - الى حلفهم الأول ليس دليلا لانفسهم فى أنفسهم بأن الله يحيي العظام وهى رميم ، وكأنه لاغنى عن ظهور المعجزة العظمى فى صفحة طعام اشتهاه أبو عبيدة فتنضم العظام القصفة بعد ان عرقتها أنيابه وتكتسى بدل اللحم الذى اردرت لهاته، ويطير الطاووس الذى أكله واحتوته معدته كأنما كان أكل الجنة وهم واهم أو حلم حالم !

***

ثم نروى حكاية القياذ الاور ينتفض فيصرف حواري كواعب يرفلن فى وشى الجنة - وبأبديهن المزاهر وأنواع مايلتمس به الملاهى - وليس ذلك ببديع من قدرة الله حلت عظمته وعزت كلمته وسبغت على العالم نعمته ووسعت كل شىء رحمته ووقعت بالكافر نقمته - فتبارك الله القدوس، نقل هؤلاء المسمعات من زى

(١) مطبوخا - مقوعا فى الحل

ربات الاجنحة الى زى ربات الأكفال المترجحة فيقول الشيخ للجعدى « ياأبا ليلى — ان الله حلت قدرته من علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حولهن عن حلق الاوز، فاحتر لنفسك واحدة منهن فلنذهب معك الى منزلك تلاحك أرق اللحاف واسمعك ضروب الالحان : » فيقول لبيد بن ربيعة « ان أحد أبو ليلى قيمة وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها فى الحمة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أرواح الاور » فمصرب الجماعة عن اقسام أولئك الفيان !! فالمساكين حرموا أنفسهم لذة يشتهونها ونزلوا عن فرصة استماع ملك أيديهم وطوع بصرهم، لالشىء سوى حشيهم أن يسموا «أرواح الاوز». هذاهو سور الصين الذى يحول بيننا وبين مشتهيات مهجنا وعلالات حياتنا ، هذه هى الخيالات التى تقلق ضمائرنا وتروع احلامنا هى منغصات تافهة ووهم باطل، ولكنها لعمارة أخرى مظاهر كرامتنا تصونها من امتهان السخر — عادلا وجائراً — منغصات تافهة ووهم باطل يسخر أبو العلاء منها ولكنه يشقى بها — ويشقى بها أكثر من غيره — آخذ نفسه بضروب من الشدة ليدرأ شرها وذلك لأن الرجل شديد الاحساس بذهاب بصره يتعرض — أكثر من غيره — للزلل فيما يشذ عن مواضعات الناس ويجر من ثمة الى سخريتهم . وهذا سر ايثاره الوحدة فى محبسه ومبالغته فى التستر واتخاذه لنفسه نقاباً كل فيه ومسار عنه بيده الي صدره نافصاً عنه بقية الدماس العالقة لاعما الشره — اذ لاحظ عليه أحد الطلاب (ياسيدى أكلت دماً) فكأنما لدغه اعمى اذن فليس بدعا ان يحيب السحر لابى العلاء وهو من رأيناه شديد الاحساس بمواطنه، متنبه الوسواس الى مايستوحيه .

***

فالقصة المروية عن الجماعة أرواح الاور علتها الاولى فى نفس أبى العلاء الموجعة الملمددة ، بيد أنا نقصر اذا لم نشفع هذا التمويه بكيان القصة المضحك وصورتها الهزلية، فالجماعة ويا لحدثوحة لم يصحوا بعد من دهش الثقلة الشاسعة ولم يألفوا مقدار ما هم فيه من النعيم المقيم فهم فى بحبوحة الخلد يضيقون على انفسهم تضييق أهل العاجلة ، ويدركون حياتهم الآخرة على نحو عهدهم بالحياة الاولى، حتى ليذكروننا قصة الصعلوك الجلف انتبه على فراش الديباج الوثير وخوطب خطاب أميره المؤمنين !

ونتهز هذه المناسبة لنقرر أن رسالة الغفران يتغير المثوى فيها من الارضين الى عليين، ولكن الاشخاص كما هم لم يتبدلوا نفوسا غير نفوسهم، ولم يستحدث أهل الجفوة والبداوة منهم رقة المنعمين المترفين، ولا نسوا مسح الضرع وجعجعة الطواحين، فتلقى الهذلى فى جنة الرضوان يحتلب ناقة مطملا ولكنه يحتلبها فى اناء من ذهب، ولبيد يتمنى على السميع المجيب ارحاء على الكوثر تدور فيها البهائم لطحن بر الجنه لمأدبته، والبارئ لا يعجزه — جلت عظمته — أن يأتيها بجميع الاغراض من غير كلفة ولا ابطاء. والاعشى والنابغة الجعدى، يترامیان بقوارص المهاجاة ويتناقضان المفاخرة بالقبيلة والنسب شأن الاولين من العرب — هذا فى الجرثومة من ربيعة وذاك من حول بنى جعدة، والحطيئة فى اقصى جنات المتقين لما نزل لئيم الطبع فاسد الدين، وهكذا أبقى أبو العلاء لأشخاصه شخصياتهم فى الدار الآخرة. ولو أنه فعل غير ذلك لخسرت روايته قوام الروايات وموضوعها، وهو تصوير الشخصيات وابرازها لعيان القارىء حية فعالة تحيا وتعمل على سجيتها لا على مشيئة المؤلف وهواه، وما كنا لنتعرف على أشخاص رسالة الغفران وان سماهم أبو العلاء بأسمائهم وأكثر من تكنيتهم، ولما حفلنا بتمييزهم وهم لم يتميزوا فيها بجملتهم المأنورة وشخصيتهم الماريحيه والخيم على الجمة والمارحو من الخمول والتشابه الممل فتثاءب القارىء بعد قراءة صفحات من رسالة الغفران وغط فى النوم. ولكن الرسالة — كما صورها أبو العلاء — تصور لنا فى شخصياتها الصادقة مختلف الاحيال التى حشرت فى صعيد واحد من جاهليين واسلاميين فهى بذلك الاختلاف اقرب الى تمثيل مزدحم الحشر — مما لو جعلت الشخصيات واحدة ومجرى الامور على وتيرة واحدة، ولئن كان هذا المحشر كما حشره أبو العلاء بقدرته لا يعدو أن يكون محشرا محليا لشعوب العرب بل أخص من ذلك لانه محلى أدبى لاقتصاره من العرب على طبقة الشعراء دون سواهم، فان أبا العلاء نجح فى التعويض بعض الشىء عن احتلاف الجنسيات وتباين الشارات والصناعات بأن أتقن كل الاتقان مميزات الشخصيات فأشعرنا على الرغم من هذا القصر والتخصيص — بأننا نشهد ازدحام المحشر واحتلاطه على كل حال.

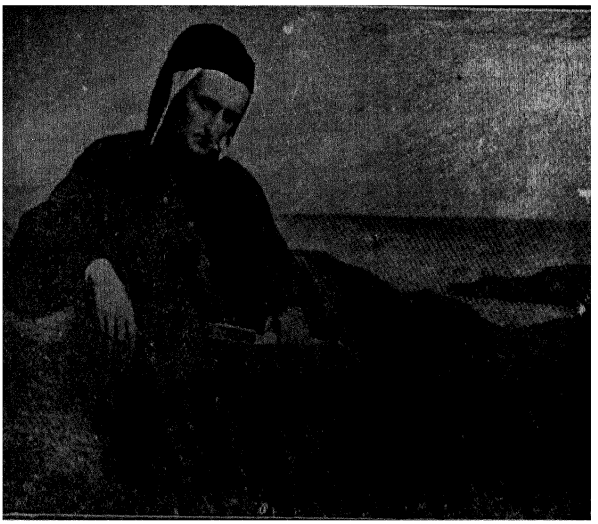
ولقد حرص ابو العلاء على بقاء الشخصية الباطنة — مهما اقتضت حالة النعيم

تغير الشخوص الظاهرة ، فعاد من نيف على المائة شابا غرانقا كالزهر الجنية ومن نعرفه أعشى البصر مقوس القناة وقد صار عشاه حورا وانحناء ظهره قواما .

فمحن بعد كل هذا نعرف فى زهير الشاب، زهيرا الهرم ، ونعرف فى ميمون الاحور ميمون الاعشى، لان أبا العلاء أبقى على كل منهما شيمته موفورة بادية المبسم وخصاله ناطقة ناطقة بيان

وقد يكون ما قصد اليه ابو العلاء من النقد والسخر هو الذي انتحى به هذه الناحية وسلك به هذا السبيل ليوقع العربدة فى الجنات ويعرضها فى معرض مضحك، ولكنها سبيل الفن على كل حال ولو أراد ابو العلاء غير ما اراده من السخر

فى رسالة الغفران لسلك نفس هذه الطريقة الفنية فحرص أشد الحرص على الشخصيات التاريخية، وكان الاثر جليلا والروح جادة دينية كما فعل «دانتى» فى الكوميديا الالهية فقد أطلعنا دانتى فيما أطلعنا عليه من هاوية جحيمه على درك العشاق الآثمين محروما من النور متجاوب الاصداء بالشهيق والانين، تعصف فيه بالآثمين رياح هوجاء فى كل صوب، متصادمة متناكبة ، تعصف بالملكة الفاجرة (بيمار اميس) التى من أجل شهواتها سنت شرائع الاباحية، «وديدون» التى خانت رفات زوجها وانتحرت لغرام مخيب مردود ، وكليو بطره الخالعة العذار وهيلينا التى عم التساحر لجمالها وغير أولئك أبطالا وغانيات ممن أوردهم الحب حياض الردى . وفى هذا الحشد المعذب لمح الشاعر إلفين فى ميعة الصبا ورونق الجمال متعانقين فلما دعاهما أقبلا كحمامتين يطيران على نساط الريح الى عشهما الوداع ، فقصت عليه «فرنشسكا» قصة الحب القاهر الذى استحوذ عليهما فلم يفارقهما حتى فى قرارة الجحيم كما يرى وبينما كانت هذه تروى القصة كان الهما يبتحب فجر الاسى فى نفس الشاعر، وحارت قواه وسقط كالميت مغشيا عليه . فهما أبقى دانتى على الالفين الاثمين عذوبتهما ولم يمس جمالهما وجمال نفسيهما ولم يفرق أذرعهما المتعانقة الى أبد الابدين . كذلك لما دخل الشاعر مدينه ديس (Dis) فى الدرك السادس من جهنم رأى فضاء شاسعا فى كل موضع قدم منه ضريح ، وهذه الاضرحة مرفوعة الغطاء مسجورة باللهب يندلع منها ، وتخرج من خوف هذه الاضرحة المتقدة أنات ملتاعة، هى أنات الزنادقة أرقدوا فيها ، كل زنديق وشيعته فى ضريح واحد أكداسا محشورة،



دانتى فى المنفى

منقولة عن رسم «بترلين» فى متحف الفن الحديث بفلورنسا

قضى دانتى التسعة عشر عاماً الأخيرة من عمره فى المنفى وكتب فى اثنائها «الكوميديا الالهية»



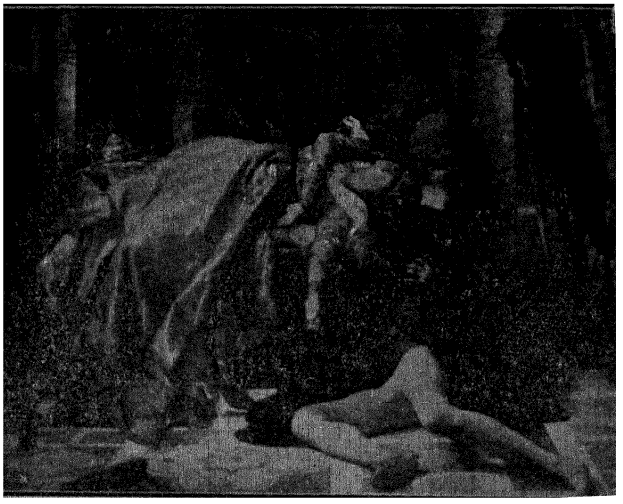
دانتى البجيرى

مؤلف الكوميديا الالهية

تمثال نصفى بالمتحف الوطنى بنابولى

دانتى هو أكبر شعراء ايطاليا كافة ولد فى فلورنسا سنة ١٢٦٥ م . وقضى نحبه فى المنفى سنة ١٣٢١ م .

وروايته « الكوميديا الالهيـة » وهى مؤلفة من ثلاثة أجزاء : (الجحيم والمطهر والفردوس) قريبة الشبه برسالة الغفران



مصرع

پاولو ـ و ـ فرنشسكا

منقولة عن صورة ريشة الرسام «كابانل» بلوكسمبورج بباريس
(فاجأ الزوج العاشقين معاً فقتلهما وذلك حوالى سنة ١٢٨٥م)

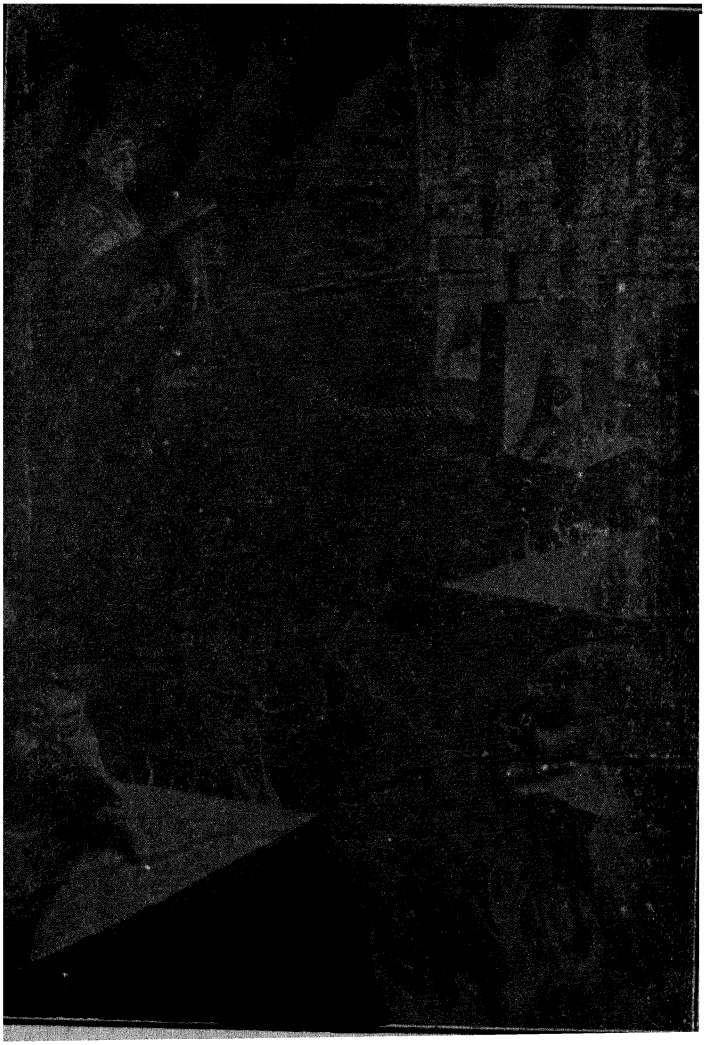


غرام پاولو ـ و ـ فرنشسكا

منقولة عن صورة الرسام روستى

زوجت فرنشسكا من الفارس الشجاع جنا الاعرج وكان مشوه الخلقة فوقع فى قلبها حب أخيه الاصغر « پاولو » الملقب بالجميل وهذه حكاية بدء الخطيئة بينهما كما ترويها فرنشسكا فى « الكوميديا الالهية »

« فى ذات يوم كنا نستمتع بمطالعة قصة « لانسلوت » كيف تيمه العشق وامتلك عليه لبه وكنا وحدنا ولا ريبة بيننا . فكانت هذه المطالعة كثيراً ما تجتذب أبصارنا فتلتقى النظرات ويفيض الاحمرار من خدودنا الباهتة الا موقتاً واحداً خذلنا فيه ، وذلك عندما قرأنا عن ابتسامة الملكة تلك الابتسامة المشتهاة ، وقد انكب عليها هذا المحب المتفانى بقبلة هيام متدلة . عندها لم يتمالك حبيبى ـ هذا الذى لن أفارقه ـ ان طبع قبلة على شفتى المرتجفين)



مرقد الزنادقة أتباع الشياطين

لما دخل الشاعر مدينة ديس (Dis) فى الدرك السادس من جهنم رأى فضاء شاسعا فى كل موضع قدم منه ضريح ، وهذه الاضرحة مرفوعة الغطاء مسجورة باللهب ينبعث منها ، وتخرج من جوف هذه الاضرحه المتقدة أنات ملتاعة ، هى أنات الزنادقه ارقدوا فيها ، كل زنديق وشيعتة فى ضريح واحد أكداساً محشورة ، ومن احدى هذه الاضرحة سمع فارينا تا ناهضاً من ضجعته

ومن احدى هذه الاضرحة هب (فاريناتا) ناهضاً من ضجعته وبدا للشاعر من رأسه الى وسطه رافع القامة شامخ الجبين وكأنما ينظر باشد الاحتقار الى جهنم بنفسها . فهنا أيضاً أبقى «دانتى» على عميد أكبر بيت من بيوتات فلورنسا كبرياءه الموروثة وعظمة نفسه العالية، وان كان قد رحه فى الوطيس المستعر حراء رندقته، وعلى هذا الاسلوب الفنى حرى دانتى فى الكوميديا الالهية — وهو كما يعلم شديد التدين ، تقيد فى حجيمه ومطهره وفردوسه بما رسمه آباء الكنيسة وما أقروه من الخرافة الوثنية القديمة. فلم يخرج على كاثوليكية القرون الوسطى فى شىء ولكنه يعرض مع لاهوت القرون الوسطى فلسفتها ويعرض فروسيتها . وثمت كانت صورة الكوميديا حية محسوسة تهز النفس وتفعم الخاطر،

وعلى هذا الاسلوب الفنى حرى أبو العلاء كما قدمنا حتى أن الاخطل — عليه الهلة (١) ما شدهته النار عن كفره واساءته، وحتى أن ابليس — لعنه الله — وهو يصطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من ايدى الزبانية، يصطنع منطقه المكذوب فى التعريض وفحش السؤال ويعمد الى استفزاز طبائع الشر الكمينة ليجذب اصحاب الجبة الى سقر !

— ٣ —

فحن نقول ان أبا العلاء احتفظ بالشخصيات فى الدار الآخرة . نقول انه أبقى على أهل المداوة عجهية بداوتهم وعلى أهل الكفر برغات كفرهم، الى غير ذلك مما قدمناه وأطلنا فيه على قدر ما احتمل المقام . ولكن انا العلاء لم يقل ذلك جهرة عن أشخاصه ، أبو العلاء أبرع خاطرا وأوسع حيلة من ان يتورط فى حكم يؤخذ به أحد المارقين ويحاسب عليه الحساب العسير ، وهو أيقط تقية من أن يسهو عن مقاتله ويتعرض لهدر دمه أو للاذى وامتهان الكرامة — على أقل تقدير . ثم هو متمرس صليع بفنون الادب عليم باساليب التأثير ، فلا بدع ان ائتمرت هذه جميعا فاخرجت الرسالة مخرجا لامحل فيه لاصطناع النقد أو التعليق أو التحليل بل كل شأنها أن تكون مسرح استعراض وتمثيل . فابو العلاء انما يعرض فى رسالته للقارىء أشخاصاً أحياء يعملون بما ركب فى طبائعهم ويسلكون سلوكهم ويتحدثون حديثهم وشأن القارىء معهم شأنه مع

(١) اللعنة

الاحياء الذين يعايشهم، فهو انما يأخذهم بأعمالهم ويستطلع طلعهم من أحاديثهم ويستصدر حكمه من سلوكهم وهذا الاسلوب فى تأليف الرواية اقرب الاساليب الى الحياة واليه يعمد كل الروائيين المعدودين فلا يتدخل المؤلف بين أشخاصه والقراء الا قليلا ليدلى بكلمات قلائل فى شرح باعث أو تحليل عاطفة من حين لآخر، وهى كلمات لا تكفى فى ذاتها ولا يقصد بها أن تكفى فى ذاتها وانما هى معالم طريق يسترشد بها القراء فى شتى مناحى الرواية، ومسائر خصم يستجلون بها اعتلاج الدوافع فى السريرة الانسانية وتكشف الاعماق عن رمم ودرر، فالقراء هنا يسترشدون ويستنيرون الا أنهم هم الذين يرون لانفسهم ويستشهدون حواسهم ومداركهم، فالاسلوب فى «رسالة الغفران» أسلوب تمثيلى الى أقصى حد يسمح به طبيعة القصص المروية ويتسع له نطاق خصائصها والاسلوب التمثيلى يقوم بناؤه على عمادين «الحوار والوقائع» وأكثر الوقائع يغنى فيها الحوار عن العيان اذ ليس فى طوق المؤلف أن يشهدك فوق رقعة المسرح أو بين دفتى الكتاب على كل شىء فى زمانه ومكانه، كما نك العالم بكل شىء الموجود فى كل زمان ومكان، وليس مما يتفق مع غاية الفن من تعميق الاثر فى النفوس واهتياجها من اعماقها أن يسرد المؤلف الوقائع على الترتيب والتعقيب وانما يعرض المؤلف واقعه أو بعض وقائع وفى الوقت ذاته يتيح لنا ان نتسقط انباء وقائع غيرها — سابقه ومقترنه لا تقل عنها خطرا وروعة — من سياق الحوار بين المتحاورين وان نتمثل مشهدها كما وقعت فى زمانها ومكانها على لسان الشاهدين، وان نستوضح ما استبهم من مآتيها وعلائقها من ذكريات الذاكرين، فاذا سمعنا حوار ابن القارح مع التنوخى فى درك الجحيم تقشع دجاها المنعقد عن مجلس يزيد بن مزيانة وبين يديه الخمر والقيان تعبيه والندمان تهاكه ورائحة العنبر عبقة فاعمة والتنوخى ينشده فى الخمر — استهتارا وتحديقا — فما يزيد عن الابتسام ويهتز للصلة. اذن وقفنا من حوار التنوخى فى الاخرى كيف كان فى الاولى وفهمنا السر فى سوء المآل، واستعرضنا حياته فى الدارين دون أن يتغير المنظر ويتبدل الحال

ثم ابن القارح يقص قصته وهى حكاية طويلة شائقة، كثيرة الفنون غنية بالصور تحد نفسك لأول كلمة منها فى عرصات القيامة — وقد طال الامد واشتد الظما

والحر ، ولكن الكلمة الثانية سرعان ما تروّح عنك وتتشل روحك الحائرة اشلة واحدة ، وتصرف الشبح المخيف بأسرع مما ظهر، فاذا ابو العلاء يصاحكك ويكاشفك بالاشارة المريبة والسحر المستتر ثم لايزال يروعك ويضحكك حالطا الروع بالضحك والضحك بالروع من حيث لا تحتسب، فمن حصرة عم النبي وسيد الشهداء الى مشاحنة يتترس فيها الشعراء لشيخ المحو لتأوله عليهم ، ورفعه ما قصدوا فتحه، وفتحه ماقصدوا رفعه. ومن هلع ابن القارح ورعدته ثم صرعه ثم نهوضه وقد احد الرمق عند ما اجاب لنداء المنادى فى المرة الثالثة والاخيرة شاهد بتوبته ، ومن خروج فاطمة عليها السلام لتسلم على ابيها وهو قائم لشهادة القصاء ومناداة الهاتف ان غضوا أبصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . الى مشهد حيل اولاد النبي طائرة فى الهواء وابن القارح متعلق بالركاب الى ممطره على الصراط غير مستمسك بمارسه جارية الزهراء وهو يتساقط عن يمين وشمال

وان سماعنا هذه الحكايات على لسان أصحابها وبصمير المتكلم الذى تكمد أهواها واصطلى نارها، يجعلها أشد أسرا للسامع وامتلاكا لمجامع حسه، حتى لتسمع من المتكلم نبرات صوته متهدجا فى التوجع والحسرة ، رقيقاً فى الحنان واللوعة أحش فى الهلع رنانا فى المحار وحتى لترى أسارير وجهه تتقلص وتنبسط ولمحات عينيه تورى نارا وتطفح نورا ، وحركاته تقوى وتتوعد أو تتراجى وتصرع كأنما المتكلم ماثل بين سمعنا وبصرنا . ولو لم يركن المؤلف الى الاسلوب التمثيلى وسوق الحكايات على لسان أصحابها — على سبيل الحوار وترديد الذكريات ، وشاءت ركدة الخيال وبلادة الطبع ألا يبرح لحظه قصة الراوى عن الغائبين بضمير الغائبين ، اذن لاعياه جمع كل هاتيك الصور بألوانها المحلية وما فيها لونه وحشد شتى العصور التاريخية والمعتقدات الغيبية — فى أوجز عباره وأبلغ تأثير — لشهدها فى عبارة رسالة الغفران وتأثيرها

وفى رسالة الغفران وعورة من غريب اللفظ وتعرض كثير لعلوم اللغة — ينحنى البعض على أبى العلاء اصطناعها تعمية للكلام وسترا للحرية ، ولكن المامة يسيرة بمنثور أبى العلاء ومنظومه — فى مختلف الاعراض — تثبت أن هذا ديدنه ، ونزكى القول بأن هذا من أبى العلاء ولع بعلوم اللغة نجده فى كثير من أمثاله

المتشائمين، والا فماذا يمكن أن يتكلف أبو العلاء ستره وراء عملية لغوية عقيمة، كمداولة كل حرف من أحرف الهجاء عدة مرات على قافية البيتين المرويين

ألم تصحبتى وهم هجوع
حيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى
اذا شاءت وحوارى لسمن

فبستمسح العملية العقيمة (بأم حزء) و (حوارى بكشء) وغيرهما وهكذا يمطلق خطوة خطوة متغلباً على عقبة كأداء فى أثر عقبة كأداء حتى يخرج طافراً بعد اد يحتمها بجاح عظيم (أم شرى) و (حوارى بأرى)

ولكن لنتجاوز «رسالة الغفران» لحظة فان حوها حو شكوك وريدقة قد يدع منفسداً ولو ملتوبا صيقاً للمغالطة والممارأة فى هذا الرأى، ولنسد على المغالطين السبل إلا الى هذا الذى نحن بسبيله، بأن نحتكم الى رسائل المعرى التى تتنره عما يستوحب التقية والتكر، ونكتفى منها بهذه الرقعة الموجزة التى كتبها الى بعض العلوية

تلاد ليس يطرف، مودة سيدى الشريف. اذ ود العلوق [1]، ود مألوق [2] ونبئته سأل عنى بكرم الطبع فصادف دروساً من الربع. وقد كنت عرفته بالعراق ماعزمت عليه من انفراد يحجزعن المراد. ووجدت الوالدة ـ رحمها الله ـ قد سبق بها القدر، الى المدر [3]. فأتت البية، بالمبية، فانطويت على ياس، ومحابية للناس، وقدمت أخا انقاص، الي أمور أنا بها غير راض. من جدب عام، اتصل فى عام بعد عام. الى غير ذلك مما الله المنهض به. وقد بعثت شيئاً من النفقة، نفسى من قلته كل المشفقة. والسفر عود [4] فى مغمصة [5]. يعبث بكل عصه [6]. ولكن أشبه امرأ بعض نزه [7] وجاءتك الناكر [8] بدون الرى. وأعطتك الحاذف [9] بعض غبوق. ياقطام أهلا بقطاك [10]، حذى من حدع ما أعطاك وأنا أسأله بسط العذر وايأسى بقبول ما أنفده متفضلا)

***

اذن فهذا الذى زعمه البعض مصطنعاً عن عمد واختيار ليس فى حقيقة الواقع الا ديدنا وخصلة لهذا المتشائم الكبير العاكف على الدرس والتفكير. ولا حاجة

---

(١) التى ترضع ولدغيرها (٢) مكدود (٣) التراب (٤) مسن من الابل (٥) الارض المطمئنة (٦) شجرة (٧) ثمانه (٨) البئر عاص ماؤها (٩) الناقة قلع لبنها (١٠) بطيرك

بعد الى اللجاجة والاطالة فى هذا الصدد

وانما هو الاسلوب التمثيلى فى رسالة الغفران اكبر عامل يشغل البعض عن سخريتها ويلطف وقعها عند البعض الآخر، والا فما تكون ميتة بشار من اجل ابيات رندقته المشهورة :

«إبليس أفضل من ابيكم آدم»
فتبينوا يامعشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

أو

الارض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار

الى جانب الميتة التى كان يمكن ان يحرها هذا الهجاء المقذع لو كان فى صيغة غير هذه (ويمر ملك من الملائكة فيقول الشيخ «ياعبدالله اخبرنى عن الحور العين اليس فى الكتاب الكريم: أنا أنشأناهن انشاء ، فجعلناهن ابكارا، عربا اترابا ، لاصحاب اليمين» فيقول الملك «اقف اثرى» فيتبعه فيجىء به الى حدائق لا يعرف كنهها الا الله ، فيقول الملك «خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها، فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور» فيأخذ سفرجلة أو رمانة او تفاحة ، او ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيساء، تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول «من انت ياعبد الله» فيقول «انا فلان ابن فلان» فتقول «انى أمى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة» فعند ذلك يسجد لله القدير . ويخطر فى نفسه ـ وهو ساجد ـ ان تلك الجارية على حسنها ـ ضاوية [1] فيرفع رأسه من السجود ، وقد صار وراءها ردف يضاهى كثبان عالج وأنقاء الدهناء ورملة برين وبنى سعد[2] فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ، ويقول «يارازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها، والذى فعل ما أعجز وهال، ودعا الى الحلم الجهال: اسألك ان تقصر بوص[3] هذه الحورية على ميل فى ميل فقد جاز بها قدرك حد التأميل»

هما يخرج أبو العلاء عن طور اعتداله وعن شىء من تقيته ويحن ويقصف . لقد انهزم عقله دون تصديق جنة الخلد فهو يقصف لهذه الهزيمة . لهزيمة نفسه وخيبة رجائه فى حياته ومماته ، والسخرية سوء ظن بالاشياء ومظهر من مظاهر التشاؤم ولقد بلغ به التشاؤم الى حد أن الجنة لو صح نبؤها من قبيل الخيال فليس يصح لديه استقامة حالها فهو يقول ويعاود القول على لسان أهل الجنة وعلى

(١) نحيفة (٢) كلها تلال فى بلاد العرب (٣) عجز ردف.

لسان أهل النار « وددت أنى لم انطق مصراعا (شطراً من الشعر) ودخلت الجنة مع الهمج والطغام » « ولقددخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب فى الدار العاجلة » « لحقك ان تكون فى الدرك الاسفل من النار ولقد صلى بها من هوخيرمنك ونو جار الغلط على رب العزة لقلت انك غلط بك » وهذه طامات فوقها طامات لا تطرق أفقها تباشير صبح ولا ينفذ فى حنادسها شعاع نجم، وكثيراً ما ائتلقت نجمة القطب الهادية فى حلك الدجنة وكثيراً ما فصض الامل حواشى الغمامة المدلهمة ، ولكن يأس شاعرنا عضال وتشاؤمه مطبق

وهنا أيضاً يندد أبو العلاء بذوق العرب فى محاسن المرأة ونظرهم الى الحسن نظرة حسية بحتة ، تجعل الهوى اتصالا جسديا لاتفاهما روحيا ولا تمير حسناء بعينها عن لداتها الحسان، بمعان فى عينيها وطهارة ترف على جبينها ووقدة حب تحفز شفتيها وحياء يصرج وحتيها، بل تجمع النساء جميعهن صفة واحدة « غصن على كثيب » وهكذا السخرية نزعة فردية مستقلة خارجة على مألوف الجماعة كما أنها أرستقراطية فكرية فوق المعتقدات المتداولة

ويقول ابو العلاء — على لسان الملك الكريم — : « ان الحور العين على صربين ، صرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها، وضرب نقله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة » ولقد مر بالقارئ فى خبر الحورية العجزاء، مثال من الضرب الاول ، والى القارئ مثال الضرب الثانى ، ذلك ان الشيخ يخلو بحوريتين من الحور العين ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها متمثلا بأبيات لامرئ القيس فتستغرب أحداهما ضحكا، فيقول « م تضحكين؟ » فتقول : « فرحا بتفضل الله ! أتدرى من أنا يا على ابن منصور ؟ » فيقول « أنت من حور الجنان اللواتى خلقهن الله جزاء للمتقين؛ وقال فيكن : « كأنهن الياقوت والمرجان » فتقول « انا كذلك بانعام الله العظيم ! على انى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة ، وأسكن فى باب العراق بحلب، وأبى صاحب رحا ، وتزوجنى رجل يبيع السقط ، فطلقنى لرائحة كرهها من فيّ ، وكنت من أقبح نساء حلب. فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلى ومردنى، فصيرنى ذلك الى ما ترى »

ويلاحظ القارئ قوة الملكة

الساخرة وحروبها فى احتيار المرأة الدميمة وسكنها ومحدثها وروجها بائع السقط ـ وقد اعتاد فصل مهنه كراهة الرائحة ومع ذلك غلبت كراهة الرائحة من فمها الابخر ، وطلق غير مطيق صبرا . فأبو العلاء يستوفى المسح كل استيفاء ويحكم أطراف السخرية من كل جانب ولا يفوته عامل واحد من عوامل تقوية الهزء وتعريره ، ولا تهى ناقدته فى الاحتيار والتأليف . ولو حاصم ساحر بده بهذا النوع من السحرية لعز على إمكان حصمه أن يتأول سحريه ويرد طعنته الى صدره ، وهذه هى السحرية الحصيمة القاتلة

ولقد وسعت سحرية أبى العلاء كل شئ ، حتى الغفران الذى جعله عنوان رسالته : «فاذا سئل الحطيئة» بم غفر لك ، يقول « بالصدق » فيقال « فى أى شىء ؟ » فيقول: فى قولى

أرى لى وجها قبح الله خلقه

فقبح من وجه ، وقبح حامله

ولو شئنا لاستطردنا الى أخبار من ادخلوا الجنة لصالح الاعمال ، من حمر الوحش ترتع فى رياضها وترزق فيها بغير حساب ، ومن أسود يفترس الواحد منها من صيران الحنة(١) وحسيلها (٢) فلا تكفيه مائة أو مائتان ، وهو يفترس ما شاء الله ولا تؤذى الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من الليده كما يجد الاسد ، تلطف ربها العربر ، وفيها من الحيات القاتلات ، كالحية التى كانت تسكن دار الحسن البصرى فيتلو القرآن ليلا ، فتلقت منه الكتاب من أوله الى آخره ، وهى وأترابها يلعبن ويمازحن ، يتحاففن ويتثاقلن روضة مؤنقة من رياض الجنة ، وتقول الحية للشيخ . « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر فانى اذا شئت انتفصت من اهابى فصرت مثل أحسن غوانى الجنة ، لو ترشفت رضابى لعلمت أنه أفضل من الدرياقة(١) فيذعر منها ويذهب مهرولا فى الجنة ويقول فى نفسه : « كيف بركن الى حية » فتناديه « هلم ان شئت اللذة » فيقول « لقد ضيق الله علىّ مراشف الحور الحسان ان رضيت بترشف هذه الحية »

ولكننا لا نستطرد الى أكثر مما قدمنا للتمثيل على سحريه أبى العلاء وعقيدته فلقد كان فى مثل واحد الكفاية فمن لم تقنعه كل هذه الامثال فلا يسعنا الا تهنئته بحسن طعمه الجم . ولعل حسن

(١) قطعان بقر الوحش (٢) اولاد البقر (٣) الترياق وهو شفاء السم

طنه لا يقف دون كاتب هذه الاسطر، وليأذن لما ـ قبل وداعه ـ بكلمة واحدة وهي أن رسالة الغفران ليست مزحا هازلا ولا هجواً ماقـا، ولـكنها ظاهر يخالف الباطن ودعوى تثبتها قريبة وتنبو بها قرينـة ، وحد يتردد المرء فى تصديقه وهذه هى السخرية!

ولقد يعترض معترض على اسهابنا فى الـكلام على ألوان السحر فى رسـالة الغفران فنقول: «ان السخر مفتاح الرسالة فمن أخطأ هذا المفتاح قرأ الرسالة ولم يعرف دخيلتها ، وفهمها على غير مدلولها فـكان مجهوده ضائعاً ومجهود أبى العلاء أضيع!» عبدالرحمن صدقى

أشعار الزنادقة في رسالة الغفران

«.... قال (أبو العلاء) فى رسالة الغفران : « ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الحالين ، فيقال إن رجلا من يهود حيبر يعرف بسمير بن أدكن قال فى ذلك:

« يصول أبو حفص عليما بدرة
رويدك ان المرء يطغو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط
لتشبع ان الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقا . ما ظهرتم
عليما ، ولـكن دولة . ثم تذهب

ونحن سقاكم الى الميس . فاعرفوا
لنا رتبة البادى ـ الذى هو أكبد
مشيتم على آثارنا فى طـريقنـا
وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا »

وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودى ، أو أن ايراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه!

ياقوت الرومى

مزايا رسالة الغفران [1]

- ١ -

شخصية المعرى كلفه بالغريب

كان « أبو العلاء » يحرص أشد الحرص على أن يخفى نفسه على القارئ فى بعض رسائله ولـكن شخصه كان يأبى الا الظهور

كان يلقى بينه وبين القارئ أستاراً صفيقة من غريب اللفظ، وحجباً كثيفة

(١) كلمة مختارة من كتاب « ذكرى ابى العلاء »

من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى الا أن تخترق هذه الموانع كافة ، لتصل الى قلب القارىء فتترك فيه ندوباً — لدعات الجمر أخف منها وقعاً ، وأهون منها احتمالا

ذلك حاله فى « رسالة الغفران » ، فكم اتحد حوله من الشعراء الجاهليين جنوداً يدودون عنه ، ويناصلون من دونه ، وكم أسبغ على نفسه من علوم اللغة وآدابها دروعاً تعصمه من وصمة الالحاد !

وكم ضحى من رشادقة العباسيين ضحايا ليعلن أنه مسلم ، ولكن هذا الكيد كله لم يزد الناس الا علما به ، واتهاما له ، حتى قال الذهبى : « انه صاحب الزندقة المأثورة ! » واستدل على ذلك برسالة الغفران

***

أبو العلاء هو اطهر الكتاب المسلمين سجية ، وأوضحهم عاطفة فى نثره ، ذلك لانه لم يستطع ان يكون منافقاً ، ولم يوفق الى تكلف الحيلة فى اخفاء نفسه ، وان وفق التوفيق كله فى تكلف السجع والغريب !

لقد حكم قانونه الفلسفى الصارم فى نثره ، كما حكمه فى شعره وحياته ، فالتزم فى الكتابة ما لا يلزم — من إيثار الغريب وتصريف اصطلاحات العلم فى التعبير عن العواطف والدلالة على الميول ، فهو يؤدى كثيراً من الاغراض بتلك الضروب العروضية التى ما أراد الخليل بها الا أن تدل على مجرد الاوزان والتفاعيل !

***

من أظهر خصال أبى العلاء فى نثر هذا الطور (طور العزلة) حرصه على الاستقصاء التام ، بحيث اذا عرض لمسألة لغوية أو نحويه — فى طريقه — لم يستطع أن ينصرف عنها حتى يستقصيها ، ولقد اشتد ضيق أهل الجنة وأهل النار — من الشعراء والرواة — به ، لكثرة ما ألح عليهم فى النقد والمناظرة ، حتى نفد صبر « ابليس » الذى لا ينفد صبره ، فأغرى الزبانية أن يقذفوه فى النار ، وحتى أوقع فنونا من الملاحاة بين أهل الجنة الذين لا يعرف الخلاف اليهم سبيلا

***

هذا الاستقصاء يرضى العالم المحقق ، ولكنه يسأم القارىء المتعجل ، لذلك كان الملل الى نفس القارئ — فى نثر أبى العلاء — سريعا ، الا أنك — اذا درست الرجل وفهمت روحه وعواطفه —

أصبح كلفك بعشرته ـ فى نثره وشعره ـ ألزم لك من ظلك! وهذه أخص الصفات التى امتاز بها أبو العلاء!

اما المبالغة، فقد قلت، ولكنها لم تسمح، على أن أبا العلاء قد اتخذ لهذه المبالغة دواء حسنا، فما تجد مبالغة فى نثره الا وقد أحاطها من الالفاظ بما يكف من غلوائها، فتراه يستعمل «كاد» مرة، و «لو» مرة اخرى!

***

قلنا: ان الغريب والسجع يلزمان «أبا العلاء» فى كتابته، ولكن من الحق علينا أن نقسم نثر أبى العلاء قسمين: أحدهما ما يذهب فيه مذهب الانشاء والتسميق، وهذا لابد فيه من السجع والغريب؛ والآخر ما يذهب فيه مذهب القصص التاريخى أو العلمى وهذا يقل فيه السجع والغريب حتى لا تكاد تعثر بهما

لذلك انقسمت رسالة الغفران الى قسمين، فاما ما كان من وصف الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، فالسجع فيه لازم، والغريب فيه موفور، وأما ما وصف به الزنادقة، فسهل مرسل يسيغه السمع؛ ولا ينبو عنه الطبع.

وكذلك انقسمت رسالته التى عزى بها حاله «أبا القاسم» عن أخيه؛ هذين القسمين: فاما ما اشتمل على مصارع الأنبياء والملوك وأعلام الناس، فسائغ اللفظ ـ وان التزم فيه السجع ـ وأما ما وصفت به مصارع الحيوان، فلن تصل الى فهمه الا بعد العناء الشديد:

ـ ٢ ـ

السحرية

من قرأ رسالة الغفران، وأراد أن يفقه معناها حق الفقة، احتاج الى دقة ملاحظة، وحذق فطنة، وبعد نظر، ونور بصيرة، والى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف اغراضه، فاذا لم يوفق الى ذلك مرت به رسالة الغفران ـ وهو يظنها من أقوم كتب الدين!

ذلك ان أبا العلاء يملك فى هذه الرسالة الى النقد مسلكا خفيا تكاد لا تبلغه الظنون؛ ولولا أن مؤرخيه قد كانوا يسيئون الظن به، لما اهتدوا الى ما فى رسالة الغفران من النقد!

على أنهم لم يفهموا منه الا الظاهر

الذى يلمس ، والصريح الذى لا يشك فيه ، كالاشعار الاباحية التى رواها عن بعض الزنادقة ، فأما نقده الخاص ، فقلما فطنوا له

ولسنا نشك فى أن «على بن منصور ابن القارح » الذى كتبت اليه هذه الرسالة قد كان شديد الزندقة أو شديد العقلة ، فإن « أبا العلا » لا يكتب هذه الرسالة الا وهو واثق منه باحدى الخصلتين :

ودليلنا رسالة الغفران على أن هذا الرجل كان معاقرا للخمر منهالكا عليها حتى ألح عليه أبو العلاء فى أن يتوب ، ولسنا الآن بمعرض الكلام على « رسالة الغفران » من حيث ما بينها وبين دين « أبى العلاء » من صلة . وانما نريد أن نبحث عنها من وجهين . أحدهما السخرية التى اشتمل عليها . والآخر الخيال الذى عمل فى تأليفها

***

فأما السخرية فحسبك أن تسمع خلاصة القصص الطويل الذى ساقه « أبو العلاء » لدخول « على بن القارح » فى الجنة (١):

قام هذا الرجل من قبره — يوم البعث — فلبث فى الموقف أمداً طويلا حتى أعياه الحر والظمأ — وهو واثق بدخول الجنة ، لأن معه صك التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظار ، ففكر فى أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس فى الدنيا من الشعر ، فأنشأ القصائد الطوال فى مدح « رضوان » وأنشده اياها ، فلم يفهم منها شيئاً ، لانه لا يتكلم العربية .

فلما عى « على بن القارح » بأمره ، سأله . « ما بالك لم تحفل بقصائدى — وقد كان يحفل بها ملوك الدنيا ؟ » ثم كانت بينهما محاورة آيست « على بن القارح » من « رضوان »

فانتقل الى سادن آخر يقال له : « رُفر » وأعاد معه القصة نفسها . ولكن هذا الخازن نبهه الى أن يتشفع بالنبى فى أمره ، فاجتهد حتى وصل الى « حمزة » فتوسل به الى « على » وانه لفى طريقه الى « على » وقد كاد أن يظهر كتاب توبته — وانه لفى ذلك واذا شيخه « أبو على الفارسى » قد صاق ذرعه بطائفة من شعراء البادية يخاصمونه فيما تأول من كلامهم ، فنسى التوبة وأمر الشفاعة ، وذهب الى أستاذه فذاد عنه أولئك

(١) ارجع الى (ج « ١ » ص « ١١٠ »)

الاعراب ، ثم رجع الى « على » وقد فقد كتاب التوبة، ولكن « علياً » قد هون عليه الامر ، وطلب منه شاهداً على التوبة ، فاستشهد بقاض من قضاة حلب ، وقبل « على » شهادته ، ولكن سقاه من «الحوض» وأيأسه من دخول الجنة — قبل الحساب، فلم ير الا الحيلة ، فذهب الى شباب من بني هاشم ، فقال: « لقد ألفت في الدنيا كتباً كثيرة كنت أبدأها وأختمها بالصلاة على النبي وعترته، فحقت لي بذلكم عليكم حرمة ، ولي اليكم حاجة ؟

قالوا « وما هي » قال: « اذا خرجت أمكم « الزهراء » من الجنة لزيارة أبيها، فتوسلوا بها اليه في أن يأذن لي بدخول الجنة، فقبلوا منه ، ثم نادى مناد : « يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى تمر «الزهراء»

ومرت « فاطمة » فسلمت على أبنائها ورغبوا اليها في أمر صاحبهم ، فقبلت . وأشارت اليه أن يتبعها فتعلق بركاب « ابراهيم » ابن النبي ، ولم تكن خيلهم تمشي على الارض — لكثرة الزحام — انما كانت تطير في الهواء !

***

وصلوا الى «النبي» وعاد مع «فاطمة» وأخواتها ليدخل الجنة ، فلما بلغ الصراط لم يستطع أن يتقدم عليه قيد أصبع فبعثت اليه « الزهراء » جاريه تعينه، فأخذت الجارية كلما أسندته من ناحية مال من الاخرى ، حتى أعياها ذلك وأعياها ، فقال لها : « باهذه ! ان أردت سلامتي ، فاستعملي معي قول القائل — في الدار العاجلة —:

« ست — ان أعياك أم

رى، فاحملينى «زقفونه»»

فقالت : « وما زقفونه . . ؟ » قال : أن يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ويحمله ويطفه الى ظهره ؛ أما سمعت قول « الجلجول » من أهل « كفر طاب » «صلحت حالتي الى الخلف — حتى

صرت أمشي الى الورى «زقفونه»

فقالت : «ماسمعت «بزقفونه» ولا «الجلجول» ولا «كفرطاب» الا الساعة» فتحمله وتجوز كالبرق الخاطف ، فلما جاز ، قالت الزهراء — عليها السلام — «قد وهبنا لك هذه الجارية، تخدمك كي تخدمك في الجنان »

فلما صار الى باب الجنة ، قال له « رضوان » . « هل معك من جواز ؟ » فقال : « لا ؟ » فقال : « لا سبيل للدخول إلا به » فمضى بالامر

وعلى باب الجنة — من داخل — شجرة صفصاف ، فقال : « أعطنى ورقة من هذه الصفصاف ، حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها حواراً ، فقال : « لا أجرح شيئاً من الجنة الا بادن من العلى الأعلى — تقدس وتبارك — »

فلما صجر بالمارلة ، قال . « انا لله وانا إليه راجعون : لو ان الامير « أبى المرجى » حار بأمثالك ما وصلت انا ولا غيرى الى درهم من حرائمه »

والتفت « ابراهيم » — صلى الله عليه — فرآه وقد تخلف عنه ، فرجع اليه ، فجذبه جذبة حصله بها فى الجنة »

فهذه الصور التى تمثلها هذه القصة الصغيرة تبين مقدار ما تشتمل عليه رسالة الغفران من السحرية الخفية — وأمثالها كثيرة

(٣)

الخيال

لم يخترع أبو العلاء فى هذه الرسالة شيئا كثيراً ، انما وردت أقاصيص الوعاظ أكثر ما فيها .

فاذا كان فى الرسالة شىء ، فهو الموسيقى والسحرية ، على أنه قد أحطأ مواضع من الخيال كان حقه الا يخطئها ، مثل « ابن القارح » فى اجدى مجالسه حعل كل ما تمنى لقاء رجل من أهل الجنة ، نظر — فاذا هو بين يديه — فلم يكن فرق بين سكان الجنة وبين أنبائها وفاكهتها فى ذلك :

وكذلك أوقع الخلاف والمباعدة بين أهل الجنة ، حتى كادت تقع الملاكمة بين « ابن القارح » وبين « رؤبة » لولا أن توسط « العجاج (١) »

***

ولقد مر « ابن القارح » بمدائن الجن فى « الفردوس » فرارهم وسمع من أشعارهم ، فإذا أشعار بلغت من غرابة اللفظ والاسلوب مبلغاً يخيل الى سامعها أنه كلام الجنة حقا ، وما نشك فى أن « أبا العلاء » هو الذى انتحل هذه الأشعار ، أما معانيها فلا تتجاوز ما روى فى الاخبار الدينية من أحوال الجن

والقول المفصل فى رسالة الغفران يحتاج الى كتاب خاص ونحن نوفق اليه ، وحسبنا أن نقرر الآن أن هذه الرسالة هى اول قصة خيالية عند العرب

والفرنج يشبهونها بكتاب دانتى (Dante) الطليانى ، الذى سماه : (Le Comedie dévine) وكتاب ملتن الانجليزى الذى سماه « الجنة الضائعة »

وعندنا أن لقصة المعراج صلة بهذه الاقاصيص !

طه حسين

(١) ارجع الى (ج « ١ » ص « ٢٢٧ و ٢٢٨ »)

ماهي رسالة الغفران (١)

هي أشهر رسائل أبي العلاء واكبرها، كتبها في عزلته نحو سنة ٤٢٤ هـ — وهو في الحادية والستين من عمره — وقد بلغ اكمل أطوار الحياة — فضمنها نتائج اختباره ودرسه .

وقد أفردت رسائل الغفران عن سائر رسائله لكبرها ، فان حجمها يقارب مجموع ماطبع من تلك الرسائل — وأما موضوعها ، فهو انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام وأدبائهم والرواة والنحاة — على أسلوب روائي خيالي لم يسبقه اليه أحد :

***

فقد تخيل صعود « ابن منصور » — رحل رسالته — الى السماء ، ووصف ماشاهده هناك من الشعراء وغيرهم . ويشبه ذلك ما كتبه « دانتي » — أعظم شعراء الايطاليان — في روايته المسماة « الرواية الالهية » التي وصف بها حال الدين في عصره على سبيل الحلم ، فذكر انه رأى — في نومه كانه زار الجحيم ، ووصف مالاقاه هناك من عذاب الخطاة ، ثم مر بجبال « المطهر » ثم صعد الى « الفردوس » ووصف ماشاهده من الأمجاد السماوية ، حتى بلغ الى الخالق ، مثل أحكام العقاب والثواب ، وما بينهما من التكفير والتطهير ، وصمها التعريض بأعدائه ، وذكر كثيراً من أحوالهم ، فأنزل المغضوب عليهم الى « النار » ورفع المرضي عنهم الى « الجنة » وترك جماعة منهم في « المطهر »

ويشبه ذلك أيضاً ما كتبه « ملتن » — الشاعر الانكليزي — في روايتيه « ضياع الفردوس » و « استرجاعه »

ولكن هذين الشاعرين متأخران في الزمن عن أبي العلاء . فان « دانتي » توفي سنة ١٣٢١ للميلاد ، (نحو سنة ٧٢٠ هـ) و « ملتن » توفي سنة ١٦٧٤م (نحو سنة ١٠٨٤ هـ .) و « ابو العلاء » توفي سنة ٤٤٩ هـ . فهو قبل « دانتي » بنحو (٢٧٢ سنة) وقبل « ملتن » بنحو (٦٣٥ سنة) ، فلا بدع — اذا قلنا انهما اقتبسا هذا الاسلوب عن شاعرنا « المعري » فان أقدمهما « دانتي » ظهر بعد أن احتك الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية ، ونقلوا كتبهم — في العلم والفلسفة والطب الى ألسنتهم !

والايطاليان أسبق الافرنج الى

(١) نشرت بالسنة الخامسة عشرة من مجلة الهلال

الاقتباس من المسلمين ، بما انشأوه على مثال مدارس المسلمين ، وادخلوا فيها الكتب المترجمة عن العربية !

***

وتقسم مواضيع « رسالة الغفران » فى قسمين . الاول شعرى ادبى لغوى ، والثانى نوادر من المدارس الكبرى — فى القرنين (الحادى عشر والثانى عشر) فى « سالرنو » و « بولونيا » و « بادوا » و « بيزا » حيالية عن بعض الزنادقة والمستقلى الافكار والمتنبئين ونحوهم — ممن نوالى ظهورهم فى اثناء التمدن الاسلامى — ويتخلل ذلك محاورات مع الشعراء الجاهليين يسألون فيها عما غفر لهم به ، فيذكر كل منهم شعراً قاله ، او عملا عمله ، فغفر له به — ومنها تسمية هذه الرسالة — « رسالة الغفران » كأنه يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه ، عما فرط منه احياناً من الأبيات التى يعدها الناس كفرية بها

***

اما سياق هذه الرسالة ، فهو ان ابا العلاء جعلها رداً على رسالة جاءته من صديق له — يعرف بابن القارح ، واسمه « على بن منصور بن طالب الحلبى » الملقب بـ « دوخلة » ويكنى « أبا الحسن » — ذكر « ياقوت » فى « معجم الادباء » انه : « كان شيخاً من أهل الادب ، راوية للاخبار ، حافظاً لقطعة كبيرة من اللغة والاشعار ، وكان ممن حدم « أبا على الفارسى » فى داره ولازمه وقرأ عليه ، وكان يرتزق بالتعليم فى الشام ومصر وتوفى بالموصل »

فيظهر انه كان بين « ابن منصور » هذا ، وبين « ابى العلاء » مراسلات ، و « رسالة الغفران » واحدة منها — كتبها « المعرى » جواباً على رسالة لابن منصور — لم نقف عليها (١) ، ولكن يؤخذ من ثنايا « رسالة الغفران » ان الرجل اثنى بها على « ابى العلاء » وشبهه بالخليل بن احمد ، وسأله بعض الاسئلة ، واخبره انه مسافر الى « حلب » وذكر اناساً من المعاصرين بمقدار ثناء ، وذكر غيظه من الزنادقة — فأجابه « ابو العلاء » برسالته المشار اليها ، وقد ضمنها ما تقدم ، من نقد الشعراء والنحويين والرواة ، ووصف الجنة وما فيها على اسلوب تصوره لنفسه ، واستنبطه من بنات أفكاره وجعل انشاءها مسجعا — التزم فيه كثيراً من الالفاظ الغريبة ، واليك خلاصة تلك الرسالة :

(١) هى الرسالة المنشورة بأول الجزء الثالث من هذا الكتاب .

خلاصة الرسالة

بدأ أبو العلاء بمقدمة تمهيدية ، ثم ذكر وصول رسالة صاحبه ، وأخذ فى اطرائها والاعجاب بما حوته من البلاغة والجزالة ، حتى قال : « ان فى قدرة ربنا أن يجعل كل حرف منها شيخ نور ، لا يعتريه بقال الزور ، يستغفر لمن أنشأها الى يوم الدين ، ويذكره ذكر محمدين »

ثم ترك الرد على الرسالة ، وعمد الى وصف الجنة ، فتصور أن الله — تعالى — نصب لسطور هذه الرسالة — معاريج من الفضة والذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة — الى السماء ، وتكشف سجوف الظلماء ، وانه غرس لمؤلفها شجرة فى الجنة ، كل شجرة منه تأخذ مابين المشرق والمغرب ، وفى ظلال الشجر الولدان المخلدون قيام وقعود ، وهم صلة من الله — تعالى — لعلى ابن منصور ، وتجرى فى أصول ذلك الشجر انهار تستمد ماءها من الكوثر ، من شرب منها لا يموت !

وعلى تلك الأنهار آنية الزبرجد والياقوت — على اختلاف ألوانه — بعضها على هيئة الطيور السابحة — على صور الكراكى والطواويس والبط — ينبع من أفواهها شراب شهى ، كأنها الانهار الحمرية ، تلعب فيها أسماك على صور السمك — برية أو بحرية . الا أنها من الذهب والفضة وصفوف الجواهر ، فاذا مد المؤمن يده الى واحدة منها شرب من فيها شراباً عذباً لو وقعت الجرعة منه فى البحر الملح لحلا

***

ثم انتقل « ابو العلاء » الى الكلام عن « ابن منصور » فتصور جلوسه هناك — وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس ، كأحى ثمالة ، وأحى دوس ، ويونس بن حبيب الضبى ، واحمد بن يحيى ، وسيبويه ، والكسائى وأبى عبيدة ، وغيرهم — ممن كتبت لهم المغفرة ، وان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويحيونهم ، وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والاصمعى ينشدهم أحسن ماقيل !

ثم تهش نفوسهم للعب ، فيقدفون تلك الآنية الثمينة فى تلك الانهار ، فتتقارع ، فيسمع لها أنغام تحيى الاموات !

فيقول الشيخ — ابن القارح : « آه لمصرع الاعشى — ميمون بن قيس ، فقد ذكرته لما تقارعت الآنية ، ووددت أنه ماصدته قريش » لما توجه الى النبى

(ص .) وانما ذكرته لورود مثل هذا النقارع فى قصيدته الحائية » — ويأتى بأبيات منها — ثم يقول: « ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا فى هذا المجلس فينشدنا ويحدثنا ! »

نزهة ابن منصور فى الجنة

ثم يخطر للشيخ شىء كان يسمى فى هذه الدنيا « النزهة » فيركب فرساً من أفراس الجنة ، حلق من ياقوت ودر ، ويسير فى الجنة على غير مهيج ! ومعه شىء من طعام الخلود — وهو ينشد بيتين للاعشى المذكور، فيسمع هاتفاً يسأله : « هل تعرف صاحب هذين البيتين ؟ » فيقول الشيخ . « هو ميمون بن قيس ! » فيقول الهاتف: « أنا ذلك الرجل ، من الله علىّ — بعد ما صرت فى « جهنم » ويئست من المغفرة ، وسجنتنى الزبانية فى « سقر » فرأيت رجلا فى عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلالؤ القمر — والناس يهتفون به من كل أوب — : « يا محمد ! يا محمد ! الشفاعة الشفاعة ! نمت بكذا ، ونمت بكذا » فصرحت فى أيدى الزبانية: يا محمد أغثنى! فان لى بك حرمة » فقال : « يا على ! بادره فانظر ما حرمته ! » فجاء « على بن أبى طالب » — صلوات الله عليه — وأنا أعتل كى ألقى فى الدرك الاسفل من النار — فيرحمهم غنى ، وقال: « ما حرمتك ؟ » فقلت : « أنا القائل : ألا أيهذا السائلى . « أين يممت ؟ »

فان لها فى أهل يثرب موعداً
فآليت لا أرثى لها من كلالة
ولا من حفىً ، حتى تلاقى محمدا (١) .

وقلت لعلى « قد كنت مؤمناً بالله وبالحساب ، وأصدق بالبعث — وأنا فى الجاهلية (وأتى بأبيات تؤيد قوله) فذهب « على » الى النبى ، فقال « يارسول الله : هذا « أعشى قيس » قد روى مدحه فيك ، وشهد أنك نبى مرسل » فقال : « هلا جاء فى الدار السابقة » فقال « على » : « قد جاء، ولكن صدته « قريش » وحبه للخمر فشفع لى ، فأدخلت الجنة — على أن لا أشرب فيها خمراً ، فقرت عيناى بذلك ، وان لى مبادح فى العسل وماء الحيوان، وكذلك من لم يتب من الخمر فى الدار الساخرة ، لم يسقها فى الآخرة »

ثم يلتفت « ابن منصور » الى رياض الجنة ، فيرى قصرين منيفين مكتوب على أحدهما: « هذا القصر لزهير بن أبى سلمى المزنى » وعلى الآخر : « هذا

(١) ذكرت القصيدة فى (ج « ١ » ص « ٦٨ ») فلا داعى لاعادة ذكرها هنا

القصر لعبيد بن الابرص الاسدى »

***

(ثم يصف أبو العلاء مقابلة الشيخ لكل منهما وحديثه معهما بشأن ما غفر لهما به — مع ما أتياه فى الجاهلية من شرب الخمر ، فيذكر كل منهما أبياتا غفر له بها ، فلما يسمع الشيخ ذلك يطمع فى سلامة كثير من أصناف الشعراء ، فيسأل عن « عدى بن زيد العبادى » فيدلونه على منزله ، فيذهب ويجرى له معه حديث طويل — على نحو ما تقدم

ثم يركبان — كل منهما — على سابح من خيل الجنة — ويخرجان للنزهة فيلتقيان بأبى ذؤيب الهذلى — وهو يحتلب ناقة فيحادثه « ابن ميصور » ويسأل عن أبيات قالها ، ثم يمضى فى نزهته بشابين — كل منهما على باب قصر من درر ، فيسأل عنهما ، فاذا هما النابغتان — الجعدى والذبيانى — فيقول الشيخ : « ان الجعدى استوحب الجنة بالاسلام ، وأما أنت يا أبا امامة فما جهتك ؟ » فيجيب أنه كان مقرا بالله وأنه حج فى الجاهلية ، الى أن يقول : « ألم تسمع قولى :

فلا لعمر الذى قد زرته حججا

وما هريق على الانصاب من جسد

والمؤمنون العائدات الطير تمسحها

ركبان مكة بين الغيل والسند

وقولى :

حلفت ، فلم اترك لنفسك ريبة

وهل يأثمن ذو أمة — وهو طائع

يصطحبات من لصاف وثبرة

يردن الا لاً سيرهن تداقع

ولم أدرك النبى — صلى الله عليه وسلم — فتقوم الحجة علىّ بخلافه »

فيسر الشيخ لذلك ، ويطلب الى النابغتين أن يقيما معهما للمسامرة ، ثم يقول : « وكيف لنا بأبى بصير ؟ » فلم تتم الكلمة الا وأبو بصير حاضر (وهو أعشى قيس) فصاروا خمسة ، فيأخذ « ابن ميصور » يسأل « النابغة الذبيانى » أسئلة عن شعره وما قاله للنعمان بن المنذر ، (ويتحلل ذلك بنقد شعرى لطيف ، ويفعل مثل ذلك بالنابغة الجعدى ، ثم بأعشى قيس)

***

وهم فى ذلك يمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر أمراً — ومن شأن طير الجنة أن يتكلم — ثم ينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة بأيديهن المزاهر ، وأنواع ما تلتمس من الملاهى ، فيغنين !

فبينما هم فى ذلك ـ يمر شاب فى يده محبرة ياقوت ـ واذا هو «لبيد بن ربيعة» فيسألونه عن مغفرة ربه ويستنشدونه ويباحثونه ، وينتقدون اقواله ، ثم يحط لابن منصور غـاء القيان فى الفسطاط ومدينة السلام وترحيعهن بمية المخبل السعدى، فتدفع الحوارى يلحن قول السعدي المذكور ؛ وينظر « ابن منصور » فى معانيها ، ثم ينتقلون الى البحث الشعرى ، فيمر بهم « حسان ابن ثابت » فينتقدون بعض قوله ـ فى مدح النبى ـ فيدافع عن نفسه

* * *

ثم يفترق أهل هذا المجلس ـ بعد ان أقاموا فيه كعمر الدنيا أصعافا كثيرة ـ فيمر الشيخ فى رياض الجنة ، وبينما هو يطوف فيها ـ يلقاه حمسة نفر على حمس أينُق ، فيسأل عنهم ، فيقولون : « نحن عُوران قيس » وهم « تميم ابن مقبل » و « عمرو بن احمر » و « الشماخ » و « راعي الابل » و « حميد بن ثور » فيأخذ الشيخ فى تساءلهم عن بعض أقوالهم فيجيبونه ، وينتقدهم الواحد بعد الآخر فى الشعر واللغة والنحو ، حتى يسأل « تميما » عن شعر قاله ، فيقول هـذا : « والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز ؛ لأنى حوسبت حسابا شديدا ، وقيـل لى : « كنتَ فيمن قاتل « على بن أبى طالب » وابرى لحق الى « البجاشى الحارثى ، فما افلت من اللهب حتى صفعنى سبعات ، واذ حفظك لم يبق عليك . كأنك لم تشهد اهـوال الحسَّاب ، ومنادى الحشر يقول : «أين فلان بن فلان » والشوس الجبابرة من الملوك تجاذبهم الزبانية الى الجحيم ، والنسوة ـ ذوات التيجان ـ يصرن بألسنة من الوقود فتأخذ فى فروعهن واحسادهن ، فيصحن : « هل من فداء ؟ هل من عدر يقام ؟ » والشباب من أولاد الاكاسرة يتضاغون فى سلاسل النار ، ويقولون : « نحن أصحاب الكنور ، نحن أرباب الغاية ، ولقد كانت لنا الى الناس صنائع واياد ، فلا فادى ولا مُعين »

فيهتف داع من قبـل العرش . « او لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ـ وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير ؟ « لقد جاءتكم الرسل فى زمان بعد زمان ، وبذلت لكم ما وُكِّد من الايمان ، وقيل لكم فى الكتاب : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ـ وهم لا يظلمون ـ » « فكنتم فى لذات الساخرة واغلين ، وعن

اعمال الآخرة متشاغلين ، فالآن ظهر النبأ ، لا ظلم اليوم ، ان الله قد حكم بين العباد »

***

(وعند ذلك يأخذ الشيخ « ابن منصور » فى تلاوة قصته ـ منذ بُعث وجاء دارَ القيامة الى تلك الساعة ، فيذكر انه قضى فى الطريق خمسين ألف سنة ، واشتد عليه الظمأ ، وانه لما وصل الجنة نظم ابياتا فى مدح خازنها « رضوان » زلفا اليه حتى يدخله ، فلم يحفل بها ، ولا به ، فناداه وعاتبه ، فقال « رضوان » : « وما الاشعار ، فانى لم اسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة » فاجابه الشيخ : « الاشعار جمع شعر ، والشعر جمع كلام موزون تقفيه الغريزة على شرائط ـ ان زاد او نقص ابانه الحس ، وكان اهل العاصمة يتقربون به الى الملوك والسادات . فجئت بشىء منه اليك لعلك تأذن لى بالدخول فى هذا الباب »

فأنكر عليه « رضوان » الدخول الا باذن الله ، فانصرف الى خازن آخر تقرب اليه بالشعر فلم يفهم مراده ، ثم قال له : « احسب انك تعنى قرآنَ ابليس المارد ، فهذا لا ينفق على الملائكة انما هو للجان وقد علمهم ولد آدم »

ثم سأله عن غرضه فقال : « أن أدخل الجنة » فقال : « من أى الأمم أنت ؟ » قال : « من أمة محمد ! »

فأشار عليه أن يستشفع نبيه ، فاستشفعه ـ فى حديث طويل ، ذكر فيه النبى وزوجه « خديجة » وابنته « فاطمه » وأولاده « عبد الله » و « القاسم » و « الطيب » و « الطاهر » و « ابراهيم »

فتعلق « ابن منصور » بركاب « ابراهيم » حتى أتى الصراط ، فمر عليه ، فلما وصل باب الجنة ، قال له « رضوان » : « هل معك جواز ؟ » فقال : « لا » فأراد منعه من الدخول فجذبه « ابراهيم » جذبة أدخله بها الجنة)

***

فلما يفرغ « ابن منصور » من قصته يعود الى مباحثة الرفاق ، ثم يعرض لهم « لبيد » فيدعوهم الى منزله فى « القيسية » فيرافقونه ـ واذا هم بأبيات ثلاثة . فيتساءلون عنها فيقول « لبيد » : « انها بُنيت له بدلَ ثلاث ابيات من الشعر قالها فى حمد الله وذكر نعمائه ! »

ثم يبدو للشيخ أن يصنع مأدبة يجمع فيها أمكن من شعراء الخضرم

والاسلام وغيرهم ، ويقترح أن يكون مآدب الدار العاجلة ، فتنشأ أرجاء على الكوثر ـ تجمع لطحن القمح برحى من عسجد، تديرها حوار من الحور العين؛ ثم يؤتى باللحوم والطهاة ويفرق الغلمان لاحضار المدعوين فلا يتركون فى الجنة شاعرا اسلاميا ولا مخضرما ولا عالما بشئ من أصناف العلوم لا يحضرونه فيجتمع خلق كثير، فاذا قضوا الأرب من الطعام

تطلع (ابن منصور)

ثم يخطر للشيخ « ابن منصور » أن يطلع الى أهل النار ، لينظر ما هم فيه ، فيركب بعض دواب الجنة ويسير ، فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ـ فيسأل بعض الملائكة عنها ، فيقولون : « هذه جنة العفاريت والجان ! »

(ويلى ذلك بحث فى شعر الجان وطباعهم ، مع شيخ منهم يحدثه هناك)

ثم يتنقل فيجد سباعا يسأل عن حديثها وسبب وجودها ، ثم يذهب فى كل سبيل ، فيجد رجلا ليس عليه نور سكان الجنة ، فيسأل عنه : فيقول « أنا الحطيئة ! » فيسأله : « بماذا وصل الى الشفاعة ؟ » فيقول : « بالصدق فى قولى :

تأبى السقاة بأصناف الأشربة والمسمعات بالأصوات المطربة ، ويحصر أشهر المغنين المعروفين ـ عند العرب وتدور الاحاديث يتخللها أبحاث فى الشعر والغناء والادب والنحو ـ لا محل لها هنا

ثم يفترق أهل ذلك المجلس ، ويخلو « ابن منصور » بحوريتين ، ويتلو ذلك وصف حور الجنة

الى ما نزل به من النكال . فيباحثه «ابن منصور» فى بعض أقواله .

ثم يسأل عن « امرئ القيس » فيأتونه به، فيسأله بعض الشيء عما رواه « البغداديون » من أشعاره وينتقده ويطعن فى النقلة الذين أخطأوا فى نقل أقواله، وفى ما غيّره المعلمون فى الاسلام منها - فى كلام طويل

ثم يلقى « عنترة العبسى » متلددا فى السعير ، فيسأله وينتقده نقداحسنا،

ثم يسأل عن «عمرو بن كلثوم» فيقال: « ها هوذا من تحتك ، إن شئت أن تحاوره فحاوره » فيخاطبه!

ويفعل مثل ذلك فى « طرفة ابن العبد » و « أوس بن حجر » و « أبى كبير الهذلى » و « صخر » واذا « الأخطل » و « المهلهل » و « المرقش الأكبر » و « المرقش الأصغر » و « الشنفرى » و « تأبط شرا »

رجوعه الى قصره

ثم يمل من خطاب أهل النار ، فينصرف الى قصره المشيد فى الجنان ، فيلقى آدم ، فيسأله عن بعض شؤونه ، ويضرب سائرا فى « الفردوس » فاذا هو روضة مؤنقة - فيها حيات يلعبن ، فيستعرب وجودهن هناك

فتحاطبه كل منهن أنها صارت الى الجنة بحسنة أتتها ، فمنهن « ذات الصفا » وحية كانت تسكن داره الحسن البصرى » وغيرها .

ثم يمر بمكان يقال له : « إنه حنة الرحز » وينتقد الرجز وأصحابه - ولا سيما « رؤبة » و « العجاج » ويحاطبهما ويباحثهما .

ثم يذكر « الشيخ » ما كان يلحق شاربى المدام من فتور فى الجسد ، فيختار أن يعرض له ذلك، فيشعر لشيء فى العظام كدبيب النمل ، ويتكئ على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة - وإنما هو زبرجد ، أو عسجد، فيكون فيه البارئ حلقا من الذهب ، تطيف به من كل الأشراء ، حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الجوارى المشتبهة بالجمان بواحدة من تلك الحلق ، فيحمل على تلك الحال الى محله المشيد بدار الخلود ، فكلما مر بشجرة نضحته

أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ويمسك ما حني من دماء الفور ، بل هو بتقدير الله الكريم، وتناديه الثمرات من كل أوب ـ وهو مستلق على الظهر ـ: « هل لك يا أبا الحسن ؟ هل لك ؟ » فإذا اراد عنقودا من العنب انقضب من الشجرة ـ بمشيئة الله ـ وحملته القدرة الى فيه ـ وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ـ وآخر دعواهم . « أن الحمد لله رب العالمين » لا يزال كذلك ابداً سرمدا ، ناعماً في الوقت المتطاول منعما، لا تجد فيه الغير مزعما

الرجوع الى موضوع الرسالة

ان ما تقدم خلاصة مئة وعشرين صفحة من « رسالة الغفران » كلها جمل معترضة ، تمنى بها « ابو العلاء » السعادة « لابن منصور » بدلا مما يعبّر عنه عادة بقولنا : « أطال الله بقاء مولاى ، وأدام عزه » أو نحو ذلك

وبعد هذا الشرح الطويل عكف « أبو العلاء » نحو الموضوع المراد بالرسالة ، فقال :

« وقد أطلت في هذا الفصل فعود الي الاجابة عن الرسالة »

فأخذ في الرد على ماجاء فيها ـ وهو يبالغ في الاطراء بصاحبه ، والتواضع عن نفسه ، وينكر مانسب اليه من سعة العلم ـ وضمن أقواله شروحا أدبية وشعرية وانتقادات ونوادر يأتي بها عرضاً ، ويشتمل ذلك على القسم الثاني من موضوع الرسالة ـ أي الكلام عن الزنادقة ـ حواشا على ما جاء في « رسالة ابن منصور » من غيظه منهم ، فيذكر أحوالهم وطبقاتهم ، ويتخلل ذلك كلام عن « بشار بن برد » و « سيمويه » و « وصالح بن عبدالقدوس » وزندقته، وحكايات عن الزنادقة في بلاد اليمن وغيرها وعن « الحلاج » المشهور

وأشار الى تعظيم الخلفاء للقرود، وذكر خلاصة تاريخ « الالحاد » و الزندقة » و « الحلولية » و « التناسخ » وغيرها

* * *

فالرسالة تدل على تمكن كاتبها من آداب الجاهلية وأشعارها وأمثالها ، وتوغله في درس كل شاعر وأقواله وانتقاد كل بيت من أبياته، غير تعمقه في معرفة الفاظ اللغة ومعانيها المختلفة

ولولا ماتضمنته الرسالة من الالفاظ الغريبة لكانت من أفضل ما يتلى من

كتب الأدب لما حوته من الأبحاث الادبية والانتقادات الشعرية واللغوية والنحوية والتاريخيه ، فصلا عن انتقاد رواة الشعر والادب، واختلاف النحاة والمؤرخين فى بعض الاحوال ، وقد ضمنها كثيرا من أشعار الجاهلية وغيرها، مما لم يرد فى سواها من الدواوين الشائعة

وفيها أيضا فوائد اجتماعية وأدبية كالنهى عن الانتحار وتقبيحه، ووصف البدع والنحل ، كالزندقة والحلولية ووصف الحمائم وأنواعها وتمثيل مايقال عن حالة الجنة وأنهارها وأشجارها وحورها وغلمانها ـ وقد شرح المؤلف بعض الالفاظ الغريبة فى خلال كلامه

وبالجملة فالرسالة جريلة العائدة تشهد بسعة اطلاع « أبى العلاء » فى اللغة والشعر والتاريخ والادب

« جورجى زيدان »

السحر والزندقة فى رسالة الغفران [١]

«رسالة الغفران» أثر ممتاز من بين آثار (أبى العلاء)، واحدى المخطوطات التى تحدها فى «القسطنطينية» و«كمبردج» — وصفها كاتب هذا المقال ونوه بعضها فى «مجلة الجمعية الملكية الاسيوية [٢]»، وهى رسالة من النثر العميق، بعث بها الى شخص يعيبه، اسمه «على بن منصور الحلبى» فظهرت فيها شخصيات الشعراء الوثنيين الذين عرفهم — ومن ثم اشتق عنوان الرسالة — وقيلوا فى الجنة حيث مثلوا ادوارهم الرئاسية فى تلك التى يستطيع ان نطلق عليها اسم «كوميديا الهية مصححة» او — كما هى حقيقتها — محاكاة جريئة انقلبت فيها الآراء الاسلامية الجدية — عن الدار الآخرة — الى هزء وسخرية!

وقد حوت — الى ذلك — طرفا من علوم شتى — لا سيما موجزا عن الزندقة (المفكرين الاحرار) مع نماذج من شعرهم، واشارات الى حقيقة معتقدهم!

. . . . . .

. . . . . /. . . . . .

. . . . . .

ولقد كان صدق ايمان أبى العلاء موضوع مناقشات عنيفة، أثناء حياته، فهو — وان لم يحتج الى من يحميه من معاصريه — قد اعتقدوا فيه أنه زنديق، اعتقاداً هيمن على الناس منذ ذلك الحين

***

أما بيانه، فأول ما يبدهك منه حصلتان: «الغموض والتناقض» فقد قالوا انه كتب سفراً عنوانه «الفصول والغايات» محاكاة للقرآن، ولكنك تجده — رغم ذلك — فى «رسالة الغفران» يعنف أشد العنف فى تقريع «ابن الراوندى» لاتيانه نفس هذا العمل، ويقر الرأي الاسلامى الدينى فى اسلوب ذلك «الكتاب المقدس [٣]!» «وأبو العلاء» — اذا ظهر لك فى بعض تنقله فى لزومياته — متكلما عن الدين — كمسلم ورع — فانك لا تكاد تجد فى ذلك الكتاب نفسه — معتقداً اسلامياً واحدا سلم من سخريته!

وقد رغب الناس فى تعليل هذا

---

(١) معربة عن دائرة المعارف الاسلامية L'Encyclopedie Islamique

(٢) «Roy. As. Soc.» من (ص ٦٣٧ — ٧٢٠ سنة ١٩٠٠) ومن ص ٧٥ — ١٠١ و ٣٣٧ — ٣٦٢ و ٣٦٣ — ٣٦٢ و ٨١٣ — ٨٤٧ سنة ١٩٠٢)

(٣) أرجع الى «٢» ص «٧١ و ٧٢»

الامر فسلكوا فيه طرقا شتى، ولكن أغرب تعليل رأيناه لذلك، هو افتراض أن أفكار شاعرنا قد تحكم فيها قانونه العروضى المعتسف الذي احتاره لنظم آرائه

ولقد يضطر الانسان اضطراراً الى الشعور بأن أبا العلاء كان — من أعماق ضميره — مرتابا فى كل شيء، ارتيابا تاما وأن معظم عباراته التى امتار بها طابعه، نشأت عن سلوكه هذا المهيع!

أما تلك النزعات الايمانية الظاهرة فمن المحتمل انه قصد سطعها الى ذر الرماد فى عيون منتقديه، أو هى — كما يمكن افتراضه أيضاً — ناشئة عن أنه هو نفسه كان يشك أحيانا فى نفس شكوكه، وأنه لم ير بأساً من أن يجمع فى قوسه عدة أوتار مختلفة (١)

دائرة المعارف الاسلامية
L'Encyclopédie Islanique

الايمان فى رسالة الغفران

(١)

رسالة الغفران — سفر جليل كتبه « احمد بن سليمان المعرى » جوابا على رسالة كتب بها اليه شيخ من شيوخ « حلب » يعرف بـ « على بن القارح » يخبره فيها بأنه ألقى عصى التسيار فى بلده « حلب » بعد أن جاب الآفاق ولقى الكبراء وخدم العظماء وقارب الرؤساء وباعدهم؛ ودنا منهم ثم فارقهم، ويذكر انابته الى الله واعتصامه باسباب التقوى ويشكو اليه ما يجد من فساد الزمان وأخذ الناس بأسباب الفسق وميلهم الى شرب الراح

فأجابه « أبو العلاء » عن رسالته رسالة الغفران، وأغرب فيها أيما اغراب وأوغل فى طرق الاغماض فى الاسلوب، وحشاها من غريب اللفظ ما تنوء به عقول الشادين فى الادب، ولا يمكن أن يستقل بفهمه الا من ارتاض باللغة وملأ عيابه من غريبها وحوشيها وحرى على اسلوب المعرى ومناحيه التى يقصدها

(١) من الامثلة الكثيرة التى تؤيد هذا الرأى قول أبى العلاء فى لزومياته:

قال المنجم والطبيب كلاهما — « لا تحشر الاجساد » قلت. « اليكما »
إن صح قولكما، فلست بخاسر — أو صح قولى، فالخسار عليكما

فى تعبيره

فأما من قل زاده من الادب ، وحلت عيناه من غريب اللغة ، وقل ارتياضه بأساليب أبى العلاء ، فهو بعيد من الوصول الى فهمها — جملة وتفصيلا!

وأظهر ما يراه الاديب وترتاح اليه نفسه من الرسالة تلك الوجوه التى وجه بها أقوال الشعراء وازالة الاعتراض عليهم

هذا — وقد أطلق « المعرى » لسانه وخياله العنان ، واتخذ من توبة « ابن القارح » باباً يدخل منه الى الجنة بعد مراجعة وممانعة وصراعة وشفاعة ، حتى ظفر — بعد لأى — بدخول الجنة قبل فصل القضاء ، وأبدع ما شاء أن يبدع فى تصوير الجنة ورياضها وقصورها وأرباضها وأنهارها وطيرها ، بما يصدق عليه ما جاء فى السنة فى صفتها ، وما أعد الله للمؤمنين فيها ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقول الله فى كتابه الكريم : « فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين »

وفى رأيى أن الرجل لم يقصد بالدين هزؤا ولا سخرية ، وانما هو شىء حر اليه الخيال الشعرى ، وأملاه حب الاغراب فى التصوير ، وما أشد حب « أبى العلاء » للاغراب فى نثره وشعره ،

وفى ألفاظه ومعانيه

واعتقادى فى « أبى العلاء » أنه كان متين الدين ، قوى اليقين ، وأنه كان شديد الوطأة على منتحلى التقوى المتظاهرين بالدين والتصوف ، والحكام وغيرهم من طوائف الناس — فكان أهل زمانه موتورين منه ، فكالوا له الذم ، وتجموا عليه الجمايات ، انتقاما لانفسهم أو تقربا الى الحكام ، أو ليظهروا فى ثوب الغيرة على الدين والدفاع عن حوزته ، ليمالوا على ذلك تقريظ المقرطين ، وهم — فى الحقيقة — مقصرون عن بلوغ مداه ، أرادوا أن يغضوا منه ، ويهدموا من شامخ قدره ومرفوع مناره ، ليساويهم فى حمول الذكر وضعة القدر!

***

عرف الرجل — فى حياته — شأن شأن هذا الفريق من مناوئيه ، فقال :

« حاول اهوانى قوم ، فما
قابلتهم الا باهوانى
وقولونى بقالاتهم ،
فغيروا نية اخوانى
لواستطاعوا لشكونى الى الـ
ـمريخ فى الشهب وكيوانى »

ولقد تتبعت ما يرمونه به وينسبونه اليه — من الاقوال — فوجدته اما

مكذوباً عليه ـ لم يقله ولم يوجد فى كتبه ـ واما كلاما له وجه صحيح ومعنى ينبغي حمله عليه، واما أن يكون قوله قد اقتصت اقتصاباً ـ بحيث ـ اذا ضم الى سابقه ولاحقه ـ كان على غير ما فهم الناقد أو العائب

هذا هو رأيي فى أبى العلاء ـ بعد أن قرأت «رسالة الغفران» و«اللروميات» قراءة متفهم، أقنعتنى بأن الرجل قد أصابه ما أصاب النابهين من ذوي المواهب السامية والأقدار العالية، فى قديم الزمان وحادثه، كالغزالى وابن تيمية وابن رشد وجمال الدين وأستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده ـ فلم يخل واحد من هؤلاء من عدو كاشح يرميه بالمقذعات ويزحزحه عن حظيرة الدين، والدين أسهل باب يلجه القادحون، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

ابريل سنة ١٩٢٥ عبد الوهاب النجار

***

حاشية فاتنى فى كلمتى السابقة أن أقول: إن من ارتاض بأسلوب «أبى العلاء واصطلع باللغة، ووعى كثيراً من الغريب، رأى فى «رسالة الغفران» لذة وفائدة، أما اللذة فمن الفكاهات التى يجدها فى تلك الرسالة من توجيه أقوال الشعراء وتلمس النكات، وأما الفائدة ففى تلك الدعوات التى يوجهها «أبو العلاء» الى «ابن القارح» ولا يشبه فيها دعاء دعاء ـ مع كثرتها ـ مما يدل على قدرته وسعة درعه فى اللغة والادب، وفى تلك الحمل التى يتبعها بتفسيرها بين حين وآخر هذا ما أردت اثباته والسلام

ابريل سنة ١٩٢٥ عبد الوهاب النجار

(٢)

كان أبو العلاء المعرى من الفلتات فى البيئة التى نبت فيها، بل فى العالم الاسلامى فى ذلك العهد، فقد تقدم الذى يناسب مواهبه الفطرية بمضعة قرون، ولذلك نشأ ثائراً على كل ما يحيط به من عادات وتقاليد وأوضاع؛ حتى على ما كان يفهمه الناس من معنى الدين، من هنا حشرة الاكثرون فى زمرة الملحدين، وكان من أقوى أدلتهم على الحاده «رسالة الغفران» و«اللروميات»

فاذا كان الدين هو الخضوع لصورة ذهنية، تنحل صفات علوية، منتزعة من الصفات البشرية، والتأثم من الرذائل خوفاً من عقاب، والتحلى بالفضائل طمعاً فى ثواب، والتقليد فى العبادات والمعاملات واهمال أحكام العقل والنظر، والجمود على

حالة نفسية لاتتغير ، والاستعصاء على موس الترقي ، قلنا : اذا كان التدين هو تقمص هذه الروح، فإن «أبا العلاء» لم يكن متديناً :

ولكن اذا كان التدين — على مانفهمه اليوم من معنى الاسلام — هو محو كل صورة ذهنية ، وتعريض صفحتي العقل والقلب للوجود المطلق ، رجاء أن ترتسم عليها الحقيقة تحميها التكوك من عبث الخيالات ، والثورة على كل تقليد يسقيه بداهة العقل ، وعلى كل نظام لا يوافق سنن الطبيعة ، واستشعار الروعة من المجهول الصحم الذى يحيط بنا من كل مكان ، والترفع عن الدنايا لانها لا تليق بكرامة الانسان ، واحالة الحاجات البدنية الى أدنى حدودها ، قلنا : اذا كان التدين هو هذا ، فان «أبا العلاء» كان من أعمق الناس تديناً

***

كل مايؤخذ على « أبى العلاء » أنه كان شاكا حائراً ، فلو كما نعيش فى القرون الخالية ، لحكمنا لاول وهلة أنه كان — على السب — ملحداً ، ولكنا — ونحن فى عصر التحليل والتركيب — نقول : ان هذا السبب عينه كان متديناً : فان الانسان بهذا العقل العادى الى صور

ذهنية ، والاخلاد الى حالة نفسية لاتتطور ، يشعر بخمود الخصائص العقلية ودثور المرايا الانسانية :

والتدين — اذا عرف بأنه تقليد وعض بالنواجذ على أمور مقررة ، فالشاك الحائر لا يكون من أهله ، ولكنه — اذا فهم بأنه تعطش مستمر الى فك معمى الحياة ، وتوثب عقلى لادراك هذا المجهول الهائل ، كان من اخص صفات المتدين الشك والحيرة ، وبذلك كانت حالة «أبى العلاء» فى جميع أطواره فكيف يقول عنه ابن الفرد العشرين انه كان ملحداً

أدريت من هو الملحد؟ الملحد والمستطع فى الدين اخوان توأمان ، كلاهما يعتمد على هذا العقل الناقص فى الحكم على مالم يحط بعلمه ، وفى السمح فى لجج الخيالات وفى عدم الشعور بالنزعة الادبية فى اصدار الاحكام النهائية فالملحد ينكر على الاطلاق ، والمتنطع فى الدين يثبت على الاطلاق ، لايصدران كلاهما عن دليل يقوى على التحليل ، فهما صنوان فى الاخلاد الى الخيالات ، ولكن بينهما حالة هى الاولى بهذا الانسان الضعيف ، فى وسط هذا الوجود المخيف ، هى حالة الشك والحيرة ، يفكر وينظر ويرود

المساتير، حتى اذا هم أن يطمئن الى عقيدة مقررة تراءت وجوه المجاهيل فأدركه (الشك) ، ثم انه كلما اتجه الى وجهة متوهماً انها سبيل المعرفة الصحيحة ، بدت له طرائق شتى ، وتفرعت منها طرائق احرى فوقع فى (الحيرة) ـ فهو يقضى وجوده بين الشك والحيرة يقط العلب ، حى الشعور ، لاتزدهيه المظاهر ولا تخدعه الطواهر ، متعرضاً لنور الحق ـ ليس بينهما حجاب !

وهذا ما كان عليه ابو العلاء

ابريل ١٩٢٥ محمد فريد وجدى

آراء في رسالة الغفران

— ١ —

رأى الاستاذ الدكتور طه حسين

آية الادب العربى ، لا استثنى منه شيئاً ، لا استثنى منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئاً ما !

هى آية الادب العربى، كما أن صاحبها هو آية كتاب العرب، هى آية التفكير العربى ، هى آية الخيال العربى ، هى آية السخرية العربية ، هى آية الحرية العربية ، هى آية العرب فى هذا كله .

لا أعلو فى ذلك ولا أسرف ، بل أعترف بأنى دون ما أريد !

(٢)

رأى الاستاذ محمد كرد على

.... ولكن «رسالة الغفران» التى كتبها (أبو العلاء) رداً على رسالة ابن القارح — وكلاهما مطبوع — أشبهت رواية دانتى (Dante) الشاعر الايطالى (La divine comedie) وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرة كان معلماً لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال

وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوروبا على أن «دانتى» فى روايته «الالهية» المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة ، التى ألفها بين سنتى (١٣٠٠ — ١٣١٨ م) قد اقتبسها — ولا سيما رواية جهنم — من رسالة الغفران للمعرى ، ونسج على منواله فى التصور !

(٣)

رأى معرب الايامذة (١)

.... وان من أحسن ملاحم المولدين ملحمة نثرية ، جمع فيها صاحبها شتيت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق «دانتى» الشاعر الايطالى ، و«ملتن» الشاعر الانجليزى الى بعض تخيلاتهما — ألا وهى «رسالة الغفران» لابى العلاء المعرى

ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها ينحطان عن درجة أمثالها من ملاحم الاعاجم !

— ٤ —

رأى المرحوم «جورجى زيدان»

هى من جملة رسائل أبى العلاء ،

(١) هو الاستاذ المرحوم سليمان البستانى

ولكننا افردناها بالكلام لأنها طبعت على حدة ، ولها شأن خاص من حيث موضوعها ، وهي فلسفية خيالية كتبها في عزلته وصممها انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام وادبائهم والرواة والنحاة . على أسلوب روائي خيالي لم يسبقه اليه أحد .

فتخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ماشاهده هناك . كما فعل « دانتي » شاعر الايطاليان في « الرواية الالهية » وربما فعله « ملتن » الانجليزي في « ضياع الفردوس » لكن ابا العلاء سبقهما ببضعة قرون ، لأن دانتي توفي نحو سنة ٧٢٠ هـ وملتن نحو سنة ١٠٨٤ هـ وتوفي ابو العلاء سنة ٤٤٩ هـ . فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه ، واقدمها « دانتي » لم يظهر الا بعد احتكاك الاوربيين بالمسلمين . والايطاليان أسبق الاوربيين الى ذلك .

وتقسم مواضع رسالة الغفران الى قسمين ادبي لغوي ونوادر خيالية عن بعض الزنادقة ومستقلي الافكار والمتنبئين ونحوهم ، ممن توالى ظهورهم في أثناء التمدن الاسلامي . ويتحلل ذلك محاورات مع شعراء الجاهلية يسألون فيها عما غفر لهم به فيذكر كل منهم شعراً قاله أو عملا عمله فغفر له به . ومنها تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران . كأنه يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه مما فرط منه أحيانا من الابيات التي يعدها الناس كفرية .

— ٥ —

رأي صحيفة الاهرام

لعل المكتبة العربية أغنى واغزر مكتبة ابقاها سلف لخلف في أي أمة من أمم الشرق والغرب بالرغم من الآفات التي مُنيت بها في اسبانيا وبغداد وسائر الاقطار ، ولكن كثيراً من المؤلفات العربية القديمة اوغلت في القدم الملائم للعصور التي كتبت فيها ، فمجت عنها اذواق رشفتها الى ساقتها المدارس العصرية في غير هذا الطريق

ولما رأى الاديب المجيد كامل افندي الكيلاني اذ في (رسالة الغفران) للشاعر الحكيم أبي العلاء المعري « فما من الادب العالي لايقل عن أجل أثر أخرجه اكبر رأس غربي مفكر » اراد ان يفرغها في قالب عصري متذرعا بذلك الى تحبيب هذا الاثر الادبي القيم للشباب المفكر ، وتقريباً له من اذواقهم وميولهم الادبية فتناوله بالتبويب

العصرى أولا ، وبالايجاز والشرح ثانياً وقدم بين يديه — غير ترجمة المعرى وابن القارح الذى كتبت الرسالة اليه . فصلا عن المعرى وعبقريته ورسالته هذه ، بقلم العالم الفاضل محمد فريد بك وجدى ، والكتاب فى نحو مائتين وخمسين صفحة ، فبحث الاداء على اقتنائه

— ٦ —

رأى مجلة الهلال [١]

وعثروا على رسالة كبيرة اسمى « رسالة الغفران » لم تدخل فى هذه الرسائل [٢] ، ولم تطبع بعد ، ولكن منها نسخاً خطية فى بعض مكاتب أوروبا الكبرى ، وفى المكتبة الخديوية [٣] وهى ملسفية خيالية — على شكل الرواية لغتها مثل لغة سائر رسائله ، صفحاتها نحو ٢٠٠ صفحة ، يتضمن قسمها الاول محادثات خيالية بين الشيخ « على ابن منصور » . بطل الرواية . وبعض شعراء الجاهلية الذين غفرت لهم سيئاتهم ودخلوا الجنة فيسأل الله كلا منهم عما ساعده على نيل الغفران فيجيب أنه نال الشعر قالة أو عمل عمله فيتحلل ذلك نخبة اشعار الجاهلية وكثير من احوالهم . . والقسم الثانى يبحث فى الزنادقة والدهريين

— ٧ —

رأى الاستاذ شبل شميل [٤]

« رسالة الغفران » هى رسالة للمعرى رداً على رسالة لعلى ابن منصور وكأن « علياً » المذكور عرض فيها بالحاد « المعرى » فأجابه بها أبو العلاء » يصف له الجنة التى أعدت له جزاء رسالته هذه :

— ٨ —

رأى الاستاذ سبر ابراهيم الساعى

يعترينى فى بعض ساعات الملل فتور شديد يزهدنى فى كل كتاب ويحمينى القاء نظرة واحدة على أى سفر كائنا ما كان . ولكنى لاأذكر أن ساعة من تلك الساعات المصحرة المسئمة استطاعت أن تقصينى لحظة واحدة عن التمتع بأدب أبى العلاء الذى أرى فيه — دائما . وفى

---

(١) ارجع الى السنة الخامسة عشرة من مجلة الهلال (ص٢٠١)

(٢) يعنى رسائل أبى العلاء المطبوعة ، وقد سمى الاستاذ مرجليوث المستشرق المشهور نشرها مع ترجمة انجليزية وتعليقات نافعة ، وقد طبعت طبعة اخرى فى بيروت سنة ١٨٩٤

(٣) دار الكتب المصرية (٤) ذكر هذا الرأى فى كتابه « صدى رسالة الغفران »

أشد ساعات مللى وضجرى ـ صيقلا لهمى ومنشطا لفتورى ومفرحا لضائقة نفسى

***

لاأعرف أثراً أدبيا قرأته فوددت أن آتى على قراءته لأعود اليه مرة ثانية ، الا وجدتنى ـ بعد الانتهاء منه ـ متكاسلا عن معاودة النظر فيه والمضى فى قراءته ، ثم لاتلبث مشاغلى واعمالى الكثيرة أن تسينيه !

***

حدث لى ذلك فى كل ماقرأته . لا استثنى منه الا اثرا خمسة ما قرأتها مرة الا عاودنى حنين الى قراءتها واحتثنى شغف شديد الى التمتع بأفكارها الباهرة وجمالها المتجدد ، إذا قرأتها للمرة الثانية دفعنى ذلك الى قراءتها للمرة الثالثة والرابعة ، وهكذا أقرأها للمرة العشرين فتتكشف لى منها جوانب أسمى وأروع وأمتع من تلك التى ظهرت لى فى المرة الاولى ، وستظل متعتى وأنسى ماحييت

تلك الآثار الأربعة هى رسالة الغفران ولزوم ما لا يلزم وديوان ابن الرومى وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الف ليلة وليلة

تلك اسفار كتبت لها الخلود :

— ٩ —

رأى الاستاذ جلال نصير [1]

أظهر المعرى ـ بانشائه رسالته الى صديقه « على بن منصور » ـ سفرا رفيع القيمة من وجهتى النظر الأدبية والتاريخية

ولم يلق هذا السفر ما هو حليق به من العناية الى اليوم ، مع انه لا يقل عن أن يوصف بأنه « عاية متقنة » أو انصاح لفكرة « الكوميديا الالهية » سبق انشاؤه « دانتى » بقرنين ونصف قرن .

وقد اشتمل ـ فى كل مكان منه ـ على مباحث فى فلسفة اللغة عرض لها المؤلف اثناء تحليله آثار الشعراء واطلق عليه اسم « رسالة الغفران »

---

(١) معربة عن كتابه « مناحى تفاسير القرآن الرئيسية »

بين داعي الدعاة وأبي العلاء

رسائل الحيوان (١)

روى ياقوت فى معجمه أن السبب فى انشاء تلك الرسائل وما فيها من حوار ومناقشات ممتعة : أن أبا نصر بن ابى عمران « داعى الدعاة بمصر » لما قرأ قول ابى العلاء

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتخبر أبساء العقول الصحائح (٢)

---

(١) ننشر فى هذه الصفحات تلك الرسائل الممتعة التى وعدنا بنشرها فى (ج « ١ » وج « ٢ » ص « ٢٢ » وص « ١٦٧ »)

(٢) هذا البيت هو مطلع قصيدته التى بعدها تشريعه الخاص فى امر الحيوان، وقد أورد فيها حججه وبين الاسباب القاهرة التى دعته الى تحريم أكل اللحوم على نفسه ، ويلى هذا البيت قوله :

فلا تأكلن ما أحرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من عريض الدبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها — دون العوانى الصرائح
ولا تقعص الطير — وهى غوافل — بما وصعت ، فالظلم شر القبائح
ودع صرف النحل الذى ذكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحررته — كى يكون لغيرها، ولا جمعته للندى والمسائح
مسحت يدى من كل هذا ، فليتنى أبهت لشأنى، قبل شيب المسائح
بنى رمى : هل تعلمون سرائراً علمت ؟ ولكننى بها غير بائح
سريتم على غى، فهلا اهتديتم بما حبرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعى الضلال، فما لكم أجبتم — على ما خيلت — كل صائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم تكشفتم عن مخزيات الفضائح
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الاميال سبر الجرائح

الى آخر القصيدة التى يرجع اليها القارىء — ان شاء — فى الجزء الاول من الدروميات ص (١٨٤ — ١٨٥)

كتب الى المعرى يقول له: « أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفيا فاشفنى » ودارت بينهما مراسلات فى ذلك .

قال ياقوت : « ولما وقفت على ذلك اشتهيت ان أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه حتى ظفرت بمجلد وفيه عدة رسائل من أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران الى المعرى فى هذا المعنى ، انقطع الخطاب بينهما على المساكتة »

قال : « وثقلها على الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعرى وتشدقه ! » ونحن نأسف على فقدان ذلك « المجلد النفيس » الذى نشعر بشدة الحاجة اليه ، ونشكر لياقوت تلخيصه الذى حفظ لنا جوهر الرسائل ، وان وددنا لو أنه نقلها كما هى بلا اختصار ، ولكن بعض الشر أهون من بعض ، والى القارئ تلك الرسائل كما أوردها ياقوت :

رسالة « راعى الرعاة »

الشيخ (١) — أحسن الله توفيقه ، الناطق بلسان الفضل والأدب ، الذى ترك من عداه صامتاً — مشهود له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة ، غير أن الادب الذى هو حالينوس طبه ، وعنده مفاتيح عيبه ، ليس مما يفيده كبير فائدة فى معاشه أو معاده سوى الذكر السائر به الركبان ، مما هو — اذا سامع المذكور به — علم أنه له بمكانة الجمال والزينة — مادام حياً — فاذا رمت به يد المنون من ظهر الأرض الى بطنها فلا يحس ذكره ينتفع ولا بقبحه يستضر (٢)

واذا كانت الصورة هذه ، كان مستحيلا منه — أيده الله — مع وفور عقله ، أن يجعل موادّه كأنها منصبة الى أحكام اللغة العربية ، والتقعر فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها ، ووفر عمره على مالا نتيجة له منها ، وترك نفسه المتوقدة نار

(١) « يعنى أبا العلاء المعرى »

(٢) يقول ابو العلاء فى هذا المعنى فى سقط الزند :

ولا يبالى الميت — فى لحده — بذمه شيع ، ام حمده

دكائها خلوا من النظر فى شأن معاده ، وأن يمتاز من عمله مالا ينفع فيمكث، اذا ذهب الزبد جفاء من غيره(١) .

فاذن هو ـ حرسه الله ـ بمقتضى هذا الحكم ، مرتو من عذب مشرب هذا العلم ، وانما ليس يبوح به لصرب من صروب السياسة ؛ والدليل على كونه ناظرا لمعاده ،سلوكه سبيل العيش بالتزهد ، وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس ، وتعففه عن أن يجعل حوفه للحيوان مدفناً ، او أن يذوق من درها لبنها ، أو استطعم من استلذت عليه فى حرثه وانشائه .

وهذه طريقة من يعتقد أنه ـ اذا ألمها ـ حورى بألمها ، وهذا غاية فى الزهد، ولما رأيت ذلك ، وسمعت داعية البيت الذى يعزى اليه ،وهو :

غدوت مريض الدين والعقل، فالقى لتعلم أنباء الامور الصحائح(٢)

شددت اليه راحلة العليل فى دينه وعقله ، الى الصحيح الذى يبتغى أنباء الامور الصحائح ، وأنا أول ملب لدعوته ، معترف بحيرته ، وهو حقيق أن لا يوطئنى العشواء،ويسلك بى فى المجاهل ،ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل.

وأول سؤالى عن أمر حفيف ، فان استشقت نسيم الصبا ؛ سقت السؤال الى المهم ـ أسأله عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحم واللبن وكلما يصدر الى الجود من منافع الحيوان ؟

فأقول : « أليس النبات موضوعاً للحيوان تثار منه ، وبوجوده وجوده ؛ وبقوة فى الحيوان حساسة ما استولى على الانتفاع بالنبات ، ولو لم يكن الحيوان لكان موضوع النبات باطلا لا معنى له » وعلى هذه القضية ، فان القوة الانسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ؛ لرجحانها عليه بالنطق والعقل وهى مسخرة له على أنواع من التسخير، ولولا ذلك، لكان موضوع الحيوان باطلا .

---

(١) يشير الى قوله تعالى : «فأما الزبد فيذهب جفاء . واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » .

(٢) ارجع الى « ج ٣ » ص « ٩٣ » .

***

فتحافى الشيخ ـ وفقه الله ـ عن الانتفاع بما هو موضوع له مخلوق لاجله . ابطال لتركيب الخلقة . ثم امتناعه من اكل الحيوان ، ليس يخلو القصد به من أحد امرين ، اما أن تأحده رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي له أن يكون أرأف بها من خالقها .

فاذا ادعى أن تحليلها وتحريمها انما كان من بعض البشر ـ يعني به اصحاب الشرائع ـ وان الله لم يبح اراقة دم حيوان واكله ، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة لحس السماع وحوارح الطير التي خلقها الله ـ سبحانه ـ على صيغه لا تصلح الا لمتش اللحوم وفسخها وتمزيق الحيوان وأكلها (١) ، واذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة كان حس البشر وسيع العذر في اكل اللحم ، وكان من احل لهم ذلك محقاً .

***

والثاني انه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن اوضاع الحكمة ـ وذلك اعتراض منه على خالقه الذي أوجده

واذا أنعم الشيخ وساق الى حجة اعتمدها ، رجوت كشف المرض الذي وقع اعتراضي به!

— ٢ —

رد أبي العلاء المعري

قال العبد الضعيف العاجز « أحمد ابن عبدالله بن سليمان » . أول ما أبتدأ به ، أني أعد سيدنا الرئيس الخليل المؤيد في الدين ـ أطال الله بقاءه ـ ممن ورث حكمة الانبياء وأعد نفسي الخاطئة من الاغبياء .

---

(١) أبو العلاء نفسه لا ينكر هذا بل هو يصرح به كثيرا في لزومياته فمن ذلك قوله

ولو لم يرد حور الغراة على القطا ... مصورهن ماصاعها تصاوير

وقوله متهكما في مكان آخر

رأيت سحايا الناس فيها تطالم ... ولا ريب في عدل الذي خلق الطالما

وهو بكتابه الى متواضع - ومن أنا حتى يكتب مثله الى مثلى : مثله فى ذلك مثل الثريا كتب الى الثرى . وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الابصار يقيل ، قصى على - وأنا ابن أربع . لا أفرق بين النازل والمربع ثم توالت محى ، فأشبه شخصى العود المحنى . ومنيت فى آخر عمرى بالاقعاد . وعدانى عن البهصة عاد .

واما مادكره سيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ، فالعبد الضعيف يذكر له مما عاياه طرفا ، وأقول :

« ان الله جلت عظمته - حكم على بالارهاد . فطفقت من العدم فى جهاد . وأما قول الضعيف العاجز : « عدوت مريض العقل والدين . فالقنى » فانما خاطب به من هو فى غمرة الجهل . لا هو من لرياسه علم واصل

وقد علم ان الحيوان كله حساس يقع به الالم ، وقد سمع الضعيف من اختلاف القدماء . واول مايبدأ به : لو أن قائلا من البشر قال : اذا بنيا القصية البنية المركبة من المسند والمسند اليه . ولها واسطتان احداهما نافية ، والاخرى استئنائيه ، فقلنا « الله لا يفعل الا الخير » فهذه القصية كاذبة أو صادقة ؟

فان قيل انها صادقة ، فقد رأينا الشرور غالبه فعلمنا ان ذلك امر حتى ولم يزل من يبتس الى الدين برغم فى هجران اللحوم ، لأنها لم يوصل اليها الا بايلام الحيوان ، يفرمسه فى كل أوان - وان الصائمة تكود فى محل القوم - وهى حامل - فاذا وضعت وبلغ ولدها شهرا او نحوه ، اعسطوه فأكلوه ورغموا فى اللبن وماتت امه ثاغية لو تقدر سعت له باغية ، وقد تردد فى كلام العرب مايلحق الوحشية من الوحد والناقة اذا فقدت الفصيل ، فقال قائلهم :

فما وجدت كوجدى ام سقب أصلتـه فرجعت الحنينا

وللسائل ان يقول « ان كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من احد أمرين : اما ان يكون قد علم به او لا ، فان كان عالما به فلا يخلو من احد امرين اما ان يكون مريدا له أولا ، فإن كان مريدا له فكأنه الفاعل ، كما ان القائل يقول :

« قطع اذ مير يد السارق » وان لم يباشر ذلك بنفسه .

وان فعل غير مريد ،فقدجار عليه مالا يحوز على امير مثله فى الارض انه اذا فعل فى ولايته شيء لايرضاه ، أنكره وامر برواله .

وهذه عقدة قد احتهد المتكلمون فى انحلالها فأعوزهم .

***

وقد ذكرت الانبياء أن البارئ ـ جلت عظمته ـ رؤوف رحيم ، ولو رأف بنى آدم وحب أن يرأف بغيرهم من اصناف الحيوان الذى يحد الالم بأدنى شيء وقد علم ان الوحش الراتعة ، يمكر اليها الفارس فيطعن العير او الاتان ، وهى ما اسدين اليه دنياً .

ولأى حال استوحب من يفعل بها هذه الرقه وهى لم تشرب من الماء بدنوب ولم تحر ما يكسب من الدنوب

وقد رأيت الجيشين المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المطهر . يلتقيان ـ وكلاهما فى مدد ـ ويقتل بينهما آلاف عدد فهذا محسوب من أى الوجهين ليس ـ عند ـ المطهرين »

***

فما بلغ العبد الضعيف الحاسر احتلاف الاقوال ، وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربه انعاماً . وورقه صوم الدهر ؛ فلم يفطر فى السنة ولا الشهر الا فى العيدين . وصبر على توالى الجديدين . وطن اقتناعه بالسنات يثبت له جميل العاقبة .

وقد علم سيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ـ ولا ريب انه قد نظر فى الكتب المتقدمة وما حكى عن «جالينوس» وغيره ـ من اعتقاد يدل على الحيرة .

وادا قيل ان البارئ رؤوف رحيم ، فلم سلط الاسد على افتراس نسمة انسية ليست بالمفسدة ولا القسية ، وكم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، وسلط على الطير الراضية بلقط الحبة البارى والصقر ـ وان القطاة لتدع فراخها طعاء وتتكر

لترد ماء تحمله اليها فى حوصلتها ، فيصادفها - دونهن - أجدل ، فيأكلها ، فيهلك فراخها عطشا ،

***

(وذكر اشياء من هذا الباب ثم قال :) وأتبرأ من قول الكافر :

ألمت بالتحية ام بكر فحيوا أم بكر بالسلام (١)

ولعن الله القائل - ويقال إنه « الوليد بن يزيد بن عبد الملك - » :

أدنيا منى حليلتى « عبدلا » دون الابار (٢)

وويل لابن رعيان - إن كان قال :

هى الأولى - وقد نعموا بأخرى وتسويف الطنون من السواف

فان يك بعض ما قالوه حقا فإن المتليك هو المعافى

* * *

ومما حشى على ترك أكل الحيوان أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أحد خادمي بعض ما يجب . بقى لى ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن . وما لا يعدد على الاالس

فأما الآن فاذا صار الى من يخدمنى كثير عبدي وعنده هين فما حظى الا اليسر المتعين ، ولست أريد فى ورق زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة - والسلام

— ٣ —

من أبى عمر الله الى أبى العلاء

حوشى الشيخ - أدام الله سلامته - من أن يكون ممن قطف فى مرض دينه

---

(١) ذكرت القصيدة فى ج « ٢ » ص « ٢٧ ») فلا داعى لاعادة ذكرها هنا !

(٢) وفى رواية اقوت

أدر الكأس يميا لا تدرها ليسار

وقد مرت القصيدة فى) ج « ٢ » ص ٤٤٩) فلا داعى لذكرها ثانيه

وعقله بعلته . واجاب دعوة الداعى منه بالبت الشائع عنه . ليمال شفاء علته حوانا يريده الى غلته غلة ، اذن يكون كما قال المتنبى :

أطعمتنى الدنيا ، فلما جئتها مستسقيا ، مطرت على مصائبا

* * *

كان سؤالي له ـ حرسه الله ـ فى شىء يختص بنفسه ، فى هجره ما يسد الجسم من اللحم ، وأجاب بما اقول فى جوابه . « اهده انباء الخ (١) » وهل زاد السقيم بداوئه هذا الا سقما ، والأعمى الأصم فى دينه وعقله ، بما قال ـ الا عمى وصمم على أن جميع ما ذكره بمجية عن سؤالى ومعزل عنه ، ولا مناسبة بينها وبينه .

وأما القول بأن اللحوم ولا يوصل اليها الا بايلام الحيوان . فقد سبق الجواب « لا يكون الشيخ أرأف بها من خالقها » فليس يخلو من كونه عادلا أو جائرا ، فان كان عادلا فإنه ـ سبحانه ـ يقبض ارواح الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائرا ـ لم ينبغ أن يرجح على خالقنا بعدلنا وجوره . وأما قوله : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير هو الذى لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به أو لا » الى آخره ـ فأقول قيل إن انسانا صاع له مصحف . فقيل له . اقرأ « والشمس وضحاها » فانك تجده فقال : « وهذه السورة أيضاً فيه » فأقول أيضاً . « ان هذا أيضاً من ذلك ، وجميعه طلمات ، فأين النور ، وإنما قصدنا أن نعرف أنباء الأمور الصحائح ، كما قاله ، وأما قوله ـ « لما رأى اختلاف الاقوال . وأيقن بفساد وزوال ـ سأل ربه أن يرزقه صوم الدهر ، واقتنع بالسمات فاصبح لى أن الرب الذى سأله هو الذى يريد الخير وحده ، أو الذى يريد الشر وحده . أو الذى يريدهما جميعاً ـ والصوم فرع على أصل من شرع يأتى به رسول . والرسول يتعلق برسل ، وقصتنا فى

---

(١) يعنى « أهده هى أنباء الامور الصحائح » التى قالها المعرى فى بيته .

غدوت مريض العقل والدين ، فالقى لتسمع أنباء الامور الصحائح . »

ارجع الى (ج « ٣ » ص « ٩٣ »)

المرسل مشتبهة ، يبعث رسولا يريد أن يطاع أم لا يطاع ، فان كان يريد أن لا يطاع فهو مغلوب على ارادته لأن من لا يطيعه أكثر ، وإن كان يريد أن لا يطاع ، فارساله اياه محال ، وظلمة حجة من الضعفاء ليعذبهم — ، فان كان موضوع صومه على هذا ، فلم يفعل شيئاً ، وإن كان على غيره — مما هو أحلى وأوضح — فهو الذي أظلمه .

وأما حكايته قول بعض الملحدين . واستعاذته بالله أن يكون من المعترضين — في قوله تعالى — : « وانه أهلك عاداً وثمود فما ابقى » الآيات

ان كان البارئ — سبحانه — خلقهم . وهم يعلمون أنهم محرمون . والتوبة والانابة يحرمون ، فكان الاولى به — وهو الرؤوف الرحيم أن لا يخلقهم لئلا يعذبهم ، وان كان لا يعلم . فهو كما مثلنا ، ولا يدري ما يكون منه

وقول الشيخ بعده : معاذ الله أن نقول ذلك بل نسلم ، ونتلو الآية « من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » ، فليس الملحد — اذا قال — . « إن السكر حلو ، والخل حامض » لا يتقبل منه لكونه ملحدا — وقوله يقتضي جوابا ، فان كان عند الشيخ جواب ، فهو الذي ينبغي ، والا فما التسليم في هذا الموضوع الا التسليم للملحد — لا شيء غيره !

واما انشاده . « ألمت بالتحية ام عمرو » وما بعده من الاشعار ، وذمه من قال ولعنه — ثم الذي اتهمه بشيء من ذلك — حاشاه — وما الذي اوجب الاذكار بكفريات شعرهم ؟ — واما ختمه الرسالة بقوله : « ان الذي حتم على ترك أكل الحيوان ان الذي له في السنة — نيف وعشرون ديناراً ، يصير الى خادمه معظمها ويبقى له ايسرها » فتحمل مؤونة القدر الذي يطعمه — لو كان ثقيلا لوجب تحمله ، فكيف — وهو الخفيف تحمله

وقد كاتبت مولاي « تاج الامراء » — حرس الله عزه — أن يتقدم بازاحة العلة ، عما هو بلغة مثله من الذ الطعام ، ومراعاته على الادرار والدوام — ليتكشف عنه عاشية هذه الضرورة ، ويجري إمره في معيشته على احسن ما يكون في الصورة!

ثم ـ ان قام من الشيح بشطة لحواب ، اعفانى فيه عن قصد الاسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فان ملتمسى فيه المعانى لا الالفاظ :

— ٤ —

من أبى العلاء الى داعى الدعاة

سيدنا الرئيس الاجل ، المؤيد فى الدين ، عصمة المؤمنين ـ هدى الله الامم بهدايته ، وسلك بهم طريق الخير على يده ، قد بدأ المعترف بجهله ، المقر بحيرته ، الداعى الى الله ـ سبحانه ـ ان يرزقه ما قل من رحمته . فى اول ما خاطبه به ان ذكر اعتقاده فى سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ـ صوّاً الله الطلم بمصيرته واذهب شكوك الافئدة برأيه وحكمته ، وما نفسه عليه من الدلة والحقرية عنده ، وانه يحسبها ساكنته فى بعض السوام ، وعجب ان مثله يطلب الرشد ممن لا رشد عنده . فيكون كالقمر الذى هو دائب فى خدمة ربه ليلا ونهارا يطلب الحقيقة من أقمر بعلاة ـ يرد الماء على الصائد ، ويصيب قلبه بسهم ، وقد ذكر ـ ايد الله الحق بحياته ـ بيتا من ابيات على « الحاء » ذكرها وليه ، ليعلم غيره ما هو عليه من الاجتهاد فى التدين . وما حيلته فى الآية التى هى قوله : « ومن يهد الله فهو المهتدى » واولها :

غدوت مريض العقل والدين . فالقى لتعلم اسماء الامور الصحائح (١)
فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الدنائح

ولا يقدر احد يدفع ان الحيوان البحرى لا يخرج من الماء ـ الا وهو كاره ـ واذا سئل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك اكله ـ وان كان حلالا ، لان المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق .

وأبيض امات ـ ارادت صريحه لاطفالها ـ دون الغوانى الصرائح

والمراد بالابيض « اللبن » ومشهور ان الام اذا ذبح ولدها وجدت عليه وجدا عظيما وسهرت لذلك ليالى ، وقد اخذ لحمه . وتوفر على اصحاب امه ، أما كان يرضع من

(١) ارجع الى هذه الابيات فى (ج « ٣ » ص « ١٣ ») .

منها ، فأى ذنب لمن تحرج عن ذبح السليل ، ولم يرغب فى استعمال اللبن ، ولا يزعم أنه محرم ، وإنما تركه احتهادا فى التعبد ، ورحمة للممنوح ، رغبة أن يجازى عن ذلك بغفران خالق السموات والأرض ؟

وإذا قيل ان الله ـ سبحانه ـ يساوى بين عباده فى الاقسام ، فأى شىء أسلفته الذبائح ـ من الحظأ ، حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق

فلا تفجعن الطير ـ وهى غوافل بما وضعت ـ فالظلم شر القبائح

وقد نهى النبى (ص .) عن صيد الليل ، وذلك أحد القولين ، فى قوله : « عم : أقروا الطير فى وكناتها » وفى الكتاب العزيز ـ « يا أيها الذين آمنوا : لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم : ومن قتله منكم متعمدا ، فجزاء مثل ما قتل من النعم » الى غيرها من الآى ـ فى المعنى ـ فاذا سمع من له أدنى حس ، هذا القول ، فلا لوم عليه ـ اذا طلب التقرب الى رب السموات والأرضين ، بأن تجعل صيد الحل كصيد الحرم ـ وإن كان ذلك ليس بمحظور

«ودع ضرب النحل الذى نكرت له كواسب من أرهار بنت فوائح »

لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن ترده من ذلك ، فلا غرو أن أعرض عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل ، وأحد ما كان يعيش به ، لتشربه النساء كى يمتن ، وغيرهن من بنى آدم ، وقد وصفت الشعراء ذلك ، فقال « أبو ذؤيب » يصف مشتار العسل.

« اذا لسعته النحل لم يرح لسعها وخالفها فى بيت نوب عواسل »

وروى عن «على» حكاية معناها أنه كان له دقيق شعير ، فى وعاء يحم عليه فاذا كان صائما لم يختم على شىء من ذلك الدقيق ، وقد كان ـ عليه السلام ـ يصل الى علة كثيرة ، ولكنه كان يتصدق بها ، ويقتنع أشد اقتناع :

وروى عن بعض أهل العلم أنه قال ـ فى بعض خطبه ـ : ان غلته تبلغ فى السنة خمسين ألف دينار ، وهذا يدل على أن الانبياء والمجتهدين من الأئمة ـ يقصرون نفوسهم ، ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة، وقد عدل سيدنا الرئيس

الى الايماء ان من ترك أكل اللحم دميم — ولو أحد بهذا المذهب ، لوجب على الانسان أن لا يصلى صلاة الا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك اداه الى كلفة ، والله — تبارك وتعالى — لا يريد ذلك ، ولوجب الذى له مال كثير ، اذا أخرج عن الدهب ربع العشر ، لا يحس به أن يزيد على ذلك ، وقد حث الناس على النفقات فى غير موضع من الكتاب الاسرف ، والعبد الضعيف العاجز ، قد افتقر الى مثل ذلك .

ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لان يسأل ولا أن يجيب ، لان أعضاءه متحاذلة ، وقد عجز عن القيام فى الصلاة ، فانما يصلى قاعدا ، والله المستعان : — وكيف له أن يكون يصل الى أن يدب على عكاز

(ثم ستشهد على عجزه بأشعار العرب) وانى لأعجز — اذا اضطجعت — عن القعود ، وربما استعنت بانسان ، فاذاهم باعانتى واسط يديه لنهضتى ، صرت عظامى ، لانهن عاريات من كسوة كانت عليهن ، وأما استشهاده ببيت « أبى الطيب » فى استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز ، مثله مثل من طلب فى القتادة بثمر النخلة ، وانما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد ، وخالص الخيم :

وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الورق على ، فيدل على انفصال ورثه عن أب فأب ، وجد فى أثر جد ، حتى يصل النسب الى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة فى التوسع ، ومعاودة الاطعمة ؛ وتركها صار له طبعا ثانيا ، وانه ما أكل شيئا من حيوان جسما وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك اخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه (١)

وقد علم أن السيد الأجل تاج الامراء ، فخر الملك ، عمدة الامامة ، وعدة الدولة ومجدها ، ذا الفخرين ، نصيف أولاد سام وحام ويافث ، وود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام ، جعلها الله ذهبا ، لينفقه « تاج الامراء »

(١) ارجع الى (جـ « ٣ » ص « ٧ »)

صير الدولة السنوية » ـ على امامها السلام ـ وكذلك على الائمة الطاهرين من آبائه ، من غير أن يصير الى العمد الضعيف من ذلك قيراط ـ وهو يستحى من حضرة « تاج الامراء » أن يمطر اليه بعين من رغب فى العاجلة ، بعد ما ذهب . وهو رضى أن يلقى الله ـ جلت قدرته ـ وهو لا يطالب الا بما فعل ، من احتساب اللحوم ، فان وصل الى هذه الرتبة ، فقد سعد

(ثم اعتذر عن السجع بأخبار أوردها ، واحتجاجات ذكرها)

وسيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ـ لا زالت حجته باهرة ودولته عالية ـ كما قال « ثعلبة بن صعير » :

ولرب قوم ظالمين ، دوى شدى تعلى صدورهم بهتر هاتر

(لا كارتهم على ما ساءهم(١)) وحسأت باطلهم بحق ظاهر .

ولو ناظر « ارسطاليس » لجاز أن يحجمه ، أو « أفلاطون » لبهد حجته حلمه . والله يحمل بحياته الشريعة ، ويمصر بحجة الملة ـ وحسبى الله ونعم الوكيل :

— ٥ —

مهد داعى الرعاة الى أبى العلاء

ما فاتحت الشيخ ـ أحسن اليه توفيقه ـ بالقول ، الا مفاتحة متساكر عليه ، فيه مؤثر لان يخفى من أين جاء السؤال ، فيكون الجواب عنه باستدلال ، ورفض حشمة ، وحذف تكلف الخطاب ، « سيدنا » و « الرئيس » وما يجرى هذا المجرى ـ اذ كان حكم ما يتجارى فيه ، موجبا أن لا يتحلله شىء من زخارف الدنيا ، ولانى أعتقد أن سيدى ـ بالحقيقة ـ من يستقل دون يده بداى أحد منه للدنيا ، أو تمتاز نفسى من نفسه باستفادة من معالم الاخرى ـ ، فما ادرى كيف انكشفت الحال ، حتى صار الشيخ ـ ادام الله تأييده ، يخاطبنى بـ « سيدنا »

(١) كذا الاصل ، وهو ظاهر التحريف ، ولعل صوابها . « ناكرتهم يوماً على ماساءهم »

و « الرئيس »ولست مفصلا عليه فى دنيا ولا دين، بل شاد راحلتى اليه الاستفادة أن وردت موردها ـ أو صادفت نهرا أو علامتها ـ قابلتها بالشكر لنعمته ، والاسحال على نفسى باستادته :

(وبعد) فانى أعلمه ـ أدام الله سلامته ـ أننى شققت جيب الارض من أقصى ديارى الى مصر ، وشاهدت الناس بين رحلين اما مستحل لشريعة حما اليها، ولهج بها ، الى الحد الذى ـ أن قيل له من احمار شرعه . « ان فيلاطار ، أوحملا باص» لما قابله الا بالقبول والتصديق ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ، ويسفهه ويلعنه . والعقل عند من هذه سبيله ـ فى مهواة ، وفى مضيعة ، فليس يكاد يتبعث أن هذه الشريعة التى هو مستحلها ، لم يطوق ضوقها ، ولم يسور سوارها، الا بعد لموع نور العقل منه ، فكيف يصح توليه أولا . وعزله آخر .

فلما رمت فى المرامى الى الشام ، وسمعت أن الشيخ ـ وفقه الله ـ يفصل فى الادب والعلم ـ قد اتفقت عليه الأقاويل ، ووضح له البرهان والدليل ، ورأيت الناس ـ فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفى اره متليين، فكل يذهب فيه مذهبا، وحضرت مجلسا جليلا أحرى . فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه عثا وسميا . فخفظته فى الغيب :

وقلت « ان المعلوم من صلاته فى زهده يحميه من الطمة والريب : »

وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرا ـ قد اسدل عليه من التقية ستراً ، وأمراً يتير به عن قوم يكفر بعضهم بعضا : »

ولما سمعت البيت . « غدوت مريض العقل (١) » توثقت من جلدى ـ فيما حدثت عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقاً ، ويفتق من هذا السحر رتقا ، للسان ـ صامت عند كل ناطق ، من دروة حبل العلم شاهق ! ـ فقصدته قصد «موسى» للطور ، أقتبس منه ناراً ، وأحاول أن أرجع بالفخر مدارا ، لمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون ، واختلف فى

(١) البيت الذى مر الاستشهاد به فى ص «٣٠» من هذا الجزء .

حقيقته المختلفون ، فأدليت دلوى بالمسئلة الخفية التى سألت عنها — ترقيا من دون الى فوق ، وتدرجا من صغير الى كبير — فكان جوابه . « أنه يقصر عن أن يكون للاسترشاد محلا » فقلت: «هذه زيادة فى فضله . وما يجوز صدور مثله عن مثله » ثم انتهى الى الاحالة على كون الناس — ممن تقدم أو تأخر — فى واد الحيرة تائهين ، وفى أدياله متعثرين ، من قائل يقول «ان الخير والشر من الله» ومجيب يجيبه « هل كان ما كان يستعيذ منه رسول الله (ص .) من وعث السفراء وكل مستعاذ منه — خيراً أو شر » — فان كان خيراً . فالاستعاذة منه باطله وان كان شرا — والله مريده — فالاستعاذة منه كذلك فضول وزيادة فى المعنى . وسؤال من يسأل: «هل كان سم "الحسن" وقتل "الحسين" عليهما السلام — خيرا أو شرا » فان كان خيرا، فاللعنة على القاتل من أى جهة ، وان كان شرا والله مريده — زال اللوم عن القاتل ،

وقائل يقول : « ان الخير من الله ، والشر من غيره » ومجيب يجيب بالجواب الذى يقطع به الاسباب او غير ذلك . مما أصال به الخطاب من أشعار الملحدة وأقوالهم ، فكان جوابى — ادام الله سلامته — انى من هؤلاء تبرأت اليك وتطاحت عليك ، وان كلامهم عندى — قبل أن علمته — عليل — وهو على مسامع القبول منى — ثقيل ، فافتح لى الى ما عندك بابا ، وافتح لى من لدنك حسابا » فلم يفعل:

ثم حاولته ، على امتناعه من أكل اللحوم ، فاحتج بكونه متحرجاً من قصدها — أعنى البهائم — بالمضرة والايلام ، متعمقا فيها لهذه الجهة ، فقطعت لسان حجته — بعد تناهيها — وقلت : « ان كان الله — تعالى — سلط بعضها لتأكل بعضا — وهو أعرف بوجوه الحكمة وأرأف بالخليقه ، فلا يكن أرأف بها من ربها ، ولا أعدل فيها من خالقها : »

ثم عدل الى قصور يد الاستطاعة — دون ذلك — اذ كان القدر الذى هو له — فى السعة — مصرفا الى من يتولى خدمته أكثره ، وخالصاً له أقله ، فقطعت الحجة فى هذا الباب أيضا ، وعيبت له على حجة كريمة ، من الدين لا يتبعه ذ ما أنفقوا مما

ولا أذى ـ يقوم بقدر كفايته من أطيب ما يأكلون واركى ما فى البيوت يدخرون فتحافت نفسه ـ وقاها الله السوء ـ عن هذا الباب ايضا ، وكتب فى الجواب الثانى بأنه لا يؤثر ذلك ولا يرغب فيه ، ولا يخرق عادته المستمرة فى الترك ، وابتدأ يقول : « انى طلبت الرشد ممن لا رشد عنده ؛ وان البيت الذى قاله ـ مما تعلقت به ؟ وحملته محجة الى استقراء طريقته ومذهبه ، انما أراد الاعلام باجتهاده فى التدين ! ، وما حيلته فى الآية المنزلة « من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ! »— ، لجمع بين المتضادين فى كلمة واحده . إنه ـ إن كانت الاية حقا كان الاجتهاد باطلا !

وقال . « ان لله ـ سبحانه ـ اسرارا لا يقف عليها الا الاولياء . فمحص على ذلك السر بدور . وعلى باب من هو عنده يطوف . فان قلنا « إنه ـ حرسه الله ـ من أصحابه ، بدعوى صحته فى دينه وعقله . ومرض الناس ـ على موجب قوله قال . « لا رشد عندى » فنظمه فى هذا المعنى يناقض نثره . ونثره يخالف نظمه وكيف الحيلة ؟

ثم قال ان البيت المنقول :

« غدوت مريض العقل والدين ، فالقى لتعلم أسماء الامور الصحائح

يؤدى معناه البيت الثانى .

«فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالما ولا تبغ قوتاً من غريض الدمائح »

فكان مرض الدين والعقل ـ من جهة اكل اللحوم ، وشرب الالبان ، وتناول العسل ، فمن ترك هذه المطاعم كان صحيحا فى دينه وعقله ـ وهو يعلم ان مصلحه الاديان والعقول لا تقوم بذلك . ولا يجوز أن يكون هذا البيت الثانى ناسخا لحكم الاول ، فيكون محصول دعواه فى فقر الناس الى أن يصح دينهم وعقلهم ـ هو ان يقول لهم : « لا تأكلوا اللحم واللبن ! »

وأما قوله ان الحيوان البحرى كاره أن يخرج الى البر ، وانه ليس يقبح فى العقول ترك كله ـ وان كان حلالا ـ لأن المتدينين لم يزالوا يتركون مالهم طلق ، فما من

حيوان ـ بحرى ولا برى ـ هو اجل من هذا الانسان الحى العاقل ، وهو كاره للموت فيموت ، وكاره لأن يأكله شيء ، والدود تأكله فى قبره ! ـ ، فان كان ذلك صادرا عن موضع حكمة ، كان ما ذكره من الحيوان البري والبحرى جاريا فى مضمار هذا ـ مثلا ـ وان كان معدولا به عن وجه الحكمة ، كان محالا أن يكون صانعى سفيها ، وانا مصنوعه حكيما !

واما قوله ان النبى (ص) « صلى الى ان تقرحت قدماه » فقيل له فيه ، فقال: « أفلا احب ان اكون عبدا شكورا » فما هذا مما نحن عليه فى شيء ، والانسان له ان يصلى ما شاء من الصلوات فى الاوقات التى تجوز فيها الصلاة ـ على ان لا يزيد فى الفرائض ، ولا ينقص منها » ـ وهذا الكلام سرعى ، وكانت العصمة للتكلم عن العقليات

واما قوله ـ ان ابراهيم (ص) حرم صيد الحرم ، وان لغيره ان يحرم صيد الحل ، قربا الى الله ـ (سبحانه) فليس لأحد ان يحلل او يحرم غيره !

واما قوله ـ ان « عليا » لما قدم الحديبية سأل ـ « هل اكل النبى (ص) منه ؟ » فلما قالوا : « لا » رفعه ، ولم يأكله ! ـ فهذه الحجة عليه لا له ، فان الناس مجمعون على ان النبى (ص) لم يفارق اكل اللحم ـ وهو يهجره دهره ، وذلك بالصيد سواء ، ولو انه ـ حرسه الله ـ لم يستطهر على بالشريعة ـ ولم يتجاوز عصمة العقل ـ لصمته عن هذا الجواب ـ الذى عسى ان يستعمل سره ، ويعرعلى ذلك:

واما ما شكاه «من ضعفه وتصور حركته ، وانه لم يبق فيه بقية لان يسأل ولا أن يجيب » فما هو ـ حرسه الله ـ على علاته من الضعف والقوة ـ الا من محاسن الزمان ، وممن سارت بذكر فضله الركبان ، الا انه ـ على عدوان الدهر عليه ـ عدا على نفسه بحرمانها ملاذ دنياها ، فان وثقت نفسه بملاذ تعتاض عنها ـ مما هو خير وأبقى منها ، فما خسرت صفقته ، وقام مصداق قوله بالبيت المتقدم ذكره ـ وان كان يوسم بميسم الشح منع المنجعين ورد السائلين ، وان كان شق على نفسه من غير عسيرة ـ كما يدعيه الآن خوفاً مع الخائضين ، وتحيرا مع امثالها من

المتحيرين . فقد اصاعها وحنى عليها :

وادعى فى البيت المتقدم ذكره ،مالا برهان له، والغرض فى السؤال والجواب الفائدة ـ واذا عدمت ، فقد حفف الله عنه ان يتكلف جوابا ، واما الاسجاع ، ومسألتى التحلى عنها . فاكانت الاسجاع بالمعانى ان تصل بتتبعها ، ولانى ـ اذا تتبعت ، فضله صنعاته فى الادب والشعر ، وحدت فى ارضه مراعما كثيرة وسعة، ومن اين لى ان اظهر على مكنون جواهر علوم دينه كظهورى على مصنفات ادبه وشعره

***

وقبل . وبعد ـ فأنا اعتذر عن سرله ـ ادام الله حراسته ـ آدبته ، ورمان بالقراءة والاحاطة شغلته ، لأنى ـ من حيث ما بضعته ـ صررته

والله يعلم انى ما قصدت به غير الاستفادة من علمه ، والاغتراف من بحره ، والسلام .

انتهى الكتاب

جميع الحقوق محفوظة للشارح

فهرس الجزء الثاني

الرد على رسالة ابن القارح

صحيفة		صحيفة	
٣	وفاء ابن القارح	٢٨	عودة الى أبى الطيب المتنبى
٣	شيرين وكسرى	٢٩	اختلاف الخواطر
٤	غريره المعاق	٣٠	الدهر
٦	المعرى يتبرأ من العلم	(٣٠)	(الدهر)
(٨)	(العزلة)	(٣٢)	(الزمان)
١٠	الانتحار	٣٤	شاتم الدهر
١١	ابو القطران الاسدى	٣٤	الزندقة والزنادقة
١٣	التقميص	٣٥	اشعار بن برد
١٣	فصل الموت	٣٧	نادرة من نوادر الزنادقة
(١٣)	(رأى أبى العلاء فى الموت)	٣٧	نادرة أخرى
١٩	مادح أبى العلاء	٣٨	عودة الى أبى نواس
٢٠	رسالة أبى الفرج الزهرجى	٣٨	صالح بن عبد القدوس
٢١	أمثال العرب	٣٩	الصادقى
٢٢	شكاة الادباء	(٤٠)	(المردكية)
(٢٢)	(ترجمة مالك بن أسماء الفزارى)	٤١	دعوى الربوبية
٢٤	ابو الطيب المتنبى	٤٢	ربيعة بن أمية الجمحى
٢٥	رواية القطربلى وابن أبى الازهر	٤٢	سمير بن أدكن
٢٦	دعبل بن على	٤٣	القرامطة
٢٦	ابو نواس	٤٤	الوليد بن يزيد
٢٧	سداحة العرب	٤٥	ابو عيسى بن الرشيد
٢٧	رسالة آدم	٤٦	الحنابى
٢٧	زندقة قريش	٤٦	(ترجمته)

صحيفة		صحيفة	
٤٧	العلوى المصرى	(٧٣)	(سبب موته)
٤٩	النحوم	(٧٤)	(دقته واسترساله فى المعنى)
٤٩	الأعلمى	(٧٥)	(حكايته مع ابى بكر السراج)
٥٠	الحلاج	(٧٦)	(مذهبه)
(٥٠)	(ترجمته)	(٧٦)	(قصيدته الحيمية)
(٥١)	احلال القرد « قرد زبدة وقرد بريد »	(٨٢)	(الطيرة والتشاؤم)
٥٢	رجعه الى الحلاج	(٨٧)	(نحمة من شعر أبى العلاء فى الطيرة)
٥٣	مذهب الحلول	(٨٨)	(نحمة من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال)
(٥٣)	(الحلولية)	(٩٣)	(حكايته مع ابن المسيب)
٥٥	التناسخ	٩٤	ابو تمام
(٥٥)	(مذهب التناسخ)	٩٥	مساحة القصائد
٥٧	(رأى أبى العلاء فى التناسخ)	٩٦	المازيار
٦٠	مذهب المناسخ فى الهند	(٩٦)	(رجمه احمد بن حنبل)
٦٢	ابن هانئ الأندلسى	(٩٧)	أبو مسلم الخراسانى
٦٣	عودة الى الحلاج	٩٧	أعباء المصير وأشجان العمى
٢٣	ابن أبى عون	(٩٨)	(الحسد)
(٦٤)	(العقل والتقليد)	(٩٩)	(موجز رأى الشعراء فى الحسد)
٦٧	عبد الله بن ميمون القداح	١٠١	على بن أبى طالب
(٦٧)	(رأى أبى العلاء فى المنجمين)	(١٠١)	(آراء الشيعة فيه)
٧٠	ابن الراوندى	١٠٤	دعوى الربوبية
(٧٠)	(ترجمته)	١٠٤	رجعة الى ابن الراوندى
٧١	القرآن الكريم	١٠٤	ابو حوف
٧٣	ابن الرومى	١٠٥	عوده الى على بن أبى طالب
(٧٣)	(ترجمته)	١٠٦	الأرواح

صحيفة

١٠٧ رواج النبي بخديجة
١٠٨ حاجة الشيخ الى الزواج
١٠٨ الخدم
١٠٨ لؤم الخدم
١٠٩ التوبة
١١٠ الفضيل بن عياض
١١٠ عمر بن عبد العزيز
١١٠ ابو حذيفه وحماد عجرد
١١١ عمر بن الخطاب
١١١ عودة الى النبي
١١١ تميم بن أوس الدارى
١١٢ أحمد بن حنبل والخمر
١١٢ الخمر
١١٢ (رأي ابى العلاء فى الخمر)
١١٦ توبة ابن القارح
١١٦ حديث طالوت
١١٦ عودة الى ذكر الحور
١١٧ رجعة الى الخمر
١١٨ المعتصم وابراهيم المهدى
١١٨ الهيام بالخمر
١١٩ (الخمر)

صحيفة

١٢٠ ابو طلحة واليهودى
١٢١ حرص الناس
١٢١ ميتة فادوه
١٢١ ابو الهذيل العلاف
١٢١ بدء التعارف بين المعرى وابن القارح
١٢٢ اساتذة ابن القارح
١٢٢ حجج ابن القارح
١٢٣ ابو الطيب اللغوى
١٢٤ ابن القارح فى مصر
١٢٤ الهمود والخمر
١٢٥ دنانير ابن القارح
١٢٦ بائع كميته
١٠٨ الخمل فى زمن المنصور
١٢٨ فصل الدهب
١٢٩ ابنة أخيه
١٣٠ قاتل خاله
١٣٠ أدب الخؤولة
١٣٠ غيرة المرأة
١٣٢ ابو بكر الشعلى
١٣٢ ختام الرسالة

فهرس الجزء الثالث

الى رسالة ابن القارح

صحيفة		صحيفة	
٢	تحية	١٥	ابن الراوندى
٢	حنين صادق	١٥	مصنفاته
٣	فصل أبى العلاء	١٦	اختصار ابن لرومى
٣	ورود حلب	١٦	مثال من طيرته
٤	أبو القطران ووحشية	١٧	ابو تمام
٤	ذكرى أبى العلاء	١٧	ابو جعفر بن محمد
٤	رسالة الى الفرج الزهرجى	١٨	شكوى الزمان
٤	الزهرجى وابن القارح	١٨	عروف ابن القارح عن العوفى
٥	المتنبى	١٩	قريش والنبى
٥	الزمان	٢٠	صبر الصحابة
٦	رواية القطر بلى وابن أبى الازهر	٢١	بدء الدعوة
٦	الزنادقة والملحدون	٢٢	العبدرى والنبى
٦	بشار بن برد	٢٢	مساوئ الدنيا
٧	صالح بن عبد القدوس	٢٢	كل صفاء الى كدر
٧	القصار الاعور	٢٣	حسرة وندم
٧	الصادقى	٢٣	الخمر
٨	الوليد بن يزيد	٢٤	توبة
٩	أبو عيسى بن الرشيد	٢٤	ميمة « فاذوه »
٩	الحمانى	٢٥	بدء التعارف
١	(هلاك الزنج بالبصرة)	٢٥	ترجمة ابن القارح
١٣	الحلاج	٢٥	دراسته واستاذته
١٤	ابن أبى العذافر	٢٥	سفره الى مصر

	صحيفة
قابلة ابى الحسن المغربى	٢٩ فساد الثقة
حج ابن القارح	٢٩ سارقة حاملها
عودته الى مصر ثم هربه	٣٠ أبو بكر الشملى
فصل أبى العلاء	٣٠ ابن السماك والرشيد
أبو الطيب اللغوى	٣١ نعم الله والآلاؤه
حافظة ابن القارح	٣١ عودة الى أبى بكر الشملى
أوقات الملل والعزوف عن العلم	٣٢ ختام الرسالة

(٢) رسالة الملائكة

تمهيد	٣٩ حواره مع السائق والشهيد
تبرؤه من مطمة العلم	٣٩ مطاهرة عند رضوان
مسائل الصرف	٤١ بلاد عنقر
رسالة الملائكة	٤١ نعيم أهل الجنة
حواره مع عزرائيل	٤١ حواره مع الخليل بن أحمد
حواره مع منكر ونكير	٤٢ فصاحة أهل الجنة
حواره مع مالك	٤٢ ختام الرسالة

(٣) دراسات فى رسالة الغفران

الخيال فى رسالة الغفران (للاستاذ العقاد)	٧١ (٣) الخيال
« « « « طه حسين	٧٢ ماهى رسالة الغفران (للمرحوم
السحر فى رسالة الغفران (للاستاذ العقاد)	حورجى زيدان)
رسالة الغفران (للاستاذ صدقى)	٧٤ (١) خلاصة الرسالة
اشعار الزنادقة فى الرسالة (قوت الرومى	٧٥ (٢) رحلة ابن منصور فى الجنة
مرايا رسالة الغفران (للاستاذ طه حسين)	٧٩ (٣) تطلعه الى اهل النار
(١) شخصية المعرى وكلفه بالغريب	٨٠ (٤) رجوعه الى قصره
(٢) السخرية	٨٠ (٥) الرجوع الى موضوع الرسالة

صفحة

٨٣ السحر والزندقه فى الرسالة (لدائرة المعارف الاسلامية)
٨٤ الايمان فى رسالة الغفران (للاستاذ المحار)
٨٦ الايمان فى « « « وحدى)

آراء فى الرسالة

٨٩ (١) رأى الاستاذ الدكتور طه حسين
٨٩ (٢) رأى الاستاذ محمد كرد
٨٩ (٣) « معرب الاليادة
٨٩ (٤) « المرحوم جورجى زيد
٩٠ (٥) « صحيفة الاهرام
٩١ (٦) « مجلة الهلال
٩١ (٧) « الاستاذ شبل شميل
٩١ (٨) « « سيد ابراهيم
٩٢ (٩) « « خليل رهير

(٤) رسائل الحيوان

٩٣ السبب فى انشائها
٩٤ (١) رسالة داعى الدعاة
٩٦ (٢) رد أبى العلاء المعرى
٩٩ (٣) من أبى غفران الى أبى العلا
١٠٢ (٤) من أبى العلاء الى داعى الدعا
١٠٥ (٥) من داعى الدعاة الى ابى العلاء